مصطفى نصر

يهود الإسكندرية

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

يهود الإسكندرية

رواية

مصطفى نصر

مكتبة الدار العربية للكتاب

شكر واجب للأستاذ الدكتور سمير مندي، فلولا إعجابه وحماسه للرواية، ما تقدمت بها للنشر الآن.

مصطفى نصر

ملامح من حياة يهود سوق السمك

الإسكندرية في أواخر عام 1862م

وقف عامير بجوار عربته، وسائقها ما زال يجلس في مكانه ممسكًا بالكُرباج القصير ليتحكم من خلاله في الحصانين اللذين يقفان متجهين إلى الطريق.

يقف زاكن بجوار عامير، لم يتحدثا. يرفع عامير ساقه بعصبية، ويضع قدمه فوق مقدمة العجلة الخلفية، وزاكن يخلع قبعته العالية من وقتٍ لآخر وينظر إليها متفحصًا، كأنه يبحث عن شيءٍ فيها، ثم يضعها ثانية فوق رأسه.

قال زاكن: «لقد تأخر كثيرًا».

أعاد عامير قدمه إلى الأرض في عصبية أيضًا، ثم داعب شاربه الكث ولم يجب زاكن بشيء، بل لم يُكلف نفسه بالنظر إليه.

كان عامير ظاهر الطول، متأنقًا، يرتدي بدلة تميل للون الأخضر الذي تتخلله خطوط بيضاء طولية. بينما يميل زاكن للبدانة، وتبتعد الأناقة عنه كثيرًا. اجتمع الاثنان لملاقاة دوف – شيخ صرافي مصر – والمسئول المالي لأملاك الوالي سعيد. فقد أرسل عامير أحد عماله إليه في القاهرة ليستدعيه لأمر مهم، فقد اشتد المرض على الوالي سعيد، وقد يموت فجأة دون أن ينالوا منه امتيازات أكثر لكل يهود مصر، وقد جاء عامل عامير

بالرد من دوف، بأنه سيصل إلى الإسكندرية بعد الظهر بقليل.

أراد زاكن أن يتحدث، يحكي لعامير عن عمله وتجارته، لكن عامير ميّال للصمت والتأمل.

لا يحب زاكن هذا النوع من الناس. لكن الشديد القوي هو الذي دفعه لمرافقته، سيذهب سعيد فجأة دون أن ينال يهود مصر منه ما يريدون؛ وما وعدهم به من قبل.

قال زاكن: «أتظن أن الوالي سعيد سيوافق على طلباتنا؟»

تابعه عامير لحظاتٍ قصار، ثم داعب شاربه، ثم مسح فوقه وقال: «المشكلة الآن في مرضه».

قبل أن يسأله زاكن عمّا يريد أن يقول، صاح عامير وهو ينظر بعيدًا: «آه لو تحدث المعجزة ويعيش سنوات قليلة أخرى».

اقترب زاكن منه، أحسّ أنه يفكر بعيدًا وأنه يحدّث نفسه وكأن زاكن غير موجود، حتى الكلمات التي نطق بها، كان يناجي بها نفسه.

«ماذا تقصد من قولك هذا؟»

قبل أن يجيب عامير بشيء؛ رأيا دوف آتيًا حاملًا حقيبته، أسرع زاكن إليه مبتسمًا، بينما تحرك عامير بصعوبة رغم نحافته وجسده الذي يبدو رشيقًا.

كان دوف أكبرهم سنًا، ولا يستطيع يهودي في مصر كلها أن يتصرف في أمورٍ تخص سائر اليهود دون

الرجوع إليه واستشارته، فقد كان الرئيس الفعلي ليهود مصر.

أسرع سائق عربة عامير وصافح دوف وانحنى محاولًا تقبيل يده، لكن دوف أسرع وشدّ يده في عصبية.

حمل السائق الحقيبة عنه ووضعها في العربة. كان عامير ودوف متجاورين، وزاكن يجلس أمامهما ويتابعهما في تفحُّص شديد، خاصة دوف الذي لا يُقابله غير مراتٍ قليلة خلال العام.. في الاحتفالات اليهودية التي تُقام في معبد «إلياهو»، أو المعابد الأخرى في القاهرة، وإن كان زاكن لا يسافر إليها كثيرًا.

قال دوف في صوت خافت، سمعه عامير بصعوبة: «أخشى أن يموت الوالي سعيد؛ فهو الحاكم المناسب لنا».

ضاق زاكن بذلك الحديث الهامس، فهو مثلهما يهمه الأمر، فلماذا لا يُشركانه فيما يقولان؟! هو حقًّا أصغرهم سنًا وأقلهم مكانة ومالًا؛ لكنه رغم كل شيء يهودي مثلهما، ومشاكل اليهود تهمه كما تهمهما تمامًا.

* * *

دخل دوف قصر الوالي سعيد بالقباري في المقدمة وخلفه عامير وزاكن. قابلهم الكتخدا، انحنوا ثلاثتهم له. لم يكن يحبهم لكنه يعرف أنهم على صلة بقناصل الدول الأوربية التي أصبح لها شأن في البلاد منذ أن تولى

سعيد الحكم، قال الكتخدا: «معذرة، مولانا الوالي مريض».

نظر عامير إلى دوف متسائلًا عمّا يفعل، وظل زاكن يتابعهما في صمت. أحسّ دوف بالضيق من صلف الكتخدا الذي لم يكن يُسمح له بالجلوس في حضرة الوالي سعيد، بينما دوف يجالسه ويحدثه ويضحك معه بصوتٍ مرتفع.

قال دوف: «نعلم أنه مريض، وهذا ما جاء بنا إليه».

أدار الكتخدا رأسه عنهم قائلًا: «الأمر خطير. الوالي مريض جدًا».

قال زاكن ليثبت لرفيقيه اللذين يتعاليان عليه أنه يستطيع أن يتحدث أفضل منهما وفي جرأة يفتقدانها رغم كونه أقل منهما مالًا وقيمة: «سنراه من بعيد، ولن نمكث عنده أكثر من دقائق معدودة».

جاء أحد موظفي الكتخدا، دخل دون إنذار، وقال في ضيق: «مولانا الوالي في حاجة لممرّض يداوي جروح جسده والتقيحات التي ظهرت في جسده كله».

يعرف الكتخدا أن الممرضين التابعين لمستشفيات الحكومة امتنعوا عن زيارة الوالي ومداواته، ولم ينفع معهم التهديد بالطرد من العمل، ولم تنفع معهم الإغراءات بصرف مبالغ كبيرة لهم.

أحسّ الكتخدا بالضيق لأن مساعده الغبي يتحدث في مشكلة كهذه أمام الأغراب. سينتشر الخبر وسيصل

إلى قناصل الدول الأوربية، وسيتخذون الإجراءات اللازمة من الآن لإعداد الوالي الجديد الذي يرغبون فيه، ويتوافق مع مصالحهم.

قال عامير للكتخدا: «لو عندك مشكلة، فنحن قادرون على حلها».

أحسّ الكتخدا بالضيق من كل ما يحدث حوله. مرض الوالي الغريب الذي لا يعرفون له سببًا، وامتناع الممرضين عن مداواته، وتدخُّل هؤلاء اليهود اللزجين.

أراد أن يصيح فيهم ويطردهم من القصر ويحدث ما يحدث، لكن الطبيب الذي يشرف على علاج الوالي دخل وقتها هو الآخر بغباءٍ يفوق غباء مساعد الكتخدا وصاح: «حالة الوالي تسوء و...»

صاح الكتخدا فيه مقاطعًا: «أعرف المشكلة ولا أجد لها حلًا».

فقال عامير مسرعًا: «أعرف ممرضًا يحل المشكلة».

تمنّى الكتخدا أن يرفض ويطرد هؤلاء اليهود وينهي ذلك اللقاء السخيف، لكن الطبيب صاح في لهفة: «أين هو؟ آتني به».

نظر الكتخدا إليهم ولم يُعلّق. ترك عامير والطبيب يتفقان على حضور ذلك الممرض.

* * *

عاد سعيد من أوربا في أواخر عام 1862م، نُقل إلى الإسكندرية محمولًا على محفة. كان يتأوّه من شدة

الآلام في جسده كله.

حملته عربته التي يجرها حصانان كبيران من باب الجمرك إلى قصره في القباري. كان قد أحسّ بآلام شديدة في بطنه تنتابه من وقتٍ لآخر، ووهن وعدم قدرة على التركيز والحركة فزاره أطباء القصر الذين ظنوا أول الأمر أنه من جرّاء إكثاره في الأكل، وأن الأمر سهل للغاية، فهم كثيرًا ما عالجوه من هذه التخمة. لكنهم فوجئوا بالحالة تزداد سوءًا، فنصحوه بالسفر إلى أوربا لعرض نفسه على أطبائهم الكبار، فالطب هناك أكثر تقدمًا.

ساءت حالة سعيد فتنقل من دولة إلى أخرى، وكان الرد واحدًا لا يتغير: «عُد إلى بلادك ولا تبرحها، فالطب ليس عنده شيء لك، أنت في حاجة إلى معجزة من السماء».

كانت زوجته أنجي هانم - التي لم تنجب منه - تقف قريبًا من باب حجرته، تبكي، وتعصر المنديل الكبير بيديها، حزنًا على زوجها المهدد بالموت، بينما زوجته الأخرى ملك برهانم - والدة محمد طوسون ومحمود - تجمع جواريها وخدمها وتحكي لهن بشماتة ظاهرة: «إن الوالي الذي لا يُشبعه شيء، قد تعرّف في إحدى سفرياته إلى أوربا بامرأة ملوثة، وعندما تعامل معها؛ انتقل مرضها إليه».

ظل سعيد في حجرته وحالته تزداد سوءًا يومًا بعد يوم. والأخبار تنتشر في البلاد عن حقيقة مرضه. فيردد

الكتخدا في جلساته الخاصة: «إن السلطان عبد العزيز قد أحسَّ بمحاولات سعيد بالانفراد بالحكم والتخلص من السيطرة العثمانية، فأهداه بذلة رسمية ليرتديها في المناسبات، فكانت سبب هلاكه، فقد كانت مُسمَّمة بحيث إذا نزَّ العرق منه؛ يدخل السم في جسده من خلال المسام وينتشر في كل خلاياه، وهذا ما أدى إلى التقيحات في جسده كله ما عدا الوجه واليدين والقدمين، إذ لم يصل السم إليها».

لكن أطباء القصر يدَّعون أن إفراطه في تناول الطعام غير العادي جعل معدته تتمدد وكرشه ينتفخ ويصير مثل الطبلة الكبيرة الجوفاء، فأدى ذلك إلى ما هو فيه، ويؤكدون أنه أنفق اثني عشر ألف فرنك لإرضاء نهمه في أكل الفاكهة، فيرِدُ إليه الكثير منها على كل باخرة قادمة من أوربا إلى الإسكندرية، وكان عندما يفتح صندوق الفاكهة ينقضُّ على الثمار في شرهٍ ونهم، يلتهم واحدة بيُمناه وأخرى بيُسراه ويشتهي الباقي بعينيه.

لكن البعض يدعي أن ما حدث لسعيد كان انتقامًا لما فعله في حياته من شرور وموبقات.. فهو المحرض على قتل الأمير أحمد رفعت شقيق إسماعيل الأكبر في كفر الزيات أيام كان وليًا للعهد، وقد كان أحمد رفعت جوادًا، يهب هبات عريضة وينفق على الفقراء والأيتام، وتوقع الناس أن تكون مصر في عهده أسعد حالًا ممَّن سبقه في الحكم.

وأحسَّ سعيد أن الشعب يحب ولي عهده أكثر منه، ويعدون الأيام ويحصونها لكي ينقضي عهده ويأتي حكم الآخر، فأعدَّ العُدة للخلاص منه، فدعا أسرته المقيمة في القاهرة إلى حفل كبير في قصره بالقباري (قيل إن الحفل كان دون سبب مقنع، وإنما أقامه خصيصًا من أجل قتل ولي العهد)، فجاءوا جميعًا إلا إسماعيل الذي اعتذر لوعكة صحية ألمَّت به قبل السفر بيومين، ويقولون إنه توقع الغدر من عمِّه سعيد الذي كان يكره أسرته منذ أن تولى الحكم عباس الأول، فسعيد يرى أنه أحق بالحكم بعد موت والده؛ لأنه ابنه، فالابن أحق من الحفيد.

أمر سعيد نوبار بك مدير السكك الحديدية الجديد بأن يحفر حفرًا عميقًا أسفل أعمدة القنطرة في كفر الزيات دون مبرر واضح لذلك، لولا هذا الحفر لحمل الماء القاطرة التي كان يركبها الأمير أحمد رفعت؛ لأن الماء - قبل الحفر - كان يمكن أن يحمل أكبر السفن وأقواها؛ وأن فكرة قتل أحمد رفعت عندما اختمرت في رأس سعيد، سرَّح جريم بك - مدير السكك الحديدية الإنجليزي - وأحلَّ محله نوبار بك الأرمني؛ ليقوم بهذه المهمة القذرة، وقدَّم إليه الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده.

ويقولون إن نوبار بك قد أمر العاملين بدفع القاطرة التي يركبها أحمد رفعت دفعة قوية، فألقتها في المياه بدلًا من أن تستقر فوق المركب المعد لذلك، وأخرجوا

كل مَن في القاطرة سليمًا إلا أحمد رفعت، فقد أعاقته بدانته الزائدة عن الخروج من فتحات القاطرة الضيقة.

***

ظلَّ سعيد في قصره بالقباري، نائمًا فوق سريره النحاسي المرتفع القوائم. يتصاعد صوته بالأنين والآهات، فيصل إلى خارج الحجرة. رغم ذلك لم يمتنع عن تناول الطعام الدسم واللحوم المتنوعة وأطباق المكرونة التي تأتي إليه من إيطاليا. زادته حالته المرضية نهمًا وشراهة في الأكل. فما دام الطب عاجزًا عن علاجه، فليأكل كما يشاء في الأيام المعدودة له في الحياة.

وتطورت حالته، فلاحظ الخدم انتشار رائحة خبيثة منبعثة من جسده، وازداد انبعاثها حتى أصبح من الصعب احتمالها.

وبات من المألوف رؤية بعض الخدم المضطرين للمرور أو المكوث قريبًا من الحجرة يتقيئون من شدة تأثير الرائحة الكريهة.

وضع أحد أطباء القصر كمامة فوق فمه وأنفه وفحص الجسد فلاحظ وجود تقيحات في حاجة إلى علاج. فأمر له بمراهم يُدهن بها جسده مرات عديدة في اليوم، لكن العاملين مع الطبيب أصروا على عدم دخول حجرة سعيد.

***

خرج اليهود الثلاثة، عامير ودوف وزاكن، من قصر القباري؛ صامتين. حتى إن أرادوا التعليق على ما حدث، فهذا ليس وقته ولا مكانه، فلا يمكن أن يتداولوا الرأي أمام قصر الوالي، حيث تنتظرهم عربة عامير بسائقها، فقد يسمعهم الجنود والعاملون المنتشرون في كل مكان حول القصر، فينقلون إلى رؤسائهم ما سمعوا.

بعد أن ابتعدت العربة عن القصر والمنطقة كلها، صاح زاكن في عامير لتسرُّعه في عرض خدماته على الكتخدا: «تعرف ممرضًا يمكن أن يداوي الوالي؟!».

تابعهما دوف في صمت، فهو لا يعرف حكاية الممرض هذه.

قال عامير: «حتمًا سأجد ممرضًا يهوديًا يؤدي الغرض».

شعر زاكن بالضيق، فقد تسرَّع عامير بعرضه هذا دون حتى أن يعرف ممرضًا مناسبًا لهذا. قال زاكن: «حتى إن وجدته فكيف تضمن أنه سيتحمل الرائحة العفنة التي تفوح من جسد الوالي سعيد؟!»

- لا بد أن يتحمل ويضحي من أجل باقي اليهود في مصر كلها.

استقبل عامير ضيفيه دوف وزاكن في قصره بوسط البلد، قال دوف في صوت هادئ: «لقد وعدت الكتخدا بإحضار ممرض، ولا بد أن تفعل هذا».

داعب عامير شاربه الكث، وحرك ساقيه الطويلتين دون أن يرد، فقد كان يفكر في كيفية الخروج من هذه الورطة، ثم هبَّ فجأة واقفًا حتى دون أن يستأذن من ضيفيه.

ظل دوف يتابع سقف البهو الواسع الذي يجلس فيه صامتًا. شغل نفسه بعدِّ الدوائر المزخرفة فوقه، وزاكن يتابعه قلقًا. يريد أن يجد مدخلًا للحديث معه. فهو لم يتقابل معه إلا مرات محدودة، ومعظمها يكون دوف منشغلًا برئاسة الاجتماعات اليهودية، أو يقف أمام المنصة يخطب في جمع من اليهود. وزاكن يريد أن يستغل هذه الفرصة للتقرب إليه. فهو ليس سهلًا. ويا لحظ اليهودي الذي يرضى عنه دوف ويُقرِّبه إليه، ففي يده ملايين الفرنكات، ومئات المشاريع التجارية في مصر وفي غيرها من الدول.

***

أمسك عامير سائقه فرج وسار به إلى حجرة بعيدة من حجرات القصر الكثيرة، قال له: اجلس يا فرج.

تردد فرج قليلًا، ثم جلس في مواجهة عامير: «أعرف أنك تسكن في سوق السمك حيث يتجمع يهود الإسكندرية».

- نعم.

- أبحث عن ممرض يهودي له مواصفات خاصة.

شرد فرج ولم يرد بشيء. فما معنى «مواصفات خاصة» هذه؟!

قال عامير مكملًا: «المهمة خاصة بمصلحة اليهود في مصر».

أراد فرج أن يُقسم بكل مقدس لديه بأنه لا يفهم شيئًا ممًا يقول عامير، لكنه اكتفى بالصمت.

داعب عامير شاربه وقال: «الوالي سعيد، حاكم البلاد في حاجة إلى ممرض ليداوي تقرحات جسده».

قال فرج: «أعرف حلاق صحة، دكانه قريب من بيتي».

ابتسم عامير قائلًا: «اجلس يا فرج. اجلس».

جلس فرج وأعاد ما سبق أن قاله؛ كأن عامير لم يسمعه. فأجابه عامير: «لا أريد أي ممرض، أريده ذا مواصفات خاصة».

ردد فرج لنفسه: «ها هو يعود إلى مواصفاته الخاصة التي لا أفهم منها شيئًا».

كان عامير مرتبكًا، لا يعرف كيف يوصّل معلوماته إلى سائق عربته، كما أنه قلق لترك ضيفيه المهمين في بهو قصره، ولا يعرف إن كان خدمه قد قدموا إليهما الشراب أم لا. فهو يعيش في القصر وحده هذه الأيام، بعد أن سافرت زوجته وأولاده إلى إيطاليا، ووعدهم بأن يتبعهم بعد أن يحل هذه المشكلة التي تهم كل يهود

مصر، قال عامير: «فرج. إنني في عجلة. يجب أن أتفرغ لضيفي».

وقف فرج ثانية قائلًا: «وأنا تحت أمرك».

صاح عامير: «اجلس يا فرج ولا تتعبني».

جلس فرج ولم يُعلّق بشيءٍ وانتظر أن يُكمل سيده حديثه: «الوالي لا يُطاق. الروائح الخبيثة تنبعث من جسده؛ لذا أريد ممرضًا لديه قدرة على الاحتمال».

وقف عامير منهيًا اللقاء، أسرع فرج بالوقوف مرددًا: «فهمت. فهمت».

* * *

جاء والد عامير من المغرب عام 1807م أيام حكم محمد علي باشا، مع مجموعة من رعاة الغنم؛ هو اليهودي الوحيد بينهم. كانوا يسيرون بالغنم من المغرب حتى الإسكندرية؛ بحيث يصلون إليها قبل عيد الأضحى بشهر على الأقل ليتمكنوا من بيع ما معهم من غنم. ويعودون من نفس الطريق. لكن هذه المرة راكبين أكثر من راحلة، كانوا يركبون مرة حميرًا، ومرة أحصنة، ومرة عربة تجرها الخيول أو البغال؛ إلى أن يصلوا إلى بلادهم.

ضاع عمر والد عامير في السفر إما مع خِرافه، وإما عائدًا حاملًا النقود التي باع بها بضاعته. ينام في كل بلدة يمسي عليه الليل فيها. لكنه في عام 1807م قرر أن يستقر في الإسكندرية.

يعرف والد عامير أن اليهود يتجمعون في سوق السمك، قريبًا من المساجد الكثيرة هناك (مسجد أبي العباس المرسي ومسجد ياقوت العرش ومسجد البوصيري)، وقريبًا من ميدان القناصل الذي تتجمع فيه قنصليات الدول الكبرى.

لم يكن يمتلك سوى فرنكات قليلة لا تكفي لإيجار حجرة، فنام فوق مقعده في مقهى يمتلكه يهودي اسمه شنتاي. مَن يصدق أن ذلك النائم، ساندًا رأسه على يده، فوق مقعده المتآكل، يصبح من أغنى أغنياء مصر بعد سنوات قليلة؟! المهم أنه تزوج في نفس العام من ابنة شنتاي صاحب المقهى، الرجل عرض عليه أن يزوِّجه ابنته لويز، وأن يؤويه في بيته، لم تكن لويز الابنة الوحيدة لوالدها، لكنها كانت الأخيرة التي كبرت، وسنوات قليلة جدًا وتصل إلى سن العنوسة، بحيث لا تنجب إذا تزوجت.

يريد والدها أن ينقذها من هذا المصير. كما أنه لا يمتلك «الدوطة» التي تدفعها أسرة الفتاة اليهودية، مساعدة منها لزوج ابنتهم؛ ليجهز بها نفسه.

تزوج والد عامير لويز ابنة شنتاي صاحب المقهى وجعلها تلحق بآخر عربة في قطار الزواج. وأنجب عامير. لم تنجب لويز بعده لا ولدًا ولا بنتًا.

أراد شنتاي أن يعمل زوج ابنته معه في المقهى ورزقهما على الله. لكن الرجل لم يعجبه هذا. فهو مقهى

صفين، ورواده من سكان الحارة في حي سوق السمك. يهود يرتاحون من السير الطويل في بيع ورق اليانصيب أو الخبز.

والد عامير اختار خمارة بشارع السبع بنات وعمل بها ساقيًا. ثم صنع الخمر بنفسه. في الحقيقة أنه بدأ في غش الخمر؛ فأعجب الزبائن وتزاحموا عليه لشرائه. ثم عمل صرافًا في سوق السمك، واغتنى، وأخذ إخوة زوجته ليعملوا معه، وما زال مقهى شنتاي في الشارع العمومي، قريبًا جدًا من معبد زار أديل، وعندما مات عامير الكبير، ترك لابنه ثروة كبيرة جدًا واسمًا كبيرًا في عالم المال والسياسة.

قم يا نزاح

كانت سرينة زوجة فرج تُعد الطعام لزوجها وأطفالها الصغار.

تعرف هي أنه يبيت أحيانًا في قصر عامير بك؛ وإذا عاد من عنده يعود متأخرًا؛ لذا عملت ببطء. فقد تناولت الطعام - هي وأطفالها - منذ وقت قصير. لكنها فوجئت به يدخل. صاحت مندهشة: «ما الذي جاء بك مبكرًا؟»

قال فرج: «ماذا بكِ يا امرأة. ألا تريدين أن أعود إلى البيت؟»

لقد ارتاحت سرينة لعمل زوجها لدى عامير بك. فهو يعطيه مبلغًا أكبر ممَّا كان يكسبه في عمله السابق. كان حمَّارًا بجوار الجمرك، يشد الحمار إلى حيث يريد الزبون. كما أن عامير يعطيه طعامًا وهدايا لها ولأطفالها. هي حقًا بقايا ملابس زوجته وأولاده؛ لكنها بالنسبة لسرينة وأطفالها أشياء لم ترها في حياتها من قبل؛ لذا تخاف أن يغضب عامير عليه يومًا ويطرده من جنته؛ فيعود إلى حماره الذي يطوف به باحثًا عن راكب ليعطيه - بعد أن يتعبه ويتعب حماره - مليمًا أو مليمين.

اقتربت سرينة من زوجها وهي ما زالت تمسك الملعقة الخشبية الكبيرة التي كانت تُقلِّب الطعام بها: «طردك عامير بك من عنده».

قال بغضب: «لماذا هذه الأفكار السوداء؟!»

تنهَّدت بعمق، والتقطت أنفاسها: «الحمد لله».

سارت في طريقها إلى طبيخها، ثم تذكرت شيئًا فعادت ثانية إلى زوجها: «ماذا بك، أتشعر بتعب؟»

أشاح بيده، لقد جاء خصيصًا من أجل ذلك الممرض الذي يبحث عامير عنه. تابعته سرينة طويلًا ثم عادت إلى طبيخها قبل أن «يشيط». قال: «إنكِ تعرفين الهادية زوجة جون الحلاق».

صاحت في حدة: «داهية تأخذه وتأخذها في ليلة واحدة».

- لماذا يا امرأة؟

- امرأة لا تُطاق. وهو كما تعلم...

- ليس مهمًا الآن. أريد أن تذهبي إليها وتحدثيها في أمر مهم.

عادت سرينة مضحية بالطبيخ الذي كاد ينضج فوق النار. يذهب الطبيخ في داهية، المهم أن تلحق بزوجها. فما له وهذه المرأة التي لا تقنع بزوجها، وتبحث دائمًا عن رجالٍ غيره.

لوّحت بملعقتها الكبيرة في وجهه: «قل لي يا رجل، أعينك مالت إلى هذه المرأة؟!»

- دعي حديثك الفارغ هذا وأجيبيني.

- أنا أعرف الهادية جيدًا. إنها لا تمل معاشرة الرجال.

- يا امرأة أنا لا أفكر في مثل هذه التفاهات الآن.

- ربما مللتني، وتريد أن تجرب هذا الصنف من النساء.

- الموضوع مهم يا سرينة، وقد أمرني عامير بك...

أجابته مقاطعة: «ماذا؟ أيريدها هذا الشيخ أيضًا؟ نعم، فقد قلت لي إن زوجته مسافرة منذ أكثر من شهر».

شدها فرج من يدها التي تمسك ملعقة الطعام، فلوث الطعام العالق بها ملابسه ويده، فانشغل بمسحها غاضبًا.

جلست سرينة بجواره قائلة: «ماذا تريد أن تقول؟»

كان يسب ويلعن، تابعته وهو ما زال يمسح الطعام الذي علق بيديه وملابسه، بينما فاحت رائحة الطعام المحترق من حجرة الطعام.

- البك عامير في حاجة إلى حلاق صحة.

- أنت تعرف إسحاق الحلاق وبنيامين ابن عم جون. كما أن الحي مليء بحلاقي الصحة اليهود.

- ولماذا لم تذكري جون. فهو حلاق صحة أيضًا.

- جون من القرائيين. وأنا لا أحبهم ولا أطيقهم.

- أنا مثلك لا أميل إليهم، لكنْ للضرورة أحكام.

قامت سرينة غاضبة واتجهت نحو المطبخ لتنقذ ما يمكن إنقاذه من الطعام: «إنهم يخالفون ما جاء به الحاخامات الحكماء في تلمودهم المقدس».

أسرع فرج إليها. شدها من يدها غاضبًا: «إنني مضطر أن أتعامل مع هذا الرجل».

عادت ثانية والطعام يزداد احتراقًا، وتفوح رائحته كاشفة عن ذلك: «لا أدري ما هي الضرورة التي تجعلك تسعى إلى قرائي مثل هذا؟»

- المهمة التي تشغل عامير بك، تحتاج إلى رجل لديه قدرة على تحمل الروائح الكريهة.

- وجون يستطيع هذا؟!

- إنه مصاب بلحمية في الأنف، تجعل حديثه صعبًا.

قالت وهي تضحك: «إنه مصاب بزكام دائم».

- وأظنه لا يشم بالمرة.

- والهادية ستعمل معه؟

- جون لا يريد أن يبرح حارة اليهود، يخاف من مقابلة الأغراب. والهادية هي الوحيدة التي يمكنها التأثير عليه.

أسرعت سرينة ناحية حجرة الطبيخ وهي تقول: «إنك تتحجج بهذه الأشياء لكي تقابل المرأة المتصابية، وشغلتني حتى احترق الطعام على النار».

قام فرج من مكانه قاصدًا مقابلة جون بنفسه، فغيرة زوجته غير العادية أفسدت كل شيء.

* * *

خرج فرج إلى الشارع، طوال اليوم يقود العربة التي كان يركبها سيده عامير وضيفاه؛ وسرينة زوجته لم تترك له فرصة لكي يأكل أو يرتاح. سيذهب إلى جون

في دكانه رغم علمه بأنه لن يوافق على الخروج من حارة اليهود والعمل في قصر الوالي، لكنه سيحاول معه.

لو استجابت سرينة له وذهبت لمقابلة الهادية؛ ستقنعها بذلك. وجون سيوافق تحت إلحاح زوجته التي لا يستطيع أن يرفض أوامرها، والهادية امرأة مثلها ويمكنها التفاهم معها. كما أن ذهاب الرجال إلى بيت الهادية يثير الشك ويجعل الناس في الحارة يتحدثون، ويظنون ظن السوء.

دكان جون في الشارع العمومي الذي تتفرع منه حواري اليهود القليلة. باب الدكان خشبي من ضلفتين عاليتين. وخشب كالح لا لون له الآن. ومقعد كبير في الخارج بدون مسند، يجلس جون عليه عندما يكون خاليًا. وهو - في الحقيقة - خالٍ معظم الوقت. فعدد اليهود القرائيين - الذين يعتمد عليهم في الحلاقة والطهارة والعلاج - قليل جدًا بالنسبة لليهود الربانيين الذين يرفضون التعامل مع اليهود القرائيين، لا يتزوجون منهم ولا يتعاملون معهم.

داخل الدكان مقعدان آخران مشابهان لذلك المقعد، أحدهما أمام الجدار المواجه للمقعد الذي يحلق جون عليه، والثاني أمام الجدار الآخر.

جون شديد النحافة، كأنه خيال، يميل وجهه للاحمرار، خاصة أنفه المدبب الطويل، وظهره ينحني للأمام قليلًا، وعيناه ترقصان طوال الوقت، تتحركان من

مكانيهما في حوَلٍ واضح، إنه يحدث نفسه معظم الوقت، يحرك أصابعه، يعد أشياء مجهولة في مخيلته. إنه ليس أمهر حلاق صحة في المنطقة. فهناك الكثير من اليهود الذين يعملون حلاقي صحة. فقد لاحظ كلوت بك الذي جاء به محمد علي باشا ليشرف على علاج وصحة المصريين أن عددًا كبيرًا من الأطفال يموتون بعد ولادتهم بوقتٍ قصير، ففتح الباب في مستشفاه لتعليم الحلاقين أصول العلاج السليم وكيفية تطعيم الأطفال ضد الأمراض المعدية، فتقدم اليهود بكثرة، بينما امتنع المسلمون غير واثقين في جدية العمل، فقد ظنوا أن التطعيم ما هو إلا خدعة أقدم عليها محمد علي باشا ليوشم أطفالهم، فإذا كبروا يستطيع أن يدخلهم الجندية بسهولة.

تقدم جون مع ابن عمه بنيامين، علمهم أطباء فرنسيون أصول التغيير على الجروح، وعملية الطهارة السليمة، لإزالة الجلدة الزائدة في عضو الطفل دون أن تؤذي العضو نفسه.

لم يُفرِّق الأطباء الفرنسيون بين اليهود الربانيين والقرائيين. كل ما يهمهم إجادة العمل وإتقانه. كان بنيامين وقتها من اليهود القرائيين مثل أبيه وأجداده، فالحقيقة أنه لم يكن يهتم بالدين، وكان يسخر من جون لاهتمامه بالتوراة وقراءته لها في أوقات فراغه. وتابع جون الهادية. كانت تسكن بعيدًا عن تجمُّع يهود

الإسكندرية في سوق السمك، تأتي إلى نفس المستشفى الذي يتعلم فيه جون وبنيامين.

تتعلم مع العديد من الفتيات عملية التوليد، بعد أن رأى كلوت بك أن «دايات» الأرياف والأحياء الشعبية في المدن قد قتلن الكثير من النساء، خاصة بحمى التيتانوس، فقد كُنَّ يقطعن الحبل السُّري بسكين المطبخ، أو بأي آلة حادة يمكنها أن تقطع اللحم. اشترى كلوت بك عشر نساء: خمس زنجيات وخمس حبشيات، رأى أنهن الأكثر صلاحية، إذ كان يبحث عن البنية القوية والجمجمة السوية. وتم وضعهن في حراسة خصيان، وقامت مودموزيل ميري خريجة دار التوليد بباريس، بإلقاء الدروس عليهن. وحقق هذا التعليم نجاحًا أدَّى فيما بعد إلى تدريب فتيات يهوديات ومسيحيات، وتدريب فتيات مسلمات سرًا.

كانت الهادية اليهودية إحدى تلميذات هذه المدرسة، وجون وابن عمه بنيامين تلميذان في مدرسة تعلم الحلاقين أيضًا. المدرستان مقرهما المستشفى. تقرّب جون إليها، حدثها فنفرت منه. فاللحمية في أنفه جعلت صوته غير مستساغ، ولا تستطيع احتماله، كما أن عينيه ترقصان طوال الوقت، فلا تعرف الهادية إلى أي مكان ينظر. حدثها عن عنان بن داود الذي أنشأ مذهب اليهود القرائيين، وكم عانى وتعب حتى فرض مذهبه هذا على الناس وقتذاك. كانت الهادية تسمع اسم عنان لأول مرة. استأذنت منه عندما سمعت صوت زميلاتها اللائي جئن

لدراسة فن توليد نساء مصر. أسرعت إليهن، وظل هو في مكانه يتابعها، حدثتهن عنه، فنظرن إليه وضحكن ساخرات. تألم جون، رأت الهادية عينيه ترقصان من بعيد.

لم تكن الهادية تعلم أن هناك مذاهب مختلفة بين اليهود. عندما عادت إلى بيتها سألت والدها عن ذلك. فقال لها: «إننا ربانيون». ولم يزد على ذلك.

التقت بنيامين ابن عم جون؛ هي التي اقتربت منه وحدثته. كان وسيمًا. زميلاتها تحدثن عنه، ذكرن وجهه المستدير وعينيه العسليتين وقامته الرشيقة، لفتن نظرها إليه. حيته وحدثته عن مذهب القرائيين، فاتضح أنه لا يعرف عنه شيئًا، ولا يهمه أن يكون ربانيًا أو قرائيًا، المهم أنه يهودي والسلام. حكى لها عن أهمية الدراسة التي يتعلمونها، وحلمه بأن يفتتح محلًا للحلاقة في ميدان القناصل حيث يتجمع الأجانب الأغنياء الذين يدفعون كثيرًا في الحلاقة. وأن هؤلاء الأجانب ازداد عددهم منذ أن تولى سعيد الحكم، فأعطاهم الامتيازات، وأن عليها أن تبحث عن نساء غنيات لتولدهن وتكسب كثيرًا. سألته: «هل لا بد أن تتزوج فتاة من القرائيين؟»

فمطّ شفتيه دون اهتمام. فذلك لا يعنيه بشيء.المهم أن تكون جميلة مثلها. لقد أحسّ بها من أول لقاء. وقال إنها جميلة. قالت له: «لكن أهلك سيعارضون هذا الزواج، وسيصرون أن تتزوج من مذهبهم».

فطمأنها وقال لها: «إنني قادر على فعل ما أريد دون أن يتدخل أحد».

قال لها إنه سيحاول التقرب من اليهود الأغنياء والمسلمين الأغنياء ليختن أولادهم، سيحمل حقيبته الجلدية ويمر على بيوتهم، وسيفتني مثل عامير وزاكن في الإسكندرية، ودوف في القاهرة، وغيرهم من أغنياء اليهود.

سارت الهادية إلى بيتها فرحة، معظم اليهوديات اللائي يدرسن في مدرسة القابلات يسكنَّ في سوق السمك، حيث يتجمع أكبر عدد من اليهود في الإسكندرية. هي تسكن خلف قصر زاكن بوسط البلد، فوالدها يعمل في إسطبلاته، يعود وملابسه ملوثة بروث الخيول التي يخدمها. والدها هو الباقي لها في هذه الدنيا بعد موت أمها شابة، الرجل لم يتزوج رغم أنه قوي ويستطيع هذا. ستحكي له عن بنيامين، ابتسمت وهي سائرة في الطريق، تذكرت جون وحديثه من أنفه، وعينيه اللتين ترقصان كلما نظر إلى شيء ما. سبحان الخالق العظيم، كيف خلق بنيامين على هذه الصورة الجميلة، جسد عملاق، وقوة واضحة، بينما ابن عمه شاحب، وأعصابه ضعيفة أدت إلى ذلك الضعف في عينيه.

ستحكي لوالدها عن بنيامين وستخبره بذلك التباين بين ابني العم، ستقول له إنها تتمنى أن يأتي بنيامين ليخطبها، سيفرح والدها. فكل أمله أن تتزوج.

ظلت في البيت - الذي أعطاه لهما زاكن - وحدها، أعدت الطعام لها ولوالدها وهي تغني سعيدة، الحب شيء جميل يجعل الإنسان سعيدًا، يُحلّق في الهواء. والدها مسكين يعود متعبًا، فخيول زاكن كثيرة، والسياس قلة.

عندما دخل والدها - حاملًا قُفّته الصغيرة التي يضع فيها أشياءه - تعلقت في رقبته. الرجل ابتسم في تثاقل، ثم أعطاها القفة الصغيرة - كعادته - ففتحتها، تبحث في داخلها عن الأشياء التي أهداها خدم زاكن إليه، اللحوم والحلويات. زاكن غني جدًا، وقصره ممتلئ بخيرات الله.

لم تفتح القفة الصغيرة هذه المرة، إنها مشغولة بأشياء أهم مما في القفة. الأشياء داخلها يمكن أن تنتظر. سارت خلف والدها، قالت: «قابلت في المدرسة تلميذًا يدرس أصول التمريض، يهودي اسمه بنيامين».

قالت «يهودي»؛ ليطمئن والدها ويعلم أن زواجها منه سهل، وليست هناك عوائق.

الرجل قليل الكلام، وابنته تنتظره بشغف تريد أن تحكي له عن كل ما لاقته في يومها، فيضطر أن يستمع ويبتسم في تثاقل، وإن علّق، فيقول كلمات قليلة جدًا. حكت عن جون ابن عم بنيامين. شكله، وطريقة نطقه للكلمات، وعينيه اللتين ترقصان معظم الوقت.

ابتسم الرجل لوصفها لجون. أحس بالسعادة، فقد يأتي بنيامين هذا - الذي تُعجب ابنته به - ليخطبها ويريحه من الأسى الذي يلاحقه في أي مكان يذهب إليه، مشكلته هي ابنته الهادية. فهو رجل فقير، لا يستطيع أن يدفع الدوطة؛ فهي مبلغ كبير لا يستطيع أن يدفعه. لا يدري مَن الذي زرع هذه المشكلة بين يهود مصر، فقد تزوَّج دون أن يعطيه أهل زوجته شيئًا، لكن هذه الأيام تغير الحال، اليهود الأجانب الذين جاء بهم حكم الوالي سعيد نشروا هذه العادة السخيفة، فهم يفعلون هذا في بلادهم؟ لذلك أصر الرجل على أن تتعلم ابنته حرفة تعينها على الزواج. فربما تستطيع أن تدفع من عملها قيمة الدوطة، أو أن يتزوجها العريس دون دوطة معتمدًا على مكسبها من عملها.

أين والدها الآن ليرى ما حدث؟ جون هو الذي تزوج الهادية. وبنيامين تزوج من فتاة غنية استطاعت أن تدفع له قيمة الدوطة الكبيرة. جون لم يطلب شيئًا، عندما تتذكر الهادية هذا تردد لنفسها: «كان ناقص أدفع له، يحمد ربنا أنني وافقت عليه».

فرج لا يرتاح لجون. وكان يكثر من الجلوس لدى بنيامين، يتابعان نساء اليهود اللائي يخرجن من بيوتهن ذاهبات إلى أعمالهن (يعملن مربيات وغسالات في قصور أسرة محمد علي باشا وقصور الأغنياء، أو عاملات في مواخير وخمارات حي اللبان، أو خادمات

بالمستشفيات التي استحدثها كلوت بك في الإسكندرية).

ما زال فرج يذهب إلى بنيامين في دكانه إذا أراد أن يحلق شعر رأسه، لكنه لا يكثر من الجلوس معه، فمنذ أن عمل لدى عامير بك ووقته شحيح. عامير يحتاج إليه كثيرًا، يرافقه في معظم تنقلاته.

مر فرج أمام دكان بنيامين. تمنى لو لم يجده في طريقه، فسوف يلح عليه في أن يجالسه، وفرج يريد أن ينهي مهمته ويسرع للذهاب إلى سيده عامير.

يمكن أن تميز الفرق بين بنيامين وجون من رؤية دكانيهما. فدكان بنيامين مثله، منظم ونظيف. بينما دكان جون مظلم. وأدواته مبعثرة وقديمة.

فكر فرج في أن يسمح لجون بحلق شعر رأسه، ويعطيه أكثر ممَّا يدفعه له أي زبون، وذلك تمهيدًا لعرض فكرته بمداواة الوالي سعيد.

تردد فرج قليلًا ثم عزم الأمر على تحقيق فكرته هذه، سيحلق شعر رأسه لدى جون الحلاق.

يجلس جون خارج الدكان؛ محنيًا ظهره وشاردًا في عالمه البعيد، يبتسم للا شيء. عندما لمح فرج آتيًا إليه لم يتحرك؛ فهو يعلم أنه لن يقترب منه أو يحييه. يعرف جون فرج جيدًا منذ أن كان حمَّارًا يرتدي قفطانه القصير، ويسير حافيًا خلف حماره الممتلئ، ويعرف التغيير الذي حدث له عندما رآه عامير بك وعرض عليه

أن يعمل سائسًا عنده، ثم رقّاه وجعله سائقه الخاص، يقود عربته، وينقله من مكان إلى آخر، فتبدّل حاله وارتدى الملابس النظيفة الجيدة الصنع، وصار من أهم سكان سوق السمك. ذلك لا يعني جون كثيرًا، فهو في حاله، لا يهمه إن كان هذا اغتنى أم ما زال فقيرًا.

خرج جون إلى الدنيا ليجد نفسه من اليهود القرائيين. لكنه لم يكتفِ بهذا، لم يقنع مثل معظم الناس بما هم فيه ويستكن لقدره، بل ظل يبحث عن الحقيقة، أيهما أصح وأحق بأن يُتبع. المذهب الرباني الذي يؤمن بما جاء في أسفار التلمود التي ألّفها الأحبار. أم القرائيون الذين لا يعترفون إلا بالتوراة التي نزلت على نبي الله موسى بن عمران.

لم يكن جون متأكدًا من الحقيقة. فمعظم يهود مصر والعالم ربانيون. والقرائيون قلة، يمثلون 5% من يهود مصر، وذلك أدعى لأن يكون الحق معهم. لكنه لم يرتح لهذه النتيجة السهلة. فمعناها أن والده كان مخطئًا ووالد والده كان مخطئًا أيضًا. فجون قرائي ابن قرائي، وذو نسب في القرائيين عريق.

وجاءه عنان بن داود في منامه. كان يرتدي عباءة سوداء مثل التي يرتديها العباسيون الأوائل وصاح فيه: «قم يا نزاح» (اسم جون الحقيقي)، ثم قال بوقار: «أنا عنان بن داود منشئ مذهب القرائيين، جئت لكي آخذ بيدك وأدلك على طريق الصواب».

كان عنان بن داود بالغ الطول، ليس في تلك الأيام مَن يقاربه في طوله وعرضه. (لعلهم أيام الدولة العباسية - عندما كان عنان حيًا - كانوا طوالًا هكذا)، وكان كبير الوجه كأنه قمر يطل من السماء وقت اكتماله، ويده – الممدودة – بيضاء، في كل إصبع من أصابعه يطل سراج وهّاج.

كانت الهادية نائمة بجواره، قام فزعًا، صاح: «يا عنان بن داود، يا عنان ابن داود».

قامت المرأة غاضبة: «ما لك، جننت؟ مَن عنان بن داود هذا؟!».

دهش جون من حديثها. فقد حكى لها عنه من قبل أن يتزوجها. أيام أن تقابلا في مستشفى كلوت بك وهي تتعلم كيف تولد النساء، وهو يتعلم كيف يعالج الناس، وقتها حكى لها عن عنان بن داود، وبعد الزواج حدثها عنه كثيرًا. لكنها كثيرة النسيان.

قال لها: «لقد زارني في منامي، وهداني إلى الطريق السليم».

صاحت فيه غاضبة: «نم، وإلا سوّدت ليلتك».

ففرد جسده بجوارها متظاهرًا بالنوم، لكنه ظل يناجي عنان بن داود طوال الليل. حتى غلبه النوم، وعندما استيقظ من نومه لم يجدها بجواره، بل لم يجدها في البيت كله. خرجت للذهاب إلى عملها بالمستشفى.

حمل جون متاعه وسار إلى بيت صديقه مخلوف الرسام. صعد درجات السلم المظلمة، ودخل من باب الشقة المفتوح دائمًا. دق باب حجرة صديقه الذي يسكن في حجرة داخل شقة مشتركة، يشاركه فيها ثلاث أسر أخرى، ودورة مياه مشتركة بينهم. كل سكان البيت من اليهود.

دق باب الحجرة في عنف عندما لم يفتح صديقه مخلوف. فتحت زوجة بنيامين - ابن عمه – باب حجرتها، كانت منكوشة الشعر، تداعب عينيها اللتين يثقلهما النوم، صاحت غاضبة: «مَن الذي يدق الباب هكذا في ذلك الوقت المبكر؟!»

النوم جعلها لا ترى جيدًا، كما أن الشقة مظلمة، فلم تتبين مَن الذي يدق باب ذلك الرسام الأعزب الذي يضايق كل سكان الشقة بسكنه بينهم. عندما تبينته، صاحت بصوت مرتفع: «أهو أنت؟!»، ثم أغلقت الباب في عنف حتى كاد ينكسر.

يعرف جون أن ابن عمه بنيامين يسكن نفس الشقة التي يسكنها صديقه مخلوف الرسام، لكن ذلك لا يعنيه في شيء، ويعرف أن زوجة ابن عمه لا تحبه ولا تطيق رؤيته، فماذا يعنيه في هذا كله، إنه جاء من أجل صديقه لا من أجلهم.

فتح مخلوف باب حجرته الثقيل فأحدث أزيزًا عاليًا، جعلت تسب الاثنين معًا من داخل حجرتها.

نظر مخلوف إلى الطارق الذي جاء مبكرًا، وصاح: «مَن؟»

عندما تحدث جون وعرفه، دفع بابه في عنف وصاح في قرف: «أهوَ أنت؟!»

لكن جون لم ييأس، وأعاد الدق ثانية وفي عنف أكثر، حتى فتحت كل الحجرات أبوابها وصاحوا فيه غاضبين.

اضطر مخلوف أن يفتح باب حجرته وشد صديقه من يده لاعنًا أهله جميعًا، لولا أن الجيران كانوا يسبون مخلوف مع جون ما فتح له الباب، فمخلوف يظل ساهرًا خارج البيت، ولا يعود إليه إلا «وش الصبح»، إنه لم ينم سوى بضع ساعات.

وقف جون وسط الحجرة الواسعة، تابع اللوحات المعلقة والملقاة فوق الأرض العارية من الغطاء. ليس في الحجرة من الأثاث سوى السرير وكومدينو صغير ومائدة فوقها زجاجة خمر فارغة وبقايا طعام من الأمس.

مخلوف ممتلئ، ينام بقفطان قصير وفانلة ضيقة تبرز كرشه الممتد. قال جون لمخلوف الذي يتابعه في غيظ: «جئت إليك في مهمة عاجلة».

- أي مهمة هذه التي تجعلك تأتيني في ذلك الوقت المبكر؟!

- لقد انتظرت الصباح أن يأتي بفارغ الصبر لكي آتي إليك.

أسرع مخلوف إلى سريره، غطى نفسه بغطائه وعاد إلى النوم وترك جون واقفًا يتابع اللوحات في ظلام الحجرة، فمخلوف لم يضئ مصباحه، وحجرته من الداخل، تظل مظلمة ليلًا ونهارًا.

شدَّ جون المقعد الوحيد في الحجرة وجلس بجوار مخلوف الذي أسلم نفسه لشخيرٍ عالٍ يرج الحجرة. ثم شده جون من ملابسه الظاهرة بعيدًا عن الغطاء الذي يتشبث مخلوف به، يشده بيديه وقدميه: «مخلوف، استيقظ يا مخلوف».

لم يستيقظ، ما اضطر جون أن يشد الغطاء عنه، فقفز صائحًا لاعنًا كل أقارب جون ومعارفه: «ماذا تريد مني في يومك هذا؟!»

- حلمت بعنان بن داود في منامي ليلة أمس.

- مَن عنان هذا؟!

- حتى أنت يا صديقي العزيز!

- لا أريد صداقتك، كل ما أريده أن أنام الآن.

- لكنني متمسك بصداقتك، وجئت إليك لكي ترسم لي صورة لعنان بن داود، لكي أعلقها في دكاني.

- عنان؟! مَن عنان هذا؟!

قام جون وفتح النافذة التي تطل على منور البيت فدخل شعاع الشمس خافتًا غير منير، وجلس مخلوف فوق سريره، ناظرًا إلى ذلك الصديق الغريب الذي جاء ليحرمه النوم الذي يتمناه، ويستطيع أن يدفع كل ما يملك من أجله.

عاد جون إليه، أمسك لوحة لم يكتمل رسمها وقال: «أنت لم ترَ عنان بن داود، لكنني رأيته وسأصفه لك، وأنت ترسمه».

اضطر مخلوف أن يسمع جون، وأن يعده بأن يرسم له الصورة المطلوبة.

وتكررت زيارة جون إلى مخلوف في مثل ذلك الوقت، حتى سأل مخلوف نفسه، أيهما أيسر له، أن يترك سوق السمك ويرحل عن الإسكندرية كلها، أم يرسم الصورة المطلوبة ويرتاح من إلحاحه؟ واختار أن يرسمها له. كان يمسك الفرشاة وجون يصف له عنان بن داود، دهش مخلوف، فمعلوماته عن اليهود القدماء، أنهم قصار القامة، يقتربون من الأقزام، وضيقي الصدر كما وصفتهم التوراة، لكنه رسم ولم يعترض، رسمه كما وصفه جون، فالمناقشة معه لن تجدي.

أخذ جون اللوحة وسار بها في حارة اليهود فرحًا، وهو يصيح لكل مَن يقابله: «إنه عنان بن داود، إنه عنان بن داود».

* * *

اقترب فرج من جون: «سعيدة يا جون».

وقف جون مندهشًا، فهذه أول مرة يقترب فرج من دكانه ويحييه ويحدثه هكذا.

«أهلًا يا حبيب قلبي».

أراد فرج أن يبتسم، فكلماته التي تخرج من أنفه تثير السخرية منه. وأيضًا كلمته المأثورة «حبيب قلبي» التي يقولها لكل مَن يلقاه، رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا. كان فرج وبنيامين يذكرانها في جلستيهما ساخرين من جون ويقولانها بطريقته.

«في الحقيقة، أنا جئت إليك في مهمة عاجلة».

اليهود الربانيون لا يحلقون عنده؛ لأنه من القرائيين المتحمسين للمذهب، ولأنهم لا يرتاحون لحلاقته ولطريقته في الحديث.

«أهلًا بك يا حبيب قلبي».

فرد جون ذراعه ولمس به ظهر فرج، وأدخله دكانه: «تحت أمرك يا حبيب قلبي».

أراد فرج أن يقول له إنه جاء من أجل أن يحلق له. لكنه شعر بالقرف من الدكان وما به من عدة الحلاقة؛ فتراجع: «تعرف عامير بك يا جون؟».

- ومَن في الإسكندرية لا يعرفه؟!

- إنه يريد خدمة منك.

ضحك جون عاليًا: «عامير بك يريد خدمة مني أنا الغلبان الفقير؟»

قال فرج جادًا: «نعم. فهو لديه رجل في حاجة إلى علاج».

ضحك جون ثانية: «عامير يغلب في إيجاد معالج لرجل يهمه؟!»

واصل فرج بالجدية نفسها: «الناس وصفوك له، قالوا له إنك رجل طيب ومبارك، وإنك قادر على صنع توليفة من الأعشاب، لا مثيل لها، وهذا ما يريده الرجل المريض».

لم يضحك جون هذه المرة وأحسّ بأن الكلام معقول. فمداواة الأمراض في حاجة إلى الإيمان أكثر من الأدوية. لكنه لا يترك حارة اليهود ولا يتعامل مع غير اليهود. حقيقة أن اليهود الربانيين لا يتعاملون معه، لكن لو جاءه أحدهم في خدمة، لن يتأخر عن أدائها له، فهو رغم كل شيء يهودي.

- أنا لا أتأخر عن مساعدة أي إنسان لجأ إليّ، لكنني منذ سنوات طويلة لم أبرح حارة اليهود.

- الأمر سهل للغاية يا جون. أنت تعالج الناس هنا. وهو رجل مثل سائر الرجال.

- كان بودي يا حبيب قلبي.

تابع جون صورة عنان بن داود التي رسمها صديقه مخلوف. رجل عملاق عيناه كبيرتان مستديرتان، وأنفه مفلطح كبير للغاية، وجبهته كبيرة ومستديرة، وعباءته سوداء تغطي جزءًا من ظهره.

ابتسم جون للصورة وأحس بارتياح لما يقول لفرج.

نظر فرج إلى الصورة وسأل: «مَن هذا؟»، دهش جون من سؤاله، فالناس في حارة اليهود يعرفون صاحب الصورة، ويأتون لمشاهدته، ويسألون جون عن حكايته. لكنّ فرج مشغول بخدمته لسيده عامير بك. ولا يمكث في الحارة إلا أوقاتًا قصيرة.

«إنه عنان بن داود».

تذكر فرج أن بنيامين حكى له عن هذه الصورة وسخر من رسمها، وقال إن نساء اليهود يأتين بأطفالهن ليخفنهم بها. فابتسم فرج رغمًا عنه، مما أسعد جون فحكى له عن زيارة عنان له في منامه.

صاح فرج غاضبًا: «دعنا من صديقك عنان هذا، فالحارة كلها تعرف مدى حبك له، ودعنا نغد إلى الرجل المسكين الذي يتألم من قروح جسده».

- آسف يا حبيب قلبي. فأنا لا أعالج غير اليهود، ولا أبرح حارة اليهود مهما حدث.

تذكر فرج زوجته سرينة، هي التي اضطرته لأن يأتي إلى هذا المجنون. وذلك بغيرتها الزائدة. جون لا يطيع إلا الهادية زوجته. لقد أضاعت سرينة وقته القليل مع جون.

تابع فرج الصورة المعلقة في صدر الدكان وصمت، فقد قرر أن يذهب توًا إلى الهادية.

نظر جون إلى قفا فرج، وقال: «ما دمت دخلت دكاني فلا بد أن أحلق لك شعرك، ولن أتناول منك أجرًا».

شعر فرج بقشعريرة في جسده كله ورغبة في أن يهرب. لن يستطيع احتمال لمسات جون لوجهه أو جسده. كما أن أدواته التي يحلق بها سوداء وغير نظيفة.

وقف فرج وقال: «سأحضر إليك مرة أخرى. عامير بك في انتظاري».

وأسرع فرج إلى خارج الدكان، وجون يتابعه مبتسمًا.

الهادية نحيفة، وقامتها طويلة، ووجهها طويل أيضًا. تعمل رئيسة الممرضات في المستشفى الذي أنشأه كلوت بك في الإسكندرية. تقف في الردهة، تشرف على نظافته، ينحني العمال على الأرضية، يدعكونها، ويرشونها بالماء، وهي واقفة كاشفة عن جوربها الذي يدفئ ساقيها، والعمال يتابعونها في خوف، يلعنونها في دواخلهم. هي قاسية عليهم. يتمنون أن يأتي شاب صغير وسيم، يصلح لأن تحبه، فهي إن رأته ستترك مراقبتهم وتذهب إليه، تسأله عمّا يريد. لو كان في العمال مَن يصلح لها لدللته وأعطته ما يريد.

بنيامين اللعين باعها من أجل الدوطة التي لم تستطع أن تدفعها له، ودفعتها له فتاة غنية، ليست في جمالها، ذهبت إليه في دكانه الذي استأجرته له أسرة زوجته في ميدان القناصل، خرج إليها يمسك موسى الحلاقة، صاح بها: «إنني أحلق لزبون الآن».

لم تهتم بالزبون ولا بغيره، وشدته من ملابسه: «أنت لا أمان لك، وعدتني بالزواج، ولأنني لم أستطع أن أدفع لك الدوطة اللعينة، تركتني وذهبت إلى التي تستطيع».

قال بتوتر: «أرجوكِ يا الهادية، إنني في مكان أكل عيش»، وتركها وأسرع إلى الدكان. لم تبتعد، أسرعت هي الأخرى إليه، كان الزبون يجلس فوق مقعد الحلاقة.

صاحت للزبون: «هذا الرجل لا أمان له. وعدني بالزواج، وتركني بعد أن...»

دفعها بنيامين من ذراعها ورماها خارج الدكان، وقعت على الأرض، جرحت ساقها، نزف الدم منها. وعاد إلى زبونه يحلق له دون تعليق على ما حدث وكأنه لم يفعل شيئًا. والزبون أيضًا لم يتحدث وكأنه لم يرَ ما حدث.

وعادت الهادية حزينة. لو علم والدها بما فعله بنيامين بها سيموت كمدًا. كيف ستخفي فضيحتها؟!

بنيامين قوي، ولو واجهته ثانية سيضربها، ويستطيع أن يضرب والدها المسكين لو واجهه. لا بد أن تتصرف قبل أن يكبر بطنها وتظهر الحقيقة.

كان الحل صعبًا. جون الذي كانت الهادية تسخر منه ومن طريقته في الكلام، ومن عينيه اللتين ترقصان كلما تحدث مع أحد، هو الحل.

عاد بنيامين إلى سوق السمك، فقد حسب حسبته خطأً، الرجال الأغنياء في ميدان القناصل لم يقبلوا عليه، وعمله كحلاق صحة لم يمارسه هناك؛ فالأجانب الذين يسكنون ميدان القناصل لا يختنون أطفالهم، الختان يتم في أحياء المسلمين واليهود؛ ولن يُقبل عليه في دكانه سوى سكان الأحياء الفقيرة.

عاد بنيامين مع زوجته الدميمة التي فضلها عليها، استأجر دكانًا هناك وشارك حلاقي الصحة اليهود في رزقهم. وسكن بزوجته وأولاده حجرتين في بيت قريب

من بيت الهادية. وانتظرها وهي ذاهبة إلى عملها في الصباح. «الهادية، أنتظرك منذ وقت طويل».

دفعته في صدره غاضبة: «دعك من تصرفاتك هذه».

- جئت حارة اليهود من أجلك.

- بل جئت بعد أن خذلك الأجانب الذين لم يحلقوا عندك.

أمسك يدها، وسبّل عينيه لكي تلين، فدفعته في عنف: «ابتعد وإلا خلعت حذائي وضربتك به فوق رأسك».

لم ييأس، فهي تكسب كثيرًا من عملها بالمستشفى، ومن توليدها للنساء على مستوى الإسكندرية كلها. ولو عادت كما كانت معه ستعطيه الكثير.

- بنيامين. تأخرت على عملي، أرجوك دعني أمر.

- لن أدعكِ قبل أن تخبريني بالموعد الذي سأقابلك فيه.

ضحكت ضحكتها الطويلة الممطوطة التي اشتهرت بها وقالت: «لم أعد الهادية البلهاء التي تستجيب لهذه الحركات».

- لا تنسي أن الولد الذي يربيه جون الآن هو ابني.

- إنني أحتقرك، لو كنت إنسانًا حقيقيًا لبحثت عنه. إنك لم تكلف نفسك حتى بزيارته ودفع نفقاته.

- سأفعل يا الهادية. لكن عودي إليّ كما كنتِ.

- سأذهب إلى زوجتك وأخبرها. وأحكي لها عن حكايتنا القديمة.

ثار بنيامين وظهر على حقيقته: «أنا أعرف ما تفعلينه مع الشباب الصغير».

صاحت بصوتٍ مرتفع غير خائفة من الفضيحة: «جسدي وأنا حرة فيه».

- أنا حبيبكِ القديم.

- وربي لو كنت الرجل الوحيد في العالم ما وافقت عليك، ابتعد الآن.

دفعته في عنف، حتى اصطدم جسده بباب دكانه. ثم نظرت خلفها وبصقت عليه وسارت.

دخل فرج المستشفى، دار في الأروقة يبحث عن الهادية. قابلته ممرضة شابة، سألها عنها، فضحكت، فعادة الذين يسألون عنها لا يزيد عمرهم على الثلاثين، ما الذي حدث لها، هل ضاق بها الحال حتى تتعامل مع الأكبر من ذلك؟!

ضحكت الممرضة ساخرة وأشارت إلى مكانها.

أسرع فرج إليها. تابعته الهادية في تثاقل وضيق، فكثير من اليهود يأتون إليها طالبين خدماتها، لتعرضهم على أطباء المستشفى، أو تصرف لهم العلاج اللازم، أو تساعدهم في توليد زوجاتهم. قالت في لغة ممطوطة: «نعم، ماذا تريد مني؟»

قال فرج: «الموضوع طويل، وفي حاجة لأن أجلس».

لم تقل له: «اجلس»، بل تمنت أن تطرده من أمامها، يجيء من أجل خدمة ويتعامل بكبرياء. المفروض أن ينحني لها ويطلب في ضعف ورجاء.

- كنت لدى جون زوجك.

- لعنة تلعنه، ما الذي فعله لك؟

ظنّته جاء ليشكوه لها. فهذا يحدث أحيانًا. كان آخرها عندما جاءتها زوجة الملعون بنيامين لتشكوه لأنه يذهب إلى بيتهم في الصباح المبكر لزيارة صديقه الرسام المجنون مثله.

قال فرج: «لم أحضر إليكِ لكي أشكوه لكِ، إنما جئت طالبًا خدمة منه».

وقفت مندهشة. فقد تغير الوضع الآن. إنه يريد خدمة من زوجها. ماذا يستطيع جون أن يفعل؟ يعالج الأمراض؟ إنه أسوأ مَن يقوم بهذا. حتى طهارة الأولاد فشل فيها، وكاد - في آخر مرة - أن يقطع ذكر أحد الأولاد بعد أن ارتعشت يده التي تحمل الموسى، وجرحه بالفعل، حتى رماه أهل الولد خارج الدار صائحين في غضب: «كدت تقضي على رجولة ابننا».

جلست أمام فرج، بعيدًا عن مكتبها، كاشفة عن جوربها الذي يغطي الساقين الطويلتين: «ماذا يستطيع جون أن يقدم من خدمات؟!»

- تعرفين عامير بك؟

- طبعًا أعرفه. نحن اليهود نفخر به ونتباهى.

- الخدمة من أجله هو.

ضحكت: «أنت لا شك تمزح. عامير بك في حاجة إلى زوجي الأبله؟»

- نعم، وفي مهمة تخص كل يهود مصر.

- إنه أمر غريب. ماذا؟ أيريده أن يدعو له سيده عنان بن داود؟!

- إنكِ تسخرين، مع أن الأمر غاية في الجدية.

تغيرت معاملتها مع فرج، فالرجل يتحدث في أمور لم تكن تظنها تحدث لها ولزوجها: «احكِ الحكاية من أولها، فأنا مندهشة مما تقول».

حكى فرج لها ما حدث، فقامت واقفة، الأمر غاية في الخطورة. زوجها الذي تعامله على أنه أبله اتضح أنه مبروك، يسعون إليه ليعالج والي البلاد، بركاتك يا عنان يا بن داود. كثير من نساء اليهود قلن لها إن زوجها مبروك، وبه شيء للرب. لكنها لم تصدق وسخرت منهن، وضحكت ضحكتها العالية المعروفة بها.

قام فرج من مكانه، أحنى ظهره أمامها واستعطفها: «أرجوكِ، أثري عليه ليوافق».

قالت بثقة: «اطمئن، فسوف يذهب معك في أي وقت تشاء».

قال فرج: «سأحضر إليه بعربة عامير بك لكي يقابله في قصره، ليبلغه بتعليماته».

أومأت برأسها ولم تنطق، كانت شاردة فيما يحدث أمامها.

***

سارت الهادية في طريقها إلى البيت. ما هي حقيقة جون زوجها.. هل هو أبله أم قديس؟ لقد رحب بزواجه منها، وجاء لزيارة أبيها قبل أن يموت. اندهش الرجل فقد جاء ليخطبها الذي كانت تسخر منه، أين ذهب بنيامين الذي كانت تحكي لوالدها عنه بالساعات دون ملل، حتى كان الرجل يتعب ويغالبه النوم وهي تحكي عنه؟

سألها بعد أن ذهب جون: «ماذا حدث يا بنتي؟ لماذا جاء هذا لخطبتك، ولم يأتِ بنيامين؟»

- إنه يريد دوطة كبيرة، ونحن لا نملك ذلك.

لم يجبها الرجل بشيء، لكنه بكى بعد أن ابتعدت عنه.

تحس الهادية أن جون كان يعلم بأنها حامل من بنيامين، هو لم يحدثها في هذا، لكنه كان يلمح من بعيد. وعندما ولدت ابنها بعد زواجها منه بأقل من سبعة أشهر، لم يعلق، بل احتضن الطفل وقبّله، وغنى له مهدهدًا، وما زال يحبه للآن، بل تحس الهادية – أحيانًا - أنه يحبه أكثر مما تحبه هي..

كان جون يقوم بذبح الدواجن لأهالي حارة اليهود، يتمتم من أنفه: «مبارك أنت يا رب إلهنا ملك العالم، الذي قدستنا بوصاياك، فأوصيتنا بالذبح».

كان يذبح للملتين: اليهود الربانيين، واليهود القرائيين، لكن فجأة غضب اليهود الربانيين عليه وامتنعوا عن الذبح عنده، رغم أنه لم يكن يقبض منهم قرشا ولا عشرة، قالوا: «إنه غير معترف بفضل الحاخامات الحكماء الذين كتبوا التلمود، لكن الرب عاقب جون على ذلك، فجعله مشوها، لا يجيد التحدث». وادعى البعض أن هذا كان نتيجة خطبة ألقاها حاخام معبد زرأديل القريب في يوم سبت، الغريب أن اليهود القرائيين – أيضًا - اقتنعوا بما ادعاه الربانيون وامتنعوا عن ذبح دواجنهم لدى جون. فقابل جون هذا بابتسام، ولم يعلق أو يدافع عن نفسه.

هذا هو جون التي لا تفهم الهادية هل هو أبله أم قديس؟!

عندما جاءها في المساء سألته: «لماذا لا تريد أن تذهب لمقابلة عامير بك؟»

- ولماذا أذهب إليه؟ إنني سعيد هنا في حارة اليهود.

اقتربت منه، داعبت وجهه الأملس، مرت بيدها على شعره حتى ذقنه، فارتعدت فرائصه، أحس بالسعادة، كان الولد هارون في الخارج يغلق الدكان، قالت في صوت حالم: «الكل في حارة اليهود يتمنى أن يتصل بعامير بك، فهو الرئيس الحقيقي لكل يهود الإسكندرية.. فكيف ترفض مساعدته؟!»

- لا أريد شيئا من هذه الدنيا.

أعادت يدها الساحرة فوق وجهه، شعر بالسخونة تمر في عروقه، ورغبة في أن يهرش شعر رأسه: «أنت لا تريد شيئًا، وأنا زوجتك وابنك هارون، ألا نريد شيئًا؟!»

- ماذا تريدان؟

- ألا تعلم أن عامير بك قادر أن يغنينا.

- لقد عاهدت عنان بن داود على ألا أطلب شيئًا من إنسان.

- لكنك لم تعاهده على رفض شيء لزوجتك وابنك.

أبعد يدها عن وجهه، لم يعد يحتمل «الأكلان» في جسده كله، وقف وهرش جسمه.

جاء هارون بعد أن أغلق الدكان. قالت الهادية: «والدك سيذهب لمقابلة عامير في الغد».

صاح جون في حدة: «والدكان، ماذا أفعل به؟»

- هارون كبر الآن، وسوف يقوم بكل شيء فيه.

قام جون، نام فوق فراشه، وغطى جسده بالملاءة. اقترب هارون من أمه، وقال لها: «لن أستطيع أن أقوم بأعباء الدكان وحدي».

قرصته في ساقه لكي يكف عن هذا القول؛ حتى لا يعود جون ثانية إلى الرفض، قال هارون: «سأطلب من رزق ابن عمي أن يعمل معي».

صاحت غاضبة: «ابن بنيامين لا. كله إلا ابن بنيامين».

رفع جون الغطاء عن جسده وقال: «لماذا؟ رزق صديق هارون، ويرتاحان معًا».

قالت: «وهل سيسمح بنيامين بترك ابنه؟»

قال جون: «لو على بنيامين لا تهتمي، فهو لا يريده في دكانه. بنيامين لا يحب إلا نفسه»، ثم شد الغطاء حول جسده كله ونام.

في الصباح، وقف فرج بعربة عامير التي يجرها حصانان، قفز منها وأسرع إلى بيت جون، ظنه سيعارض، ويتشاجر مع زوجته. لكنه فوجئ به مرتديًا ملابسه، والهادية تنظر إليهما مشجعة، وابنهما هارون ينظر إلى الجميع دون تعليق.قال جون لفرج: «هيا بنا».

ركب جون العربة، جلس بجوار فرج، وابتسم لكل من يقابله في حارة اليهود، ملوحًا بيده، كأنه لم يعترض على الذهاب مع فرج بالأمس.

سارت العربة في شوارع الإسكندرية، يطرقع فرج بكرباجه وسط الحصانين ليسرعا حتى يلحق عامير بك في قصره.

سارت العربة مخترقة الشارع الذي يبدأ من جمرك الإسكندرية، وتجاوزت ميدان القناصل، ثم وصلت لوسط المدينة، حيث قصر عامير بك.

قفز فرج من فوق العربة العالية بخفة، بينما ارتبك جون، واهتز، ووقف فوق حافة العربة محنيًا ظهره، متحيزًا، ماذا يفعل، فلو قفز مثل فرج هكذا ستنفصل

أعضاؤه عن بعضها وسيتحطم. تابعه الخدم الذين يعملون في حديقة القصر الكبيرة، وقفوا مشدوهين لرؤية جون، فما الذي يأتي بإنسان مثل هذا إلى قصر عامير بك. ويأتي راكبا عربته؟! هو لم يركب داخل العربة، كان جالسا فوق، مكان قيادتها مثله مثل فرج. لكن ظل حضوره هكذا يثير الدهشة.

مد فرج يديه إلى جون، وطلب منه أن يقفز ولا يخف، فسوف يتلقفه بيديه القويتين. لكن جون لم يفعل. حتى اضطر فرج لأن يصعد فوق العربة ويحمله حملًا، والخدم في الحديقة يضحكون من رؤيته هكذا.

ظل جون يلهث، بينما فرج ينتظره حتى يدخلا بهو القصر؛ حيث ينتظرهما عامير وضيفيه الكبيرين دوف وزاكن.

لو تمت هذه العملية بنجاح ستزداد محبة فرج لدى سيده عامير، وقد يعطيه مكافأة على ذلك.

مد فرج ذراعه، وضعه خلف ظهر جون وأدخله باب القصر الواسع الكبير، وسار قبله وهو ما زال ينظر إليه مشجعًا.

كان عامير وضيفاه يحتسيان القهوة ويتحدثان في أمور التجارة، وعن المشاريع التي سيتحدثون عنها مع الوالي سعيد عندما تسمح الظروف، وفجأة قفز فرج في أول الردهة، لم يحيهم، بل نظر إلى الخارج وهو يقول: «ادخل يا جون، ادخل».

صمت الجميع، وانتظروا جون هذا الذي يناديه فرج.

فوجئوا برجل شديد النحافة والشحوب، وملابسه رثة، وظهره منحنٍ للأمام، وعيناه ترقصان في سرعة غير عادية، وفي عصبية واضحة.

قال زاكن لزميليه: «مَن هذا؟»

مطّ عامير شفتيه دون أن يُعلِّق، ونظر إلى فرج ليوضح. فقال فرج: «جئت به يا سيدي».

- مَن هذا الذي جئت به؟!

- إنه جون الحلاق.

لم يسمح عامير لفرج بأن يُكمل، وهبَّ فزعًا، وصل إلى مكان فرج في قفزات سريعة جدًا، ثم أمسكه من ذراعه في قسوة وشده إلى خارج الردهة. أحس فرج أنه سيضربه فوق وجهه ويرميه خارج قصره ويأمره بألا يأتي إليه ثانية.

- جُننت يا فرج. إنه مسخ آدمي.

- هو الذي طلبته يا سيدي.

- أتريد أن تقول إن هذا الشيء سيُعالج والي البلاد؟

- إنه متعلم أصول التمريض في مستشفى كلوت بك، ولديه ما يثبت ذلك.

صاح عامير غاضبًا: «إنه لا يصلح لشيء».

وعاد إلى الردهة مسرعًا، لو رأى الوالي سعيد هذا الإنسان الغريب سيغضب على كل يهود مصر، وسيلغي

كل الامتيازات التي منحها لهم من قبل.

كان جون واقفا في حالة صعبة، ظهره منحنٍ للأمام، وعيناه ترقصان للأرض التي ينظر إليها، واليهوديان الكبيران يتابعانه في صمتٍ ودهشة. لم يكفّا لحظة عن متابعته. ولم ينطقا بحرف.

دخل عامير مندفقا، أمسك جون من ملابسه، وشده إليه في عنف: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

انحنى جون أكثر، حتى كاد رأسه يلمس الأرض، وقال بصوت غريب، خائف وضعيف: «فرج هو الذي جاء بي إلى هنا».

تغير الوضع بعد حديثه هذا. تركه عامير وتابعه مندهشًا، وانفجر دوف وزاكن في ضحك متصل، قهقها بصوت مرتفع، نسي دوف وقاره، فقد جاء الصوت من هوةٍ سحيقة، صوت أخنف، أخرق، كأنه جاء من قبرٍ عميق.

حار فرج فيما يفعل، ابتسم في الأول إلى دوف وزاكن، ثم شاركهما الضحك المتصل. وسار عامير ناحية مقعده الذي كان يجلس عليه، وابتسم في تثاقل وهو ما زال ينظر إلى الرجل المرتبك الحائر فيما يحدث.

كعادة عامير لم يصدر أمرًا قبل أن يدرس كل وجوه الموضوع. جون هذا مصاب بلحمية في أنفه. أو ربما أصابه زكام منذ طفولته ولم يجد من يداويه، فأصبح مزمنًا. على أي حال هذه الحالة ستساعده في عمله

كثيرًا. فهو – لا شك – يشم بصعوبة، وربما لا يشم من أصله.

ابتسم عامير، قال لجون: «لا تخف»، ثم قال لفرج: «خذه إلى المطبخ ليأكل».

أحسّ فرج بالسعادة، فقد وافق عامير بك على أن يقوم جون - الذي اختاره - بالمهمة. أمسك جون من يده وشده كأنه شرطي يقبض على جانٍ، ودفعه أمامه، وانساق جون لما يحدث صامتًا، وحامدًا الرب لأنه نجا منهم.

بعد خطوات قليلة، صاح عامير، فتوقف فرج ونظر إلى سيده ليسمع باقي التعليمات: «اجعلهم يحمّونه، ويعطونه ملابس مناسبة».

* * *

تنام الهادية وحدها فوق السرير، ابنها هارون نائم في الحجرة الأخرى. رفعت جسدها فوق حافة الفراش وتنهدت في أسى. تذكرت ما فعله بنيامين معها، وتحديها، ومواجهتها له في قوة حتى خاف منها وابتعد عنها. كل ما تخشاه أن ينتشر الخبر في حارة اليهود، ويعلم الجميع أن هارون ابنها ليس ابن جون، وإنما ابن بنيامين قريبه. إنها لا تخاف على نفسها من الفضيحة، فأهل الحارة – كلهم تقريبًا - يعلمون بما تفعله مع الأولاد الصغار، وإنما تخاف على هارون، فالناس لن ترحمه، سيعاملونه على أنه ابن زنى، وجون قد يعلم بما

يعلمه بنيامين وتحدث المواجهة بينهما، واليهود لن يرحموه، لن يسمحوا له بدخول المعبد كسائر اليهود في سوق السمك.

عادت إلى وسادتها وتمنت لو نامت. ابتسمت رغمًا عنها. زواجها من جون كان كارثة، إنه عظام هشة ملتصق بعضها ببعض، وأعصاب ضعيفة لا تقوى على المعاشرة الزوجية. ماذا تفعل؟ أتظل هكذا؟!

بعد أن فشل معها، ضحك بصوت مرتفع كأنه سمع نكتة، ثم نام هانئًا مطمئنًا، وظلت تتابع غطيطه. الرجل لم يحزن، لم يحس بالأسى لفشله، وهي ما ذنبها؟ أرادت أن تضربه في وجهه وصدره الضعيف الذي تبرز منه عظام ضلوعه.

ظلت تنتظر الصباح بفارغ الصبر، عندما سمعت صوت باعة اللبن – الذين يأتون إلى حارة اليهود مبكرًا – هبّت من سريرها وارتدت ملابسها على عجل وخرجت من البيت. مرت أمام معبد زراديل بشارع عمرام القريب من البيت، أرادت أن تذهب إلى الحاخام لتسأله في مصيبتها. لكن الحاخام سيكون نائمًا الآن. وحتى لو وجدته، ماذا سيقول لها؟! سيقول: «اصبري، فهذه إرادة الرب ليمتحنك».

ذهبت إلى المستشفى. العمال يخافونها ويكرهونها، تعرف هي هذا ولا تهتم به. رأتهم ينحنون فوق أرض الردهة يمسحونها بحماس لكي ترضى عنهم. معظمهم

شباب صغار. أجسامهم متكاملة، مرت بينهم، تظاهروا بالانهماك في العمل. رأت عضلاتهم، وعروقهم النابضة فوق أذرعتهم العارية، والعضلات المفتولة. ابتسمت لهم. قالت: «ربنا يعطيكم العافية».

اندهشوا، فهم لأول مرة يرونها تعاملهم في لين. سارت إلى حجرتها، جاءها الخادم العجوز ككل صباح، حاملًا كوب القهوة باللبن. رأت وجهه قريب الشبه من وجه جون، وذراعاه كأنهما خيطان ضعيفان، فشعرت بكره له. صاحت فيه بدون سبب، سبّته وأمرته بأن يبتعد عن وجهها، فابتعد الرجل وهو يزمجر غاضبًا.

ليت جون زمجر كما يزمجر هذا العامل العجوز، ليته أبدى ندمًا، أو شكا من حظه التعس. لم يفعل شيئًا سوى الضحك، لقد كان يضحك من فشله، من خيبته.

أحست برغبة في البكاء، لكنها تذكرت ضعف جون فتماسكت. لا يمكن أن تكون ضعيفة مثله. لا بد أن تتماسك. لن ينفع الندم، ولن تطالبه بأن يطلقها فذلك صعب، ستعيش كما تشاء، ترتوي من الرجل الذي يروق لها، لا، لن تختار إلا الرجل القوي، الشاب الصغير. ما دامت ستغامر وتعرّض شرفها للمهانة وسمعتها للقيل والقال، فلا بد أن يكون العائد عظيمًا، فتى في أوج شبابه، وفي العمر الذي يجعل المرأة ترتوي أكثر. لن تختار إلا الشباب الصغير الذي لا ينضب ولا يتعب. إذا سرقت فاسرق جملًا، وإذا عشقت فاعشق قمرًا. نعم، ستختار أقمارًا قوية جميلة.

بعض الأولاد الذين يعملون في المستشفى يصلحون لهذه المهمة. لكن ذلك صعب، فلو فعلت هذا لن تستطيع السيطرة عليهم. وسيستغلون هذا الضعف للنيل منها.

لم يعد جون من قصر عامير بك.

ما الذي يذكرها بذلك الماضي؟! أيام مضت، كان زاكن شابًا ووالدها يعمل في إسطبلاته، كان يُسكنهم حجرات متصلة بالإسطبل لكيلا يبتعدوا عن جياده. كل العاملين في قصره من اليهود. وتزوجت وسكنت سوق السمك حيث يتجمع أكبر عدد من يهود الإسكندرية، ومات والدها فاستعاد زاكن الحجرة التي كانوا يسكنونها، أعطاها لسائس آخر. لم تكن في حاجة إلى الحجرة، بعد أن سكنت في شقة بأكملها يمتلكها جون.

النوم يغالبها وتغالبه، يداعب عينيها فتطرده. جون لم يبتعد عن البيت. كل ليلة يشاركها فراشها، يطوي جسده اللين تحت الفراش ويغط في نومه وكأنه يموت. وتطاردها الأوهام، بنيامين بشاربه، ووجهه الجميل، وكلماته التي يسكرها بها. يتحدث عن جسدها ولون عينيها ولون شعرها. كان كذابًا كبيرًا، يقول لها ما قاله لكل فتاة تعجبه. لا تدري الهادية أين قابل الملعونة التي تزوجها. ربما كان يقابلها في نفس الفترة التي كان يقابلها فيها. وربما كان يزورها في بيتها كخطيب؛ بعدما يلتقي بها ويحدثها عن أحلامه وعن رغبته في أن يتزوجها، وأن ينجبا أطفالًا كثيرين.

عندما علمت بأنه تزوج، تجمع كل حبها له وانقلب إلى كراهية شديدة. ومن يومها لا تطيقه ولا تطيق رؤيته، يعلم أنَّ في بطنها جنينًا منه، وعندما تزوجت جون جاء بصفته ابن عمه، وتظاهر بالسعادة وأراد أن يغازلها، لكنها صدّته في ضيق، وهددته بأنه لو فعل هذا ثانية ستفضحه أمام الجميع. قال لها: «إن جون ليس بالرجل المناسب لكِ، وإنني واثق بأنكِ ستأتين إليّ بعد أول يوم زواج، بعد أن تعلمي الفرق بيني وبينه».

فدفعته في عنف، وصاحت، فخاف وهرب من أمامها، سألها – وقتها – جون عما حدث، فكذبت عليه، وقالت له أشياء نسيتها الآن.

وعندما أنجبت ابنها هارون، تذكرت بنيامين – والده – وازدادت كراهيـتها له، وأحست بالإشفاق على جون. الرجل يعرف أنه لم يستطع معها، وأنه لم يتصل بها، فكيف تنجب منه؟!

كبر هارون الآن، ألحقته بمدرسة «أجيون» التي أنشأها عامير بك لأطفال اليهود، تعلّم فيها أصول القراءة والكتابة، وبعضًا من اللغة العبرية، وقواعد الحساب، وعندما سيتم تعليمه في المدرسة سيعينه عامير في أحد مشاريعه. لكنَّ الولد معجب بعمل جون، يقف معه في الدكان، ويحاول أن يقوم بعمله. كلما رأته الهادية هكذا تصيح فيه وفي جون غاضبة: «ستضيّع مستقبل الولد».

فيبتسم في بلاهة، ويعود الولد معها غاضبًا.

يمر بنيامين أمام دكان جون، تراه – أحيانًا – من نافذتها، ويكون هارون واقفًا بجوار الدكان، فيمر بنيامين دون أن يلتفت إليه. المفروض أن ينظر إلى الولد، ويحدثه، إنهم يقولون إن «الدم يحن»، فلماذا لم يحن مع بنيامين؟!

أحست الهادية بالتعب، وبرغبة شديدة في النوم، فتثاءبت مرات عديدة. لا تدري متى سيعود جون، هل سيظل في بيت عامير إلى النهاية، فلا يأتي إليها أبدًا؟!

بعد لحظاتٍ قصارٍ نامت.

***

عاد دوف إلى القاهرة واعدًا عامير بزيارته خلال الأسبوع القادم ليريا ما ستحدثه الأيام في حالة الوالي سعيد، وعاد زاكن إلى بيته، بينما ظل عامير وحده. تابع جون الذي يشترك أربعة من خدمه في إعداده للمهمة المقدسة ليهود مصر. قال عامير للخدم الأربعة، وكلهم من اليهود: «إنه سيقوم بمهمة تخصكم جميعًا، فساعدوه على إنجاحها».

ارتدى جون بذلة جديدة أعطاها له عامير، وحمل حقيبته الجلدية التي يضع بها عدة الشغل، وأوراقه التي تثبت أن لديه رخصة في علاج الأمراض والجروح. لا بد أن يذهب عامير معه، فلن يسمحوا له بدخول القصر، أو الاقتراب منه بدونه، على الأقل في أول مرة.

حدّثه عامير – كالعادة – مبديًا له تعليماته. وسار عامير في المقدمة والخدم جميعًا يتابعون جون في ردائه الذي يبدو فيه كالأراجوز، حتى خدم المطبخ تركوا أعمالهم وتابعوه، وفرج وجون يسيران خلف عامير. راقب فرج خطوات جون بحيث لا تسابق، أو توازي، عامير بك. فهذا لا يصح، ولا تعترف به لا الديانة ولا العرف ولا القوانين.

قفز فرج فوق العربة في خفة، بعد أن فتح الباب لسيده عامير ليدخل، وظل جون واقفًا، منتظرًا أن يناديه فرج ليجلس بجواره، كما حدث في المرة الفائتة، لكن فرج لم يفعل. وفوجئ جون بعامير بك يناديه: «هيا اصعد، واجلس بجواري».

فصعد مضطرًا، وجلس بجوار عامير في انكماش كأنه كتكوت وقع في إناء ماء.

وقفت العربة أمام باب القصر الكبير، وأحاط الحراس بها، فأسرع عامير إليهم. إنهم يعرفونه، ورأوه كثيرًا يدخل القصر، ورآه البعض يسير مرافقًا للوالي سعيد قبل أن يمرض. وكانا يتحدثان معًا رجلًا لرجلٍ كأنه والٍ مثله.

سمحوا لهم بدخول باب القصر، ظلوا واقفين في ردهة القصر حتى جاءهم أحد الموظفين ليسأل عما يريدون. وعاد وتركهم في وقفتهم مدة طويلة، حتى جاء طبيب القصر وحده. إنه نفس الطبيب الذي تحدث

معه عامير، ووعده بأن يأتي له بممرض قادر على احتمال الروائح الكريهة التي تفوح من جسد الوالي.

تابع الطبيب جون في دهشة، فهو رأى عامير من قبل، ورأى فرج، كما أن ملابس فرج تدل على أنه قائد العربة، فلم يتبقَّ سوى ذلك الذي يقف في انحناء، وحقيبته تدل عليه أكثر. إنه الممرض المطلوب لا شك.

نظر الطبيب إلى عامير متسائلًا: «أهذا هو الممرض؟!»

قالها في اعتراض، فأجابه عامير بكل ثقة: «لن تجد أصلح منه لهذا»، ثم نظر إلى جون وقال له: «أطلعه على أوراقك».

فتح جون الحقيبة وسلمها للطبيب، فقرأها بضيق، فهو حلاق صحة مثل المئات الذين يعملون في القرى والمدن. تمنى عامير أن يتحدث جون؛ ليعرف الطبيب أنه لم يُخلق إلا لهذه المهمة.

قال الطبيب لجون: «أما علاج الوالي فهو أمر سهل، مراهم عادية تُصرف للمجروحين والمحروقين والمصابين بالأمراض الجلدية».

يعرف الطبيب أنها عملية لا طائل منها، فالمرض ليس له علاج، كما أخبره أطباء أوزبا الكبار. إذا كان أطباء أوزبا حاروا في أمره، أسيعالجه ذلك الحلاق البسيط؟ لو بيد الطبيب الأمر لمنع جون من زيارة الوالي، فهي زيارة معروف نهايتها مسبقًا. لكنه لا يستطيع، فما دام الوالي

مريضًا، فلا بد من ممرض مقيم معه في القصر، ولا بد من العلاج لآخر دقيقة في حياة الوالي. هكذا هي الأصول.

سار جون بحقيبته ناحية حجرة الوالي، التي أشار الطبيب إليها من بعيد. وعاد إلى عامير وفرج قائلًا: «سآمر بإعداد حجرة له في القصر، تكون قريبة من حجرة الوالي».

لم يأتِ الكتخدا لاستقبال عامير، ولم يأتِ سوى الموظف الصغير الذي استدعى لهم الطبيب، فعاد عامير مع قائد عربته، وتركا جون ليقابل مصيره في هذا القصر الكبير.

جون وتلك الرائحة

رفع جون الغطاء عن جسد الوالي سعيد، فازدادت الرائحة الكريهة نفاذًا، وعندما انحنى على خلطة المراهم التي جاء بها من دكانه، والتي صنعها بنفسه من الأعشاب وبعض أوراق شجر يعرفها، ويذهب ليقطفها بنفسه، رفع سعيد رأسه قليلًا عن وسادته، فرأى جسد جون المنحني فوق مقعد متنقل، جاءوا به من بهو القصر، وأدخله جون بنفسه بعد أن رفض الخدم والعبيد إدخاله، وضع جون المراهم والعلاجات فوق الجسد المتقيح. رفع ملابسه عن جسده، ثم أحس بأنه لا بد أن يخلع الملابس كاملة ليتمكن من دهن جسده جيدًا، فخلعها بحرص شديد. أفاق وقتها الوالي ونظر إليه، ثم عاد ثانية إلى غيبوبته. حمل جون الملابس في حرص ووضعها بعيدًا عن السرير، وظل الوالي بملابسه الداخلية، لكن جون بعد أن انتهى من دهن المناطق الظاهرة من جسده، وجد أن التقيحات وصلت إلى الأماكن المغطاة بملابسه الداخلية، فاضطر أن يخلعها أيضًا، وأكمل عمله، وهكذا أصبح الوالي كما ولدته أمه. ثم لفَّ الجسد في ملاءة سرير لفًّا جيدًا وغطّاه كما كان.

كانت تنتاب الوالي حالات إغماء كثيرة طوال الليل والنهار. ويتوه أحيانًا. يصير بين المستيقظ والنائم، يسمع ما يدور حوله وكأنه حلم. فأحس سعيد بالمشكلة التي يعانيها الطبيب ومَن يقترب منه، وعذر الذين لا

يُطيقون رائحته. فهو لا يطيق رائحة نفسه، فما بالك بالآخرين؟!

أحسَّ جون بالخوف وارتعشت يداه وهو يلمس جسد الوالي. إنه مريض الآن، لكنه والٍ. دهن الجسد كله من أوله إلى آخره. كان يرفع الجسد الثقيل بيديه ليتمكن من الوصول إلى أماكن بعيدة، ثم لفَّه بالأغطية، وشد الغطاء فوقه، وخرج من الحجرة ليبلغ الطبيب بما فعل.

تجمَّع عدد كبير من الخدم، وبعض الموظفين، وقفوا بعيدًا، في مكان لا تصل إليهم فيه الرائحة الكريهة، وانتظروا ذلك المخلوق الغريب الذي تمكن من المكوث بعض الوقت في حجرة الوالي دون أن يُصاب بأذى. لقد خرج من الحجرة دون أن يتقيأ، أو يختنق.

جاء الطبيب، نظر إلى جون مندهشًا، قال جون: «فعلت ما قلته لي».

أراد الطبيب أن يضحك، وعرف سر تماسكه، وعدم تأثير الرائحة الكريهة عليه. قال الطبيب: «ستبقى في القصر عدة أيام».

هذه الأيام هي التي سيعيشها الوالي. فالطبيب يرى أن أجله اقترب، وما هي إلا أيام قليلة ويموت.

دخل جون الحجرة التي أعدوها له، وجاءه خادم أسود، قال له: «سأحضر الطعام لك».

اقترب جون منه وقال في توسل: «أرجوك، قبل الطعام وقبل أي شيء، أريد دورة المياه لأغسل يدي من

المراهم والعلاجات».

أخذه الخادم الأسود إلى دورة المياه، ثم نشر خبر نطقه العجيب لكل مَن في القصر من خدم، فضحكوا دون أن يسمعوه.

نام الوالي سعيد نومًا متواصلًا حتى صباح اليوم التالي. دهش الجميع مما حدث. فلم يسمعوا صوت أنينه الذي كان يأتي من وقت لآخر، وصوت صراخه الذي كان يرج جدران القصر الكبير؛ وتسمعه النسوة في الحرملك البعيد. أول الأمر ظنوا أن الوالي مات. وأن الطبيب جاء بذلك الأخنف لكي يقتل الوالي ويرتاح من عنائه، وأسرعوا إلى الموظفين الصغار ليبلغوهم بما حدث، ووصل الخبر إلى نسائه، فأسرعن بطلب الكتخدا وسؤاله عما حدث للوالي.

بحث الكتخدا عن الطبيب، وأمره بأن يدخل حجرة الوالي – مهما كانت الظروف – ويتأكد من حالته، ويخبره إن كان مات أم لا، فهو من أشهر طويلة لم يصمت هذا الصمت، ولم ينم هذا النوم.

اضطر الطبيب أن يضع قناعًا فوق أنفه وفمه ودخل الحجرة، فرأى الوالي مستغرقًا في نوم هادئ. أمسك يده وتأكد من أنه لم يمت وأسرع خارجًا من الحجرة، قال مبتسمًا: «الوالي نائم في هدوء».

وشاع الخبر في القصر كله. دهانات حلاق الصحة الجديد، جعلت الوالي ينام مستقرًا، هادئًا، وهذا من أول

دهنة، وأن الشفاء سيكون على يدي ذلك الممرض اليهودي.

كان جون مشغولًا بالأطعمة الكثيرة التي جاء بها الخادم الأسود. لم يحس بما يحدث حوله. اشتاق إلى الولد هارون. وإلى الهادية، هي تسبّه كثيرًا، وتدفعه بيديها في جسده الضعيف، لكنه لا يحتمل البعد عنها وعن صوتها المرتفع دائمًا، وضحكتها العالية، المميزة، حتى أنفاسها اشتاق إليها.

فوجئ جون بالطبيب ومساعديه يدخلون متسائلين عما فعل: «أية أدوية هذه التي جعلت الوالي ينام نومًا هنيئًا هكذا؟!».

وقف جون لهم، وقال: «شاركوني طعامي. فقد جاءوا لي بطعام كثير جدًا».

لم يفهموا منه شيئًا، فهو لا يعرف أن يصف هذه الأعشاب ولا هذه الشجرة التي يذهب إليها ليقطف أوراقها ويجعله علاجًا للأمراض الجلدية.

خرجوا من عنده ليكملوا ضحكهم خارج الحجرة، بينما ظل الطبيب يسأل نفسه، هل هو لا يعرف كيف يصف الأعشاب التي صنع منها المراهم، أم أنه يتظاهر بالبله لكيلا يبلغهم بما وصل إليه من علم؟

بعد أن تناول الطعام أحس جون بالملل، وبالرغبة في العودة إلى سوق السمك، وفرد جسده فوق الفراش

اللين المريح فنام دون أن يحس، فوجئ بالخادم الأسود يدق عليه الباب ليأتيه بطعام الصباح.

قبل أن تمتد يده إلى الطعام. وجد الطبيب يصيح من خارج الحجرة: «جون. جون».

ثم دخل مسرعًا، قال في لهفة: «الوالي استيقظ من نومه ويطلبك».

نظر إلى الطعام، فقال الطبيب: «هذا ليس وقت طعام، أسرع إلى الوالي، إنه يريدك».

سار جون مرتبكًا، إنه يخاف من ملاقاة عامين، فما بالك بوالي البلاد، الذي يستطيع أن يأمر بقطع رقبة مَن يشاء، دون أن يراجعه أحد.

دفعه الطبيب أمامه. وتركه يدخل الحجرة، ثم أغلق الباب خلفه.

سار جون في خطوات قصيرة، والوالي يتابعه في ابتسام. كان يرفع جسده قليلًا فوق الوسائد العالية. صاح بصوت قوي: «اقترب».

فاقترب جون وهو يرتعش.

- هل أنت الذي عالجتني بالأمس؟

- نعم يا مولاي.

عندما سمع الوالي صوته ضحك بصوت مرتفع، سمعه الطبيب ومساعدوه والخدم الذين يعملون قريبًا من حجرة الوالي، وانتشر الخبر، الوالي يضحك بصوت

مرتفع. الوالي الذي قالوا إنه سيموت خلال أيام عادت له الصحة بفضل حلاق صحة يهودي أخنف.

أشار الوالي إلى المقعد المتنقل بجواره، وقال لجون: «اجلس».

تعثر جون قليلًا. ثم جلس. قال الوالي: «إنني سعيد بك، فلم أضحك منذ أشهر عديدة، منذ أن اشتد المرض عليّ».

وقف جون، أحس بالخوف، ومن عدم القدرة على النظر إلى وجه الوالي.

عندما استيقظ الوالي بعد نومه العميق، اكتشف أنه عارٍ تمامًا، رمى الملاءة التي لفّه جون بها في عصبية، لكنه ابتسم، فقد فاحت رائحة الأعشاب المخلوطة معًا والتي غطّت جسده كله. ابتسم بعد أن أدرك حقيقة الوضع، إنه ذلك الممرض الذي رآه بالأمس وظنه كابوسًا من ضمن الكوابيس الكثيرة التي تطارده هذه الأيام. قال الوالي: «مَن الذي جاء بك إلى هنا، الطبيب؟»

- لا. عامير بك.

- أنت يهودي؟

- نعم.

- لقد نمت بالأمس طويلًا، وهذا لم يحدث منذ أن مرضت؛ واشتد المرض عليّ.

أومأ جون برأسه. أكمل الوالي حديثه: «ألم تشم رائحة كريهة في الحجرة؟».

- لا يا مولاي.

وقف جون، فقد ضاق بجلسته الخائفة المرتعشة، وأحس الوالي به، فقال له: «اذهب الآن. لكن لا تبرح القصر فأنا في حاجة إليك».

أحسّ الوالي بارتياح شديد وأمل في أن يُشفى مما ألمّ به، إن هذا الممرض ساحر، كيف يمكنه أن يتحمل تلك الروائح الكريهة التي فشل الجميع في احتمالها؟! وكيف استطاع أن يصنع تلك الخلطة السحرية التي جعلته ينام ويهدأ هكذا، ومن أول دهنة؟! لا شك أنه ساحر، حتى شكله الغريب يدل على ذلك، فالسحرة الذين سمع عنهم، كان شكلهم هكذا. تشويه في الوجه والجسم والنطق أيضًا.

تلك الراحة التي يحس بها الآن جعلته يفكر فيما حدث له، لا شك أن إسماعيل ابن أخيه إبراهيم هو الذي فعل به هذا، فهو ولي العهد الآن، ومن مصلحته أن يموت ليعتلي عرش البلاد، لعله رشا القائمين على المطبخ لكي يضعوا له السم في طعامه. فهو ينتظر موته بفارغ الصبر، ويرسل المراسيل لكي تأتيه بالخبر اليقين. وقد أرسل إلى مسئول التلغراف في العاصمة بأن يستيقظ وينتبه لورود الأخبار من قصر الوالي سعيد في الإسكندرية. وأنه لو جاءه بخبر موته سيمنحه رتبة الباشوية (فقد كان مسئول التلغراف حاصلًا على البكوية)، وبثّ إسماعيل جواسيسه في القصور بالإسكندرية، وفي كل مكان يذهب إليه لكي يبلغوه بما

وصلت إليه حالته الصحية، وبتقارير الأطباء والممرضين. إن أخبار إسماعيل ترد إليه أولًا بأول، إلى أن أصيب بغيبوبته هذه. لكن كل هذا ليس مهمًا، فذلك اليهودي الساحر سيعيد إليه صحته، ولن ينعم إسماعيل بما يريد. كل ما يريده الآن أن يرى ولديه محمد طوسون ومحمود، لقد اشتاق إليهما، أمهما ملك بر هي التي تمنعهما من زيارته. سعيد لا يريد أن يراها، فقد تنكرت له بعد مرضه، واشتاق أيضًا إلى أنجي، فقد أكدت الشدة أنها تحبه بصدق، وليس من أجل ما يعطيه لها.

أمسك سعيد الجرس المجاور له، فجاءه الخادم العجوز، قال وهو يبتسم: «أريد الأمير محمد طوسون ومحمود لأراهما».

انحنى الخادم وعاد مسرعًا. أبلغ هذا إلى الكتخدا، فذهب إلى ملك بر هانم، لكنها أمسكت بطفليها وصاحت في صوت مجنون، سمعه كل مَن في الحرملك: «لا يمكن أن أرسلهما إليه، إنه مريض بمرضٍ مُعدٍ قد يقتل الطفلين الصغيرين».

واضطر الكتخدا أن يعود دون شيء.

وقفت أنجي هانم أمام ضرتها، وصاحت بها: «حرام عليكِ، الرجل يريد أن يرى طفليه، قد يموت دون أن يراهما».

فصاحت ملك بر فيها غاضبة: «لا شأن لكِ به. لو كنتِ تحبينه حقًا، كما تدعين، اذهبي أنتِ إليه وتحملي مرضه المعدي».

فتحركت أنجي ناحية الباب معلنة في عناد: «سأذهب إليه، ولو أدى هذا إلى موتي».

حاولت بعض الوصيفات أن يشددنها، ويحذرنها من خطورة زيارتها له، لكنها رمتهن بعيدًا وأسرعت إلى الدرج، ذاهبة إلى حجرة الوالي. قبل الحجرة بقليل وجدت مجموعة من أطباء القصر يقفون في طريقها. قال أحدهم: «سنمنعكِ من إلقاء نفسك في التهلكة، الوالي يعاني مرضًا خطيرًا، وقد ينتقل إليكِ».

لكنها أسرعت إلى الحجرة باكية، فردوها عنها، وأعادوها إلى الدرج الذي يؤدي إلى الحرملك.

* * *

جلس فرج مع بنيامين خارج الدكان، سأله عن حقيقة ما يُشاع في حارة اليهود، من أن جون ركب العربة التي يمتلكها عامير بك، وقد طلبه للمقابلة في قصره الكبير العامر.

ظن بنيامين أن هذه إشاعات ليس لها أصل من الصحة، وأن جون ركب عربة فرج لأنه طلب منه أن يوصله إلى مكان في طريقه للذهاب إلى قصر عامير؛ كما يحدث مع الكثيرين في الحارة. لكن فرج أكد له

هذا، وزاده همًا بأن قال له: «إنه الآن في قصر الوالي سعيد يعالجه».

ثار بنيامين واتهم صديقه بالخيانة: «ألم أكن أنا أولى بهذا؟! وأنت تعلم أنني أمهر منه في علاج هذه الأمراض».

فقال فرج وهو يضحك، ما زاد بنيامين غضبًا: «الموضوع ليس له علاقة بالعلاج والأدوية، الوالي لا يصلح معه إلا إنسان مثل جون».

- إنك تقول أي شيء لكي تبرر فعلتك.

- صدقني. جون لا يشم. والوالي تفوح منه روائح لا يطيقها أي إنسان عادي.

أحس بنيامين بالأسى، مَن يصدق أن التشويه الذي يعاني منه جون والذي يسخر بنيامين منه لأجله، يكون سبب غناه وشهرته في مصر كلها.

تذكر بنيامين الهادية التي أحبته، وكادت تطير فرحا من شدة حبها له، وعندما طلب مقابلتها في دكانه الذي اشتراه من نقود الدوطة التي دفعتها أسرة أخرى له، لم تمانع الهادية.

أغلق عليها الدكان الذي كان تحت التشطيب وفرش «شوالًا» قديمًا وفعل بها ما شاء، لم تمانع، أو تعلن عن خوفها. كانت مطمئنة إليه، ولو أمرها بأن تلقي بنفسها في البحر المالح؛ لفعلت دون تردد، قالت بعد أن قامت، وهي تنظف التراب الذي علق بجلبابها: «لقد حوّلتني

لامرأة، ولا بد أن نسرع بالزواج قبل أن يكتشف الناس أمري».

فقبلها، وخرجت من الدكان سعيدة، تمني نفسها بالزواج السعيد.

لم يكن بنيامين يعلم أن لقاءه معها قد أثمر طفلًا، فقد يكون غير قادر على الإنجاب، أو تكون هي كذلك. أو يكون الوقت غير مناسب – بالنسبة لها – لإنجاب طفل. وعندما علم أنها حامل، قال قد يكون جون هو والد الطفل، لكن شيئًا حدثه بأن الطفل - الذي في بطنها – هو ابنه، وتأكد له ذلك عندما جاء الطفل بعد زواجها من جون بأقل من سبعة شهور. بعد تسعة أشهر من لقائه بها في دكانه.

سعى لرؤية الطفل دون أن تحس الهادية، خشي أن تفضحه لدى زوجته ووالدها المرابي الذي لا يرحم، وخشي أن يعلم جون أنه والد الطفل.

عاد بنيامين إلى بيته مهمومًا، ترك الدكان لابنه رزق يفعل به ما يشاء. ملعون أبو هذه المهنة التي لم تعطه شيئًا. لقد أعطت للمسخ المسمى جون كل شيء. وهو الذي كان يتباهى بمهاراته وقدراته، أعادته المهنة من ميدان القناصل إلى سوق السمك، بعد أن فشل، ومرت عليه أيام لم يدخل جيبه فيها مليم واحد.

اقتربت منه زوجته، وصل بطنها الممتد إلى ركبتيه الممدودتين أمامه. قالت: «ما الذي جعلك تترك الدكان

وتأتيني؟»

أشاح بيده، لقد تحمل بدانتها الزائدة وقبحها من أجل مال أبيها، فماذا أعطاه المال؟! على رأي المثل: «يا واخد القرد على ماله، بكره يروح المال ويبقى القرد على حاله»، وها هو المال قد راح، ولم يبقَ سوى القرد السمين الممتلئ.

أعادت المرأة سؤالها، وداعبته، ظنته اشتاق إليها فجاء من أجلها؛ مستغلًا خلو الحجرتين من الأولاد، كما أن كل واحد من الجيران - المشاركين في الشقة - له أمر يشغله.

أزاح بطنها الكبير دون حمل، والذي يكاد يخنقه، وقال: «تركت الولد في الدكان».

ابتسمت. بنيامين لا يحب لابنه أن يعمل في دكانه، وحاول كثيرًا أن يُلحقه بالعمل لدى حلاقين آخرين، لكن حاجته إليها جعلته يتخلى عما يريد من أجل لقائها، فهو لا يستطيع هذا في الليل، حيث يسهر أطفالها لوقت متأخر، كما أنها تذهب كل يوم إلى قصر الوالي في القباري لتساعدهم في الخدمة، فقد أرضعت الأمير محمد طوسون، وبعد أن كبر الولد ولم يعد في حاجة إلى رضاعتها، قررت ألا تذهب إلى القصر ثانية، لكن بنيامين ألحَّ بأن تداوم على الذهاب كل يوم، وبالفعل قابلت الأميرة ملك برهانم – أم الأمير – وبكت أمامها، وطلبت أن تأتي للخدمة، فأعطتها الأميرة مبلغًا من

المال، وربّتت ظهرها حانية، وطلبت منها الحضور كأنها ما زالت تُرضع الأمير، خاصة أن الأمير يحبها، ويرتاح لمجلسها.

خلعت المرأة جلبابها المتسخ، وكشفت عن لحمها الأبيض، فنظر بعيدًا عنها. لكنها لم تيأس:

- ما لك يا رجل؟ ألم تأتِ من أجل هذا؟!

- أرجوكِ دعيني في المصيبة التي حلّت عليّ.

أسرعت إليه. التصقت به وسألته: «أية مصيبة تقصد؟!»

- ألم تسمعي عما حدث لجون؟

ابتسمت، وداعبته في نزق: «ما له جون؟ مات؟ فليمت. من أجل هذا تبعد وجهك عن جسدي؟!»

دفعها عنه ليتمكن من التنفس، وقال: «ليته مات. الأمر أصعب من ذلك. جون يداوي والي البلاد الآن».

ابتعدت، وبحثت عن جلبابها ولبسته شاردة: «ماذا تقول؟ كل ما أعرفه أنه كان يركب عربة عامير بك التي يقودها فرج، وكان يلوح للناس بيده فرحًا كطفل».

- أخذه عامير من يده، وسلّمه بنفسه إلى قصر الوالي، وهناك أعدوا له حجرة بجوار حجرة الوالي، وكل وجبة يأتون له بطعام لم تره حارة اليهود من قبل.

جلست المرأة على حافة السرير المقابل للكنبة التي يجلس بنيامين فوقها، فأزّ السرير تحت جسدها

الممتلئ، وقالت: «الأمر سهل للغاية، فرج صديقك. اطلب منه أن يأخذك إلى عامير بك ويقدمك إليه».

ضاق بنيامين بها، فأشاح بيده.

ساعده فرج - صديقه - كثيرًا. كان سببًا في أن تعمل زوجته مرضعة لابن الوالي. فقد أخبره أنه سمعهم في القصر يتحدثون عن رغبة الوالي في عمل اختبار للنساء اللائي يُرضعن؛ لاختيار مَن تصلح منهن لإرضاع ابن الوالي الأمير محمد طوسون، فقال بنيامين: «زوجتي تصلح لهذا، كما أنها ما زالت تُرضع ابننا رزق».

- لكنهم حتمًا سيرفضون أن تكون المرضعة يهودية.

- ومَن سيخبرهم بأنها يهودية؟! المهم أعرف موعد الاختبار.

وحدد له موعد الامتحان، فألحّ بنيامين على زوجته، عارضت أول الأمر، فلوى ذراعها وضربها حتى وافقت مضطرة. وبحث بنيامين عن فرج ورجاه أن يوصلها إلى قصر الوالي في القباري لحضور امتحان المرضعات.

ذهبت بالفعل إلى هناك، وقفت في طابور طويل من السيدات القويات، كلهن يتميزن بكبر الثديين. جاء خدم القصر وعبيده، سبُّوا النسوة الآتيات للامتحان، ثم جاء أطباء القصر، وأمروهن بكشف صدورهن، فوقفن عاريات، يضحكن في حياء، ويتباعدن عن الأطباء، محاولات ستر صدورهن بأيديهن، فخلع أحد الخدم حزامه وضربهن به على أجسادهن العارية؛ ليقفن

ساكتات. أخذ الأطباء عينة من كل ثدي، ثم وقع الاختيار على عدد قليل جدًا منهن. كانت ملاذ ضمنهن.

شد بنيامين ملاذ إليه في ود مصطنع. مد يده نحو بطنها الممتلئ، وقال: «أنتِ في القصر، ويمكنكِ أن تسألي عما حدث لجون».

ابتعدت عنه غاضبة: «أنت لا تعرف المعاملة التي يعاملونني بها هناك. إنني بعد أن انتهت رضاعتي للأمير، لا أرى سوى الخدم المسئولين عن أطفال الوالي».

شدها إليه ثانية. هو – عادة - لا يسأل عنها، ويرتاح لعدم وجودها في البيت، وكلما حاولت أن تتقرب منه؛ صدها ساخرًا من جسدها المترهل وثدييها المتدليين على بطنها. وهي تخاف أن «تلوف» عليه امرأة وتأخذه منها. فهي تعرف أنه وسيم، والسنوات لم تغير من جسده الممشوق وقوته الواضحة.

- حاولي يا ملاذ من أجلي. اسألي عن ذلك الذي جاء ليُعالج الوالي.

ثم مدَّ يده نحو رقبتها وجذبها إلى جسده فاستسلمت سعيدة وقالت في صوت ضعيف: «سأحاول».

خرج بنيامين إلى الشارع، لم يذهب إلى دكانه، فهو لن يستطيع أن يمسك الموسى، لو فعل سيجرح رؤوس ووجوه الزبائن. لقد جنى جون عليه.

ذهب إلى مقهى شنتاي، وجد مخلوف يجلس وحده، وأمامه لوحة يتابعها في اهتمام، جلس بنيامين قريبًا

منه وتابعه في صمت.

اقترب الساقي منه، طلب شايًا، وظل يتابع مخلوف، الذي لمحه، فترك اللوحة واعتدل في جلسته ليكون في مواجهته. لم يحيه بنيامين. فقد تشاجر معه كثيرًا بسبب عودته المتأخرة إلى الشقة كل ليلة، واضطرار زوجته لفتح باب الشقة له.

قال مخلوف من مجلسه: «سعيدة يا بنيامين».

فنظر بنيامين بعيدًا وقال في ضجر: «سعيدة».

أمسك مخلوف مقعده وسار به إليه: «أعلم أنك غاضب مني لأن جون يأتيني كثيرًا في الصباح الباكر، ويقلقكم بدقه على الباب».

وضع بنيامين يده فوق ذراع مخلوف الملطخ بالألوان، وقال له:«لا أدري أن جون يأتي إليك في الصباح».

- أرجوك لا تغضب، فهو رغم أي شيء ابن عمك.

أحس بنيامين بالسعادة لأن مخلوف تحدث عن جون، ليجد مدخلًا للحديث عما حدث له في قصر الوالي.

فقال بنيامين: «ما هي أخبار جون الآن؟».

- لقد طردته من حجرتي، وقلت له لا تأتِ إليّ مرة أخرى، فأنا لا أريد صداقتك.

أدرك بنيامين أن مخلوف لا يعلم بما حدث لجون، فقال: «ظننتك تعرف بما حدث له في قصر الوالي».

- أي والٍ تقصد؟!

- ألا تعلم أنه يُعالج الآن جسد الوالي من القروح التي أصابته.

أراد مخلوف أن يعود إلى مكانه ما دام قريب جون هذا يريد أن يسخر منه، لكن بنيامين أمسكه ثانية من ذراعه وقال له: «ألم تسمع بأن جون ركب عربة عامير بك، وكان يلوح للناس في الحارة وهو يجلس بجوار فرج؟».

شرد مخلوف، قد يكون الأمر حقيقيًا، فعامير بك الذي يعمل فرج عنده، وثيق الصلة بالوالي ويزوره في قصوره الكثيرة.

قال مخلوف: «ألا تعلم في أي قصر ذهب به فرج؟»

- قصر القباري.

قام مخلوف تاركًا لوحته التي لم تنته، وسار مسرعًا وهو يقول: «أعرف كيف أصل إليه».

* * *

أعدت سرينة الطعام لفرج، وقدمته إليه، قال لها: «إنني أحضر إلى هذا البيت لكي أرى أطفالي، لو كان على الأكل، فهو كثير في قصر عامير بك».

قالت غاضبة: «تأتي من أجل أطفالك فقط؟!»

اقترب منها مداعبًا: «أنتِ الخير والبركة».

كانت سرينة شاردة فيما يرددونه في الحارة من أن زوج الهادية أصبح مهما، بسبب زوجها، قالت: «ليتك ما فعلت هذا مع جون».

- لماذا يا امرأة؟ أتكرهين الخير للناس؟!

- لقد رفعت من شأن الهادية زوجته، ستجعلها فوق نساء الحارة كلها.

دفع فرج الطعام من أمامه وقام قائلًا: «أرزاق».

ركب عربة عامير وسار بها في الحارة، فخرجت النسوة من النوافذ والشرفات ينظرن إليه، وسار الأطفال خلفه وأمامه مهللين. ما اضطره إلى أن يُطرقع بكرباجه ليبتعدوا كي يستطيع الخروج من الحارة. تابع الجميع العربة التي أخذت جون إلى قصر عامير ولم تعد به، فهم الآن يمنون أنفسهم بأن يحدث معهم مثلما حدث مع جون.

عندما وصل إلى قصر عامين، وجد مجموعة من الخدم والحراس يمسكون رجلًا ممتلئا ويضربونه، فقفز مسرعًا ليرى ما يحدث فوجدهم يضربون مخلوف، وقد انكشف صدره العريض، بعد أن مزقوا فانلته. صاح بهم: «إنه مخلوف، جاء لمقابلتي».

تركوه يلهث، ويعيد الباقي من ملابسه إلى جسده. صاح فرج: «ما الذي تفعله يا مخلوف؟»

- حاولت الذهاب إلى قصر القباري لمقابلة جون، فلم أستطع، فقلت أنت الذي يمكن أن تذهب بي إليه.

أخذه فرج إلى الإسطبلات ليستطيعا الحديث بحرية.

قال مخلوف: «لو تأخرت قليلًا؛ لسلمني خدم عامير بك وحراسه إلى الشرطة».

- مجنون أنت لا شك، أتظن أن دخول قصر الوالي سهلًا.

- ألن تأخذني إليه؟!

- لو أخذتك إليه، سيحدث لي ولك ما حدث الآن.

- والعمل، ألا أستطيع مقابلة جون؟!

- وماذا تريد منه؟

- إنه صديقي، سيقدمني إلى الوالي لأرسم له صورة.

- الوالي مريض، وقد يموت خلال أيام قلائل.

- فرصة لكي أرسمه قبل أن يموت.

قام فرج قائلًا: «ارتح قليلًا هنا من آثار الضرب، وسأذهب لمقابلة عامير بك».

وقف مخلوف فرحًا: «فرصة لكي تقدمني إليه، كما فعلت مع جون».

- ماذا، أتريد أن ترسم له صورة أيضًا؟!

ثم أسرع فرج خارجًا من الإسطبل إلى باب القصر الكبير لمقابلة عامير بك، تاركًا مخلوف وحده.

كان عامير بكامل هيئته يجلس في بهو القصر الكبير، صاح في ضيق عندما رأى فرج أمامه: «أين كنت؟ أبحث عنك منذ مدة طويلة».

أحنى فرج قامته وقال: «تحت أمرك يا عامير بك».

- إنني قلق من أجل جون الذي جئتني به. لا أدري ما الذي فعله في القصر، وماذا فعلوا به هناك؟

أومأ فرج برأسه، وأكمل عامير: «إنه يهودي مثلنا، كما أننا الذين سلّمناه لهم».

أومأ فرج برأسه ثانية، فضاق عامير بما يفعله: «ما لك، كلما حدثتك تهز لي رأسك؟! أريد حلًا».

اقترب فرج من سيده، وأحنى رأسه أكثر، فهو لا يعرف كيف يتصرف في هذه المشكلة، إن كان عامير بك الغني جدًا والمتعلم لا يعرف التصرف؛ أيتصرف هو؟!

- أنا تحت أمرك يا عامير بك.

- أريد من يبلغني بما يحدث داخل القصر، فهم لا يرحبون بي هناك منذ أن اشتد المرض على الوالي.

ابتعد فرج حتى قارب الحائط، فهو لا يعرف أحدًا يعمل في قصر الوالي، وكيف له هو السائق الغلبان أن يعرف؟!

قال عامير: «ألا يوجد يهودي يعمل في القصر؟ هذه غلطتي».

اقترب فرج منه ثانية وقال مستنكرًا أن يخطئ سيده: «لماذا يا سيدي؟»

- كان من المفروض أن أحصر وأتابع اليهود الذين يعملون في قصور الوالي، وقصور المسئولين في مصر..

- اليهود الذين يعملون في القصر؟

وتوقف فرج عن الكلام، فأحس عامير بأنه تذكر شيئا.

- ماذا يا فرج؟ ما الذي تفكر فيه؟

- امرأة كانت مرضعة لابن الوالي.

- يهودية؟

- وزوجة صديقي بنيامين.

- أسرع وأحضرها فورًا. سأنتظرك. لن أخرج قبل أن تأتي.

ملاذ في قصر القباري

انطلق فرج بعربته، لم يطرقع بكرباجه، هذه المرة، بين أذني الحصانين، بل ضربهما في عنف حتى يُسرعا، واخترق بهما الشوارع الخالية من البشر، حتى وصل إلى ميدان القناصل القريب من سوق السمك. هناك سار بسرعة أقل، فالعربات كثيرة، والميدان مزدحم بالناس. وصل إلى دكان بنيامين، وجده يجلس حزينًا خارج دكانه، وابنه يحلق لزبون. فوجئ بنيامين بالعربة تقف أمامه، وفرج يقفز من فوقها.

بنيامين لا يريد أن يراه، فقد خذله ورشّح جون لعلاج الوالي، مع أنه يعرف أنه أمهر منه في هذا. أسرع فرج بشدّه إليه وقبّله، كأنه لم يرَه منذ مدة طويلة، مع أنه كان معه منذ ساعات قلائل. دفعه بنيامين عنه في ضيق: «ماذا تريد مني، بعد أن ضيّعت عليّ الفرصة؟».

يعرف فرج ماذا يقصد بقوله. فلم يعلق، وصاح به: «عامير بك يريد زوجتك ملاذ».

اندهش بنيامين: «ماذا تقول؟ زوجتي ليست من هذا النوع الذي...».

ضحك فرج وشدّه إليه ثانية: «لا تُسئ الظن بالرجل. هو يريدها من أجل موضوع جون».

سأله بينامين: «جون؟ اجلس. اجلس».

جلس وحكى لبنيامين ما حدث بينه وبين عامير، وقال: «وعامير بك ينتظرها الآن في قصره».

قام بنيامين مسرعًا وقال وهو يجري في طريقه إلى البيت: «دقائق، وستكون جاهزة».

قال فرج: «وأنا سأقف بالعربة أمام البيت».

ظل بنيامين في النافذة يتابع الطريق، منتظرًا أن تأتي عربة عامير وتقف أمام باب بيته، وعندما رآها وقفت، قفز سعيدًا من فوق الكنبة وصاح في زوجته التي تتجمّل: «هيا، لقد وصلت عربة فرج».

أكملت المرأة ارتداء ملابسها، ووضعت اليشمك فوق وجهها، وسارت إلى سلالم البيت في خوف، فهي لم ترَ عامير بك هذا الذي يحكي يهود سوق السمك عنه كثيرًا، ويتندرون على الغِنى والعز الذي يعيش فيه. كيف ستواجهه؟ كما أنها تخاف أن تفشل في مهمتها، فهم في قصر الوالي لا يعطونها ريقًا حلوًا، يعاملونها باحتقار ويحدثونها من علياء، حتى الخدم والعبيد يعاملونها هكذا، يقولون إنها باعت لبنها كالشاة والجاموسة. تذهب إلى قصر الوالي كل يوم تقريبًا، تدخل من الباب الكبير، الحراس يعرفونها، يُفسحون الطريق لها، تسير في الحديقة الكبيرة حتى تلهث من كثرة المشي، في القصر يتابعونها في لا مبالاة. لولا أن الأميرة ملك برهانم قد أوصت عليها، وأمرتهم بحسن معاملتها، ودفع راتب شهري لها؛ لرموها خارج القصر.

أيام كانت ترضع الطفل؛ كانوا يرسلون إليها عربة من عربات القصر، تنتظرها في ميدان القناصل القريب من بيتها، وتعيدها – بعد الرضاعة – إلى نفس المكان.

كانت العربة تضم المرضعات اللائي يسكنّ قريبًا من ميدان القناصل. فيجلسن على حافة العربة، ويمددن سيقانهن، فتترجرج أثداؤهن الكبيرة مع تحركات العربة.

الآن تذهب ملاذ بنفسها، تصل إلى ميدان القناصل سيرًا على الأقدام، وتركب عربة يجرها حمار، مخصصة لنقل النساء إلى القباري. هذه المرة ستذهب دون موعد، وستركب عربة فرج الذي يشبه الثور. هي تعرفه جيدًا، وتتابعه من نافذتها، لكنها تخجل منه وتتحاشاه.

عندما خرجت من باب البيت، أسرع فرج بفتح باب العربة، كما يفعل مع عامير بك وأسرته. نظرت إليه ملاذ، أرادت أن تقول شيئًا، ثم أسرعت إلى سلم العربة ودخلت، ارتمت فوق المقعد، وشردت. وانطلق فرج بالعربة، طرقع بكرباجه واخترق حارة اليهود، وخرج من سوق السمك متجهًا إلى ميدان القناصل.

كانت سرينة تنظر من نافذتها فرأت زوجها آتيًا من أول الحارة، فصاحت في ابنها: «أبوك وصل».

ثم دخلت لتعد الطعام له، لكنه لم يأتِ، ظنته يقف بجوار العربة ليتحدث مع صديق، فهو يفعل هذا كثيرًا. عندما تأخر أكثر من اللازم، اضطرت أن تنظر ثانية من النافذة، ففوجئت بالعربة تقف أمام بيت بنيامين، فضحكت وهي تقول لابنها: «أبوك ذهب إلى بنيامين ليتفقا على السهرة، قبل أن يأتي إلينا».

لكنها لم تدخل هذه المرة، ظلت تتابع العربة ففوجئت بملاذ تخرج مسرعة من باب البيت، ملتفة بالسواد من أولها إلى آخرها، جُنّت عندما رأت زوجها ينحني لها، ويفتح الباب كأنه يعمل سائقًا عندها. أرادت أن تصرخ وتصيح في زوجها الخائن الغادر، الذي لن يتوب عن حب النساء الغريبات. أرادت أن تقول بأعلى صوتها ليسمع كل يهود الحي: «إلى أين ستذهب بهذه الدبة؟»، لكنها تماسكت وكتمت غيظها إلى أن يعود.

ظلت ملاذ قلقة، خاصة أنها وحدها في العربة، كأنها محبوسة داخل زنزانة، فرج بعيد عنها، لا تسمع سوى صوت كرباجه يطرقع في الهواء.

فجأة توقفت العربة، الطريق ليس طويلًا، فهي تظل في العربة – في طريقها لقصر الوالي - لوقت طويل جدًا، فتح فرج العربة لها، ثم أمسك يدها ليعينها على الخروج منها. وابتسم وسار أمامها بجسده القوي وقامته الطويلة.

«تفضلي».

سارت خلفه، والخدم يتابعونها بدهشة، قبل أن تدخل بهو القصر قال فرج لها: «اكشفي عن وجهك، هذه هي الأصول».

نظرت إليه، أرادت أن تقول شيئًا، لكنها لم تقل، ابتسم لها مشجعًا. كان عامير في مكانه، تابعها للحظات قبل أن ينطق بكلمة، وهي ترتعد وترتعش. ثم صاح عامير فجأة:

«اقتربي». اقتربت منه. «اجلسي». نظرت إلى فرج لتسأله عما تفعل، فأشار بيده لأن تجلس وهو يبتسم مشجعًا. جلست أمام عامير. قال: «أريد أن أعرف ما حدث لجون في قصر الوالي، لا تقولي هذا لأحد غيري».

- أمرك.

- أريدكِ أن تذهبي في موعدك، حتى لا يشك فيكِ أحد.

- أمرك.

- ستذهبين مع فرج، سيوصلك قريبًا من قصر القباري، فهم يعرفونه هناك، وسيعلمون، لو رأوه يوصلك، أنني أتجسس عليهم.

- أمرك.

خرجت من باب القصر، فأسدلت اليشمك ثانية فوق وجهها، ركبت عربة فرج وحدها، لم تنتظره حتى يفتح لها الباب، وصعد فرج إلى أعلى العربة، وأطلق كرباجه في الهواء، لينطلق الحصانان.

أغلقت باب العربة عليها، وأسندت ظهرها للمسند وشردت في المصير الذي ينتظرها في قصر الوالي. هناك يمكن أن يقتلوها. أي خطأ صغير؛ عقابه القتل. هكذا تحكي لها المرضعات زميلاتها. فهن يرضعن كل أطفال الأمراء الذين يسكنون القصر مع الوالي. لقد هددتها خادمة من الخادمات هناك، بأنها سوف تبلغ الأميرة ملك برهانم – أم الولدين التي تولت رضاعتهما - بأنها يهودية، وليست مسلمة كما تدعي. يومها، بكت،

وقبّلت يديها وقدميها، وقالت سأكون خادمة لك، أمَة تأمرينها كما تشائين، فنظرت الخادمة إليها في كبرياء، وتركتها.

عندما وصلت العربة إلى القباري، توقف فرج بعيدًا عن القصر، وقفز من مكانه، فتحت ملاذ الباب بنفسها، وهبطت الدرجتين، ووقفت فوق أرض الشارع المظلم. اقترب فرج وقال في ابتسام: «كنت أود أن أوصلك لغاية قصر الوالي. لكن الأوامر...»

صافحته، ونظرت إليه بعينيها اللتين تظهران من اليشمك، وقالت: «لا تهتم».

قال: «سأنتظركِ هنا، لن أذهب مهما غبتِ هناك».

* * *

أراد الوالي سعيد أن يرتدي ملابسه، وأن يمارس حياته كما يشاء، فدق الجرس الذي يضعه أمامه. بجوار كومدينو صغير، فتزاحم الخدم، الكل يريد أن يلبي النداء، بعد أن كانوا يتجاهلون ذلك خشية من رائحته الكريهة. كلهم – الآن – يريدون أن يروه وقد شفي، وزالت رائحته.

أسرع أكبرهم وسار ناحية الحجرة. اندهش الرجل فالرائحة ما زالت موجودة. أراد أن يعود ثانية، لكنه اجتاز أكثر من متر داخل الحجرة. أسرع إلى الوالي وعيناه تكادان تخرجان من تأثير الرائحة الكريهة،

وأدمعت عيناه. وفتح فمه استعدادًا للقيء. قال الوالي آمرًا: «آتني بملابسي».

ثم ناداه، بعد أن كاد يخرج من الحجرة الكبيرة جدًا، توقف الرجل، ولم يتحرك خطوة واحدة، سأله الوالي: «ما زلت لا تستطيع احتمال الرائحة؟»

خاف الخادم أن يقول: «نعم» فيأمر الوالي بقطع رقبته. فكيف يجرؤ على أن يقول: «إن الوالي رائحته كريهة»؟! قال الخادم وهو يجري للخارج: «أستطيع يا مولاي، أستطيع».

أحسّ الوالي بالأسى، فالخادم يكاد يفطس من شدة الرائحة الكريهة. ظن أن كل شيء انتهى، وسيعود إلى حياته كما كان. دق الجرس ثانية. فابتعد الخادم الكبير، وأمر آخر بالإسراع إليه. فتحرك الخادم مضطرًا، فتح باب الحجرة، وأدخل رأسه ناحية الوالي، وظل في مكانه. قال الوالي: «أرسل جون إليّ».

عاد الخادم فرحًا، فقد نجا بعدم دخوله الحجرة.

تململ الوالي فوق فراشه، رفع جسده الثقيل فوق سريره. لم يأته الخادم بملابس، وهو لا يريد هذه الملابس، فما الذي يعمله بها والتقيحات ما زالت في جسده؟!

دق جون الباب، ثم دخل. وقف بعيدًا، أحنى قامته الهزيلة للوالي، فقال له بودّ شديد: «اقترب يا جون، أريد التحدث معك».

اقترب، جلس أمام الوالي.

- ستدهن جسدي ثانية بمراهمك؟

- نعم يا مولاي. في المساء.

- تعمل ممرضًا في المستشفيات، أم حلاق صحة؟

- حلاق صحة يا مولاي.

- عندك دكان؟

- نعم يا مولاي، في سوق السمك.

ضحك الوالي قائلًا: «لا بد أن يتجمع اليهود في مكان واحد».

ابتسم جون ولم يعلق.

- إنني سعيد بك، وأريد مكافأتك.

- مكافأتي شفاؤك يا مولاي.

- سأعطيك أرضًا، أبعادية كاملة.

- ماذا أفعل بها؟!

- افعل بها ما تشاء. ازرعها، بعها، ابنِ عليها قصورًا وبيوتًا. هي ملكك، افعل بها ما تشاء.

لم يجد جون ما يقوله. ماذا يفعل بأبعادية كاملة؟! إنه لا يريد سوى أن يجد نقودًا تكفيه مع الهادية وابنهما هارون.

دق الوالي الجرس، فجاءه أحد الخدام، وقف خارج الحجرة، وأدخل رأسه فقط، فقال الوالي: «أرسلوا

الكتخدا إليّ الآن».

أسرع الخادم يعلن في كل مكان يذهب إليه: «الوالي أرسل في طلب الكتخدا لكي يأمر بقتل جون بعد أن فشل في علاجه».

* * *

انتهت ملاذ من غسل الأواني التي كلفتها بها إحدى الخادمات. سألت عن الأميرة ملك برهانم، قالوا إنها لم تأتِ إلى هنا منذ أمس. قالت: «حتى الأميران لا أراهما هذه الأيام».

نظرت الخادمات إليها في ضيق، لقد انتهت فترة رضاعتها، وكبر الأمير محمود الآن، ولم يعد في حاجة إليها، فما الذي يأتي بها. لو كانت الأميرة ملك برهانم تريد أن تكافئها؛ فلترسل إليها مبلغًا من المال كل شهر، ولا تضايقهن بحضورها المُلِح هذا.

لكن ملاذ لم تتحرك، تابعتها الخادمة انتظارًا لخروجها. أمسكت ملاذ يد الخادمة وسألتها: «ما هي أخبار الوالي، ماذا حدث في أمر مرضه».

صاحت الخادمة في غضب: «هكذا أنتم يا معشر اليهود، تتدخلون فيما لا يعنيكم».

فوجئت ملاذ بخادمة تدخل مسرعة، معلنة: «سيقطعون رقبة جون، حلاق الصحة الذي جاءوا به لعلاج الوالي».

أبدت ملاذ اهتمامًا، وأرادت أن تسأل عن ذلك، لكن الخادمة الأخرى كانت لها بالمرصاد، وتريدها أن تسرع بترك الحجرة، قالت إحدى الخادمات: «لقد فشل في علاج الوالي، الرائحة الكريهة ما زالت في جسد الوالي».

خرجت ملاذ من باب القصر الكبير، سارت في الحديقة - كعادتها - ففوجئت بمَن يناديها: «ملاذ، ملاذ».

نظرت ناحية الصوت. فرأت شبحًا يخرج من الظلام، ويسرع إليها. لم تتبينه أول الأمر. ثم سمعت صوته: «أنا مخلوف».

صاحت في خوف: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

قال: «أريد أن أقابل جون».

شدَّته وهي تنظر حولها في خوف: «لو ضبطوك، سيقتلونك، هيا أسرع بالخروج وسأحكي لك ما حدث».

قال لها وهو ينظر حوله: «اخرجي أنتِ من الباب، وسأخرج من مكان بعيد عن أعين الحراس. انتظريني بعيدًا عن القصر».

* * *

جاء الكتخدا، الوالي لم يرسل إليه منذ مدة طويلة، فماذا حدث؟! لقد أعلنوا في القصر أن الوالي قد أفاق من غيبوبته بسبب حلاق الصحة اليهودي، ثم أعلنوا أن الرائحة الكريهة ما زالت تفوح من جسد ه، وأن الوالي يريد قطع رقبته لفشله في علاجه، كما يحدث عادة في

الحكايات الشعبية، مَن ينجح في علاج الأميرة يتزوجها، لكن إذا فشل في ذلك يقطعون رقبته.

المشكلة الآن كيف يستطيع الكتخدا احتمال هذه الرائحة.

أخذ الكتخدا يتمتم، تاليًا كل ما يعرفه من قرآن، وما يحفظه من أدعية، لينجيه الله من هذه الزيارة الثقيلة على نفسه.

عندما دق الباب، سمع الوالي من الداخل يصيح بصوت قوي: «ادخل».

فوجئ الكتخدا بحلاق الصحة يجلس في حضرة الوالي، قريبًا جدًا منه، غير مبالٍ بالرائحة التي تكاد تقتل في دقائق. «أيجلسه أمامه هكذا، لو كان يريد أن يقتله؟!». صاح الوالي: «أعطِ لجون أبعادية كبيرة، في منطقة جيدة الزراعة».

قال الكتخدا: «أمرك يا مولاي».

لم يسأله عن المكان الذي يفضله، ولا عن عدد الفدادين التي سيمنحها له، فالرائحة شديدة، وصحة الكتخدا لا تحتملها.

اندهش الوالي مما يحدث أمامه، فجون لم يتأثر بما حدث له، قابل خبر امتلاكه لأبعادية كاملة كأنه سيمتلك جنيهات قليلة.

قال الوالي بعد أن أحس بأنه يريد أن يبقى وحده: «اذهب يا جون إلى حجرتك، لا تخرج من القصر إلا بعد

أن آمرك بذلك».

أحنى جون قامته المحنية أصلًا، وسار في طريقه إلى الباب. وابتسم الوالي سعيد وهو يتابعه يسير بظهره حتى اصطدم بالباب المغلق.

* * *

وقفت ملاذ في أقرب مكان، لا يوجد فيه حراس الوالي، كانت خائفة، جون - المسكين - سيقطعون رقبته، وعامير يظن أنه سيحقق مكاسب لسائر يهود مصر بعلاجه للوالي، ومخلوف المجنون يغامر ويدخل حديقة القصر متخفيًا ليقابل جون.

رأت ملاذ شبحًا يتحرك آتيًا إليها. هو مخلوف - لا شك - بجسده الممتلئ، وصدره العريض.

عندما اقترب منها، صاحت في غضب: «ما الذي فعلته يا مجنون؟ كان يمكن للحراس أن يقتلوك».

ابتسم لها. رغم أنه يشاركها نفس الشقة؛ إلا أنها لا تحادثه ولا تقابله. يدخل الشقة ويخرج منها دون أن يحدثه أحد فيها، فهم غير راضين عن وجوده بينهم. لا تدري الآن ما الذي جعلها تحدثه هكذا، ربما لأنها رأته في هذا الموقف الصعب.

قال: «ليس مهمًا، المهم أن أطمئن على صديقي جون».

ضربته فوق صدره مداعبة: «ما جاء بك إلا الطمع».

تظاهر بالجدية، وقال: «إنكِ رأيتيه يأتي إلى حجرتي كثيرًا».

- وكنت تسبه وتطرده.

- لم أكن أعرف قدره.

- اطمئن، فسوف يقطعون رقبته؛ لفشله في علاج الوالي.

- إنهم بلهاء، أكانوا ينتظرون من جون هذا أن يشفيه لهم؟!

- المشكلة أن الوالي سيغضب على عامير بك الذي جاء به إليه، وسيغضب على كل يهود مصر.

شرد مخلوف، سار بجوارها صامتًا، الطريق طويل، ولا بد أن يركبا عربة، هذا المشوار الطويل؛ لا يصلح معه حمار، فظهر الحمار سيسلخ ما بين فخذيه. كما أن الحمارين لن يسمحوا له بركوب الحمار بجسده الممتلئ.

قال: «لقد حزنت كثيرًا من أجل جون، لو كنت أعلم بمصيره، لرسمته، لأعلق صورته في حجرتي».

أحست ملاذ بالراحة لسير مخلوف معها. هي لم تكن تكرهه، بل تمنت أن تدخل حجرته لترى الصور التي يرسمها، وتمنت أن يرسم لها صورة. مثل الكثيرات اللائي يأتينه من أجل هذا، لكنها خافت بنيامين- زوجها - وإن كان لا يهتم بها ولا بأي شيء آخر غير جمع النقود. كان يهتم بها أيام كانت تنفق عليه، وبعد ذهاب مالها ابتعد عنها، وتأخذ الوقت منه – الآن - بصعوبة.

سألها: «ستذهبين إلى البيت من هنا؟».

ردت: «فرج ينتظرني بعربته في القباري».

قال مبتسمًا: «إيه، ما لفرج وما لك؟!»

ضحكت بصوت مرتفع: «لا تذهب بعيدًا، لقد أمره عامير بك بذلك، لكي يعرف ما حدث لجون في قصر الوالي».

أول مرة يتباسط معها مخلوف في الحديث. كانت تدهش من حياته. فهو لا عمل له سوى الرسم، يمسك ورقه وأقلامه وفرشاته ويطوف بيوت الأغنياء – يهود وغير يهود – عارضًا أن يرسمهم، أحيانًا لا يجد ما يشتري به طعامه، فيجلس في مقهى شنتاي وينتظر مَن يعطيه شيئًا ليأكل. هذه الحياة – رغم صعوبتها – تعجب ملاذ، وتتمنى أن تعيشها معه.

مخلوف أصغر منها بكثير. وما كان يمكن أن تتزوجه، فعندما تزوجت بنيامين كان طفلًا.

قال: «المسافة طويلة جدًا، وقد لا أصل اليوم إذا ركبت الحمير. يمكن أن أطلب من فرج أن يوصلني لوسط البلد؟»

ضحكت وقالت: «وما المانع في هذا؟»

قال: «قد تخشين أن يرانا معًا».

ضحكت أكثر وقالت: «وما الذي أخشاه؟ لقد قابلتك بالصدفة».

سارا معًا، كانت ملاذ تنظر إليه وهو سائر، لو كان بنيامين – زوجها – يتباهى بقوته، فمخلوف أقوى منه؛ ولو أن بنيامين أكثر وسامة منه. سألت نفسها، لماذا اهتمت بشكله وقوته؟ قبل أن تجيب نفسها؛ رأت عربة فرج أمامها، في نفس المكان الذي تركته فيه. كان نائمًا داخل العربة. دق مخلوف عليه، حتى أيقظه. عندما رآه فرج صاح في مخلوف مندهشًا: «ذهبت بنفسك إلى قصر الوالي؟!»

- نعم.

- لو فعلتها ثانية، سيقتلونك.

صعد مخلوف وجلس بجوار فرج في أعلى العربة، وظلت ملاذ وحدها في الداخل. تمنت لو كان مخلوف معها في الداخل، مقابلته لها أنستها قلقها لمقابلة عامين،

وحزنها على جون الذي سيقطعون رأسه. ستحزن حارة اليهود عليه، وهذا سيعطي فرصة للهادية لكي تفعل ما تشاء، قد تأخذ الشباب إلى شقتها غير مبالية بأحد.

خلعت ملاذ اليشمك، وارتمت فوق فراشها تلهث، بينما بنيامين ينتظرها على أحر من الجمر يريد أن يعرف ما حدث لجون في قصر الوالي. قال: «ما لك يا امرأة. تحدثي عما حدث».

- احمد ربنا لأنك لم تذهب مكانه.

- لماذا يا امرأة؟ ماذا حدث؟

- سيقطعون رأسه لأنه فشل في علاج الوالي.

قفز من مكانه: «حقًا؟!»

- هذا ما يقولونه هناك.

أحس بنيامين بارتياح. كان حزينًا لأنه لم يذهب مكان جون. وكان حزنه الأكثر أن جون سينال الكثير من عمله هذا. لكنه ذهب ولم يعد، وسيتفرغ بنيامين للهادية، سيجبرها على مرافقته، فهو أحق من الأطفال الذين تعاشرهم وتنفق أموالها عليهم.

- ستخبرين الهادية بما حدث لزوجها؟

- لا أدري ماذا أفعل.

- اذهبي إليها وبلغيها بما وصلك من أخبار، فالخبر سرعان ما ينتشر وسيعلم الجميع.

قامت ملاذ من مكانها، لا بد أن تغتسل لتزيل العرق العالق بجسدها، ثم ترتدي ملابس غير التي ذهبت بها إلى قصر الوالي.

لقد حزن عامير كثيرًا من الأخبار التي نقلتها إليه. ووعد بأن يتدخل لدى الكتخدا لينقذ جون، سيقول له إنه المسئول عما حدث، ولو كان جون أخفق، فيكفيه شرف المحاولة. وقال إنه سيرسل إلى دوف ليناقشه في هذا الأمر الجلل. فقتل يهودي واحد في مصر كقتل كل يهود مصر. ووعد عامير أن يكافئ ملاذ على ما قدمته إليه من خدمات.

نشر مخلوف خبر قطع رقبة جون في مقهى شنتاي، حكى لهم ما حدث، مغامرته في دخول القصر لمقابلة جون، ودخوله الحديقة – فعلًا – بعيدًا عن أعين الحراس، ثم مقابلته لملاذ – زوجة بنيامين – وما قالـــــته لـــه عن قطع رقبة جون. كانوا واجمين لسماع الخبر، وتبرع أكثر من واحد بإبلاغ الخبر إلى الهادية.

سمعت حارة اليهود صوت الهادية تصرخ: «يا جون، قتلوك. قتلك فرج بزجك في هذه المهمة اللعينة».

توافد المعزون إلى الهادية يعزونها، وعندما ذهبت ملاذ، شعرت الهادية بالضيق، فهي لا تحب بنيامين ولا سيرته، ولا كل من يتصل به بصلة، امتعضت الهادية وإن لم تظهر هذا لملاذ التي اقتربت منها وقبّلتها وحكت

لها ما حدث، فقالت الهادية - وكانت أول مرة تعلم أن ملاذ هي التي نقلت الخبر المشئوم - في لغة ممطوطة: «أهو أنتِ التي نقلتِ الأخبار؟»

وجاءت سرينة معزية، رأت ملاذ أمامها فضاقت بها، لقد اقتنعت سرينة بدفاع زوجها عن نفسه، وأن الأوامر أوامر عامير بك. لكنها - رغم هذا - ضاقت برؤيتها، فقد ركبت العربة مع زوجها، وقد يروق لها هذا، وتفعلها ثانية وثالثة، وتطلب منه أن يوصلها إلى قصر القباري الذي تتعب للوصول إليه.

بكى هارون، وأحس أن الدنيا أظلمت في عينيه، فجون سيقتل، لن يموت «موتة» ربنا، سيذبحونه كالشاة. جون هو كل شيء له في الحياة، إنه يحبه أكثر من أمه الهادية، يرتاح لحديثه، ويشعر بمتعة عندما يسمع كلماته التي تخرج من أنفه، ويدهش كيف يسخر الناس من هذه الطريقة.

أخذه رزق صديقه بعيدًا عن النساء النائحات، حدثه عن الأمل الباقي. ما دام لم يُقتل للآن، فهناك أمل. لن يتركه عامير ولا دوف ولا زاكن. كل كبار اليهود سيتدخلون، وقد يستعينون بقناصل الدول الأجنبية حتى يضطر الوالي لأن يتراجع عن قراره، فاليهود على صلة وثيقة بقناصل الدول الأجنبية.

قالت ملاذ: «من الممكن أن يتمكن عامير من إنقاذه».

فصاحت الهادية غاضبة: «كله من هذا الرجل، فقد أرسل زوجي ليُقتل».

اندهشت النسوة من طريقة الهادية في الحديث عن عامير بك. فكل يهود الإسكندرية يبجلونه ويقدرونه، ولو أرادوا النيل منه، لا يستطيعون فعل هذا أمام أحد. فالرجـــل لـــه أتباعه الذين يكسبون منه، ويعيشون من خيره، كما أن خدماته للجميع لا تنتهي. افتتح لأطفالهم المدارس التي تصرف لهم وجبات الطعام، والمستشفيات التي تعالجهم في كل مكان. أرادت سرينة أن ترد عليها، فزوجها لحم كتفيه من خير عامير. لكن خافت من لسان الهادية التي تعرفه كل نساء سوق السمك.

قال هارون لأمه: «إنك تتعاملين مع أبي وكأنه قد مات. مع أن الأخبار تؤكد أن عامير سينقذه».

نظرت المرأة إلى ابنها وصمتت.

في الصباح، كان فرج يقف أمام العربة خارج القصر، أخذ يمسح خشبها من وقت لآخر، في انتظار خروج عامير بك، وعندما لمحه يخرج من باب القصر الكبير؛ فتح باب العربة، ورفع يده محييًا، ثم انطلق بالعربة في طريقها إلى قصر القباري، فقد أخبره عامير بك بالأمس بأنه سيبكر بالذهاب إلى الوالي لينقذ هذا المسكين من الذبح.

لم يحسنوا استقبال عامير في القصر، فهو – عادة – يأتي دون موعد سابق، سمحوا له بالدخول على مضض،

وظل فرج في الخارج بجوار عربته.

سأل فرج أحد الحراس: «هل قتلوا جون حلاق الصحة الذي يعالج الوالي؟»

نظروا إليه مندهشين وقالوا: «لا نعلم شيئًا عما يحدث داخل لقصر».

وأضمروا عزمهم على أن يبلغوا رؤساءهم بذلك الذي يريد أن يستقصي عن أخبار القصر.

جاء موظف صغير في استقبال عامير، ما ضايقه، لكنه ردد لنفسه: «ليس مهما، المهم أن أنقذ هذا المسكين قبل أن يذبحوه».

قال الموظف: «الكتخدا مشغول، ولن يتمكن من مقابلتك اليوم».

عندما لم يجد عامير مفرًا، قال للموظف الصغير: «جئت من أجل جون المسكين».

- ماذا تريد من أجله؟

- يقولون إن الوالي أمر بقطع رقبته لفشله في علاجه.

نظر إليه الموظف الصغير مندهشا، ثم قال: «الوالي كافأ جون بمنحه أبعادية في منطقة الطابية، خط رشيد، نظير خدماته له».

- أحقًا ما تقول؟!

- أرجوك، لقد قلت كل ما عندي.

ثم سار مسرعًا من حيث أتى. أحس عامير أنه لو أطال المكوث داخل القصر سيرمونه خارجه، فأسرع إلى الخارج بخطوات سريعة، رشيقة.

عندما قابل فرج بالخارج صاح فيه: «جئت لي بامرأة كاذبة».

علم فرج بما حدث دون أن يوضح عامير، فأحس بالفرح، ليس مهما أن يغضب عامير عليه، المهم أن جون المسكين لن يُقتل. قال: «لم يأمروا بقطع رقبة جون؟»

- لا أدري من أين جاءت المرأة بهذه الأخبار؟ لقد منح الوالي أبعادية كاملة في الطابية لجون.

- أبعادية؟ مئات الفدادين لجون؟!

- وهنا، قريبًا من الإسكندرية، وأرض خصبة.

أسرع فرج إلى أعلى العربة، نسي أن يفتح الباب لعامير بك هذه المرة. جون سيكون من الأغنياء، عزبة بأكملها.

أخذ فرج يلهب الحصانين بكرباجه ليسرعا، حتى خشي عامير على نفسه من هذه السرعة، فدق على خشب العربة ليبطئ في السير، لكنه لم يبطئ. يريد أن يعيد عامير إلى قصره، ويسرع إلى سوق السمك ليبلغهم بالخبر العجيب الذي سيدهشهم جميعًا، جون الذي كانوا يسخرون منه أصبح من الأعيان وكبار ملاك الأرض.

يعلم عامير أن فرج يسرع لكي يذهب إلى حارة اليهود في أقل وقت ممكن، فابتسم وركن ظهره إلى

مسند العربة. ماذا سيفعل جون – هذا – في أبعادية كهذه، إنه لا يعرف سوى الابتسامة البلهاء، لم يعالج الوالي، فالوالي لا أمل في شفائه، وإنما طبيعته التي ولد بها، وعدم قدرته على الشم، منحته هذه الأبعادية الكبيرة. لا بد أن يتدخل عامير ليديرها لصالح جون، ولصالح باقي اليهود الفقراء في مصر.

شد قامته أكثر، والعربة تهتز في عنف، من الممكن أن يصطدم فرج بأي شيء نتيجة لهذه السرعة المجنونة، فدق لـــه مرة أخرى، وصاح به من مكانه. فأبطأ قليلًا، يمكن لجون أن يفيد كل يهود الإسكندرية بهذه الأبعادية. نعم. هذا الذي سيعمل عامير من أجله. ينتقل يهود الإسكندرية كلهم إليها. وربما يهود المناطق القريبة، حتى لو أراد يهود القاهرة أن يأتوا إليها؛ فليأتوا. فجون وحده لن يستطيع فعل شيء، ستظل الأرض الشاسعة دون زراعة. سيتحدث مع جون في هذا، سيقول له أن يأتيه بصك الملكية ليقرأه بنفسه، ويحفظـــه لـــه عنده. فاللصوص سيحومون حوله محاولين سرقته وسرقة أرضه.

عندما وصل عامير إلى قصره، هبط مسرعًا إلى أرض الشارع، يعرف أن فرج لن يدخل القصر الآن. وهو لا يريـــد لـــه أن يدخل، فليذهب إلى حارة اليهود ليبلغهم الخبر، وينعم فرج بأنه أول مَن أبلغهم به، وليست المرأة المنكودة التي جاءت بالخبر الكاذب.

وقف فرج نصف وقفة، ويده متمسكة بالعربة، ويده الأخرى مرفوعة لتحية عامير بك.

قال عامير مبتسمًا: «اذهب الآن، لكن لا تتأخر في الغد».

أجاب فرج سعيدًا: «شكرًا لك يا سيدي، لن أتأخر».

فرج لا يرى الطريق أمامه، لن يصدقوه هناك، بعد أن أقامت الهادية العزاء. ستنعم بوجوده وغناه غير المنتظر والعجيب.

وصل فرج في وقت قياسي، دخل الحارة مسرعًا، حتى خاف المارة وابتعدوا عن طريق عربته، وصاح البعض: «جُن فرج لا شك، كيف يسرع هكذا في حارة ضيقة كهذه؟!»

قفز من العربة أمام مقهى شنتاي، لا يعرف مَن الجالس فيها الآن، ليس مهما، إنه يريد أن يذيع الخبر على كل يهود سوق السمك، على كل يهود مصر والعالم، صاح: «جون لم يُقتل. الوالي منحه أبعادية كبيرة في منطقة الطابية».

خرج مخلوف من المقهى، بملابسه الرثة، ورأسه الكبير الذي يحمل شعرًا كثيفًا جدًا غير منسق. قال: «أبعادية في الطابية، كيف؟!»

وخرج كل مَن بالداخل، وقفوا أمام عربة فرج. صاحوا مهللين. وصاحت سرينة من نافذتها في بيتها المواجه للمقهى: «ماذا حدث يا فرج؟»

- جون يمتلك الآن أبعادية كبيرة في منطقة الطابية.

- والذي قالته ملاذ عنه؟

- كذب.

بيت ملاذ بعيد عن المقهى، وبيت الهادية أبعد منه، فظلت المرأتان دون علم بما يُقال في مقهى شنتاي. لكن سرينة – التي تكره ملاذ – أسعدها أن تكون كاذبة أمام الجميع في الحارة؛ لكيلا تتجرأ وتركب عربة زوجها وتقابل عامير بك، وتأتي بالأخبار كأنها امرأة ذات أهمية بين اليهود: «ملاذ كانت تكذب، وادعت أن جون سنقطع رقبته، والرجل نجح في مهمته وأهداه الوالي أبعادية كبيرة».

سمعت النسوة صوت سرينة العالي جدًا، فرددن ما تقول، حتى وصل الخبر إلى بنيامين في دكانه، فترك الزبون الذي كان يحلق له، وخرج بالموسى، يسأل عما حدث. صدمته الأخبار الجديدة: «ماذا تقولون؟ كيف حدث هذا؟ إنكم تكذبون لا شك. زوجتي سمعت الخدم في قصر الوالي يقولون إنهم سيذبحونه».

قالت امرأة قريبة من دكانه: «زوجتك كاذبة».

وقف الزبون ونصف لحيته محلوقة، يصيح في بنيامين، وبنيامين يشيح بيده: «احلق الباقي في بيتك، أنا مشغول».

أسرع إلى بيته، ملاذ تقف نصف عارية، سعيدة، تقضي معظم وقتها في التجمُّل لتخفي قبحها. صاح بها:

«أتكذبين يا امرأة؟!»

- ما لك يا رجل، تجيء من الشارع لتتشاجر معي؟!

شد ذراعها الممتلئة في عنف، فأحست بالألم: «يقولون إن الوالي منح جون عزبة كاملة نظير ما قدمه له من علاج».

بهتت المرأة، فقد اتضح أن ما قالته وتشدقت به، مباهية نساء الحارة بأنها تأتي بأخبار من قصر الوالي، اتضح أنه كذب.

- ما قلته عنه، سمعته من خدم القصر.

نظر بنيامين من النافذة، تابع الحارة المزدحمة باليهود، يصيحون، ويعلقون على ما حدث.

عاد إلى زوجته، صاح بها: «أنتِ امرأة خائبة، وأخبارك كاذبة».

- يا فضيحتي في الحارة، ماذا أفعل؟

نظر إليها في استخفاف، وأسرع إلى الخارج. واجهته الهادية بقامتها المديدة، المشدودة، كانت تستعد لدخول البيت: «أهلًا الهادية، تفضلي».

شدته بعيدًا عنها وصاحت: «زوجتك الكاذبة، ادعت أن زوجي سيقتل».

اقترب منها، وضع يده فوق ظهرها، فدفعت يده في عنف: «أبعد يدك القذرة، وأحضر زوجتك لأمزقها هنا».

نظرت ملاذ من الشرفة فوجدت جمعًا محتشدًا تحت نافذتها، ينظر إليها، كلهم يتحدثون عنها، ماذا فعلت لذلك؟ لقد أمرها عامير بك بنقل الأخبار من قصر الوالي عما حدث لجون، فنقلت ما سمعت، ما ذنبها هي؟! لقد ذهبت مضطرة، لم تكن تريد أن تنتقل من البيت، بنيامين هو الذي ألح؛ لكي يتقرب من عامير بك، ويكسب منه الكثير.

صاحت بها الهادية من مكانها: «انزلي يا زوجة بنيامين، يا كاذبة».

قالت ملاذ وهي تبكي: «لم أقصد شرًا، هذا ما سمعته حقًا».

دفعت الهادية أطفال اليهود في الحارة، لكي يرموا ملاذ بالطوب نظير فعلتها. فرمى أحد الأطفال الطوب على النافذة، وسبوها. فأغلقتها، وأخذت تبكي حزينة.

حتى جاراتها في الشقة لمنها لأنها نقلت الأخبار الكاذبة. أرادت أن تخرج من الحارة، تبتعد، الكل ينظر إليها في غيظ، يظنها قد اختلقت هذه الأخبار وجاءت بها من عندها.

كان رزق يتابع ما تفعله الهادية في أمه، في أول الأمر لم يتدخل. لكن عندما وجد الأطفال يرمون النافذة بالطوب أسرع إليهم وضربهم وقال متحديًا: «سأصرع مَن يُقدم على أذية أمي».

ووقف هارون معه، نظرت الهادية إلى الولدين وصمتت. لقد نسيت رزق الذي يعمل مع هارون ابنها في الدكان، والذي ينام – هذه الأيام - عندها في البيت. أحست بالخجل من أجله، ما كان يجب أن تجرح شعوره بهذه الكيفية.

سار مخلوف في الحارة، أخذ يفكر، لقد أراد الوصول إلى جون وعرّض نفسه للخطر، دون أن يعلم أن الوالي أعطاه ما أعطاه. أراد أن يقابله ليستفيد منه لمجرد أنه استطاع دخول القصر، فما بالك الآن وقد أصبح غنيًا بطريقة غير متوقعة ولا معقولة.

الكل يتحدث. بنيامين يقود الجماهير في الخارج، يحرضها على الذهاب إلى قصر الوالي، والمناداة بإخراج جون لمقابلته. قال له أحد الواقفين: «بذلك سيقطعون رأس جون فعلًا، وسيقطعون رقابنا معه».

لن يشترك مخلوف معهم، سيتصرف وحده، لا بد أن يقابل جون، ويكون أول مَن يقابله، ليأخذ منه ما يريد، ولا بد أن يتم هذا قبل أن يقابل الهادية التي ستتحكم في كل شيء.

صعد مخلوف درجات البيت، فتح باب حجرته. الشقة ليس بها صوت. الكل هبط إلى الشارع لمتابعة ما حدث لجون. دخل الحجرة، رمى اللوحات التي تعيق سيره، دفعها بقدمه بعيدًا، ماذا أخذ من الرسم؟ لا شيء، جون الأبله يمتلك أبعادية الآن. لمجرد أنه دهن جسم الوالي بمراهمه.

استلقى على ظهره فوق سريره، ومد ذراعه حتى لمس أرض الحجرة. سمع صوت نحيب، ما هذا؟! لقد ظن أنه في الشقة وحده. قام، سار حتى ردهة الشقة، فازداد صوت النحيب، اكتشف أن باب حجرة بنيامين مفتوح، والصوت يأتي من هناك. لا شك أن ملاذ حزينة لأن أخبارها اتضح أنها كاذبة، كما أن الهادية سبّتها.

دخل الحجرة، النافذة مغلقة، وملاذ فوق كنبتها تبكي. تضع رأسها فوق المائدة القريبة منها. اقترب منها، لا شك أنها أحست به وهو يدخل الشقة، ويفتح باب حجرته، وأحست به وهو يدخل حجرتها، لكنها لم ترفع وجهها. لمس كتفها قائلًا: «لماذا تبكين؟! إنكِ لم تقصدي الكذب».

ازدادت في البكاء والنحيب. فرفع وجهها إليه. مسحت وجهها بغطاء رأسها، وظلت أمامه بلا غطاء، كاشفة عن شعرها الناعم. الذي ظلت تمشطه لوقت طويل.

جلس بجوارها، وضع يده فوق وجهها، مسح دموعها بيده، تابعته صامتة.

- سيغير جون كل شيء في حارة اليهود، ولا بد أن نستعد لهذا.

- وما شأني بجون؟

- كلنا لنا شأن بما حدث.

التصق بجسدها الممتلئ، جسد مخلوف قوي، لولا الرسم، لأصبح مصارعًا مشهورًا، يصرع كل مَن ينازله. أحست بالدفء يسري في جسدها. بنيامين غير مهتم بشيء غير ما حدث لجون. كان يستكثر عليه أن يداوي الوالي ويدخل قصره. لا شك أن منح جون للأبعادية؛ سيجنه وقد يقتله من الغيظ. قالت: «لم أقصد شيئًا مما قلت».

قام من جانبها وهو يقول: «المهم الآن الاستفادة مما حدث لجون».

سار إلى حجرته وكأن شيئًا لم يحدث. تابعته في أسى وغيظ. أرادت أن تناديه ليبقى. لكنه تجاوز حجرتها وسار في طريقه لحجرته المظلمة ليلًا ونهارًا. وقفت، تابعته وهو يدخل الحجرة، والأصوات تأتي عالية من الخارج، تتحدث عن جون وأبعاديته. الصوت يأتيها واضحًا رغم النافذة المغلقة.

أسرعت إلى الردهة المظلمة، ودخلت حجرة مخلوف، تبينته بصعوبة، فالحجرة شديدة الإظلام، وهو مستلق دون حركة.

سارت ببطء. جلست على حافة السرير، في المكان الذي يمكن أن تجلس فيه، داعبت شعره المهوش، وصدره العريض، شدت شعر صدره الكث، خلعت الشعيرات من جذورها، أمسكتها بيدها، ثم وضعت رأسها فوق رأسه. أنسته أساه لأن جون الأبله اغتنى

وهو لا يجد قوت يومه. عندما أحس بسخونتها، قام إلى الباب وأغلقه. فقد يأتي بنيامين فجأة، أو ربما يأتي سكان الحجرات الثلاث الأخرى.

ملاذ.. ملاذ

جاء بنيامين متأخرًا، بعد أن سهر في مقهى شنتاي،حيث يتحدثون عن جون. قال رجل، لا يذكره بنيامين الآن: «إنني أشك في كل ما حدث، بالأمس كنا حزانى لأن جون سيذبح، والآن نحتفل لأنه سيمنح أبعادية، أليس هذا دليلًا على كذب ما ادعوه اليوم وأمس؟»

تمنى بنيامين أن يكون ذلك الرجل صادقًا. إنه قول معقول، فقد نقلت ملاذ حديث الخادمات في قصر القباري، وها هو فرج ينقل حديثًا، يدعي أن موظفًا صغيرًا قاله لعامير، مَن أدرانا أن هذا الموظف الصغير صادق في قوله؟!

حتمًا حديث فرج كذب، مثل حديث زوجته البلهاء، نعم، هي بلهاء، لقد رسم لها الطريق، لكي تدخل بيت الوالي، وتُرضع أبناءه، وذلك لكي ترفع من شأنه، ليكون في يوم من الأيام مثل عامير ودوف وزاكن أغنى أغنياء اليهود في مصر كلها. ولماذا لا يكون مثلهم، وهو أكثر وسامة منهم جميعًا، وأكثرهم قوة؟! المرأة البلهاء لم تستطع أن تصادق واحدة من أهل القصر، المفروض أن تكون قريبة من الأميرة ملك برهانم، لكنها تخاف الجميع، تضع حلمة ثديها في فم الطفل وتصمت، وبعد أن يشبع الطفل، يعطونها أجرتها ويطردونها. حقيقة، هم يدفعون لها مبلغًا كبيرًا، لكن بنيامين لم يرسلها إلى القصر من أجل هذا فقط. حتى عندما أرسلها عامير بك

لتتقصى الأخبار جاءت بأخبار كاذبة، وبدلًا من أن تصادق عامير بك وتتقرب منه، نالت غضبه ونقمته، ولو رآها عامير في قصره؛ سيطردها شر طردة، المصيبة، أن فرج أخبره بأنها زوجته. معنى ذلك أن عامير لن يثق به – هو الآخر – بعد ذلك.

كانت ملاذ نائمة، عادة ما تنتظره مهما تأخر، لكنها اليوم لا تريد أن تستيقظ من أجله. هي حزينة لأن معلوماتها كاذبة، ولأن الهادية سبّتها أمام الجميع، وجعلت أطفال اليهود يرمونها بالطوب.

- ملاذ، ملاذ.

تثاءبت، ثم تناومت. هي مستيقظة، لم تنم، وكيف تنام الليلة، وكل هذه الأحداث مرت بها؟ فضيحتها في حارة اليهود، ولقاؤها مع مخلوف الذي جاء فجأة. فليسهر بنيامين كما يشاء، ويستغل وسامته وقوته من أجل الإيقاع بالنساء الجميلات، هي لن تهتم. تعلم أنها ليست جميلة مثل الهادية وسرينة زوجة فرج، لكنها وجدت مَن يرضى بها ويشبعها. فقد ظل مخلوف يحدثها عن جمال وجهها وجسدها، حتى انحنت لتقبل قدميه من فرط التأثر. أعطت بنيامين دوطة كبيرة، افتتح بها محلًا كبيرًا في ميدان القناصل، لكنه ضيع كل شيء بغبائه، وعاد ثانية إلى حارة اليهود، ليجاور جون ابن عمه. لو تعلم أن كل ذلك سيحدث ما أعطته مليمًا واحدًا، ولظلت بلا زواج حتى تقابل مخلوف، ولتحملت البعد عن الزواج كل هذه المدة.

- ملاذ، ملاذ. إنني جائع، لم آكل منذ الصباح.

تثاءبت، ونقلت جسدها الضخم إلى الناحية الأخرى، كاشفة عن أعلى ساقيها، وشردت في مخلوف وما فعله بها. وكل المقدسات التي عرفتها وسمعت عنها، ما أحست باللذة إلا مع مخلوف، كل الذي فعله بنيامين معها، لعب عيال، ولا يساوي شيئًا. إنها تعشق القوة، وهكذا تتحدث التوراة، عن موسى القوي جدًا الذي صرع المصري بلكمة من يده، الرب أيضًا يحب الأقوياء.

- ملاذ، ما زلتِ غاضبة مما حدث؟

إن لم تذهب لحجرة مخلوف لظلت للآن حزينة، تفكر فيما فعلته الهادية معها. لكن أحداث مخلوف العظام غطّت على كل شيء في حياتها كلها.

- لقد حدث ما حدث، ولا بد أن نبحث عن حل. استيقظي لنعرف ما سنفعل.

ما الذي يريد أن يفعله، لقد ملّت أحلامه ومشاريعه التي عادة ما تأتي إلى لا شيء.

- ملاذ، أفكر في أن أذهب في الغد إلى زاكن، أبلغه بما حدث.

زاكن هذا فاسد مثله. ما لي أنا وهذا الذي يقوله، فليذهب إلى زاكن، أو يذهب في داهية، فذلك لا يعنيني في شيء. إنه يأكل من ثمن اللبن الذي بعته لطفلَي الوالي، ما آخذه منهم؛ أضعاف ما يكسبه من دكانه، لو ذهب عني، سأعيش سعيدة مع أولادي. الولد رزق كبر

الآن، يعرف الحلاقة، وقد طلبه هارون ابن جون والهادية ليعمل معه في دكان أبيه، إلى أن يعود جون من رحلة العلاج هذه. لو ذهب بنيامين، ستأتي بمخلوف ليعيش معها – عيني عينك – أمام الجميع، وستقنع أولادها بهذا. لكن يمشي بنيامين ويريحها.

- ملاذ، استيقظي، فقد مللت أن أحدثك وأنت نائمة.

اعتدلت، ليس في وجهها آثار دموع أو حزن، بل تجملت قبل أن تنام، ومشطت شعرها الناعم الطويل – أجمل ما فيها - لكي تحس بنعومته فوق وسادتها.

الرجل دهش لمنظرها هذا، وجهها منشرح ومبتسم وسعيد.

- أعدي لي العشاء.

قامت متثاقلة، لا تود أن تحدثه، منذ أن تزوجها وهي تقضي له حاجاته، مهما كانت ثقيلة على نفسها: «اذهبي إلى زاكن، قولي له كذا وكذا»، وتذهب من أجل مصلحته. لقد ضاقت بكل هذا، كثيرًا ما يصفها بالبله، يقول لها، وفي وجهها: «أنت امرأة بلهاء»، حقًا هي امرأة بلهاء؛ لأنها ضحت بكل شيء من أجل وسامته وقوته الواضحة.

حدثها بنيامين من بعيد: «سأبلغ زاكن بما حدث، ليتصرف».

لم تجبه، يريد أن يسرع زاكن لسرقة أرض الرجل المسكين قبل أن يهنأ بها. ماذا فعل زاكـــن له؟ هو

يخدمه، وينفذ أوامره الدنيئة منذ سنوات طويلة، وعندما ضاقت به الظروف، وفشل في دكانه القديم في ميدان القناصل، ذهب إليه ليعينه، فتخلى عنه، وغضب بنيامين منه، وقال إنه لن يعرفه ثانية، ولن يتعامل معه، فلماذا تذكره الآن؟!

عادت حاملة الأطباق. قالت: «سيأخذ زاكن الأرض من جون، ولن يعطيك شيئًا».

- يأخذها، المهم ألا يهنأ جون بها.

- جون بالنسبة لك أولى من زاكن، فهو رجل طيب، كما أنه ابن عمك.

- ذلك ما يجنني، منذ أن كنا أطفالًا، وأنا أفضل منه، وأعامله باحتقار شديد.

- يعطي الرب ما يشاء لمَن يشاء.

- ستذهبين إلى زاكن في الغد.

- ولماذا لا تذهب أنت إليه؟

- لن يستجيب لي.

عادت إلى الحجرة الأخرى، حيث المكان الذي تضع فيه الأطباق، وتطبخ فيه. ولم ترد عليه. عادت بأطباق أخرى، وضعتها فوق المائدة، وسارت نحو فراشها، قائلة: «تريد شيئًا آخر؟ سأنام».

اندهش من تصرفاتها الغريبة، فهي تحايله وتتمنى رضاءه دائمًا، فماذا حدث لها؟! ردد لنفسه: «الهادية كانت قاسية عليها».

أي رجل هذا؟ يرسل زوجته إلى زاكن وهو يعلم أنه ميّال للنساء، ويعلم أن تأثير ملاذ عليه أكثر من تأثيره هو. ملاذ تعرف زوجها جيدًا، لا يغار عليها، ولا يهمه ما يفعله زاكن بها، المهم أن يأتي لأخذ أرض جون الذي يكرهه كثيرًا.

***

تستلقي الهادية فوق فراشها وحدها، ابنها هارون ينام في الحجرة البعيدة مع رزق ابن بنيامين وملاذ، هما لم ينعسا للآن. يتحدثان، ويضحكان، تأتيها ضحكة رزق عالية، نزقة مثل ضحكة بنيامين والده أيام كانت تحبه. كم عذبها بنيامين هذا، تكفي نظرة والدها لها. الرجل لم يقتنع بجون. قال لها في صراحة بعد أن ملَّ منها: «التي توافق على الزواج من رجل مثل جون، لا بد أن تكون في حالة ضعف وتريد أن تخفي شيئًا».

أسرعت وقتها إلى بنيامين. رجته أن يسرع بإجراء الزواج قبل أن يفتضح أمرها أمام أبيها وأقاربها وأهل الحي الذي تسكنه. فكرت في أن تذهب إلى حاخام معبد زراديل في سوق السمك، قريبًا من بيت بنيامين. لكنها خافت من بنيامين، فهو لو ضربها في الشارع لن تجد مَن ينصرها، كما أن هذا سيزيد الفضيحة اشتعالًا.

عندما سبّت ملاذ بالأمس، كانت تريد أن تنتقم من بنيامين ومن زوجته التي تركها من أجلها، نسيت ابنها رزق. لو تذكرته؛ ما فعلت شيئًا مما فعلت.

تقلبت فوق الفراش عدة مرات، أيعرف الولد رزق أنها تفضل الصبيان، وتطارد مَن يعجبها منهم؟ ربما. فالكثيرون في الحي يعرفون هذا. حتى زميلاتها في العمل، يذكرن هذا ويضحكن، وقد واجهتها زميلة لها، قالت دون مواربة: «ما رأيكِ لو أتيت إليكِ بابني؟»

ابنها هذا لم يتعدَّ العاشرة. وضحكت زميلتها في سخرية. لكن الهادية لم تغضب منها. فهي امرأة بلهاء. لا تعرف مدى اللذة التي تجدها الهادية في التعامل مع هؤلاء الصبية، معظمهم خام لم يجربوا شيئًا من هذه الأشياء، فتشكلهم كما تشاء. تعلمهم كيف يفعلون.

لا شك أن الولد رزق يعرف هذا، لكنه خجول. عندما يحدثها ينظر إلى الأرض. يناديها بـ «خالة الهادية».

لا بد أن تجد حلًا لحكاية زوجها جون هذا. الرجل لا تعرف إن كان قُتل أم لا. ولا تعرف هل حكاية الأبعادية هذه حقيقة أم شائعة يرددونها.

استيقظت مبكرة كعادتها. تشعر بالتعب، لن تذهب إلى عملها الآن.

أعدت الطعام لها ولابنها وضيفه. ثم دخلت حجرتهما. وجدت كلًا منهما ينام في فراش مستقل. اقتربت من هارون، أيقظته. خرج الولد، سار معها. قالت: «ألن توقظ صديقك؟»

- لا. سأذهب إلى الدكان الآن، وعندما يصحو، قدمي إليه طعامه.

ظلت في الشقة وحدها، سوف تبحث عن فرج لكي يذهب بها إلى قصر عامير بك. ستقول له بلا حياء: «أنت المسئول عن إعادة زوجي إليّ».

سارت نحو حجرة رزق، وجدته محتضنًا الوسادة بيديه، ونائمًا على بطنه. اقتربت منه. سارت في حذر، جلست على حافة السرير. لمست براحة يدها كتفه، ثم ظهره. فأجابها بغطيطه. أمسكت شعره الذي يشبه شعر بنيامين، بنعومته وسواده الزائد. هبّ فزعًا: «خالة الهادية؟!»

كم تمنت أن تقتل بنيامين وزوجته وأولاده جميعًا. وها هو ابنهما الكبير أمامها.

لمست خده بيدها. يعرف رزق ولعها بالصبية، يتندرون على ذلك في غياب هارون، لكن لم يظن أن تفعل هذا معه، وهو الصديق المقرب لابنها.

- ماذا تريدين يا خالة الهادية؟!

- أريدك أنت.

التصقت بجسده. فهبّ واقفًا، حمل ملابسه وخرج من الشقة. لم تستطع الإمساك به. أغلق باب الشقة خلفه في عنف. وتركها تدور في حيرة، ماذا تفعل؟ الولد حتمًا سيخبر بنيامين وأمه التي نالت الهادية منها بالأمس لكذبها. ماذا ستفعل ملاذ بها؟ حتمًا ستأتي للانتقام منها. ستقول أمام الجميع: «انظروا يا أهل الحارة. العجوز تريد أن تأخذ ابني الذي في سن ابنها».

أمسكت رأسها بيديها. بنيامين لن يتركها في حالها لو علم بهذا، وابنها المسكين، ما ذنبه؟!

ماذا تفعل؟ أتنزل إلى الحارة لتستعطف الولد. ترجوه ألا يخبر أحدًا بهذا. نعم سترجوه ألا يخبر هارون.

ارتدت ملابسها على عجل، وأسرعت إلى الحارة. ذهبت إلى الدكان. وجدت هارون ورزق يجلسان متجاورين، عندما رآها هارون أسرع إليها. سيثور عليها الآن، ويقول لها: «لقد فضحتني بأفعالك.. حتى صديقي لم تتركيه».

لكن الولد جاء مبتسمًا. سألها: «أين تذهبين؟»

شردت للحظات. الولد لم يقل شيئًا لابنها. قالت مرتبكة: «أبحث عن فرج، لا بد أن أصل إلى عامير لأعرف مصير والدك».

لن تبحث عن فرج، ولا عن غيره. ستعود إلى بيتها، لترى ماذا تفعل في هذه الورطة التي وضعت نفسها فيها. الولد لم يقل لهارون، لكنه سيخبر بنيامين وملاذ بذلك.

دفعت باب شقتها في عنف. بكت، صرخت، ما الذي جعلها تفعل هذا؟! كيف تعطي الفرصة لابن عدوها وعدوتها لكي ينال منها؟!

لا بد أن تتصرف. نعم، لا بد أن تلحق الولد قبل أن يذهب إلى بيته ويخبر أمه وأباه. ليتها قتلته وارتاحت. نعم تقتله، أليس هو ابن عدوها وعدوتها؟! ألم يعذبها

أبوه سنوات طويلة؟ وأمه، تلك الدبة القبيحة. ألم تأخذ حبيبها منها بعد أن فعل بها فعلته؟!

ستقتله. لكن كيف تفر من العقاب؟

لديها سم تخفيه الآن في حوائجها، جاءت به من المستشفى لتقتل الفئران التي تحاول دخول شقتها من نوافذ المنور، عندما طلبته، حذرها الطبيب من خطورته. إنه يمكن أن يقتل فيلًا؛ لا فأرًا صغيرًا. بحثت عن السم حتى وجدته.

ستعد الطعام وترسله إليه ليأكله في الدكان، فيموت. وإذا سألوها ستنكر. ستقول كيف أرسل إليه طعامًا مسمومًا وابني قد يأكل معه. نعم. ستقول لابنها ألا يأكل من هذا الطعام.

***

خرجت ملاذ من بيتها في الصباح، مرت أمام مقهى شنتاي، حيث يجلس مخلوف، نظرت إليه في جرأة، قالت: «صباح الخير يا مخلوف».

كان مخلوف جالسًا حزينًا، يفكر في طريقة تجعله يصل إلى جون قبل الجميع، لاحظت ملاذ أن ملابسه اليوم نظيفة وغير مكرمشة، وشعره منظم وممشط، سارت في طريقها، لم تنظر خلفها. بعد أن ابتعدت عن حارة اليهود، وسارت في الشارع العمومي المؤدي إلى ميدان القناصل وجدت مخلوف خلفها: «ملاذ، إلى أين تذهبين؟»

- ألحّ بنيامين عليّ؛ لكي أذهب إلى زاكن؛ لأخبره بما حدث لجون.

- زوجكِ مجنون، يريد أن يذهب الخير عن جون بأية طريقة.

- ماذا ترى أنت؟

- زاكن سيأخذ كل شيء له وحده، وأنتِ تعرفينه.

- قلت هذا لبنيامين، لكنه أصر على أن أذهب وأخبره.

- أريدكِ أن تعملي من أجلي، لا من أجل بنيامين.

- أنت عندي الآن أفضل منه.

- سأذهب معكِ لمقابلة زاكن؛ لأعرف خططه.

- لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا.

- وزاكن، ماذا سيقول عندما يرانا معًا.

ضحكت في خلاعة قائلة: «إنه يشجع الرذيلة عادة».

زاكن من أغنياء اليهود، لكنه لا يكتسب الاحترام الذي يبديه اليهود لعامير أو دوف، فتاريخه معروف لديهم. فقد بدأ حياته قوادًا، جمع العديد من النساء.. يهوديات ومسيحيات ومسلمات، وقدمهن إلى الأجانب الذين يعيشون في الإسكندرية دون زوجاتهم، وكسب كثيرًا من ذلك، فأقام مسرحًا في اللبّان بجوار البيت الذي يدير منه شبكة الدعارة، وأسس فرقة مسرحية تقدم أعمالًا هزلية، وتتعرّى النساء فيها، وإذا أعجب أحد النظارة بواحدة من الممثلات يأمرها بالذهاب معه إلى

بيته أو إلى أي مكان آخر يريده. اتضح أنه حوّل المومسات اللائي كن يعملن معه في شبكة الدعارة إلى ممثلات.

كان عامير يقف فوق المنصة يخطب في أحد المعابد ويدق المائدة أمامه بقبضة يده.

بعد انتهاء الاحتفال تقرب زاكن منه، مد يده مصافحًا، فوضع عامير يده مضطرًا، فقد كانت أفعاله التي تزكم الأنوف من رائحتها الكريهة؛ معروفة ليهود الإسكندرية ولغير اليهود.

طلب زاكن منه أن يساعده في الدخول في مشاريع تجارية، ثم ضحك غير مراعٍ للمعبد المقدس ولكبار اليهود الموجودين وقال: «حتى نغير نشاطنا»!

قال عامير: «سأفكر في الأمر».

لم يكن عامير ينوي على التفكير كما وعد، ولا على التعاون معه. هو حقًا ابن صانع خمور مغشوشة، لكن الأيام محت هذه الذكرى، واكتسب سمعة طيبة، فأعماله التجارية بعيدة عن الربا والدعارة والخمور، كما أن سيرته حميدة، زوج لزوجة محترمة، وأب لأولاد في غاية الاستقامة.

لكن زاكن لم ييأس وظل يطارده حتى أذعن آخر الأمر، وساعده في افتتاح محلجه في منطقة كفر عشري، وباع له الكثير من أسهم بنكه الجديد الذي أسسه بالاشتراك مع أصدقائه الإيطاليين؛ وإن كانت

مشاريع زاكن المسرحية ما زالت مستمرة، مع بيت الدعارة الذي تركه لابن من أبنائه.

زاكن – الآن – ممتلئ، ترتج الأرض التي يسير فوقها، يدخل محلجه، ممسكًا بجريدة تصدر بالفرنسية، فهو يحرص على شراء الجرائد الفرنسية اليومية والأسبوعية، ولا بد أن يقرأها جميعًا قبل أن ينام؛ لكي يتحدث مع رجال المال والسياسة فيما يتحدثون عنه، ويبدو أمامهم مثقفًا واعيًا.

يسير بين العاملات اللائي يجمعن القطن داخل الأجولة، يتابعهن في اهتمام شديد، والتي تعجبه منهن، يترك الجريدة معها، قائلًا لمساعده الذي يسير خلفه دائمًا: «تأتي بالجريدة إلى مكتبي».

تنظر الفتاة حولها في حيرة، وتتابعها باقي الفتيات في ابتسامة ساخرة، فهن يعلمن أنه اختارها للقاء اليوم، وإذا اعترضت الفتاة، يدفعها حراسه خارج المحلج، يرمونها في الشارع، فقد انتهى عملها عندهم، وإذا وافقت، تدخل مكتبه الكبير حاملة جريدته، فتظل في مكتبه طوال اليوم، وعند انصرافها يوصي مساعده بأن يزيد أجرتها اليوم مليمين. تعرف زاكن على ملاذ قبل زواجها من بنيامين بمدة قصيرة. ذهب إلى والدها ليقترض منه دينًا لتعثُّر أعماله في المحلج، رآها، كانت أقل حجمًا مما هي عليه الآن، تعيش مع والدها الصراف، تابعها بإعجاب، وهي ابتسمت له. بعد مدة قصيرة، جاء يرد قيمة الدين وفوائده. كانت الأموال قد ازدادت في خزائن محلجه ومسرحه وبيته السري، يومها عرض على والدها المرابي أن تعمل ملاذ عنده، قال الرجل في اعتراض: «أجننت يا زاكن؟ ابنتي تعمل مع عاملات القطن؟!»

ضحك قائلًا: «لا، ستعمل موظفة، تنظم أعمالي».

وذهبت ملاذ لتعمل في محلجه، أغنته – وقتها – عن ترك جريدته الفرنسية لفتيات جمع القطن. البنت لم

ترفض له طلبًا، كان يغلق الباب عليهما ولا يفتحه إلا قبل انتهاء العمل بدقائق قليلة. ثم ملّها بعد ذلك، خاصة أنها تركت جسدها يمتلئ، حذرها من ذلك، فلم تهتم، وعندما أراد أن يتخلص منها عرفها ببنيامين الذي كان يأتي إليه في دار الدعارة باللبان، يشربان معًا، ويحلق لزاكن شعر رأسه ولحيته، ويهذب شاربه، وأجرته مقابل ذلك لقاء واحدة من عاملاته. أقنع بنيامين بأن زواجه من ابنة المرابي هو الحل لأزمته، وأنه بعد زواجها سيتمكن من تحقيق حلمه بفتح دكان على أعلى مستوى في ميدان القناصل، أهم منطقة في الإسكندرية، وتم الزواج كما أراد زاكن. لكن عندما أراد أن تستمر علاقته بملاذ، لم توافق، وأصرت على أن تكون لبنيامين وحده، وإن ظلت تزور زاكن في محلجه، أو مسرحه، مرات عديدة، وكلها بتكليف من بنيامين، لكي يحل مشاكله التي كانت مالية دائمًا. آخرها عندما أغلق دكانه في ميدان القناصل، واحتاج لأن يستمر في هذه المهنة. يومها داعبها زاكن، وقرصها من خدها معاتبًا لعدم زيارتها له، لكنه لم يعطها شيئًا لبنيامين، حتى أغضبه، ولم يتصل به إلا هذه المرة. لكي يضيع على جون ما اكتسبه.

* * *

يمتلك زاكن عمارة كبيرة قريبة من البحر، وقريبة جدًا من مسجد أبي العباس المرسي. يسكن في شقة منها وحده بعد أن ماتت زوجته كمدًا من أفعاله.

صعد مخلوف وملاذ الدرج، ودقًا الباب، فتحت الخادمة، تابعتهما في دهشة، قال مخلوف: «نريد زاكن بك».

كانت عجوزًا متصابية، تحدثت مع زاكن بلا تكلف، لم تقل له «سيدي»، قالت «زاكن» دون ألقاب. فجاء كاشفًا عن نصفه الأعلى، نظر إلى ملاذ وضحك: «ملاذ، ما الذي ذكرك بي؟»، ثم توقف عن القول عندما رأى مخلوف. قال في استخفاف: «مَن هذا؟»

دخلت، وعندما أراد مخلوف أن يتبعها، وضع زاكن يده على الباب ليمنعه من الدخول. قالت: «دعه يدخل».

- لكنني لا أعرفه.

عادت، أمسكت مخلوف من يده ودخلت به الشقة.

ضحك زاكن، وأحس بخبرته الكبيرة في عالم النساء أن مخلوف هذا على علاقة بها، قال: «عشيقكِ، أليس كذلك؟»

صمتت للحظات، ثم قالت: «ليس هذا موضوعنا الآن».

- وما هو موضوعنا يا ملاذ؟

قالت لمخلوف في تحدٍّ: «اجلس يا مخلوف».

ضحك زاكن وقال: «اجلس يا مخلوف، ما دامت ملاذ أمرت».

جلس مخلوف بجوار ملاذ صامتًا، فأضاف زاكن: «واضح أنه عزيز عليك».

قالت ملاذ وكأنها لم تسمع ما قاله: «بنيامين أرسلني إليك».

ضحك أكثر: «بنيامين الذي أرسلك؟! أيعلم بما بينك وبين مخلوف هذا؟»

أراد مخلوف أن يتدخل، فأمسكت يده لكيلا يتدخل: «تعرف جون حلاق الصحة؟»

- لا أعرف من حلاقي الصحة سوى بنيامين زوجك.

- إنه رجل مسكين، قدم خدمة إلى الوالي، فمنحه أبعادية كاملة في منطقة الطابية.

وقف زاكن، صاح في الخادمة العجوز، سبّها بكلمات كبيرة جدًا، فضحكت المرأة، قال لها: «آتني بزجاجتي وكأسي، فالموضوع كبير جدًا».

ظلت ملاذ صامتة، تتبادل النظرات مع مخلوف. أمسك زاكن الكأس، وضع به قدرًا من الخمر، وجرعه مرة واحدة. ثم أراد أن يملأه ثانية، ثم تردد قليلًا، ورمى الكوب ناحية الخادمة العجوز، وشرب من الزجاجة. نظر إلى ملاذ وقال لها: «أعيدي ما قلت، فقد أفقت الآن».

أعادت ما قالته له. قال: «أي والٍ؟!»

- والي البلاد. سعيد.

شرب كل ما في الزجاجة، ثم رماها ناحية الخادم العجوز، كادت الزجاجة تهشم رأسها، لولا أن تفادتها المرأة، ثم ضحكت في خلاعة.

- زوجك بنيامين رجل شهم، دائمًا يتذكر أصدقاءه القدامى.

صاح زاكن في الخادمة، سبّها ثانية سبابه الكبير، وأمرها أن تأتي بشراب لضيفيه، تغيرت معاملته لهما بعد أن استوعب الموضوع وأدركه.

اقترب زاكن من مخلوف، وسأله: «أتعرف هذا الموضوع؟».

- إنني أقرب صديق لجون.

- ذلك الحلاق المحظوظ، الذي منحه الوالي الأبعادية؟

- نعم. رسمت له صورة لعنان بن داود.

نظر زاكن إلى ملاذ وسألها: «جون هذا من القرائيين؟»

- نعم.

ثم نظر ثانية إلى مخلوف: «وأنت رسام؟»

- نعم.

- سأستفيد منك كثيرًا، فأنا أحب الفن وأقدره، ألم تقل لك ملاذ عن الفرقة المسرحية التي أمتلكها؟

- زاكن بك معروف لدى كل يهود الإسكندرية.

قام زاكن هذه المرة وحده، وأمسك زجاجة جديدة وفتحها بفمه في سرعة شديدة. وضعها أمامه، وأفرغ كوبًا لمخلوف، ملأه عن آخره، وقال لملاذ: «أقلتِ لي إن عامير هو الذي أخذه من يده وسلّمه لقصر الوالي؟»

- نعم.

- آه، تذكرت، لقد جاء إلى قصر عامير ورأيته بنفسي.

ثم ضحك بصوت مرتفع، حتى جاءت الخادمة العجوز لتتابعه، مصمصت شفتيها وضحكت، ثم عادت من حيث جاءت.

قال بعد أن شرب ثانية من الزجاجة: «معنى هذا أن عامير يعلم بأمر العزبة التي منحها الوالي لجون؟»

- نعم.

شرب من الزجاجة، ورمى جسده للخلف وشرد طويلًا.

قال مخلوف: «لم تقُل لنا ما الفائدة التي سنستفيدها من هذا كله؟»

ربّت فخذ مخلوف وقال: «اطمئن. أنت وهي أول المستفيدين من هذه العملية، صدقاني، وقبلي أنا أيضًا».

وقفت ملاذ وتبعها مخلوف استعدادًا للانصراف. قال زاكن لهما وهو يودعهما حتى باب شقته: «بنيامين لن يعرف أنكما جئتما معًا».

أرادت أن ترد عليه وتقول إنها ما عادت تهتم بذلك، لكن مخلوف أمسكها من ذراعها وسارا معًا.

ظل زاكن وحده، الخادمة العجوز في الداخل تعد لـــه طعامه. اختار زاكن خادمته هذه بعناية فائقة. امرأة عملت في الدعارة لسنوات طويلة، ثم اختارها لرئاسة العمل في البيت السري الذي ما زال يديره رغم غناه. أعجبه فيها انحلالها الكامل، فطلب منها أن تشاركه شقته بعد أن خلت عليه بموت زوجته وذهاب الأولاد؛ كل منهم استقل بحياته وعاش بعيدًا عن أبيه الذي لا يُطاق. الأولاد خافوا أن يغازل زوجاتهم.

كلما سمع زاكن عن ذلك يضحك. ويفخر بنفسه، لم يراعِ يومًا الصداقة أو القرابة، أي امرأة تعجبه يبادر بمغازلتها، ولن يخسر شيئًا. إذا وافقت على مرافقته؛ نال منها ما يريد، وإذا غضبت، يتركها غير نادم على ما فعل، وإذا خسر زوجها - صديقه - فليخسره، فالأصدقاء كثيرون، وسرعان ما يأتون إليه ما دام المال معه.

عامير لن يترك جون ينعم بالعزبة وحده. هو يعرفه جيدًا. يتدخل في كل ما يخص اليهود، وزاكن أيضًا مثله، يتدخل في شئون اليهود، ولكن على طريقته الخاصة. قال عامـــير لـــه يومًا: «لم أرك أبدًا تتبرع لمشروع لصالح فقراء اليهود».

فضحك وقتها في نزق، وقال: «ما لي والفقراء؟ أتريدني أن أتدخل في مشيئة الله؟»

- كيف؟

- أرادهم الله فقراء، وليس من حق أحد أن يعترض أو يتدخل.

ضحك عامير، وقتها، على هذه الأفكار الغريبة، وقال: «أتراني أغضب الله لو ساعدت الفقراء؟!»

- ساعدهم كما تشاء، لكن لا تُدخلني معك في هذا.

لا بد أن يتدخل زاكن قبل أن يتصرف عامير في هذه الأرض القريبة جدًا من الإسكندرية، والتي تصلح للزراعة لوجود الماء بكثرة، وتصلح لإقامة مصانع عليها. حلج قطن وغيره.

صاح في المرأة العجوز التي تصبغ شعر رأسها بالحنة، وتكشفه في مباهاة لطوله ونعومته. سبّها بكلماته المنتقاة، فضحكت في خلاعة واقتربت منه مداعبة، فضربها في قسوة، ورغم الألم الذي أحست به، ضحكت في خلاعة وابتعدت.

* * *

أعدت الهادية الطعام، ثم أسرعت وتأكدت أن باب الشقة مغلق، وأخرجت السم ووضعته في الطعام، سيموت ابن بنيامين وملاذ قبل أن يفضحها ويفضح ابنها.

عادت إلى النافذة ونادت على ابنها هارون، فجاءها مسرعًا. وقف أمام النافذة:

- ماذا تريدين؟

- أريدك. تعالَ.

تعودت أن ترسل طعامها إلى جون زوجها، وابنها – لو كان معه في الدكان – وأمر طبيعي أن ترسل لابنها وصديقه.

أسرعت وفتحت الباب لابنها: «لا أريدك أن تأكل من هذا الطعام».

صاح هارون مندهشًا: «لماذا يا أمي؟!»

- كُل هنا قبل أن تنزل، واترك ابن بنيامين يأكل وحده.

ظن الولد أن أمه تخصه بطعام أجود من الذي سترسله إلى رزق.

- لكنني أريد أن أتناول طعامي مع صديقي.

صاحت فيه غاضبة: «اسمع ما أقوله لك».

أمسك الطعام وقال: «سآكل معه».

أسرعت، وأمسكت الطعام منه: «لا تأكل من الطعام، عدني بذلك».

اندهش الولد، نزل بالطعام وهو يفكر، ما الذي تريده أمه من هذا، هل تريد قتل رزق؟ من الممكن أن تفعل هذا. لكن ذلك جنون. كيف تعرض نفسها للخطر. قتل رزق بهذه الكيفية، سيؤدي إلى معاقبتها. فمن السهل إثبات وجود السم في الطعام. لا، أمه لا يمكن أن تقدم على فعل مثل هذا. لكنها تكره بنيامين وزوجته. ولا تكف عن مهاجمتهما بسبب، وبدون سبب.

وضع الطعام فوق المائدة كالعادة. كان رزق شاردا طوال الوقت. يفكر فيما فعلته الهادية معه. لا بد أن يبتعد عنها. لن يذهب إليها ثانية في بيتها. سينام من اليوم في بيته. المكان لدى الهادية متسع، حيث ينام مع ابنها هارون في حجرة وحدهما، بينما لا يجد مكانًا في الحجرتين اللتين تسكنهما أمه مع أبيه وإخوته. لكن ما فعلته معه الهادية كثير، وهو لا يستطيع احتماله. لا يريد أن يفعل هذا إلا مع زوجته عندما يتزوج. كما أن الهادية في سن أمه، وابنها أقرب صديق له. قال هارون: «ما لك يا رزق؟ هيا لنتناول الطعام معًا».

- هارون، أريد أن أقول لك شيئًا.

- وما المانع من أن تقوله ونحن نأكل معًا؟

- لن أنام في بيتكم ثانية.

- لماذا، هل أغضبتك أمي؟

تلعثم رزق، ثم قال: «لا. إنما أريد أن أعود إلى أمي وأبي وإخوتي».

- أنت غاضب لما فعلته أمي بأمك أمس الأول.

قام رزق، سار بعيدًا عن الطعام.

- إنني أقدر أمك وأعاملها كأمي تمامًا. لكنني سأعود إلى بيتنا بعد أن نغلق الدكان.

عاد رزق، جلس في مكانه. وأمسك هارون بالطعام، رفع عنه الغطاء. ومد يده ليأكل، وإذا بالهادية تسرع

بأخذ الطعام كله وتذهب به، وسط دهشة الصبيين. ظن رزق أنها تستخسر فيه الطعام بعد صدّه لها في الصباح، وأدرك هارون أن الطعام كان مسمومًا، وعندما وجدته سيأكل منه؛ لحقت وأخذته من أمامهما.

عاد جون، يا معشر اليهود

أحس جــون بالرغبة في ترك هذا القصر الذي يخنقه، فقد اشتاق لسوق السمك، وحارة اليهود، وللولد هارون، ودكانه وصورة عنان بن داود، أراد أن يأتوا له بالصورة ليضعها أمامه في حجرته هذه ليتبارك بها، أراد أن يقول للطبيب ولكل من يتصل به في القصر إن عنان بن داود قادر على شفاء الوالي، لكنه خاف، فهم – عادة – ما يأخذون حديث اليهود بمحمل آخر، ويتوقعون منهم الضرر والأذى قبل النفع والفائدة.. وبالتالي لن يسمحوا بهذا، وقد يرمون الصورة، أو يعبثون بها. كما أن نظرات الخدم والعبيد والأطباء هنا تضايقه، كلهم يتابعونه في ابتسامة ساخرة. يعرف جون هذه الابتسامة جيدًا. فالكثيرون يتابعونه بها، ساخرين من شكله وطريقة نطقه. عندما يذهب في المساء لدهن جسد الوالي سيطلب منه أن يعود إلى سوق السمك، ويأتي إلى القصر لدهن جسده في المواعيد المحددة. الوالي نائم الآن، لقد فتح باب حجرته، واقترب منه على حذر فوجده يغط في نومه، كان يبدو مبتسمًا كأنه طفل صغير.

اكتشف جون أنه غير قادر على معاشرة النساء. لم يكن يعلم هذا قبل زواجه من الهادية. كان يحبها بجنون وما زال. هو الآن يحمد الله لأنه لم يكتشف هذا قبلها. وإلا كان امتنع عن الزواج نهائيًا، وخرم من الهادية، ومن هارون الذي يحبه كثيرًا. عندما عرف أن الهادية حامل،

أحس بالغضب يسخن رأسه، فكيف تخونه؟ أراد أن يسألها، هل حدث هذا قبل الزواج أم بعده؟ لكنه لم يفعل، وعندما ولدت هارون علم أن ذلك حدث قبل الزواج. تمنى لبعض الوقت أن يعرف مَن الذي فعل بها هذا؟ لكنه لو علم سيكره شخصًا ما، فلماذا يفعل هذا؟ فكر في بنيامين، فقد كان يُكثر من الحديث معها أيام الدراسة في مستشفى كلوت بك، وكانت تقف أمامه سعيدة ولهانة. وقد يكون شخصًا آخر غيره. فلماذا يتعب نفسه هكذا؟ مشكلته الآن في هذا القصر هو الوقت الطويل الذي لا ينقضي، في دكانه كان يتحدث مع صورة عنان بن داود، وكانت ترد عليه. حقًّا كانت ترد عليه وتناقشه في كل الأمور، هو الذي نصحه بألا يسأل عن الذي فعل ما فعل مع الهادية، وهو الذي قال له أن يحب هارون كأنه ابنه وأكثر. كما أنه في حارة اليهود يتحدث مع الذاهب والعائد من أمام الدكان ويذهب إلى حجرة مخلوف صديقه، يداعبه، ويشاهد لوحاته، ويتحدثان صديقًا لصديق، وعندما تعود الهادية من عملها يحدثها وتحدثه، تحكي له عن عمالها الذين تشرف على أعمالهم، يقسم لها بحياة عنان بن داود المعذبة بأن تحنو على هؤلاء المساكين، وأن تخفف العمل عليهم، وألا تخصم من أجرتهم، أحيانًا كانت ترد في سخرية منه، وأحيانًا كانت تعده بأن تفعل هذا من أجل عنان بن داود. وجون يثق فيها، ويعلم أنها تقدر عنان رغم أنها ليست من القرائيين.

سار جون على حذر، تابع الوالي من بعيد، ثم جلس بجواره، فقد يصحو فجأة، حرام أن يدهن جسده وهو نائم، فذلك سيجعله يصحو قبل أن يأخذ نومته. في أيامه الأولى لحضوره إلى القصر كان يدهن جسده بالمراهم وهو نائم؛ لأنه كان في غيبوبة متقطعة. الآن الوالي ينام ويشبع نومًا.

حلم الوالي بشيخ الأزهر يقف أمامه، يعرفه الوالي جيدًا، فقد قابله في الكثير من المناسبات الإسلامية، قال له: «أخبروني أنك تريد مقابلتي، فجئت إليك».

- وكيف علمت وأنا لم أقل لأحد؟

- وكيف أكون شيخ الأزهر، ولا أعرف ما تفكر فيه؟

- إنني أتعذب، أدركني.

- لقد قتلت الجنديين اللذين كانا يحرسانك لما سافرت منفلوط.

تذكر سعيد ما حدث يومها. أهل منفلوط يحيطون به، يقدمون إليه الهدايا، والأطعمة الدسمة التي يحبها. ضحك الوالي وقتها سعيدًا، وداعب العمد خاصة الممتلئين مثله. بعد أن عاد إلى مقر إقامته التي استضافه فيها أهل منفلوط، أبلغوه أن جنديين من حراسه غير موجودين. كان الأكل يثقل على معدته، ويسبب له آلامًا وصداعًا في رأسه، قال: «ابحثوا عنهما، فلعلهما ذهبا لشراء شيء».

في الصباح قبضوا على الجنديين، وجاءوا بهما مكبلين، كانا من أبناء مشايخ البلد، بعد أن أمر الوالي بتجنيدهم، واعترض بعض العمد ومشايخ البلد على ذلك القرار. وقد اضطر الوالي أن يشنق الكثيرين منهم لهذا الاعتراض، واتضح أنهم امتنعوا عن إرسال أبنائهم لظنهم أنه يريد أن يملأ قصوره بالغلمان، وأن هذه العادة السخيفة كانت متأصلة في أسرة محمد علي.

جاءوا بالجنديين إليه، وقد ارتاح من عناء أكل الطعام الدسم، وارتاحت معدته. سألهما: «أين كنتما؟»، قال أحدهما: «وجدت نفسي قريبًا من قريتي التي لم أزها منذ سنوات، فقلت أذهب لزيارة أهلي»، ثم نظر إلى الآخر وسأله: «وأنت؟»، قال في حزن شديد وأسى: «دعاني إلى بلدته».

كان الوالي يفكر في أمر يقلقه، ويطارده في نومه وصحوه. ماذا يحدث إذا ربط إنسانًا في فوهة مدفع وأطلق المدفع، هل ستتناثر أشلاؤه فوق البيوت، وفي الترع؟ فكر في أن ينفذ هذا في أول إنسان يحكم عليه بالإعدام.

رؤيته لهذين الجنديين أعادت إليه الرغبة، فصاح: «اربطوهما في فوهتي مدفعين، وأطلقوا المدفعين».

ثم ضحك وسط دهشة الجميع. فالجريمة لا تستحق كل هذا العقاب. المتبع أن يحبس الجندي لأيام معدودة.

نظر القادة بعضهم لبعض، لكن لم يجرؤ أحدهم على الاعتراض. قال الوالي لشيخ الأزهر: «وماذا أفعل لكي أكفر عن خطيئتي هذه؟».

- ألا تعلم بما حدث لأهلهما. سافر لقريتهما، وقابل أهلهما، واطلب منهم المغفرة والعفو، وادفع ديتهما. ذلك هو الحل الذي سينجيك من عذابك.

فوجئ القصر كله بالوالي يصرخ في حجرته. منذ أن مرض، لم يسمعوا صراخًا مثل هذا. أسرع جون إليه. وجده في مكانه والعرق يملأ وجهه، والدموع في عينيه. نظر إلى جون طويلًا. قال جون: «ما لك يا مولاي؟».

نظر الوالي إليه، ثم صمت إلى الأبد.

اقترب الكثيرون، خاصة زوجته الأميرة أنجي هانم. كانت الأميرة ملك بر هانم تضم ولديها وتقف بهما بعيدًا عن الحجرة، تخاف أن يذهبا إليه، فينتقل مرضه الغريب إليهما.

دخلت أنجي غير مبالية بتحذيرات الأطباء لها. وجدت جون في طريقها، فدفعته في عنف حتى كادت توقعه. والوالي ينظر إليها، أسرعت إليه، ضمته لصدرها، لم تشم رائحة كريهة كما يدعون.

وأعلن الكتخدا أن الوالي قد مات وأن مهمة الممرض اليهودي انتهت، فأعطاه صك ملكية الأرض في منطقة

الطابية، القريبة من رشيد، وأمره بأن يذهب عن القصر، وألا يأتيه ثانية، هو وباقي اليهود.

تابع الخدم والعبيد وبعض الموظفين جون وهو يخرج ببذلته الواسعة عليه والتي أعطاها له عامين، حاملًا في يمناه الصك الذي يثبت ملكيته للأبعادية، وبيسراه الحقيبة الجلدية. نظر إلى الجميع في حيرة. ماذا سيفعل في هذه الورقة الصماء؟! وكيف سيعود إلى البيت وحده؟ إنه منذ وقت طويل لم يبرح حارة اليهود. يتنقل من دكانه إلى بيته، أو إلى بيت صديقه مخلوف، أو مقهى شنتاي لمقابلة مَن يريد. ما عدا ذلك لا يعرف.

لم يضحك الخدم والعبيد كالعادة، بل رثوا لحاله. كان يجب أن تعيده عربة من عربات القصر إلى بيته. لكن الكل منشغل بموت الوالي.

سار متعثرًا في خطواته، كاد يقع أكثر من مرة، فاضطر أحد الخدم أن يمسك بذراعه ليساعده على الخروج من باب القصر.

هناك وقف يتابع الطريق الطويل أمامه. صحراء ممتدة. سار حاملًا الصك والحقيبة، وفجأة سمع مَن يناديه: «جون. جون أنا مخلوف».

خرج مخلوف من المكان الذي كان يختبئ فيه. ضمّه جون فرحًا به، لقد استجاب الله لدعائه وأرسل إليه مخلوف. تحسس مخلوف جسد جون فرحًا: «كيف حالك يا جون؟ كل يوم آتي إلى هنا لأتابعك».

- طبعًا، فأنت صديقي المخلص. كنت أبحث عن طريقة توصلني إلى حارة اليهود.

- سآخذك إليها الآن.

وسارا معًا في طريقهما إلى مكان العربات التي توصلهما إلى ميدان القناصل القريب من البيت.

* * *

هبط جون ومخلوف من العربة في ميدان القناصل، سارا من هناك حتى سوق السمك، كان مخلوف ينظر إلى الصك في يد جون. عندما اقتربا من مقهى شنتاي في أول الشارع العمومي في حارة اليهود، صاح مخلوف بأعلى صوته: «عاد جون يا معشر اليهود».

خرج كل مَن في المقهى، تفحصوا جون جيدًا، غير مصدقين أنه ذهب إلى قصر الوالي، وعاد سليمًا. أخذوا يقبلونه، وصاحوا فيه فرحين، ثم حملوه فوق أكتافهم منادين، ومهللين.

إنه إنسان غير عادي، فالذي يمر منهم أمام قصر الوالي أو أحد من أقاربه ومعارفه، يمسكونه ويجلدونه لكيلا يفعلها ثانية، لكن جون قابل الوالي وجهًا لوجه، وتحدث معه، وخلع ملابسه، ورآه عاريًا تمامًا.

جاء بنيامين. صاح بصوت مرتفع سمعته سرينة من نافذتها القريبة: «أين ابن عمي؟ أريد أن أهنئه على ما وصل إليه».

قابله جون بابتسامته البلهاء، وأسرع مخلوف فأخفى الصك بعيدًا عنه. فالحارة كلها تعرف أن بنيامين حاقد على جون لاختياره لهذه المهمة، ويعلمون أن بنيامين يستطيع فعل الكثير، يكفي أنه وثيق الصلة بزاكن الذي يفعل كل قبيح.

جاء هارون مسرعًا وخلفه رزق صديقه، عندما رآه جون مسرعًا إليه؛ أحس بأن الدنيا كلها مقبلة نحوه. فضمه إليه وقبّله، قال: «أوحشتني يا هارون».

وتابعهما رزق في حياءٍ من بعيد، فصاح هارون له: «اقترب يا رزق».

سمعت الهادية ضجة في الشارع، ظنت أول الأمر أن الأطفال يصيحون حول كلب صغير يصطادونه، أو فأر يلهون به. كما يحدث كثيرًا. كانت لاهية عن هذا كله. تفكر في الجنون الذي فعلته في الصباح مع ابن عدوها وعدوتها. فوجئت بجارة لها تسكن البيت المقابل، تناديها، وتخبرها بأن جون عاد من قصر الوالي، وجمع من اليهود يحتفلون بعودته، لم ترد على الجارة، وأسرعت إلى الطريق بملابس البيت.

جرت كالمجنونة، والناس يتابعونها في ابتسام. عندها حق تفعل أكثر من هذا. مَن يصدق أن تغتني الهادية هكذا، وتصير من أصحاب الأبعاديات؟!

دفعت الرجال من حول زوجها، دفعت بنيامين في عنف. هي لم تقصد هذا، لكنه بالصدفة كان في طريقها.

تابعها بنيامين في أسى. لم يُحدِّثها، ولم تنتبه إليه. شدَّت جون إليها، قبَّلته بطريقة لم تفعلها معه من قبل، ثم رقصت، صفَّق الرجال لها، وزغردت سرينة من نافذتها القريبة من المقهى، ثم صفقت لها فرحة، وفجأة، توقفت عربة عامير بك أمام المقهى، وهبط فرج منها، صائحًا: «أين جون؟ عامير بك علم أنه خرج من قصر الوالي، فأراد مقابلته».

صاحت الهادية: «جون لن يذهب إلى أحد. قُل لعامير بك إن كان يريده فعليه أن يأتي إليه هنا».

نظر فرج إلى مَن حوله، يريد مَن يدافع عنه، يقول للهادية: «كيف تتحدثين عن عامير بك بهذه الكيفية؟!»، لكن لم يتدخل أحد. الكل منشغل بمتابعة جون وما حدث له، يتابعون الصك العجيب الذي حوَّل جون من مجرد حلاق صحة فقير إلى ثري يمتلك مئات الأفدنة.

لوَّح فرج بذراعه في عصبية، ثم أسرع إلى عربته، صعد إليها في قفزة واحدة، وأمسك لجام الحصانين، وشدَّه في غضب، وسب الحصانين بكلمات لم يقلها لهما من قبل، ثم ألهبهما بكرباجه، وعاد من حيث جاء. لم يتابعه أحد، لم ينظروا إلى عربته كالعادة. كانت سرينة تتابعه غاضبة من أجله، ما الذي فعلته الهادية؟! أتنسى جميله بهذه السهولة؟ إن لم يكن هو، ما خرج جون من الحارة، ولظل كما هو حلاق صحة، يمسك المنشة ويهش بها الذباب الذي يتجمع حول باب دكانه، ويمر الوقت ولا يقترب منه زبون واحد.

تريد الهادية أن ينتهي هذا السامر الذي يحيط بزوجها لكي تختلي به، وترى الصك الذي يحكون عنه، ثم تتفق معه على كيفية الانتفاع من الأبعادية التي منحها له الوالي، قالت: «كفى هذا، وهيا بنا يا جون».

ثم نظرت إلى الجمع حولها وقالت لهم: «شكرًا لكم، لكن جون متعب ويريد أن يرتاح».

تابعها جون في ابتسام، لكن لم يتحرك أحد من حوله. بنيامين مقيد لا يستطيع أن يتحدث. الأسى الذي يحسه، والإحباط الذي يحوم حوله، جعلاه غير قادر على أن يكون عاديًا، ومخلوف يمسك الصك من وقت لآخر.

سار جون مستندًا على ابنه هارون ومخلوف الذي لا يريد أن يتركه. عندما وصلوا إلى الدكان المفتوح، والذي تركه هارون ورزق خاويًا، قال جون: «أريد أن أجلس في دكاني».

أرادت الهادية أن تصيح فيه كعادتها، لكنها تذكرت أن الوضع تغير، وجون أصبح من الأعيان، ولا بد له من معاملة جديدة تليق بمركزه، فقالت له في ودّ شديد: «دعك من الدكان الآن».

لكنه دخل الدكان رغمًا عنها. نظر إلى صورة عنان بن داود، وقف أمامها يناجيها. لم يوضح ما يقول. كان يتمتم ويحرك أصابعه كأنه يصلي، تابعه الجميع في

صمت. ثم أخذته الهادية وابنها وصعدا به الدرجات المؤدية إلى شقتهم.

كان بنيامين حزينًا، يود أن يبكي، إنه لم يُهزم في حياته مثلما هُزم الآن، حتى عندما اضطر أن يغلق دكانه في ميدان القناصل؛ لم يكن الحزن بهذه الدرجة. تنهَّد في أسى ثم وضع رأسه فوق راحة يده المسنودة على المائدة الصغيرة أمامه. لقد أرسل زوجته إلى زاكن لأنه يعرف أن لها تأثيرًا عليه، يعرف أنها كانت عشيقته قبل أن يتزوجها. لكن زاكن لم يفعل شيئًا للآن. عندما عادت من عنده؛ سألها عما قاله زاكن لها، فقالت في لا مبالاة: «وعد بأن يتصرف».

حتى ملاذ تأخذ الأمر باستهانة، لا تُقدِّر ما يعانيه ولا تحس بالنيران المستعرة داخل جوفه.

نظر إلى ابنه، لقد عاد من دكان جون، ومن بيته أيضًا. فجون رجع إلى بيته ودكانه، وليسوا في حاجة الآن إلى رزق. ضحك بنيامين لسذاجته. أي دكان هذا الذي يتحدث عنه؟ جون يمتلك مئات الفدادين، أبعادية بأكملها، أسيبحث بعد ذلك عن عمل. دكان حلاق صحة يحوم الذباب حوله طوال النهار، إن دخله زبون، فسيدفع ملاليم قليلة. من الممكن أن يعرض على الهادية أن تبيع الدكان لابنه رزق؛ لينفرد به وحده، بدلًا من مزاحمته له في دكانه، وسوف توافق على مبلغ صغير جدًا، فهي ليست في حاجة لثمن الدكان. ضحك بنيامين ثانية من سذاجته. أي دكان هذا الذي يفكر

فيه؟! إنه لا بد أن يذهب مع جون إلى حيث يذهب، وسيأخذ معه رزق ابنه وملاذ زوجته وباقي أطفاله. لن يدعه ينعم بكل هذا وحده. هو ابن عمه وله عليه حقوق.

ربّت رزق ذراع والده، قال له في حنان بالغ: «ما الذي يشغلك؟»

أفاق بنيامين من شروده. قال: «لا شيء. لا شيء».

* * *

أحست ملاذ بما يحدث في الحارة. أسرع جيرانها ليشاهدوا جون وهم يزفونه كالعريس، وبقيت وحدها في الشقة المظلمة. لا تريد أن ترى جون ولا زوجته ولا أي شيء مما يحدث. لقد ضاقت بكل ما يحدث. لن تعود ثانية إلى قصر الوالي. إنها تذهب إلى هناك لتتسول. لقد كبر الولد الذي كانت ترضعه، وانتهى دورها تمامًا؛ فما الذي يجعلها تذهب؟ لن تستجيب لإلحاح بنيامين، ستصر على عدم الذهاب، لن تخافه. إن ضربها ستصرخ وتلم عليه أمة اليهود كلها. إنها كانت تستجيب لرغباته ليس خوفًا من ضربه لها، وإنما لأنها كانت تحبه. مشكلة كبيرة عندما تتزوج امرأة مثلها محدودة الجمال، من رجل وسيم تعشقه النساء، ذلك يجعلها أمة عنده، تتحمله في كل ما يفعله بها خشية أن يتركها ويذهب إلى امرأة غيرها. لكنها الآن لن تهتم، يذهب في ستين داهية.

أحست بصوت أقدام في الردهة المظلمة، لم تتحرك من مكانها. قد تكون واحدة من الجيران عادت بعد أن شاهدت جون. تعرف أن هذه الضجة التي صاحبت عودته إلى الحارة ستزيد بنيامين همًا وحزنًا. سيأتي إليها ينعي حظه التعس. هو كاذب. لم يكن حظه تعسًا أبدًا، لكنه كنود، عندما تزوجها كان حظه حسنًا، أعطته من مال أبيها المرابي الكثير لكنه أضاع كل شيء، ولو منحه الوالي أو السلطان أبعاديات كثيرة؛ سيضيعها ويعود كما هو الآن. إنه لا يحمد الرب ولا يهتم به ولا بغيره، كل ما يهمه نفسه فقط.

سمعت صوت باب مخلوف الثقيل يتحرك، فيصنع أزيزًا عاليًا، تنتظره طوال الليل والنهار. أحيانًا – من شوقها لسماع ذلك الأزيز - تظنه يحدث دون أن يحدث.

هبّت من مكانها رغم ثقل جسدها، وجدت نفسها في وسط الردهة المظلمة ليلًا ونهارًا: «مخلوف، لماذا لم تأتِ لتحيتي؟»

اقترب منها، وضع يده فوق ظهرها الممتلئ، ربّت خدها في حنان بالغ: «لم أتوقع أن أجدك في الشقة».

- ظننتني أشاهد الزفة التي صنعوها لجون، أليس كذلك؟!

- كل يهود سوق السمك يتجمعون في الحارة، إنهم لم يتجمعوا هكذا، ولا حتى في الأعياد.

- كنت أنتظر عودتك بصبر نافد.

- بنيامين وأولادك جميعًا في الحارة الآن، وقد يعودون فجأة.

- ليس مهمًا.

ارتمت فوق جسده، فشدها إليه وأدخلها حجرته المظلمة. نامت فوق صدره القوي العريض، قال: «زاكن كان صديقك؟»

- نعم.

- هل زرته في شقته بعد الزواج؟

- أنت الوحيد الذي عرفته بعد زواجي من بنيامين.

- متى ستقابلين زاكن؟

- لن أزوره ثانية إلا معك.

- سأحمي جون من زاكن ومن بنيامين.

- لن أستجيب لأوامر مخلوق سواك.

ظلت في حجرته المظلمة إلى أن سمعت صوت الولد رزق يسأل أخته الصغيرة عنها، فتسللت إلى دورة المياه المشتركة، ثم خرجت منها إلى الحجرتين اللتين تسكنهما؛ لتسمع من أولادها ما فعله اليهود بجون بعد عودته.

ظل عامير في بهو قصره الكبير، منتظرًا أن يعود فرج بجون، سوف يأخذ صكه الذي يثبت ملكيته للأرض، ويضعه في خزانته الحديدية، ويعرض عليه أن يهب الأرض إلى إخوانه اليهود ليحل مشكلتهم جميعًا. لم

يحدث أن تجمع اليهود في أبعادية كاملة مملوكة لواحد منهم. عندما سمع صوت احتكاك الأحذية في الخارج ظن أن فرج قد جاء برفقة جون، توقع أن تأتي زوجته معه، فقد أخبره فرج بأنها المهيمنة والمتصرفة في كل الأمور. لكن الخادم دخل معلنًا قدوم زاكن بك. لم ينتظر زاكن السمـــاح له بالدخول، فقد سار خلف الخادم، وكاد يشده من كتفه ويرميه بعيدًا؛ لأنه سمح لنفسه أن يتركه في وقفته إلى حين أن يسمح له عامير بالدخول.

صاح زاكن ضاحكًا: «عامير بك. صديقي».

وقف عامير مرحبًا بضيفه: «أهلًا زاكن، تفضل».

ضحك، قهقه دون سبب واضح. تابع كل شيء حوله كأنه يرى هذه الأشياء لأول مرة، ثم جلس رافعًا ساقه، ثم وضعها فوق الأخرى. قال عامير وقد ابتسم من نزق زاكن الواضح: «أتشرب كأسًا معي؟».

ضحك أكثر وقال: «تعرف مزاجي جيدًا، سأشرب كؤوسًا كثيرة، لكن ليس قبل أن تخبرني عن أخبار جون».

أدرك عامير حقيقة الأمر أخيرًا، فقد علم زاكن بأن جون قد امتلك مئات الفدادين، نظير العلاج الذي قدمه إلى الوالي.

- مَن أخبرك بهذا؟

ضحك وقهقه، وأعاد ساقه إلى مكانها بعد أن أتعبه وضعها: «زاكن يعرف كل ما يفعله اليهود».

- جون الذي رأيته عندي، أصبح مالكًا لأبعادية كبيرة.

- وماذا ستفعل معه؟

- سأحاول أن أفيد فقراء اليهود.

تغير زاكن، وحاول أن يعيد ساقه إلى مكانها السابق، فلم يفلح. بدانته أعاقته، فرمى ساقه إلى الأمام وقال في غضب: «أتريد أن تعطي ما يملكه الرجل إلى الفقراء؟!»

- لن أظلمه، وإنما سأجعله يستفيد من الإيجار الذي سيدفعونه له.

- إنك بذلك تضيع الأرض علينا.

- لا أفهم مقصدك. ما شأنك وشأني بهذه الأرض؟!

أحس زاكن بضرورة أن يغير طريقته في الحديث مع عامير، حتى لا يضيع كل شيء. فكف عن تصرفاته الهوجاء، وقال في جدية: «هذه الأرض ممنوحة من الرب، وليس من الوالي سعيد، وحرام أن تضيع دون أن يستفيد منها يهود مصر».

- ذلك ما أفكر فيه.

- نعم، لكن الرؤية عندي تختلف عن رؤيتك.

- وما هي رؤيتك للموضوع؟

لا بد أن يكون زاكن مقنعًا، فلو وافق عامير على فكرته سيحققان مكاسب كبيرة لهما معًا.

- الأرض واسعة، وقريبة من الإسكندرية، ويمكن أن نقيم عليها مشاريع كبيرة تفيد كل اليهود.

- زاكن، أرجوك ابتعد عن جون.

وقف زاكن غاضبًا: «لماذا أبتعد؟ إنني يهودي مثلك، وحريص على مصلحة اليهود مثلك».

- لا، إنك لو تحكمت في أرض الأبعادية الممنوحة لجون، ستقيم عليها مشاريع مشبوهة، مثل الملاهي التي تديرها، والبيت السري الذي يعرفه الجميع.

- لا أنكر أنني أمتلك هذا، لكنني في نفس الوقت أمتلك محلجًا للقطن، وأسهمًا في مشاريع وبنوك عديدة.

دخل فرج، أحنى قامته المائلة للامتلاء، تمنّى عامير أن يصمت فرج، لا يُظهر جون الآن، لكنه صاح: «الهادية زوجة جون لا تريده أن يأتي هنا».

ضحك زاكن بصوت مرتفع ما أغاظ عامير، فنظر إليه غاضبًا، كاد يسبه، إنه لا يقصد الاستفادة الشخصية من كل ما يفعل، فلماذا يسخر منه هكذا؟!

كاد فرج يخرج من البهو الكبير، لكن زاكن سأله: «هذه المرأة هي المتصرفة في كل أمور جون، أليس كذلك؟»

أحنى فرج قامته، ثم أومأ برأسه وأسرع بالخروج.

قال زاكن لعامير: «لو سألتني الرأي.. الحديث والاتفاق لا يكون إلا مع هذه المرأة».

أومأ عامير برأسه وشرد حزينًا.

اقترب زاكن منه، وقال في صوت خافت: «لا بد أن نتحرك أنا وأنت بسرعة وإلا ضاعت الأرض. جون هذا رجل أبله لا يستطيع أن يحمي أرضه، وزوجته ليست عندها الخبرة في إدارة أبعادية كبيرة مثل هذه. أنا وأنت أحق بها من غيرنا».

تابعه عامير في ضيق: «إنني لا أريد شيئًا لنفسي».

وقف زاكن وقال وهو يلوح بذراعه: «دعك من هذه المبادئ التي لا تفيد».

غضب عامير، وصاح: «ماذا تقول، مبادئي لا تفيد؟!»

اقترب زاكن منه، وضع ذراعه حول ظهره وقال: «لا أقصد الإساءة، إنما الاهتمام بهذه المشاريع الخيرية لا يؤدي إلا إلى الفقر، ولولا اليهود الأغنياء مثلي ومثلك، لضاعت حقوق كل يهود مصر».

شرد عامير، لقد أساءت زوجة جون إليه بعدم حضورها، وأعطت فرصة لرجل فاسد مثل هذا لكي يفسر ويشرح كأنه مصلح اجتماعي.

وقف زاكن منهيًا اللقاء، قال قبل أن يخرج: «أرجو أن تشركني في مشاريعك التي ستنفذها فوق أرض هذه الأبعادية الجديدة».

ثم سار ناحية الباب، وترك عامير يفكر حزينًا. لقد وعد زوجته وابنتيه أن يسافر إليهما في إيطاليا بعد أيام قلائل، وها هو الشهر الثاني لسفرهما يمر، وهو منشغل بالوالي المريض وجون الذي يذهب ليعالجه. إنه

لم يرسل في طلب دوف ليسأله عما يفعل بعد أن أعلن القصر موت الوالي سعيد. لا بد أن يستعد يهود مصر للتعامل مع الوالي الجديد إسماعيل باشا.

قام عامير، سار خارجًا من بهو القصر، بحث عن فرج قريبًا من الباب، لم يجده، فأسرع ناحية الإسطبل، وجده يغسل الحصانين بالماء، ويدعك جسديهما بقطعة قماش مبللة. قال عامير: «فرج. استعد لتذهب بي إلى سوق السمك».

فوجئ فرج بقرار عامير هذا: «ماذا؟!»

- سأقابل زوجة جون كما أرادت.

لم يعلق فرج بشيء. كيف يخضع عامير بك، ويذهب لمقابلة امرأة مثل هذه؟! زيارة زاكن لعامير جعلته يتنازل، ويسرع لإنقاذ جون المسكين من براثن زاكن الذي لا يرحم.

عاد عامير إلى البهو، منتظرًا تجهيز فرج للعربة والحصانين.

* * *

لم يصدق بنيامين نفسه، وهو يرى عامير بك، بقامته الطويلة، وملامحه المعروفة لمعظم يهود الإسكندرية، يقف أمام مقهى شنتاي، وعصاه تسبقه نحو المقاعد. لقد كان هذا المقهى لجده لأمه، وأداره أخواله بعده، لكن عامير أخذهم وجعلهم يعملون في مشاريعه الكثيرة، واشترط أبناء شنتاي أن يظل المقهى حاملًا اسم منشئه.

وقف بنيامين، صاح في كل مَن في المقهى: «عامير بك، عامير بك».

ابتسم عامير، وذهب إليه سعيدًا؛ لأنه أعطاه حقه من الاهتمام والاحترام، ثم أسرع فرج ليخلي الطريق أمام سيده.

قال عامير لبنيامين: «جئت لمقابلة جون، كما أرادت زوجته».

قال بنيامين: «تفضل بالجلوس حتى أرسل إليها لتحضر هي وزوجها».

قال في ابتسامة راضية عما فعله بنيامين معه: «سأذهب لمقابلتهما في بيتهما».

لم يكن بنيامين مرتاحًا لحضور عامير لمقابلة جون، رغم استقباله الحافل له، فهو يعلم أنه سيقف أمام زاكن فيما يريد فعله. فالكل يعلم أن عامير يسعى لخير اليهود، وأنه سيسعى لجعل هذه الأبعادية الممنوحة لجون، من أجل كل يهود الإسكندرية.

عامير في حارة اليهود

سار عامير وسط حارة اليهود، فاردًا ذراعه عن آخرها، وضاربًا الأرض الترابية بعصاه، وحوله فرج وبنيامين ومخلوف، وقليل من سكان الحارة. لم ينطق بكلمة طوال سيره. كان فرج يخلي الطريق له، ويفرد ذراعيه خلفه مانعًا الاقتراب منه، وكأنه حاكم يسير وسط حراسه. عندما وصلوا إلى دكان جون، أشار فرج إليه: «دكانه، يا عامير بك».

فنظر عامير إلى الدكان، كان هارون ورزق يجلسان أمام الدكان، فوقفا عندما اقترب موكب عامير بك. قال فرج مشيرًا إلى هارون: «هارون ابنه»، فابتسم عامير، ومد يده مصافحًا، لم يقدم رزق إليه، ما زاد بنيامين أسى.

دخل عامير الدكان، نظر إلى المقاعد القديمة المتآكلة، والصورة الكبيرة المعلقة، قال لفرج: «مَن هذا؟»، أسرع مخلوف وقال: «أنا الذي رسمت الصورة».

تجاهل عامير مخلوف، وأعاد سؤاله على فرج: «مَن هذا؟»

قال فرج: «إنه عنان بن داود».

أسرع مخلوف قائلًا: «جاءه في المنام، فأسرع جون إلى حجرتي مبكرًا، ووصفه لي كما رآه فرسمته له».

ابتسم عامير في تثاقل، ثم مدّ ذراعه عن آخرها، ودق عتبة الدكان بعصاه، واستأنف السير إلى البيت.

أراد جون أن يسرع بالنزول إلى الشارع لمقابلة عامير بك، بعد أن نادت الجارة في النافذة المقابلة، أخبرت الهادية بمقدمه، وبتقدم موكبه إلى البيت. لكن الهادية صاحت في زوجها غاضبة: «ابقَ كما أنت، وسيأتي إليك بنفسه».

أصاخت السمع، وترقبت صعودهم على السلم، وتأكدت من قفل باب الشقة، لكي يدقه عامير فتفتحه له وتستقبله في شقتها المتواضعة.

دق عامير باب الشقة المغلق بعصاه، وأحس أن ما يحدث ليس طبيعيًا، فحضوره إلى حارة اليهود ليس حدثًا سهلًا، وحتمًا علم جون ومَن معه به.

فتحت الباب بنفسها، وصاحت مبتسمة: «هلّت الأنوار بحضور عامير بك إلى بيتنا المتواضع».

مدّ عامير يده إليها مبتسمًا، وظلت في يدها إلى أن دخل الحجرة التي يجلس جون فيها. وابتسم الباقون لما يحدث أمامهم. الحجرة صغيرة، وهم كثيرون.. عامير وبنيامين ومخلوف وفرج، ووقف هارون ورزق خارج الحجرة.

وقف جون، ارتعش جسده، وخاب في أن يتماسك حتى يصافح عامير بك، قال عامير: «جئت من أجلك».

أرادت الهادية أن تعتذر عمًا بدر منها أمام الجميع، ولا شك أن فرج قد بلّغه إلى عامير بك. قالت: «لم يستطع جون الذهاب إليك، فهو كما ترى، غير قادر».

جلس عامير، ساندًا يديه على عصاه، وقال لجون: «أريد أن أرى صك الملكية الذي أعطاه الوالي لك».

أسرعت الهادية وجاءت به، وتابعته كل العيون الموجودة في الحجرة.

نظر عامير إلى المساحة التي حددها الوالي لجون، وقال مبتسمًا: «إنها أبعادية كبيرة جدًا».

ما زاد الهادية فرحًا، وزاد بنيامين همًا. قال عامير: «سأحتفظ بصك الملكية في خزانتي الحديدية».

ترددت الهادية قليلًا، ثم وجدت أن هذا هو الحل السليم، فقد يضيع الصك منها، أو يسرقه اللصوص، وعامير لا يستطيع أن يفعل ما يضر جون، خاصة أنه أخذ الصك أمام العديد من اليهود.

قال عامير: «إنه فأل حسن أن يتم هذا في عيد الفصح الذي يذكرنا بخروج نبينا موسى من مصر في طريقه إلى فلسطين».

أصرت الهادية على أن يأكل عامير فطيرًا من الذي أعدته بمناسبة هذا العيد، فاعتذر قائلًا: «أكلت منه ما فيه الكفاية»، فقالت غاضبة: «إنني نظيفة، وأكلي جيد»، فاضطر أن يأكل الفطيرة حتى لا تغضب: «والآن، ماذا ستفعلون في الأرض؟».

قالت الهادية: «سننتقل إليها، ونسكنها».

قال عامير، وهو يوجّه حديثه إلى جون، الزاهد في كل شيء: «المشكلة ليست مشكلة سكن. فالأرض كبيرة

جدًا، ولا بد من زراعتها واستغلالها».

قالت الهادية: «أنت كبير اليهود في الإسكندرية، ولديك خبرة كبيرة في هذه النواحي».

قام عامير قائلًا: «في الصباح سيأتي فرج ويأخذكم في العربة».

قال مخلوف: «ونحن نريد أن نرى الأرض أيضًا».

نظر عامير إلى فرج وقال: «في القصر أكثر من عربة، فرج سيتصرف، سيأتي بها جميعًا لأخذكم إليها».

* * *

عاد مخلوف إلى مقهى شنتاي، وسار بنيامين يجر ساقيه حزينًا، عامير تدخَّل ليؤكد ملكية جون للأرض، إنه جاء مسرعًا، ليفسد خطة زاكن في الاستيلاء على الأرض؛ لكي يأخذها هو من جون؛ ليعطيها لفقراء اليهود. آه لو تسمعه الهادية للحظات، لكي يحذرها مما ينوي عامير فعله، يوعيها بأن الأرض ستضيع إذا تدخل زاكن، وستضيع إذا تدخل عامير، كل منهما بطريقته. المرأة لا تريد أن تنسى ما فعله بها منذ سنوات طوال، لا تطمئن لقوله.

دخل بنيامين ردهة الشقة المظلمة دومًا. زوجته تغيرت هذه الأيام، لم تعد تذهب إلى قصر الوالي لكي تتسول منهم، ولم تعد تهتم بشيء مما يحدث في الحارة. كل ما يهمها أن تتزين، ما تفعله الآن ذكره بأيام

خطوبتهما، كانت تقضي الساعات لتتزين وتخفي ما بها من قبح.

كانت حجرته مفتوحة، وزوجته كاشفة عن جزء كبير من جسدها، ومستلقية فوق الكنبة شاردة. لم تتحرك عندما أحست به، كانت تقفز فرحة عندما يهل عليها. منذ أن منح الوالي الأبعادية لجون وهي لا تهتم به. دفعها في ظهرها العاري: «ماذا بكِ يا امرأة؟»

اعتدلت ونظرت إليه دون قول. «ماذا بكِ؟!»، لم تنظر إليه.إنه في حاجة إلى اهتمامها، لتنسيه أساه. قالت في حدة: «ماذا بي؟ إنني كما أنا».

- ألم تعلمي أن عامير جاء إلى حارة اليهود؟

- وزار شقة جون أيضًا.

- والعمل يا ملاذ؟

- ليس لي شأن بما تريد فعله.

اقترب منها. أمسك ذراعها الممتلئة، وقال: «لا بد أن نتحرك قبل أن يضيع عامير كل شيء».

- ماذا تريد مني؟

- أن تذهبي ثانية إلى زاكن وتخبريه بما فعله عامير.

قامت، ذاهبة إلى الحجرة الأخرى، وهي تقول: «لا تدخلني في مشاكلك».

أمسك رقبتها، ضغط عليها بأصابعه مداعبًا، ولكي تحس أنه يمكن أن يؤذيها إذا لم تطعه، وقال: «الهادية

ستكون أهم امرأة في الحي كله».

- الهادية لن تعيش في الحي ثانية.

أعاد إمساك رقبتها بأصابعه، حتى آلمها: «زاكن سيعطينا الكثير مما سيأخذ».

فكرت في مخلوف، فهو حريص على مقابلة زاكن لكي يعرف نواياه، كما أنه يريد أن يخرج من موضوع جون هذا بشيء يعينه على المعيشة؛ فقالت: «سأذهب لمقابلة زاكن في الغد».

* * *

عاد مخلوف متأخرًا، قضى وقته في مقهى شنتاي حتى أغلق المقهى أبوابه. إنه لم يمسك فرشاة الرسم منذ أن علم بذهاب جون إلى قصر الوالي. من وقتها وهو يفكر في الثروة التي من الممكن أن تأتيه إن اتصل بصديقه جون وتقرب إليه. طوال الوقت وهو يلوم نفسه لأنه أساء معاملته من قبل. لكن جون كان يحبه ولم يغضب منه رغم كل ما فعله به.

تحدث مع الجالسين في المقهى: «ماذا ينوي عامير أن يفعل؟ هل سيوزع على اليهود الأرض في الأبعادية؟ أم سيفتتح مشاريع كثيرة هناك، ويجمع اليهود ليعملوا بها؟»

لم يجد مخلوف جوابًا شافيًا من أحد. لن ينام. سيظل ساهرًا في المقهى حتى تأتي عربة فرج، والعربات الأخرى؛ لنقلهم إلى مكان الأرض. قام البعض

ذاهبًا إلى بيته، وتسللوا واحدًا وراء الآخر؛ حتى بقي وحده، ليس مهمًا، سيبقى وحده متيقظًا ومنتبهًا إلى أن تشرق شمس الصباح ويأتي فرج بعربته، لن يركب سوى العربة التي يقودها فرج، وسيصر على أن يجلس بجواره أعلى العربة؛ ليحس عامير أنه على استعداد للمساهمة الفعالة في مشروع جون.

اقترب «القهوجي» منه، همس في أذنه: «لاحظ أنك الزبون الوحيد في المقهى الآن».

نظر حوله فاكتشف الحقيقة التي غابت عنه. إنه الوحيد الباقي في المقهى. صاح في «القهوجي» غاضبًا: «ولو، إنني أجلس في المقهى بنقودي».

قال «القهوجي» غاضبًا: «لا يمكن أن يفتح المقهى من أجل زبون واحد، كما أنك تشرب ولا تدفع شيئًا».

قام مخلوف غاضبًا، هو حقًا يشرب ولا يدفع، لكن كله مقيد وسوف يدفعه؛ ويدفع أكثر منه عندما يصل إلى الثروة التي ستأتيه من أرض جون الممنوحة من الوالي سعيد.

دفع مقعده في غضب. رأى صاحب المقهى يتابعه في غيظ لأنه جعله وعامل «النصبة» و«القهوجي» يسهرون من أجله.

سار مخلوف وحده في ظلام حارة اليهود، والمقهى يطفئ مصابيحه استعدادًا لغلق الأبواب. صعد الدرجات

حزينًا، فالمقهى بأنواره يساعده على التنبه والاستيقاظ، لكن حجرته الكئيبة ستجعله ينام فور غلق بابها.

دخل ردهة الشقة، تحسس الأشياء الكثيرة التي تتركها كل أسرة في الشقة لضيق الحجرة التي يسكنونها. هو الوحيد الذي لا يترك في الردهة شيئًا. اصطدمت قدماه بطست صاجي تغسل نسوة الشقة فيه، فدفعه غاضبًا، غير مبالٍ بمَن يستيقظ، إنه لم يعد يهتم بشيء هذه الأيام. يود لو ذهب إلى الأبعادية الممنوحة لجون ولا يأتي إلى هذه الشقة ثانية. يظل فيها ولا يبرحها إلى أن يموت. سيرسم صورة لجون؛ ليعلقها في المدخل، ويكتب تحتها بخط كبير جدًا «أبعادية جون».

وصل إلى باب حجرته، دفعه بقدمه في عنف، فهو يتركه مفتوحًا. ماذا سيسرقون منه؟! ليس في الداخل سوى فراش قديم لا يصلح للسرقة، وأغطية ممزقة، ومائدة لا يستقيم وقوفها، فوقها ورق الرسم والألوان.

استلقى على الفراش بملابسه، تثاءب بصوت مرتفع، سمعته ملاذ وهي نائمة بجوار زوجها. إنها لم تنم منذ أن استلقت فوق الفراش، سمعت صوت غطيط بنيامين المرتفع، فتنقلت بجسدها العملاق إلى الناحية الأخرى، فأزّ السرير أزيزًا عاليًا، حتى زام بنيامين بجوارها وهو مغلق عينيه. ستقاوم النوم إلى أن تسمع صوت أقدام مخلوف يدخل حجرته، بعدها ستنام مطمئنة.

أحست به وهو صاعد السلالم، بل حدثها قلبها أنه قادم منذ أن قام من مقهى شنتاي، ولو نظرت وقتها من نافذتها لرأته يسير في الشارع. عندما اصطدمت قدماه بالطست ابتسمت، سمعت دفعه للطست في غضب، فضحكت بصوت مرتفع. لكن عند سماعها تثاؤبه المرتفع قامت عن الفراش، تابعت وجهها في المرآة على ضوء المصباح الغازي، ثم نظرت إلي بنيامين من مكانها، رأته يتنقل بجسده إلى الناحية الأخرى. فسارت على أطراف أصابعها حتى لا يصحو، أو يصحو أحد من أولادها، فتحت باب الحجرة في حذر، وأغلقته خلفها في حذر أشد. وسارت حتى حجرة مخلوف المفتوحة. لم يحس بها، فقد استجاب جسده المتعب للنوم، رغم ادعائه للمقاومة.

انحنت فوقه، المصباح الخافت لا يكشف كل وجهها. قالت لمخلوف كثيرًا أن يغيره، ويشتري مصباحًا أكبر، ثم قررت أن تشتريه له، لكنها لم تفعل للآن. مرت براحتي يديها على وجهه، فأحست بخشونة لحيته التي لم يحلقها منذ أيام عديدة.

- مخلوف، مخلوف.

زام على فراشه. فنامت بصدرها الممتلئ فوقه. اضطر أن يصحو ليرفع عن جسده ذلك الثقل: «مَن؟»

قبّلته في خده: «أنا ملاذ».

ظن أول الأمر أنه يحلم، وأنه ما زال جالسا على مقهى شنتاي، وأن ملاذ جاءت إليه، وضغطت عليه

بجسدها الثقيل حتى كادت تخنقه. وجاءت عربة فرج، توقفت أمام المقهى، فحجبت ملاذ الرؤية عنه، لم يرَ سوى عجيزتيها الكبيرتين. قال وهو يزيح جسدها عنه: «هل جاء الصباح؟»، ضحكت بصوت مسموع. نظر مخلوف حوله، رأى الظلام يأتي من كل مكان. قال: «بنيامين خارج البيت للآن؟»

- إنه نائم في الداخل.

- وكيف جئتِ وهو نائم؟!

- لكي أخبرك بأنني ذاهبة إلى بيت زاكن في الغد.

كان يمكن أن تخبره في الغد وهو جالس على مقهى شنتاي. لكن الذي جاء بها إليه شيء آخر. قالت: «قلت لك اشترِ مصباحًا كبيرًا ليمكن أن تراني جيدًا».

- أغلقي الباب جيدًا خشية أن يراكِ أحد من سكان الشقة.

دفعت باب الحجرة بساقها، ونامت بجواره. قال وهو يقبلها، وهي نائمة تحته: «لن أذهب معكِ إلى زاكن».

- لماذا؟! لقد قبلت الذهاب إليه من أجلك.

- عامير بك سيرسل عرباته لنقل اليهود إلى أرض جون الجديدة، ولا بد أن أكون معهم.

- وزاكن؟

- اذهبي إليه وأخبريني بما يحدث.

- هل ستغيب في أرض جون الجديدة؟

- لو غبت سأعرف كيف أصل إليكِ.

ظلت في حجرة مخلوف إلى أن أشرقت الشمس، وتسللت من خلال فتحات النافذة الصغيرة التي تطل على المنور. فهبّ واقفًا: «عودي الآن إلى زوجك قبل أن يكتشف غيابك».

- وأنت؟

- سأنزل إلى مقهى شنتاي في انتظار عربة فرج.

- لكن الوقت مبكر جدًا؟

- ليس مهمًا، سأقف على ناصية الشارع في انتظار العربة.

تسللت من الحجرة الصغيرة، دفعت باب حجرتها، وجدت بنيامين في مكانه نائمًا، استلقت بجواره، وشدت الغطاء على جسدها.

بحث مخلوف عن إناء الماء، رشّ وجهه بقطرات منه، ثم أسرع إلى الحارة، تابع الحوانيت المغلقة، وسار ناحية مقهى شنتاي في أول الحارة. إنه يوم مشهود ستظل اليهود تذكره لسنوات عديدة، وربما إلى آخر الزمان، سيتحدثون عن جون – شبه الأبله – الذي ولد مشوهًا، وكيف جاءته الثروة الكبيرة دون أن يسعى إليها.

مرّ أمامه بائع اللبن اليهودي، حيّاه من بعيد، حاملًا إناءه ومسرعًا ليوقظ زبائنه.

مقهى شنتاي مغلق، وكل الحوانيت حوله مغلقة، رأى الفئران الكبيرة والممتلئة تخرج من تحت أعقاب الأبواب

الخشبية للدكاكين، وتسرع إلى دكاكين أخرى. والقطط الكبيرة تتابعها من بعيد، تحاول الوصول إليها دون جدوى.

ماذا يفعل مخلوف الآن؟ أيعود إلى حجرته ينتظر إلى أن يأتي فرج بالعربات لتنقلهم إلى أبعادية جون الجديدة؟ لا. سوف يقف في مكانه ولو لساعات. المرأة البدينة – ملاذ – كافأها الرب على ما قدمته إليه، هي التي أعانته لأن يسهر لهذا الوقت، كان من الممكن أن ينام، وهو لم يتعود الاستيقاظ مبكرًا، ويخرج إلى الحارة، فإذا بالعربات قد جاءت وأخذت مَن يريد الذهاب إلى أبعادية جون، ويبقى هو في حارة اليهود محسوزًا. ملاذ سهرت معه، وظلت تدفئ سريره البارد إلى ما بعد الفجر، هي الآن نائمة تغط في نومها.

استيقظت ملاذ على لكزات زوجها لها في غضب: «ما لك يا امرأة؟ لقد تأخرنا في النوم».

تثاءبت، وحركت عضلات جسدها المسترخية في تلذذ، وصاحت مبتسمة: «ماذا تريد؟»

بنيامين يكاد يُجن من تصرفاتها هذه الأيام، المرأة تغيرت أحوالها، كانت تصحو عابسة ومتعبة. تصحو الآن سعيدة وراضية على ما منحها الرب من أشياء، قال: «لدينا عمل كثير اليوم. ذهابك إلى زاكن. وذهابي إلى أبعادية جون».

لم تعترض، أو تعلق على شيء، ستذهب إلى زاكن كما يريد، وستبحث عن مخلوف لتحكي لـه ما حدث في لقائها.

صحا الولد رزق على صوت والده الغاضب، قفز من فوق الكنبة التي ينام عليها. إخوته ينامون فوق الأرض بجوار كنبته. أسرع إلى الخارج، فهو يريد أن يصطحب صديقه هارون إلى الأبعادية الممنوحة لوالده جون.

***

جمع فرج كل الشؤاس وسائقي العربات الذين يعملون في الإسطبلات تحت إمرته، وأخبرهم بأنهم في الغد سيذهبون بالعربات الموجودة في القصر إلى سوق السمك، حيث سيجمعون مَن يرغب في الذهاب إلى عزبة جون.

عندما خرج عامير من باب القصر؛ وجد العربات الثلاث تقف بجوار السياج المرتفع، قال لفرج: «أظنها ليست عرباتنا؟»

- اقترضتها من معارفي «الشياس».

- وكم عربة عندك في الداخل؟

- أربع يا سيدي.

- أسبع عربات كافية لنقل مَن يريد الذهاب؟

- ليست كافية، فكل أهل الحارة يريدون الذهاب إلى هناك.

ابتسم عامير في تثاقل وسار. أسرع فرج خلفه وقال: «وأنت يا سيدي، ألن تذهب معنا؟»

- سأذهب لأعاين الأرض.

- هل أحجز العربة من أجلك؟

- سأركب مع جون وأسرته.

***

دقت ملاذ باب زاكن، سمعت خادمته العجوز تصرخ في الداخل وتسب: «إنها قلة ذوق، من هذا الذي يأتي مبكرًا هكذا؟»، وسمعت صوت زاكن يصيح سابًا المرأة بألفاظ قاسية لأنها أيقظته بصوتها المرتفع. أحست ملاذ أن المرأة ستلكمها في وجهها عندما تفتح الباب لها؛ لأنها جعلت زاكن يسبها ويغضب عليها.

فتحت المرأة العجوز الباب في عنف فازداد غضب زاكن عليها. نظرت فوجدت ملاذ بجسدها الذي يسد الباب، هدأت عندما رأتها وقالت في امتعاض: «أهو أنتِ؟!»، وتركتها دون أن تدعوها إلى الدخول، وسارت مسرعة إلى الداخل لتكمل نومها، وتركت باب الشقة مفتوحًا.

وجدت ملاذ نفسها وحيدة أمام الباب، فأغلقته في هدوء. وقفت في الردهة العارية والتي تكشف عن البلاط الملون، وزجاجات الخمر الملقاة في كل مكان، بعضها بدون رأس، فقد خلع زاكن الغطاء برقبة الزجاجة، وبعض أوراق اليانصيب ملقاة في الأركان

وأغطية الزجاجات ملقاة فوق الأرائك القديمة التي بدون أغطية، وصورة لزاكن أيام شبابه، أيام كانت ملاذ تعمل سكرتيرته في محلجه بكفر عشري، ضحكت وهي تتابع الصورة، فزاكن لم يكن ممتلئًا كما هو الآن، وكان شعره طويلًا، هو الآن بلا شعر تقريبًا.

سارت فوق البلاط العاري، المرأة العجوز لا تعمل شيئًا في الشقة، عملها الأساسي هو زاكن، أكله وما يريده منها. الشقة صامتة الآن، لا يتخلل ذلك الصمت سوى صوت غطيط زاكن الذي يأتي عاليًا من حجرته المغلقة، والتي بداخلها دورة مياه خاصة به. المرأة العجوز تنام في حجرة صغيرة بجوارها. أستظل ملاذ هكذا في وقفتها هذه؟!

سارت حتى حجرة زاكن التي تعرفها جيدًا. أمسكت أكرة الباب وفتحته، رأته بجسده الكبير محتضنًا وسادة كبيرة، ويضعها بين ساقيه.

«زاكن، زاكن».

غمغم ثم سبَّ المرأة العجوز لاعنًا اليوم الذي جاءت فيه إلى شقته لتلوثها. دفعته ملاذ في كتفه قائلة: «استيقظ، أنا ملاذ».

سب المرأة العجوز قائلًا: «يلعن أبوكِ لأبي ملاذ».

ظن أن العجوز تداعبه وتدعي أن ملاذ جاءت. دفعته في كتفه ثانية، فدفع يدها في عنف وسبّها معتقدًا أنها المرأة العجوز: «لا أريدك يا بنت الـ... لقد مللتك».

ضحكت قائلة: «إنها تفرض نفسها عليك فرضًا».

تململ في نومه، تقلب إلى الناحية الأخرى ثم مد ذراعيه وقال: «إنه ليس صوت ابنة الـ...»، فتح عينيه فوجد ملاذ أمامه، قال: «ملاذ؟ أهلًا بك»، جلس مقرفصًا فوق السرير: «كم الساعة الآن؟»، ثم صاح غاضبًا: «أنتِ مجنونة لا شك، هل هذا وقت زيارة؟!».

قالت وكأنها تعتذر: «لم ينم بنيامين طوال ليلة أمس، أمرني أن أحضر إليك الآن».

مدّ يده إلى وجهها: «لا أريد حديثًا الآن، فلن أفهمك».

ثم أسرع إلى دورة المياه قائلًا وهو يجري: «شربت زجاجات خمر كثيرة بالأمس».

عاد وهو «يزرر» بنطلونه ويضحك، ثم أسرع ناحية حجرة الخادمة العجوز، شدها من ذراعها في عنف حتى أوقعها على الأرض، نظرت إليه في ضيق، صاح بها: «اعملي كوب قهوة دوبل لكي أفيق لهذه المرأة».

نظرت العجوز إلى ملاذ في ضيق وأسرعت إلى المطبخ. أخذ زاكن يهرش رأسه، ثم جلس أمامها يضحك، قالت: «عامير سيأخذ اليوم كل يهود الحارة ويذهب بهم إلى أرض جون الجديدة».

سبّ عامير وهدد بالانتقام منه، حتى جاءت الخادمة العجوز من المطبخ لمتابعته، ثم صاح مناديًا الخادمة، قالت من مكانها: «حاضر.. القهوة جاهزة».

سأل ملاذ: «لماذا لم يأتِ مخلوف معك هذه المرة؟»

- سيذهب مع باقي اليهود إلى أرض جون.

- على أي حال أنا لا أستطيع اتخاذ قرار قبل أن أرى أرض جون الجديدة بنفسي.

- متى ستذهب؟

- فورًا.

توقفت العربات أمام مقهى شنتاي، كان مخلوف في الحارة الجانبية، يراقب الموقف من بعيد. وسرينة تقف في نافذتها، تُخرج نصفها الأعلى وتراقب أول الحارة المجاور لمقهى شنتاي، وبنيامين يجلس على مقعده يراقب الجميع في أسى. ظلت الهادية واقفة أمام باب بيتها وبجوارها ابنها هارون وصديقه رزق، ولم يستطع جون أن يقف على قدميه مدة طويلة؛ فجاءوا له بمقعد من الشقة ليجلس عليه، قال هارون لأمه: «فلنذهب إلى مقهى شنتاي لنجلس، بدلًا من هذه الوقفة التي طالت».

لكنها شدت ابنها من ذراعه غاضبة: «قف في مكانك لكي تأتي العربة إلينا».

نظر رزق إليها، اصطدمت عيناها بعينيه، فشعرت بارتعاشة في جسدها كله، ما الذي جاء بهذا الولد إليها؟ لماذا لا يذهب ويجلس مع أبيه بنيامين، ما له بها؟! رؤيتها له الآن تجعلها تحس بالخوف، وبالرغبة في أن تتوارى بعيدًا عنه. إنه يشعرها بضآلتها، أرادته فلم يستجب، وحمل ملابسه وجرى إلى الخارج، وأرادت أن تقتله بالسم فلم تستطع بسبب غباء ابنها الذي أراد أن يشاركه تناول الطعام، أتقتل ابنها معه؟!

سمعت الهادية ضجة في أول الحارة، فأحست بأن عربات عامير بك قد وصلت، نظرت في خجل إلى الولد رزق، وحاولت أن تستجديه بابتسامة، إنها قادرة الآن –

بعد أن اغتنت – على أن تضرب والده بنيامين وأمه ملاذ، لكن هو لا، هو أقوى منهما معًا. قالت لهارون في صوت خافت وهي تتابع رزق: «استعد فقد جاءت العربات».

حمل رزق «فنطاز» الماء الكبير، الذي أعدته الهادية منذ الصباح الباكر، فحتمًا الأرض الجديدة ليس بها ماء صالح للشرب. وحمل هارون سلة كبيرة مملوءة بالأطعمة. لكن العربة لم تأتِ.

أسرع الرجال والنساء والأطفال إلى العربات الخاوية، تدافعوا وتسارعوا إلى دخولها، عندما حاولوا دخول العربة التي يقودها فرج، صرخ فيهم لاعنًا: «إنها مخصصة لعامير بك».

وعامير في الداخل يتابع الزحام الشديد من خلف الستائر المسدلة.

عدد كبير من اليهود لم يستطيعوا دخول العربات المغلقة، فأخذهم فرج إلى عربات كارو تجرها الحمير. صعدوا إليها مسرعين، جلسوا فوقها مقرفصين، والبعض كان أسرع فجلس على حواف العربات، حيث يمكنه أن يمد ساقيه إلى أسفل خارج العربات، ثم صعد فرج إلى عربته، بعد أن اطمأن على ركوب كل مَن يريد الذهاب إلى الأبعادية الجديدة، وطرقع بكرباجه ليبعد الأطفال الكثيرين الذين لم يسمح لهم أهلهم بالذهاب؛ فتجمعوا حول العربات مهللين وصائحين. وقف فرج أمام بيت

جون. نظر عامير من جلسته بالداخل – من خلف الستائر المسدلة – إلى الهادية وجون والصبيين رزق وهارون، ثم ابتسم من منظرهم. أحس بما يدور في رأس المرأة، تريده أن يأتي إلى بيتها، لكي يحس اليهود في سوق السمك بمدى أهميتها.

قفز فرج من مكانه في خفة، فسارت الهادية والصبيان إلى باب العربة، وظل جون في مكانه كأن الأمر لا يهمه، فأمسك فرج بيديه، وساعده للسير نحو باب العربة. فوجئ عامير بالمرأة التي أسرعت إلى العربة تاركة زوجها الذي يمتلك كل شيء. لم تتوقع أن تجد عامير في الداخل، صاحت عندما رأته: «عامير بك؟!»

تعثرت وكادت تقع لولا أنه أمسك بيدها، جلست بجواره، وحمل فرج إناء الماء وسلة الطعام ووضعهما بجواره، وأدخل جون، الذي انحنى أكثر – عندما رأى عامير – ورفع يده محييًا ومتمتمًا، ثم صعد الصبيان، جلسا بجوار جون، وظلت الهادية بجوار عامير. المسافة طويلة من سوق السمك حتى الطابية، المؤدية إلى رشيد.

كان عامير مبتسمًا طوال الوقت ومتكئًا على عصاه التي لا تفارق يده طوال الطريق، وفي العربة الأخرى كان بنيامين جالسًا فوق المقعد وحوله العديد من الجالسين على المقعدين وعلى أرض العربة، أحس

بنيامين بالضيق، وصاح في أقرب رجل إلى الباب: «افتح الباب، سأختنق».

كان عصبيًا، كل ما يحدث حوله يكدره ويزعجه. ملاذ ذهبت في الصباح إلى زاكن ولا يدري ما الذي تم بينهما. اندفع الجالسون في مقدمة الباب نحو الداخل، فضغطوا عليه، فدفعهم عنه في عنف.

كان مخلوف في العربة الأخرى، يقف محنيًا طوال الطريق، لم يقل كلمة واحدة، يدفعونه، فيضطر أن يترك مسند المقعد الذي يستند عليه، ثم يعود ثانية إلى إمساكه، لكنه لم يتذمر أو يعترض. يفكر طوال الوقت فيما سيحدث عندما يصلون إلى أرض جون الجديدة، وعن الصراع الذي سينشأ بين عامير بك وزاكن الذي لا يتورع عن فعل أي شيء؛ ما دامت ستكون له فيه مصلحة.

وسرينة تجلس في آخر المقعد بجسدها الممتلئ. الجالسون بجوارها والواقفون حولها يدفعونها، فيزداد وجهها احمرارًا، ودت لو ركبت في العربة التي يقودها زوجها فرج. لكن عامير بك أصر أن يأخذ معه أسرة جون. تابعت مخلوف الواقف نصف وقفة، يترنح جسده المائل للامتلاء مع حركات العربة. تعرف سرينة أن مخلوف على علاقة مع ملاذ زوجة بنيامين. مَن يصدق أن يأتي وقت فتخون ملاذ زوجها الذي كانت تتفنن في إرضائه، ومَن كان يصدق أن تحب عليه؛ لقد كان فتى حارة اليهود المدلل، الرجال يحسدونه لكثرة النساء

اللائي يهوينه ويسعين إليه، وذلك لوسامته وطوله الباسق وجسده الممشوق، سبحان مغير الأحوال الذي لا يتغير. حكى فرج لسرينة وهو يضحك عن رؤيته لملاذ ومخلوف معًا، ورجال الحارة - الذين لا تخفى عليهم خافية - يرونها تمر من أمام مقهى شنتاي فيسرع مخلوف للحاق بها، ويقفان في مدخل الحارة يتحدثان، أو يسيران بعيدًا عن حي سوق السمك. ما الذي أعجبها في مخلوف هذا؟ شعره المهوش الأكرت، أم وجهه الذي لا يغسله بالشهر والاثنين؟! أترى يعرف بنيامين بهذه العلاقة؟ ربما.

جلس رجل نحيف فوق ساقي سرينة بعد أن دفعته الأجساد المزدحمة، فأرادت أن تقوم من مكانها لتبعده، لكنها لم تستطع؛ فالكتل اللحمية التصق بعضها ببعض.

العربة التي يقودها فرج هي الأسرع، فهي تحمل حمولة أقل، كما أن فرج أوصى قادة العربات أن يسيروا خلفه، فهم لا يعرفون الطريق إلى منطقة الطابية، ولا فرج يعرف أيضًا، عامير الوحيد الذي يعرف الطريق، فكان يضرب بعصاه على خشب العربة خلف فرج؛ ليدله على الطريق. فرج يعرف ما يريده عامير بك فور سماعه لدقة العصا فوق الخشب، اعتاد هذا من طول مرافقته له.

وصلت العربة إلى منطقة الطابية، فدق عامير بعصاه خلف مقعد فرج، فعرف أنه قد وصل إلى المكان الذي يريده فتوقف، ثم قفز مسرعًا من فوق العربة، فتح

الباب، فرأى عامير – بنفسه – يساعد جـون على النزول، لكن الهادية زاحمت الاثنين لكي تنزل قبلهما. لم يسمح فرج لها بذلك، فظل واقفًا في طريقها حتى تركت الطريق لجون لكي ينزل معتمدًا على ذراع وكتف عامير بك. نزلت غاضبة. نظرت حولها فلم تجد سوى أرض ترابية مترامية الأطراف. قالت في ضيق: «هذه هي الأرض؟!»

أمسك عامير ذراع جون وساعده على السير فوق الأرض الوعرة، بينما أسرع فرج إليهما ليساعدهما معًا، ووقف رزق وهارون ينظران إلى الفضاء الواسع حولهما. اقتربت الهادية من عامير، قالت: «إنها أرض لا تصلح للإقامة ولا الزراعة».

قال عامير مبتسمًا: «الأرض جيدة، والماء قريب جدًا منها».

وصلت العربات الأخرى فأحدثت ضجيجًا عاليًا، أسرع مخلوف وأمسك بذراع جون. نظر عامير إليه ثم تركهما معًا، وسار بجوار الهادية يحدثها، وبنيامين سار خلف جون، أصاخ السمع لكل ما يُقال حوله. مخلوف سيفسد كل شيء بقربه من جون، لا بد أن يُبعد كلًا منهما عن الآخر. أسرعت سرينة، لهثت من السير فوق الأرض غير المستوية، لحقت بزوجها بعد عناء، أسرعت وصافحت عامير بك، ثم انحنت وقبلت يده. ابتسم عامير، وداعب خدها في ودّ وتمتم بكلمات لم تتبينها، وظل فرج متابعًا لهما في ابتسامة راضية.

قالت الهادية في ضيق: «أسنظل نسير في هذه الصحراء؟!»

أسرع الولد رزق، وقال للهادية: «خالة الهادية، خالة الهادية».

عندما رأته شعرت بالرغبة في أن تختفي من أمامه، والحدة والكبرياء اللذان أبدتهما أمام الجميع، ضاعا منها، قالت في صوت خافت: «ماذا تريد يا رزق؟»

أشار إلى بعيد: «انظري».

نظرت إلى حيث أشار. قالت: «لا أرى شيئًا سوى الصحراء».

قال رزق وهو يشير إلى جهة بعينها: «بيوت كثيرة يا خالة الهادية».

تجمّع كل الذين جاءوا من سوق السمك. نظروا إلى حيث أشار رزق. فقال عامير: «لا أرى شيئًا أمامي، لكنني أعرف أنه توجد بيوت في هذه المنطقة».

قال هارون بعد أن أطال النظر: «نعم أرى بيوتًا أمامي».

هللوا فرحين، وابتسم عامير قائلًا: «عودوا إلى العربات، سنذهب إلى هذه البيوت، فهي من أملاك جون».

عادوا إلى العربات مسرعين. وحمل مخلوف جون من تحت إبطه وسار به إلى عربة عامير بك، وسارت الهادية شاردة، تتابع رزق الذي سار في خفة مع ابنها هارون. لا

تدري ما الذي تريده الآن. هل يختفي هذا الولد الذي أذلها برفضه لها؟ أم تريد بقاءه بجوارها؟ إنها تبحث عنه كلما ابتعد عن عينيها، وترتعد خوفًا عندما يقترب منها ويحدثها.

وصلت الهادية بعد أن صعد الجميع إلى العربات. أرادت أن تصيح - كعادتها - لكنها لم تجد القدرة. فوجئت بالولد رزق يهبط من العربة، ويمسك يدها ليساعدها على الصعود، ثم أجلسها مكانه وأغلق الباب، صاحت من الداخل: «ألن يأتي رزق معنا؟»

قالوا لها: «سوف يركب بجوار فرج في الخارج».

وصاح هارون من مكانه بجوار أمه: «وأنا أيضًا أريد الهبوط، سأجلس في الخارج بجوار فرج».

فدق عامير بعصاه خلف مقعد فرج، فتوقف الرجل وهبط هارون من العربة، ثم صعد ليجلس بجوار رزق صديقه، وظلَّا يضحكان طوال الطريق، من هزات العربة السائرة فوق الأرض غير المستوية.

توقفت العربة التي يقودها فرج أمام أول بيت صادفهم. هبط فرج ورزق وهارون مسرعين، ووقفوا أمام باب العربة ليساعدوا الهابطين على درجتي السلم. هذا البيت هو الوحيد الموجود في هذه المنطقة، مكون من ثلاث حجرات ومبني بالطين والطوب الني، كان بابه الخشبي الثقيل مغلقًا، فأسرع فرج بدقه.

فتح الباب شاب صغير، يرتدي سروالًا قصيرًا من «العبك» يُظهر ساقين رفيعتين، قال وهو يوارب الباب في خوف: «ماذا تريدون؟!»

تقدم عامير وقال للشاب: «صاحب الدار».

نظر الشاب إلى الداخل، وتحدث في صوت خافت ثم فتح الباب، وأفسح طريقًا للداخلين. كان عامير في المقدمة. وخلفه مخلوف يحمل جون حملًا، وبنيامين يزاحم الجميع راغبًا في الدخول قبلهم. قال عامير: «معذرة لدخولنا داركم هكذا».

ظهر رجل عجوز، يرتدي قفطانًا من العبك المصبوغ بلون النيلة الأزرق. قال مبتسمًا: «أهلًا بكم».

قبل أن يجيبه عامير بشيء، فوجئوا بزاكن وملاذ يخرجان من إحدى الحجرات. كانت مفاجأة للجميع. قالت الهادية وهي تتابعهما في دهشة: «ما الذي لمّ الشامي على المغربي؟!»

وألجمت المفاجأة عامير فلم يتكلم، بينما صاح زاكن سائلًا ملاذ: «مَن هذه المرأة؟»

قالت ملاذ: «إنها الهادية، زوجة جون».

تعرف الهادية زاكن جيدًا، منذ أن كان والدها يعمل في إسطبلاته، إنها لم تقترب منه أو تحدثه منذ أن طردها من البيت بعد موت والدها، لكنها ظلت تتابع أخباره، سمعت عنه كثيرًا، فاليهود يتندرون على أفعاله المشينة، كما أنها رأته كثيرًا في معبد زراديل القريب من

بيتها، في الاحتفالات التي يقوم بها المعبد ويدعو إليها كبار اليهود وأغناهم.

قال الرجل العجوز صاحب الدار: «لا تؤاخذونا، فالدار ليست على قدر المقام، وأنتم ناس كبراء».

ضحك عامير واقترب من الرجل وربّت كتفه في ودّ: «أنت رجل كريم».

صاح مخلوف وقد أحس أن جون غير قادر على الوقوف: «أوجدوا مكانًا لجلوس جون».

نظر زاكن إلى جون في اهتمام. قال عامير لصاحب الدار: «أتسمح لنا بالجلوس في الداخل؟»

أشار الرجل إلى الحجرة التي يقف فيها زاكن وسار أمامهم وهو يقول: «تفضلوا».

نظر عامير إلى المتزاحمين؛ الراغبين في دخول الدار: «ابقوا في الخارج، في ظل البيت. لن يبقى معنا سوى جـون وأسرته».

عادوا إلى خارج البيت، ودخل زاكن وملاذ إلى الحجرة، وتبعهما عامير والهادية وهارون، أراد رزق أن يخرج، لكن هارون أمسك بيده قائلًا: «ابقَ معنا».

نظرت الهادية إلى رزق وصمتت. وحمل مخلوف جـون وأجلسه فوق «مصطبة» مصنوعة من الطين ومغطاة بحصير. قالت الهادية لملاذ: «إنكِ لستِ من عائلة جـون، فما الذي يُبقيكِ معنا؟!».

قال زاكن في تحدّ: «لا بد أن تحضر ملاذ الاجتماع».

مصمصت الهادية شفتيها معارضة لكنها لم تتكلم. فوجئوا ببنيامين يدخل أيضًا: «وأنا لا بد أن أحضر الاجتماع».

ضحك زاكن قائلًا: «تكفي زوجتك وابنك».

دخل بنيامين الحجرة قائلًا: «ومخلوف ما الذي يبقيه معكم؟»

فصاحت ملاذ: «لا بد أن يبقى مخلوف معنا».

فضحك زاكن أكثر، ونظر بنيامين إلى زوجته مندهشًا، ما شأنها بمخلوف هذا؟! وتابع رزق الموقف في أسى. إنه يرى أمه – هذه الأيام – تهتم بمخلوف وتكثر من دخول حجرته وممازحته، بعد أن كانت تضيق بوجوده في الشقة، وتتمنى أن يتركها. صاحت الهادية في ملاذ: «ما لكِ يا امرأة؟! إنك تحددين مَن يبقى، وكأنكِ صاحبة الأرض».

وقف عامين، اقترب من بنيامين وقال له: «اذهب الآن لكيلا تفسد كل شيء».

نظر بنيامين إلى زاكن لكي يؤيده، لكنه مطّ شفتيه وقال له: «هذا قدرك».

نظر بنيامين إلى مَن حوله، لم يجد نصيرًا، حتى ابنه رزق نظر إلى الأرض ولم يعلّق، وزوجته لم تتمسك به، بل أبدت تحمسها لمخلوف الغريب ولم تطالب ببقائه. عاد بنيامين إلى صحن الدار حيث يجلس الرجل العجوز وزوجته الصغيرة وابنه الشاب. نظروا إليه دون تعليق،

فأسرع بنيامين إلى الخارج مواجهًا عيون الذين جاءوا من سوق السمك، تابعوه، وتهامسوا بعيدًا عنه.

قال عامير: «لا تختلفوا معًا، فالأرض كبيرة جدًا، ولن نقدر على إصلاحها وبناء البيوت والمشاريع عليها وحدنا، لا بد من طلب العون من كل يهود مصر».

قال زاكن: «قُل لنا الآن.. ما هي مشاريعك لهذه الأرض؟»

تابع عامير وجه الهادية الشاحب، وقال: «سنقسم الأرض إلى قطع صغيرة ونُملِّكها لفقراء اليهود».

صاحت الهادية وكأنها تنعي فقيدًا عزيزًا وغاليًا: «يا دهوتي! تريد أن تهب أرضنا لفقراء اليهود؟!»

- ليست كل الأرض، لكن بعضها.

صاح زاكن غاضبًا: «لا، هذه الأرض لجون وأسرته. وهم وحدهم القادرون على التصرف فيها».

قال عامير للهادية التي أدرك أنها صاحبة التصرف في كل ما يحدث: «مشكلة اليهود تهم كل يهود مصر».

قالت الهادية: «لكن...».

أكمل عامير قائلًا: «الباقي من الأرض سيزيد على حاجتك، فسأبني لكِ قصرًا على البحر، وحدائق من حوله، ستكونين كملكة».

قال جون: «موافق على كل ما يقوله عامير بك».

أمسكت الهادية يد جون وقالت: «الرأي رأيي أنا».

ارتعش جون ورقصت عيناه في سرعة كبيرة، ثم قال: «أنتِ الخير والبركة، لكن عنان بن داود زارني في المنام ليلة أمس وأوصاني خيرًا بفقراء اليهود».

- إنهم من اليهود الربانيين، فكيف يدافع عنان بن داود عنهم؟!

- كلهم يهود عنده.

- عنان بن داود على العين والرأس، لكن لا بد من أن يكون لنا نصيب في المنحة التي أرسلها لك الرب.

ضحك زاكن بصوت مرتفع وقال: «حلوة حكاية فقراء اليهود هذه، إنكم ستضيعون الأرض وفقراء اليهود معًا».

قال عامير في غضب: «أرجوك ياسيد زاكن، لا أسمح لك بالسخرية من آرائي».

- لا أسخر من آرائك، لكن بهذه الطريقة ستضيع المنحة؛ فالأرض ستتفتت.

قال مخلوف: «لا بد أن يكون لأسرة جون حظ الأسد من الأبعادية، ولنا نحن المقربين منه، المرتبة الثانية، ثم الباقي لفقراء اليهود».

صاحت الهادية في غضب: «وما شأنك أنت بهذا؟!»

قالت هذا وهي تنظر إلى ملاذ؛ لتعرف تأثير قولها عليها. قالت ملاذ في هدوء: «كان جون يزور مخلوف في حجرته كثيرًا، هو أقرب صديق له ومن حقه أن يكون له نصيب في الأرض».

صاح عامير: «هذا الحديث سابق لأوانه، هيا بنا لنرى باقي الأرض ونحدد في الأول المكان الذي سنبني عليه بيت جون».

خرج جون والهادية وتبعهما رزق وهارون، وهمس مخلوف في أذن ملاذ: «هل ستأتين معنا؟»

- لا، سأتبعكم فيما بعد.

نظر عامير إلى ملاذ وزاكن اللذين ظلا في مكانيهما، ثم خرج دون أن يحييهما.

ضحك زاكن في نزق ثم شد ملاذ إليه وربّت ظهرها قائلًا: «أعجبتِني وأنتِ تدافعين عن عشيقك».

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- تعملين لمصلحة مَن، بنيامين أم مخلوف؟

- مصلحتي، ثم مصلحة مخلوف.

ضحك بصوت مرتفع، ثم قال: «أنتِ محقة، فبنيامين ليس له صديق».

ثم اقترب منها، شد رقبتها إليه وقبلها في عنف، فدفعته في ضيق، قال: «ما رأيكِ في المرأة التي تجلس في الخارج؟»

- أعجبتك؟

- صغيرة وجميلة، بينما زوجها عجوز.

- إنها أصغر من ابنه.

أسرع زاكن إلى الخارج، تابعته ملاذ في دهشة؛ فقد كان يحدثها، وقبل أن ينهي حديثه معها، تركها ونادى على الرجل العجوز: «أنت، تعالَ».

أسرع الرجل إليه، محنيًا ظهره في احترام، فأخرج زاكن مبلغًا كبيرًا من المال ومده إلى الرجل: «خذ، اشترِ خروفًا صغيرًا لكي نأكله معًا، أنا والمرأة البدينة التي في الداخل».

- زوجتك؟

- وأنت وابنك وزوجتك. يكفي هذا المبلغ، أليس كذلك؟

- إنه أكثر من اللازم بكثير.

- اذهب أنت وابنك لكي تأتيا به مسرعين.

عاد زاكن إلى ملاذ.

- وقت قصير وكل شيء سيتم بسلام.

- إنك فاجر.

ضحك بصوتٍ مرتفع، سمعه الرجل وابنه فعادا ليعرفا ما يحدث، ثم أسرعا بالنقود ليشتريا خروفًا صغيرًا للغداء.

خرج زاكن. كانت المرأة الجميلة منحنية على «كانون» من الصفيح الأسود تنفخ فيه ليشتعل، فيزداد وجهها احمرارًا. قرفص زاكن بجوارها فضحكت المرأة في حياء، قال: «ماذا تفعلين؟»

- أحضر الماء المغلي للطعام.

- أنتِ جميلة.

قامت مذعورة: «ما لك بي أيها الرجل؟!»

أخرج زاكن مبلغًا من المال ووضعه في صدرها الذي يظهر جزء منه، رجعت للخلف وصاحت بصوت سمعته ملاذ بوضوح: «ابعد عني أيها الرجل وإلا قلت لزوجتك عما تفعل».

- دعكِ من زوجتي الآن. أنتِ في حاجة إلى ملابس جديدة وصدرك في حاجة إلى ذهب. أم ستظلين دون شيء؟

جلست المرأة أمام الكانون، نفخت فيه ثانية فازداد احمرار وجهها، وجلس زاكن بجوارها. قالت بصوت خافت: «ألا تخاف زوجتك؟»

ألصق ركبته في مؤخرتها وقال: «دعكِ منها».

- قد تخرج من الحجرة وتراك هكذا.

- ليس مهما، المهم أنكِ أجمل منها.

مدّ يده نحو كتفها والمرأة تبتعد وهي ما زالت تجلس على ركبتيها: «أنتِ في حاجة إلى رجل مثلي».

- وماذا تريد الآن؟

- أريدكِ أنتِ.

أخرجت المرأة النقود من صدرها ودسّتها في يده: «خُذ نقودك. أنا لست منهن».

أعاد النقود إلى صدر المرأة وتابع وجهها الذي يعلوه تراب الكانون الأسود، فصمتت ونظرت إليه مبتسمة في حياء.

أمسك غطاء رأسها ثم مسح على شعرها الناعم، وهي تبتسم وتفكر في المبلغ الكبير الذي وضعه في صدرها، إنها يمكن أن تشتري منه أشياء كثيرة. لو عاشت مع زوجها العجوز العمر كله، ومهما أخذت منه من مبالغ، فلن تستطيع أن تجمع مبلغًا مثل هذا.

سمعت ملاذ أصواتًا غريبة، فأسرعت إلى الحجرة، فوجدت زاكن نائمًا فوق المرأة، فضحكت بصوت مرتفع، فدفعت المرأة زاكن عن جسدها، ولمت الملابس المتبقية فوقها في خوف.

كانت ملاذ تضحك، وزاكن غاضب يريد أن يضربها، جرت منه إلى الحجرة الأخرى، فقال لها: «لن أنسى لكِ هذا، وسأفاجئك يومًا أنت ومخلوف عشيقك».

* * *

عاد الرجل وابنه الشاب يجرّان خروفًا صغيرًا، قال العجوز: «اخترت لك أجود خروف في السوق».

كان زاكن يرتدي ملابسه، وملاذ تنتظره بجوار المرأة التي ما زالت تنفخ في «الكانون» شاردة، غير مصدقة لما حدث لها. قال زاكن للرجل في كبرياء: «أعدوا الطعام وسأعود أنا وهذه المرأة لنأكل بعد ساعات قليلة».

تحدث الرجل مع زوجته فرحًا، فسوف يأكل زاكن وملاذ ما يأكلانه، والباقي سيتبقى له ولزوجته وابنه، هذا غير النقود التي أخذها من زاكن عندما جاء، والمتبقي من ثمن الخروف، وما دفعه لـــه عامين، آه لو كل يوم يأتيه المال هكذا، سيكون سيد الناس في هذه الضاحية. سأل زاكن وهو يستعد للخروج: «السوق قريب من هنا؟»

- نعم، يمكنك أن تصل إليه سيرًا على الأقدام.

- معنا عربة تقف في الخارج.

سار زاكن وملاذ معًا في طريقهما إلى العربة التي يضعها زاكن بعيدًا حتى لا يراها عامير ومَن معه، لقد قادها زاكن بنفسه طوال الطريق من الإسكندرية إلى الطابية.

قالت ملاذ: «لقد رأيت الأرض بنفسك، فماذا ترى؟»

نظر إلى الأرض الترابية ثم قال: «أدركت الآن فقط أنني قد كبرت وشخت».

- لماذا! ألأنك فشلت مع المرأة؟!

ضرب ملاذ على مؤخرتها ضاحكًا: «في هذه النواحي لا أشيخ أبدًا، لكنني لم أتمكن من رؤية القرية من مكاني هذا».

- سأوافقك في كل ما تفعله، بشرط أن يكون لي ولمخلوف نصيب فيما تفعل.

- الأمر في يد الهادية زوجة جون.

- حقًا ما تقول.

- ما أهم ما يميز الهادية هذه؟

- لا أفهم مقصدك.

- ما الذي يحكونه عنها في سوق السمك؟

- يقولون إنها تحب الصبية، تصادقهم وتنفق عليهم بسخاء.

- لهذا جاءت برزق ابنك معها؟

- لا، رزق صديق هارون ابنها.

- ابنك رزق هو الحل.

صاحت غاضبة: «زاكن، ابني ليس له صلة بهذه الموضوعات».

ضحك طويلًا وقال: «ما الذي سيضيره، سيصادق امرأة ستؤول إليها كل الأرض».

- وجون؟

- لا بد أن يُقتل، هذا هو الحل الوحيد.

- أنت مجنون.

سارت ملاذ بعيدًا عنه، إنه يفكر في أشياء غريبة، لا يفكر فيها إلا شيطان، يريد أن يقتل الرجل المسكين. أسرع زاكن إليها. قال: «جون يريد أن يعطي أرضه

لفقراء اليهود، ولن يستطيع أحد منعه ما دام عامير معه، أنتِ لا تعرفين عامير هذا».

- لكن القتل شيء فظيع.

الأرض خالية أمامهما، والهواء يدفع جسديهما في عنف. قال زاكن: «نبدأ من ابنك رزق. لقد لاحظت أن المرأة تنظر إليه نظرات أعرفها جيدًا».

- ماذا؟ أتحبه العجوز؟!

- أريد أن أعقد اتفاقًا مع ابنك ومع مخلوف وبنيامين.

صاحت في حدة: «لا، بنيامين لا».

داعب خدها، ثم ارتكز على جدار عربته وشدها إليه وهو يضحك: «بنيامين ضروري في هذا الاتفاق، كما أن مصلحته هي مصلحتنا».

ركبت بجواره فوق العربة، وانطلق في طريقه إلى القرية.

كان زاكن جالسًا أمام بيت الرجل العجوز، الذي يتابعه مبتسمًا، وزوجته الشابة تجلس شاردة، تنظر إلى ذلك البدين الذي جاء ليغير حياتها وحياة زوجها وابن زوجها. لقد أعطاهم من المال الكثير، لكنه يتحكم فيهم، يسب العجوز وابنه الشاب، ويأمرهم بالذهاب لشراء الأشياء لـه لكي ينفرد بها. كما أن المرأة – البدينة مثله – تتابع كل شيء دون أن تغضب. إنه يقدمها لكل مَن حوله على أنها زوجته، فكيف لا تغضب أو تعترض وهي ترى ما يفعله في امرأة غريبة؟ بل تظل تضحك سعيدة بما يحدث. هؤلاء الناس لهم تصرفات شاذة، لم ترَ مثلها من قبل.

جاءت ملاذ وابنها رزق، لقد أكد زاكن عليها أن تأتي به وحده، بعيدًا عن هارون الذي يتبعه كظله. ترك هارون بيت والده جـون وسار خلف صديقه رزق، سأله عن الجهة التي سيذهب إليها فقال له: «سأذهب مع أمي، وسأعود إليك بعد قليل».

وقف هارون لحظات يتابعه وهو يسير مع أمه، ثم عاد إلى البيت الذي يبنونه.

رزق لا يحب زاكن هذا، فهو يُكثر من السباب والضحك بدون سبب، كما أنه يمازح أمه أمامه وأمام أبيه بطريقة لا تعجبه. لكن أمه تلح بأن يقابله. قالت إن الأمر هام وفيه مصلحه لهم جميعًا.

كان زاكن جالسًا أمام بيت الرجل العجوز، وأهل البيت يجلسون في الناحية الأخرى يتابعونه باهتمام شديد. عندما رأى ملاذ آتية ممسكة بيد ابنها رزق، صاح زاكن في الرجل العجوز وزوجته وابنه: «ابتعدوا قليلًا، أريد أن أتحدث مع المرأة وابنها».

ابتسم الرجل العجوز، وقام دون قول، ونظرت إليه المرأة في ضيق، ثم قامت، وظل الشاب ناظرًا إليه. أراد أن يتمرد ويقول له إنه لن يتحرك من مكانه، ولو أراد أن ينفرد بالمرأة وابنها؛ فليذهب بعيدًا عن بيتهم، لكنَّ أباه شدَّه من يده وأخذه وسار به خلف البيت، جلسوا في الشمس.

أحس زاكن بأن الشاب يريد أن يواجهه ويصيح فيه؛ فلم يعلق. فهو يعرف هذا النوع من الناس، يخافون الأغنياء والذين يرتدون السراويل، يعتقدون أنهم على صلة بالحكام الذين يستطيعون ضربهم بالكرباج، ويستطيعون حبسهم وقتلهم أيضًا.

جلست ملاذ فوق الأرض، جسدها لمس ساق زاكن الممدودة، وشدت ابنها ليجلس تحت قدمي زاكن. قالت: «عمك زاكن مثل أبيك، ويريد أن يحدثك في أمر مهم».

قال زاكن: «إنك ولد نبيه، وستفهمني بسرعة».

لم يقل الولد شيئًا، فأكمل زاكن: «الهادية تحبك، أليس كذلك»؟

إنه لم يقل شيئا عما حدث بينها وبينه في بيتها، فمَن الذي أخبر زاكن؟! ضحكت ملاذ وقالت: «ابني مثل القمر؛ لذا تحبه نساء اليهود».

أمسك زاكن يده وقال: «لماذا لا تحدثني؟»

- لا أعرف شيئا عما تقول.

- الهادية تحبك، لقد أدركت هذا من نظراتها إليك.

- وماذا تريد مني؟!

- أن تبادلها حبًا بحب.

- لكنها مثل أمي.

قالت ملاذ: «لا، إنها أكبر مني بكثير».

أراد رزق أن يقوم: «إنها أم أقرب صديق لي».

شده زاكن في عنف عندما قام، حتى أوقعه على الأرض بجوار أمه: «اجلس واسمعني، هناك مثل يقول: مَن يصعب عليك؛ يفقرك، والأرض ستضيع منّا جميعًا، سيعطيها جـون إلى عامين، لا بد أن نُسرع، والهادية هي التي يمكن أن تعيد الأرض إلينا».

- وما شأني أنا بهذا؟!

- هذه المرأة عنيدة، ولن يقدر عليها سواك؛ لأنها تريدك أنت.

- لا أستطيع أن أفعل شيئا.

- لو أضمن أنها سترضى بي، لن أتورع عن الذهاب إليها، والاستجابة لطلباتها.

قالت ملاذ: «أنت ابننا ولا بد أن تفعل من أجلي ومن أجل بنيامين أبيك. إنه سيجن منذ أن اغتنى جـون. لو خرج من المولد بلا حمص، سيموت كمدًا. أترضى أن يموت أبوك كمدًا؟!»

لم يجب رزق بشيء، وأحس زاكن أنه قد وافق على ما يريدونه أن يفعل، فقال: «اذهب إليها، شاغلها، لا بد أن تجعلها تحت أمرك ورهن إشارتك».

* * *

وقف مخلوف بملابسه المهترئة، وشعره الكث المهوش، يراقب الفلاحين – أبناء الضاحية - وهم يحملون القفف المملوءة بالطين، وآخرون يحملون قوالب الطوب الجافة المصنوعة من الطين الني؛ ويضعونها مصطبة أمام بنَّاء، يمسك الطين بيده و«يليسه» فوق القوالب الجافة ليصنع جدارًا، فقد أمر عامير بذلك. قال لفرج: «أعطهم النقود التي يحتاجونها لإقامة بيت لجون في أرضه، ليُمكن متابعة أملاكه من هذا البيت».

والهادية تقف وقد تغير لون وجهها من طول بقائها تحت أشعة الشمس الحارقة، إنها غير راضية عما ينوي أن يفعله عامير. لقد ألحَّ مخلوف على جـون بأن يعرض جزءًا كبيرًا من الأرض للبيع بسعر زهيد لأهالي المنطقة، أو لأي مشترٍ يريد أن يزرع الأرض، أو يعيش في هذه

المنطقة، لكن عامير عارض هذا وقال: «هذه الأرض ممنوحة من الرب، ولن يسكنها غير اليهود».

وجون المجنون يطاوعه، ويومئ برأسه موافقًا على ذلك. أول مرة يفلت جون من زمامها، ويتمرد عليها، كل هذا بسبب عامير الذي يقويه. لقد تركت الهادية العمل في المستشفى، ليست في حاجة إليه الآن. الأرض لو بيعت كما تريد ستغتني، يمكن أن يأتي رجل غني ويشتريها كلها، أو نصفها، أو فدادين كثيرة منها، ما لنا وما لليهود؟! الشر الذي حاق بها طوال عمرها لم يجئها إلا من اليهود. بنيامين الذي خدعها ورماها رمية الكلاب، وتزوج ملاذ وتركها تحمل جنينًا ، وزاكن طردها من الحجرة بعد أن مات والدها، وأعطاها لسائس آخر.

فرج أخذ زوجته سرينة وأطفالهما إلى أرض جـون الجديدة، كما أمره عامير بك. قال له: «لا بد أن تعمر هذه المنطقة».

وجمع خدمه الكثيرين ونصحهم بالعيش في أرض جون الجديدة. حتى قال فرج له: «ومن سيخدمك يا سيدي».

- ليس مهمًا، فسوف أجيء بيهود آخرين للعمل عندي.

ونصح عامير خدمه وعماله اليهود في مشاريعه جميعًا؛ بجمع مدخراتهم لشراء أراض هناك.

عارضت سرينة أول الأمر، فهي لا تحب الهادية ولا تطيق معاشرتها، لكن عندما أخبرها فرج أن هذه أوامر

عامير بك، لم تستطع أن تنطق بشيء، وجمعت أطفالها استعدادًا للذهاب إلى هناك.

تعيش سرينة لدى امرأة تسكن قريبًا من البيت الذي يبنيه جـــون الآن؛ اتفق معها فرج على أن تستقبل امرأته وأطفاله في بيتها نظير مبلغ من المال يدفعه لها كل يوم، وفرحت المرأة بذلك وتحملت مزاحمتهم لها في بيتها. كما أن المرأة وزوجها وأطفالها يأكلون من الطعام الذي يأتي به فرج يوميًا من قصر عامير بك.

قال عامير لفرج: «لا بد أن تبني لك بيتًا في هذه الناحية».

رد فرج: «قبل أن أدفع ثمن الأرض لجـــون؟»

شرد عامير لحظات، ثم قال: «جـــون لن يعارض، لكن الهادية لن تسمح بذلك قبل أن ندفع له ثمن الأرض».

ثم أكمل: «على أي حال، اذهب إلى هناك وسندبر الأمر مع جون بعيدًا عن الهادية».

تأتي سرينة إلى الهادية – كما أوصاها زوجها فرج – لتتقرب منها، فتبتعد الأخرى وهي تزفر في ضيق، إنهم يطاردونها في كل مكان تذهب إليه، وهي لا تريد أن تراهم، حتى اضطرت إلى أن تصيح غاضبة: «ما لك يا سرينة؟ لماذا تتبعينني في كل مكان أذهب إليه؟!»

شعرت سرينة بالضيق وأرادت أن تمسك هذه المرأة المتصابية وتصرعها تحت قدميها، لكنها لم تقدر، الأشياء تغيرت، والهادية أصبحت مالكة، والكل يخطب ودها

ويتمنى رضاءها. ابتسمت سرينة لها وداعبتها، لكن الأخرى، دفعتها عنها في ضيق، فابتعدت مبتسمة، وقلبها يرفرف من الغيظ والكره للهادية.

اقترب بنيامين من البناء الذي يُقام، اقترب من الهادية مبتسمًا: «اغتنيتِ يا الهادية».

- ربنا عوضني خيرًا.

- المال ليس كل شيء في الحياة.

- بالمال أستطيع أن أشتري ما أريد.

هزَّ بنيامين كتفيه وسار بعيدًا والهادية تتابعه في تحدٍّ.

ركب زاكن عربته وبجواره ملاذ ورزق، وانطلق بها في طريقه إلى البيت الذي يبنيه جـون. قالت ملاذ: «لا تنسَ أن تتحدث مع مخلوف».

نظر إليها رزق مندهشًا، ما لها بمخلوف هذا؟! قال زاكن: «كل شيء سيكون كما تريدين».

نظر الجميع إلى العربة الآتية. اليهود الموجودون يعرفون زاكن جيدًا، يخافون من أفعاله الشيطانية. قامت الهادية من مكانها، قالت لنفسها بصوتٍ خافت: «ما الذي يريده هذا الرجل منّا؟!»

قفز رزق في خفّة، ثم ساعد أمه حتى تنزل، وأمسك يدها وسارا ناحية الهادية التي تجلس على الأرض غير

سعيدة بما يحدث. أسرع هارون إلى صديقه، قال له: «تعالَ لنتفرج على العمال الذين يبنون البيت».

قال رزق في ضيق: «سأحضر إليك بعد قليل».

سار رزق مع ملاذ وزاكن، تابعهم هارون مندهشًا، ثم عاد إلى العمال الذين يقومون ببناء البيت.

سارت ملاذ وزاكن، وتوقف رزق قريبًا من الهادية التي ما زالت واقفة تراقب ما يحدث في حيرة. يريد زاكن شيئًا من أفعاله هذه، وملاذ تساعده. لقد كانت عشيقته قبل أن تتزوج بنيامين، تعرف الهادية هذا منذ سنوات قلائل، لو كانت تعرف وقت أن تركها بنيامين من أجلها؛ لفضحتها في كل مكان. لكن زاكن قوي ولا تستطيع مواجهته. إنه يصرع مَن يواجهه، إذا كان رجلًا أو امرأة، بمطواته التي لا تفارق ملابسه.

اختفت ملاذ وزاكن، وعادت الهادية إلى عالمها الجديد، والبيت الذي يبنونه، فوجئت بالولد رزق يقف أمامها مبتسمًا: «كيف حالكِ يا خالة الهادية؟»

ما الذي جعل رزق يحادثها هكذا؟ أيكون هذا ضمن المخطط الذي رسمه زاكن لكي يؤثر عليها؟! ربما. لكن مَن الذي أخبره بأنها أرادت هذا الولد يومًا؟ أيكون الولد قد حكى لأمه عما حدث بينها وبينه في البيت بسوق السمك؟ لا بد أن تحتاط لهذا. قالت في لا مبالاة لرزق: «هارون بالداخل يراقب عمال البناء».

اقترب منها قائلًا: «أريد أن أتحدث معكِ أنتِ».

إنه أمر مكشوف، ملاذ وزاكن الداعر أخذا الولد رزق معهما وأوصياه بأن يحدثها، ارتعشت كل أوصالها. الولد عيناه تشعان سحرًا، لا، لقد أحس الولد بها، لعله يفكر فيها منذ أن أرادته وهرب منها. قالت في جدية: «ماذا تريد أن تقول؟»

- لن يصلح الحديث هنا؛ فهارون سيأتي بعد لحظات للسؤال عني.

- والعمل؟!

قالتها في استخفاف، فالبيت الذي يمكن أن تنفرد به فيه؛ ما زال تحت البناء، والأرض ممتدة أمامهما، كما أنها لا تعرف مكانًا يختبآن فيه بعيدًا عن أعين اليهود التي تراقبهما. لا توجد سوى بيوت الأهالي. أيمكن أن يذهبا إلى بيت أحد الفلاحين لكي تتحدث معه بحريتها؟! قال وقد اقترب منها: «سأسبقك، وتأتين خلفي».

الولد أصبح مثل والده، في عينيه سحر أخاذ لا تستطيع مقاومته.

سار بعيدًا عن الأرض، نظرت إليه وإلى العاملين في الأرض، وإلى اليهود الذين جاءوا معها من سوق السمك ولا يريدون أن يتركوها، إنهم يتابعونها، لا يريدون أن يتركوها تفعل ما تريد بحريتها.

سارت خلفه. الولد يعرف المكان المناسب للحب، ساقية مهجورة بجوار المصرف. إذا مرّ أحد على الجسر لا يرى الجالسين في أسفل. كانت سعيدة، لكنها تظاهرت

بعدم المبالاة بما يفعله، وأنها لا تريده. قالت: «ماذا تريد مني يا بن بنيامين؟»

- كل خين، اجلسي بجواري هنا.

جلست بجواره، قالت في دلال: «ها قد جلست كما قلت لي، فماذا تريد؟»

- أعرف أنكِ تحبينني.

- أنت في عمر هارون ابني، فكيف أحبك؟!

- إنني أرغب فيكِ منذ أن جئتِ إليّ في بيتكِ بسوق السمك.

- أنت فهمتني خطأ. ما كنت أريد سوى...

مدّ يده نحو يدها، أمسكها ثم قبّلها، فلم تُكمل، إنها لم تقابل صبيًا منذ أن جاءت هذه الثروة إلى جـون. هذه الثروة جاءت لكي تسعدها، وغاية سعادتها أن تنام في أحضان صبي صغير مثل رزق هذا، لا، إنها لا تريد الآن سوى رزق ابن بنيامين وملاذ، لا تريد سواه. إنها ستحصل على ما تريد بما تملكه من مالٍ وأرض. تابعته وهو يمسك أصابعها الرفيعة الطويلة وابتسمت. قالت: «حبيبي رزق».

- لا بد أن يكون لي ولكِ بيت يجمعنا.

- لا بد.

قد يكون زاكن وملاذ حرّضا الولد لكي يقول لها ما قال، ويفعل معها ما فعل. ليس مهما، ماذا يريدان منها؟

أن يأخذا أرضًا من أرض جون مقابل أن يتركا لها هذا الولد؟ فليأخذا ما يريدان، فالأرض كبيرة جدًا. قالت: «البيت الذي نبنيه الآن سيكون لك، ستكون أنت سيده».

- وهارون؟

أحسّت بالأسى، فهارون هذا هو مشكلتها، نقطة ضعفها. لو كان الأمر يقتصر على جون لصغرت الأشياء وهانت. لكن هارون ابنها ولا تريد أن تسبب له إحراجًا مع صديقه هذا، ماذا سيكون موقفه عندما يعلم أن أمه على علاقة به؟!

«لا أدري يا رزق ماذا أفعل مع هارون هذا».

داعب يدها النحيفة، وأصابعها الطويلة وقال: «لن يحس هارون بشيء، فهو ما زال صديقي».

* * *

تابع بنيامين مخلوف الجالس أمامه في ضيق، ما الذي جاء به ليشاركه كل شيء. إنه كان محتقرًا في البيت الذي يسكنانه معًا، وفجأة أصبح مهمًا. زاكن يهتم به، ويفرض نفسه على عامير وجون. كان مخلوف يمسك قطعة خشب رفيعة ويرسم بها على الأرض الطينية رجالًا ونساء، كان يفعل هذا بمهارة، وملاذ تبتسم لهذه الأشكال كأنها تناجيها، وزاكن فوق مقعده يجلس كالحاكم في مواجهة رعاياه.

- ما رأيكم فيما قلت؟

قال مخلوف: «لن أسمح لك بقتل جـون».

نظر زاكن إلى ملاذ مبتسمًا، فأسرعت إلى مخلوف في اهتمام شديد: «زاكن يريد مصلحتنا جميعًا».

ترك مخلوف رسومه وقال لملاذ: «لم يكن هذا اتفاقنا».

شعر بنيامين بالضيق، فما الذي جعله يعقد اتفاقًا مع زوجته، ما شأنه بها؟! قالت ملاذ في تودد لمخلوف: «جون سيعطي الأرض لعامير، وسنعود إلى سوق السمك دون شيء».

ضرب مخلوف بعصاه الرفيعة على ساقه الممتدة فوق التراب وقال: «الأرض كبيرة جدًا وتسعنا جميعًا».

ثار زاكن، وترك مقعده وأمسك مخلوف من ملابسه المهترئة وقال: «ستضيع الأرض بالكامل لو تدخل عامير في الأمر، وجون هذا أبله لا يعرف مصلحته، لا بد من منعه».

قام بنيامين من مكانه وأمسك مخلوف في غضب: «ما شأنك أنت بكل ما يحدث، ما لك أنت وما لجون؟»

أبعده زاكن قائلًا: «لا أريد شجارًا، وإلا أضعنا كل شيء».

قام مخلوف قاصدًا أن يخنق بنيامين كما خنقه: «شأني أني يهودي مثلكم، كما أنني كنت أقرب صديق لجـون الذي تريدون قتله بسهولة».

أسرعت ملاذ وأمسكت مخلوف، قالت: «لا تغضب، إننا نفعل هذا لمصلحتك».

هدأ مخلوف، أخذ يلهث في غضب، وبنيامين يتابع ملاذ التي تحايل رجلًا غريبًا وتبحث عن مصلحته وتتركه هو – زوجها - دون اهتمام.

صاح زاكن: «لا تضيعوا وقتي، لقد تركت أعمالي وجئت معكم، ولن أستطيع أن أترك مصالحي لمدة أطول من ذلك. الحل هو موت جون، وسيطرة رزق على المرأة العجوز الهادية ولا بد أن يتم هذا خلال أيام قلائل».

عاد زاكن إلى البيت الذي كان يجلس مع مخلوف وبنيامين وملاذ خلفه. كانت المرأة وحدها في البيت، فقد أرسل زاكن زوجها إلى السوق لشراء طعام لضيوفه، وعندما تلكأ ابنه الشاب، صرخ فيه وأمره بأن يذهب مع والده ليساعده في حمل الأشياء الثقيلة: «أتريد أن يحمل رجل عجوز مثل هذا كل الأشياء وحده؟!»

تردد الشاب قليلًا، ثم اضطر أن يذهب مع والده وهو ينظر خلفه من وقتٍ لآخر.

كانت المرأة الشابة ترتدي جلبابًا جديدًا، وتعقد رأسها بربطة حمراء مطرزة. عندما رأته ابتسمت. قالت: «أبعدت الرجل وابنه ثانية؟»

أسرع زاكن وأغلق الباب.

* * *

كان لا بد للهادية أن تنفرد بالولد رزق في مكان أمين ومريح، بعيدًا عن بيوت هذه الضاحية التي لا ترتاح فيها. قالت له: «لماذا لم تستجب لي عندما جئتك في شقتنا؟»

- إنني نادم على ذلك أشد الندم.

- ما رأيك لو ذهبنا إلى سوق السمك. نقضي وقتًا هناك على راحتنا.

- وكيف سنذهب إلى هناك؟

- سأتسلل بعيدًا عن الجميع، وتأتين خلفي، ونتقابل أمام البيت الذي كان زاكن وأمك ينتظراننا فيه.

- لن نجد طريقة نذهب بها إلى سوق السمك.

ثم قام فجأة وقال: «سأحدث سائق عربة زاكن، فهو نائم داخلها».

صاحت به وهو مسرع إلى الطريق: «لا تُدخل زاكن في حكايتنا».

لكنه أسرع وابتعد عن عينيها، ظلت وحيدة تفكر، إنها في أشد الحاجة إلى ذلك الولد، هي لا تريد سواه الآن. وتحس أن زاكن له صلة بكل ما يحدث معها، لكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها. إنها في صراع، تريد أن تقاوم هذه المؤامرة التي خطط زاكن لها، ولا تدري ما يريده بها، لكن رغبتها إلى رزق أقوى من كل شيء. ستقابله ولو كان الثمن قتلها.

قائد عربة زاكن يلوح بكرباجه للهادية لكي تأتي. ترددت المرأة بعض الوقت، ثم ذهبت في طريقها إلى العربة.

قائد العربة لم ينتظر حتى تأتيه الأوامر من سيده زاكن، فقد أمره من قبل؛ بأن العربة تحت أمر ملاذ وابنها رزق، وعليه أن يستجيب لطلباتهما في أي وقت. ذلك أكد للهادية أن زاكن له صلة بكل ما يحدث بينها وبين الولد رزق، لكنها لم تستطع العودة، سارت في خطوات بطيئة، كان رزق يقف أمام العربة المكشوفة، ساعدها لكي تجلس في الداخل، وجلس بجوارها، بينما أسرع القائد بضرب الحصان، حتى صهل وانطلق، شد رزق الهادية إليه، فنامت في صدره العريض، تذكرت بنيامين عندما كان يضمها لصدره هكذا. قال رزق: «لا أدري كيف كنت أعيش بدونك».

توقف أهل الضاحية مندهشين لما يرونه. صبي يضم امرأة في عمر أمه، والمرأة تنظر إليه في وله. لا يمكن أن تكون العلاقة بينهما علاقة بريئة، فكل شيء على عينك يا تاجر.

نظر قائد العربة خلفه، فرأى هذا الصبي يحتضن تلك المرأة المتصابية، فابتسم ولم يعلق، فزاكن أوصاه بإطاعتهما وتحقيق كل ما يطلبان، وزاكن لا يرحم، من الممكن أن يضربه بكرباجه إن لم يحقق ما يريد وينفذ أوامره. يعرف القائد أن هناك مؤامرة تحاك ضد هذه المرأة، هو ليس يهودي؛ فزاكن لا يهمه أن يكون كل

عماله وموظفيه من اليهود كعامير ودوف وغيرهما من كبار أغنياء اليهود في مصر. زاكن لا يهتم إلا بنفسه. ردد قائد العربة في نفسه: «هؤلاء اليهود لهم أشياء غريبة، تدعو للجنون».

قال رزق: «لا بد أن نتخلص من جـون لتكوني لي وحدي».

دفعته عنها في ضيق: «ماذا تقول؟! مَن أمرك بأن تقول لي هذا؟»

شدها إليه غير مبالٍ بالمارة الذين ينظرون بدهشة إلى ذلك المشهد الغريب: «قلبي هو الذي أمرني بذلك».

هدأت حدتها وقالت: «رزق، سأغضب منك، قل لي، مَن أمرك بهذا، زاكن أم بنيامين؟»

إنني أبحث عن مصلحتك. لا بد أن تتغيري بعد أن أرسل الرب إليكِ كل هذه الأرض. أستظلين تبحثين عن الشباب الصغير.

رزق، سأغضب منك لو تحدثت في هذا.

إنني صادق معكِ، جون يحول بينكِ وبين السعادة. لو مات سنتزوج، وحينذاك ستكونين لي وحدي.

لست بلهاء. هذه مؤامرة تحاك ضد جـــون، واختاروك لها؛ لأنهم يعلمون أنني أحبك وأريدك.

هذه حقيقة، فجـــون يريد أن يوزع أرضه على فقراء اليهود دون مقابل، لن يتبقى لكِ شيء. ستعودين بعد

شهور قليلة إلى سوق السمك دون شيء، وستعودين إلى عملكِ في المستشفى كما كنت.

شردت: «حتى عملي في المستشفى لن أطوله، فقد قدمت استقالتي». تركته يشد جسدها الضامر إليه، ويضمها في عنف، أغمضت عينيها ونامت في كنفه إلى أن وصلت العربة إلى سوق السمك.

اندهش اليهود الباقون في سوق السمك لعودة الهادية، لكن عندما رأوا رزق معها، أحسوا بما جاءت من أجله. فمصمصوا شفاههم ولم يواجهوها. لو لم تأتها الثروة فجأة لنددوا بها، وواجهوها باتهاماتهم.

لم تستطع الانتظار حتى تفتح شقتها وتدخل فيها، شدت الولد رزق إليها فوق سلالم البيت وقبلته في عنف حتى أدمت شفته السفلى، جعلت الدم يسيل منها. كان يفتح الباب وهي تلتصق بجسده. قال في الداخل: «لابد أن نتخلص من جون».

- كيف؟

- كنتِ تعملين في المستشفى، وتعرفين طريق السموم.

أحسّت بالانتشاء، فشدت الولد القوي إليها، أحسّ الولد أنه مقيد إلى جسدها بعد أن شبكت ساقيها خلف ظهره، قالت: «أخشى أن تنتهي مهمتك معي بعد موت جون».

دفعها عنه، وارتخت كل أوصاله، فقد قالت المرأة الحقيقة، إنها تعرف كل ما يحدث حولها، لكن الرغبة

عندها تجعلها منساقة.

- لن أتركَكِ أبدًا يا الهادية. سنعيش معًا أنا وأنتِ وهارون صديقي.

ضحكت بصوتٍ مرتفع: «وماذا سيفعل هارون عندما يعلم أن أمه تنام في أحضان صديقه؟»

- لا تهتمي. فهارون سيقدر هذا، كما أننا سنتزوج بعد أن نجد طريقة للخلاص من جون.

يهود الطابية يودعون جون وزاكن

جلس مخلوف فوق «دِكّة»، تابع الفضاء المتسع أمامه، كل هذه الأرض ملك لجون. عامير لم يتخذ موقفًا لحماية جون، ولم يبدأ في مشاريعه، قال: «كل هذا سيتم بعد بناء بيت جون. من خلاله سنبدأ العمل». لكن زاكن كان الأسرع، اتخذ قراره وأقنع الجميع بضرورة التخلص من جون. ماذا يفعل مخلوف، هل يسافر إلى الإسكندرية ويخبر عامير بذلك؟! لكنه لن يجدي شيئًا؛ فعامير سيأخذ كل الأرض ويعطيها لفقراء اليهود في سوق السمك، بل سيأتي بيهود آخرين من كل مكان في العالم.

لا بد أن يصمت مخلوف.

جاءه خادم مقهى شنتاي الذي جاء مع القادمين إلى الطابية، واتخذ حجرة كبيرة من الطين التي تقع على الطريق؛ اتخذها مقهى، يجلس عليه اليهود الذين جاءوا طمعًا في كسب شيء من أرض جون الشاسعة الممنوحة من الوالي. دق خادم مقهى شنتاي فوق المائدة الصغيرة التي يضع مخلوف ذراعه فوقها، فصاح مخلوف في عصبية: أريد شايًا.

ابتعد خادم المقهى، وظل مخلوف وحده، الكل ابتعد عنه الآن، ملاذ تسير بمرافقة زاكن، لم تعد متفرغة له، وجون مشغول مع عامير، يخططان لبناء مدينة جديدة ليهود العالم كله. حتى الرسم الذي يحبه تخلى عنه الآن.

لم يعد يمسك الفرشاة، ولا يلمس الورق الذي يرسم عليه. لدى مخلوف إحساس يؤرقه بأنه لو أمسك الفرشاة، لن يستطيع أن يرسم شيئًا.

الولد رزق يسير برفقة الهادية، هكذا عيني عينك، يضحكان، ويتمايلان. لقد تمكن زاكن من إحكام خطته الجهنمية على الجميع، هو الذي كان ينوي الدفاع عن جون ضد المؤتمرين، صار واحدًا منهم، خوفًا من ألا يتبقى له شيء من الأرض، بعد أن يوزعها عامير على فقراء اليهود.

يسير جون مترنحًا كأنه يرقص بمساعدة ابنه هارون، وخلفهما عامير بك بقامته الطويلة وأناقته الملحوظة. لقد خرجوا من البيت الذي أوشك على انتهاء بنائه، وأسرع فرج بإحضار العربة ليعود به إلى الإسكندرية.

ومخلوف أمسك كوب الشاي الساخن، شعر بدموع ساخنة تداعب مقلتيه، إنه مكبل بقيود زاكن التي تحيط به من كل جانب، مثله مثل ملاذ وبنيامين ورزق والهادية التي استجابت للولد الصغير، لا، هي كانت على استعداد للتخلص من جون لتستريح من عنائه ومن وجوده بجوارها، ولم تكن ستسمح لعامير بأن يأخذ الأرض ليعطيها لباقي اليهود.

مسح مخلوف عينيه، وترك الشاي في كوبه، وسار بعيدًا باحثًا عن مكان يجلس فيه فلا يرى أي يهودي أمامه.

* * *

وقف هارون وجون أمام البيت، تابعا الأرض الشاسعة أمامهما، والهاديه ودعت الولد رزق وعادت إلى البيت. أسرعت لتساعد جون على الوقوف، فقد تخلى عنه ولده هارون حتى كاد يقع. قالت: «تعالَ لتدخل البيت».

قال جون سعيدًا: «اتفقت أنا وعامير على كل شيء».

ازدادت الهادية همًا، قالت: «ادخل لترتاح فوق فراشك».

- لا، أريد أن أجلس في الخارج لأتخيل الأرض وقد صارت مدينة لكل يهود العالم.

شعرت بالضيق، أرادت أن تدفعه عنها في عنف، وترميه فوق أرضه التي يريد أن يهبها لعامير ليحقق بها أحلامه، لكنها دقت الأرض في عصبية قائلة لابنها هارون: «أحضر إليه مقعدًا ليجلس».

لم تقف لتساعده إلى أن يعود هارون بالمقعد. ظلت واقفة في الحجرة التي انتهى البناءون من بنائها، وفرشتها الهادية بأغطية مؤقتة إلى أن ينتهي بناء البيت كله.

عاد هارون بعد أن ساعد جون في الجلوس على المقعد. قالت في عصبية: «هارون، أريدك في موضوع مهم».

جاء إليها دون قول. قالت: «جون يريد أن يُضيّع كل شيء».

- كيف؟

- يريد أن يهب الأرض لعامير، فيعطيها لكل يهود العالم.

- وهل تكفي هذه الأرض لكل يهود العالم؟!

- ليس هذا موضوعنا، المهم أن نمنعه.

- كيف؟

- حدثه، أثر عليه، هو يحبك.

- تحدثت معه كثيرًا في هذا الأمر. إنه فرح ليس من أجل امتلاكه للأرض، وإنما لأنه سيجمع كل اليهود حوله.

- أستتركه يفعل هذا؟

- إنها أرضه، وهو حر فيها.

قامت وصفعته في عنف: «إنها أرضك أنت، ولا بد أن تدافع عنها، أم تريد أن تعود إلى الفقر ثانية؟!»

وضع يده فوق وجهه، تحسس مكان الألم. أراد أن يبكي، ماذا يفعل لجون؟ أيجبره على فعل هذا بالقوة؟!

- ماذا تريدين مني أن أفعل؟

- لا بد من قتل جون.

أسرع إليها، أمسك طرف جلبابها، شدها في عنف: «كيف تقولين هذا؟»

- هذه الأرض ملك لك ولرزق.

ترك ملابسها وعاد إلى مكانه، ما شأن رزق فيما يحدث، فهارون وحده ابن جون مالك الأرض، وبنيامين ليس له بوصة واحدة فيها.

- ما يقولونه عن علاقتكِ برزق حقيقي؟

- دعك من هذه الأوهام، فكر في نفسك، لا بد أن تكون قويًا، سيد هذه المنطقة، ولن تكون هكذا وحدك، لا بد أن يساعدك رزق فهو صديقك.

- لا أستطيع أن أرى جون مقتولًا.

- لن تكون موجودًا في البيت حينذاك.

- لا، لن أسمح لكم بذلك، سأقتلكم جميعًا.

شدته إلى صدرها في حنان: «أنت لا تعرف زاكن، إنه قتّال قُتلة، ولو عارضته سيقتلك. اسمعني، لا أريد أن أفقدك.

- مهما حدث، لن تقتلوا جون.

بكى، ثم خرج من البيت ليبحث عن صديقه رزق.

* * *

قال رزق، عندما رأى هارون آتيا إليه: «إنني أبحث عنك».

- ماذا تريد مني؟

- سنذهب بعيدًا إلى آخر جزء في أرض جون؛ لنعرف حدودها، إنها أرضنا، قوتنا.

يعرف هارون أن رزق يريد أن يبعده عن المكان حتى يتمكنوا من قتل جون في غيابه، رغم هذا انساق وسار معه. لم يعترض أو يقاوم. كان يبكي طوال الوقت. لم يقدر سوى على البكاء. فهو ليس قويًا، حتى جسده جاء ضعيفًا، يكاد يكون مثل جسد جون؛ لذا يتمسك بصداقة رزق الذي يفوقه في كل شيء. لا يستطيع أن يعارض زاكن المشهور بشراسته، والذي يستطيع أن يقتل مَن يريد بنفسه، ولو صعب عليه هذا، يرسل رجاله لقتله.

سارا معًا مسرعين للبحث عن عربة تقلهما إلى آخر حدود أرض جون.

***

أسرعت الهادية إلى الخارج. كان جون ينظر إلى الفضاء البعيد، متمتمًا بكلمات غير مسموعة ولا مفهومة. قالت في دلال: «أستظل هكذا؟!»

- اجلسي بجواري.

- لا، أريد أن أتحدث معك في الداخل.

لم يعارض، لم يقل كلمة واحدة بعد ذلك، حاول الوقوف وحده فلم يستطع، فحملته من تحت إبطه وسارت به إلى الداخل. ساعدته لكي ينام فوق فراشه، ثم تأكدت من غلق الباب جيدًا، واقتربت منه، انحنت فوق وجهه، أحس بأنفاسها فوق وجهه الأملس المائل للاحمرار، ثم خلعت ملابسها عن آخرها. ابتسم الرجل، ورفع يده لأعلى، لمس ذراعها النحيلة، ربَّت ذراعها

مرات عديدة. قالت: «أنت سيدي، وسيد هذه الضاحية».

ضحك. ماذا تريد المرأة منه؟ لقد حاولت معه كثيرًا جدًا دون طائل. أتظن أن امتلاكه لهذه الأراضي الشاسعة قد جعله قادرًا على إتيانها؟!

- منذ زمن بعيد لم أرقص لك.

ازداد الرجل دهشة، إنها لم ترقص له منذ سنوات طويلة.. من قبل أن يولد الولد هارون. فما الذي ذكرها بذلك؟!

رقصت الهادية عارية، ثم حملت كوبًا فيه شراب، وقدمته له، فسألها بدهشة: «ما هذا؟»

قالت بدلال: «شراب أعددته لك لكي تقدر».

دفع جون الكوب بعيدًا: «لن أقدر. هكذا أراد عنان بن داود. وأنا لست حزينًا لذلك».

أحاطت رقبته بذراعها العارية، والكوب في يدها وقالت: «لكنني في حاجة إلى ذلك، اشرب هذا من أجلي».

أمسك الكوب في حماس، وحاول أن يعتدل فوق فراشه لكي يشربه: «سأشربه من أجلك».

دفعت الكوب إلى فمه، لم تتركه إلا بعد أن شرب آخر نقطة فيه. قال: «طعمه مر».

قالت بترقب: «هكذا هو ليعطيك القوة التي أريدها».

جلست فوق الكنبة المواجهة لفراشه، وتابعته إلى أن يموت.

تابعها من مكانه، ثم خبا ضوء عينيه قليلًا، وبهت لونه، وانشغل بما يحس به من آلام، فلم يعد يتابعها كما كان.

عندما تأكدت من موته، ارتدت ملابسها على مهل وهي تتابع جسده، ووجهه الذي كان ينظر إلى أسفل، وصرخت: «مات جون».

جاء مخلوف من مكانه، كان يبكي دون أن يراه أحد، واقتربت ملاذ وزوجها بنيامين، صرخت الهادية ثانية، قال بنيامين لملاذ: «ابحثي عن زاكن، لا بد أن يكون موجودًا الآن».

لم تجبه، سارت ناحية الهادية، فزاكن نائم في بيت الفلاحين بعد أن فرض نفسه عليهم، وسوف تأتي به ملاذ عندما تتأكد من موت جون.

دخلوا الحجرة التي ينام فيها جون. الرجل يبتسم، دهشت الهادية، فعندما أسلم الروح لم يكن يبتسم هكذا، وكيف يبتسم وهو يعاني من آلام السم الذي وضعته له في الكوب؟! إنه ولي ما في هذا شك.

أسرع اليهود الموجودون في الطابية لمشاهدة جسد جون، وتسللت ملاذ من وسط الجميع مسرعة إلى زاكن، بينما دخلت سرينة باكية من التأثر، وقالت: «يجب أن يعلم فرج بما حدث لكي يأتي بعامير بك».

تابعتها الهادية في ضيق، وقال بنيامين: «ليس هناك داعٍ لعامير بك، زاكن موجود هنا في الطابية، وسيقوم بكل شيء».

لكن سرينة أسرعت لتبحث عن فرج.

كان زاكن يلهث، فقد أسرع في الطريق، وملاذ خلفه، كانا يحملان جسديهما الثقيلين ويتحديان العناء لكي يلحقا بجون، فقد يأتي عامير فجأة ويفسد كل شيء. الآن لم يعد لعامير مكان، لن يستجيب له أحد، لا الهادية ولا هارون، حتى مخلوف تخلى عنه من أجل المال.

لم يستطع زاكن أن يتحدث إلا بعد أن التقط أنفاسه، فقد ظهر التعب على وجهه المكتنز، وملاذ تركته وأسرعت إلى وجه جون، فقد تكون الحياة عادت إليه في غيابها، وعندما وضعت يدها فوق وجهه، دفعتها الهادية في عنف. قال زاكن: «كان يهوديًا مخلصًا».

قالت الهادية: «سيدفن في هذه الأرض».

أومأ زاكن برأسه في أسى: «في مقدمة الأرض».

أشار زاكن للهادية بأن تتبعه، وعندما خرج من البيت تبعه بنيامين وملاذ ومخلوف. قبل أن ينطق زاكن بحرف واحد جاء هارون ورزق خلفه. ضحك زاكن سعيدًا: «الأرض لنا. لن يشاركنا فيها أحد».

أحس هارون بما حدث، فأسرع باكيا نحو البيت، أرادت الهادية أن تشده إليها وتمنعه من ترك الاجتماع

الهام، لكن زاكن شدها إليه، قائلًا: «دعيه، فسوف يهدأ بعد لحظات قصار».

***

جاء عامير برفقة فرج وسرينة، أسرعوا إلى البيت. كان جون وحده في الحجرة مستلقيًا فوق فراشه، ناظرًا إلى سقف الحجرة. تابعه عامير في أسى، تنهد بصوتٍ مسموعٍ، حكت سرينة عن هذا ليهود سوق السمك قائلة إن تنهيدته يمكن أن تحرق المنطقة بما فيها، وفجأة امتلأت الحجرة، دخل زاكن متحديًا وخلفه بنيامين ومخلوف وملاذ، ووقفت الهادية في أول الحجرة غير قادرة على النظر إلى عامير. تعرف أنه على علم بما حدث.

ظل هارون مع رزق خارج الحجرة.

قال عامير: «سيُدفن هنا. إنه أول يهودي يُدفن في هذه المنطقة».

دخل هارون باكيًا: «أريد أن أدفنه في هذه الحجرة، كما هو».

دهشوا من حديثه. كيف يُدفن داخل البيت؟! رددت سرينة وهي تقبّل وجهه المبتسم: «إنه ولي».

جاءت الفكرة لزاكن. صاح: «حقًا.. لقد كان وليًا، فلماذا لا يكون هذا البيت ضريحًا له».

سارت الهادية في خطوات بطيئة، تابعت وجه جون، لم تعلق، أصوات كثيرة جدًا تصايحت: «هذه فكرة

صائبة».

تابع عامير ما يحدث، وتنهد بصوتٍ مرتفع، ثم دقَّ عصاه فوق أرض الحجرة، وعاد إلى عربته، ولحق به فرج ليعودوا إلى الإسكندرية.

كان مخلوف حزينًا لقتل جون، فبكى من شدة التأثر، ومزق قميصه الواسع المفتوح والذي يطير مع دفعات الهواء في الأرض الخالية الممتدة أمامه هو وملاذ. أمسكت ملاذ صدره العاري وقالت: «إنها مصلحتنا جميعًا».

- أعرف، لكن جون المسكين كان الضحية.

- لقد ضحى من أجلنا جميعًا. موته سيبعد عامير، وسنتحكم في كل شيء أنا وأنت وبنيامين والهادية.

- وابنكِ رزق الذي تهواه المرأة المتصابية.

- رزق ما زال طفلًا، ولن يستطيع فعل شيء دون مشورتنا.

كان مخلوف وملاذ يسيران في طريقهما إلى بيت الرجل العجوز الذي يقيم زاكن عنده منذ جاء إلى أرض الطابية، عندما اقتربا أكثر من البيت سمعا صراخًا عاليًا، فسارا إلى البيت مسرعين. كانت زوجة الرجل العجوز الشابة تصرخ، وهي نصف عارية. قالت ملاذ في جزع: «أخشى أن يكون زاكن قد قتل الرجل العجوز ليأخذ زوجته منه، فقد كان يفكر في ذلك».

جرى مخلوف بجسده الثقيل فوق الأرض الوعرة وهو يقول: «يفعلها زاكن».

عندما رأتهما المرأة ازداد صراخها، وقالت: «لقد قتله، إنه في الداخل».

قالت ملاذ: «فعلها زاكن».

في الداخل كان الرجل العجوز يخنق ابنه الشاب وهو يبكي: «ضيعت نفسك، ضيعت نفسك».

وزاكن ملقى على الأرض بجسده الكبير، وقد شُجَّ رأسه، والدماء تسيل على الحصير، والفأس بجواره.

لقد عاد الشاب من السوق قبل موعده، تصرفات زاكن مع زوجة أبيه تقلقه. الرجل يكثر من مداعبتها، ويصر على أن يذهب الشاب مع والده لشراء الأشياء له، فأحس أن في الأمر شيئًا غريبًا. قال لوالده في السوق إنه سيذهب لمقابلة صديق له، وسيذهب بعدها إلى البيت، لكنه أسرع إلى البيت، فسمع صوت زوجة أبيه تضحك. دخل من الباب الخلفي الذي لا يعرف زاكن طريقه، رآه نائمًا بجسده العاري فوق زوجة أبيه، فشق رأسه بالفأس، وتابع زوجة أبيه دون قول، لم يفكر في قتلها، فأسرعت إلى الخارج، حتى لو ظلت في البيت ما كان قتلها، الذي يستحق القتل هذا اليهودي الداعر الذي يسب أباه أمامه ويسخر منهما أمام زوجة أبيه الشابة.

عندما عاد الرجل حاملًا ما اشتراه فوق الحمار، رأى زوجته تصرخ في الخارج. بيته وحيد في هذه المنطقة،

بعيد عن العزبة والسوق، فلم يحس أحد بما حدث. المشكلة أن هذين اليهوديين – مخلوف وملاذ - جاءا وشاهدا زاكن مقتولًا، وسيبلغان السلطات الآن، وسيأتون بعد قليل للقبض على الشاب.

أهالي عزبة جون

بعد انتهاء بناء بيت جون، وقفت الهادية وسط صحن البيت، وابنها هارون وصديقه رزق بجوارها، وقفوا يتأملون الجدار المرتفع، والشرفة الداخلية فيه، ضحكت الهادية ضحكتها العالية الطويلة، أمسكت يد الولد رزق، داعبت راحة يده بسبابتها في خلاعة غير مبالية بوجود ابنها هارون.

لقد مات جون مسمومًا، قتلته الهادية بالسم الذي جاءت به من المستشفى التي كانت تعمل فيه، وقُتل زاكن بيد الفلاح؛ دفاعًا عن شرف أبيه، وفرج مشغول بعمله مع عامير، لا يأتي إلى عزبة جون إلا برفقته، حتى عامير نفسه ضاق بما يحدث هنا، أحس بأن ما فعله زاكن والذي أدى إلى قتله، قد يؤثر على مكانته، ويقلل من شأنه لدى الحكام أصدقائه، فلم يعد يبدي اهتمامًا. لم يتبقَّ سوى بنيامين، إنه أقوى رجل في المنطقة الآن.

جاء العمدة من قرية المعدية - التابعة لها الطابية – لقد رأته الهادية من قبل، كان مع الذين قبضوا على الشاب الذي قتل زاكن. كان معه عدد من الرجال يرتدون ملابس غالية الثمن مثله. جاءوا ليسألوا عن زعيم اليهود في عزبة جون. هذا ضروري لكي يعرفوا الذي سيتعاملون معه في شتى أمور العزبة. قالت الهادية: «ابني هارون هو كبير اليهود الآن، فكل هذه الأرض ملكه».

لم يعلق هارون بشيء، كان خائفًا من المسئولية التي تريد أمه أن ترميها عليه وتكبله بها، لكنه لم يرفض، فحتمًا ستساعده الهادية، وسيساعده رزق صديقه.

نظر العمدة إلى هارون باستخفاف، جلسوا في صحن الدار الكبير، قدمت الهادية القهوة إلى الجميع. قبل أن يرشفوا نقطة واحدة منها، وجدوا بنيامين بقامته المديدة يدخل لاهثًا، قال: «أنا زعيم اليهود في هذه المنطقة، وإذا أردتم شيئًا فلترجعوا إليّ».

أحس العمدة بالارتياح، فبنيامين يملأ العين بجسده الممتلئ وطوله الباسق، بينما هارون ما زال صبيًا لا يفقه من أمور الدنيا شيئًا، كما أنه «سفروت»، قصير وجسده نحيف، لكن الهادية دفعت صدر بنيامين حتى كادت توقعه على الأرض: «ابتعد عنا، لا شأن لك بنا».

استعاد بنيامين نفسه، وشد قامته وهجم على الهادية غير مبالٍ بالجميع، لا العمدة ورجاله، ولا هارون ابنها، ولا رزق ابنه: «تدفعينني يا عاهرة؟!»

هبّ هارون من مكانه، أمسك يده التي تشد ملابس الهادية، وشدها إليه: «دعها، دعها».

وقف العمدة حائرًا، وغاضبًا في نفس الوقت لأنهم لم يحترموا وجوده: «لقد سببنا لكم المشاكل».

ما الذي يحدث، لقد كانت منطقة الطابية هادئة، لكن حضور اليهود إليها غيّر كل شيء فيها. حدثت جريمة قتل لم تسمع مديرية البحيرة كلها بمثلها، والآن

يتشاجرون في حضرة العمدة ورجاله، كبار رجال المنطقة.

يعرف العمدة أن الوالي الذي مات قد أهدى هذه الأرض ليهودي منهم. معنى هذا أن الوالي كان يعرفهم ويجالسهم، وقد يشكون للوالي الجديد، فيكون في هذا هلاكه، وهلاك أسرته، فالوالي الجديد لا يرحم.

أسرع رزق لمنع هارون من ضرب أبيه: «دعه يا هارون، إنه أبي».

بنيامين ليس ضعيفًا، ويمكنه أن يصرع عشرة من أمثال هارون هذا، لكنه لا يريد أن يخسره، فالولد يمتلك كل شيء بعد موت جون.

كاد بنيامين يصيح في هارون ويخبره بأنه والده، وليس جون الأبله الذي مات. معظم اليهود يعرفون هذا، لكن العمدة ورجاله سيدهشون من قوله، ولن يؤدي تصرفه هذا إلا إلى استخفاف الناس به، فليصبر وينتظر حتى يأتي الوقت المناسب ليفجر قنبلته. دفع يدي هارون في عنف وجلس يلهث غاضبًا، وضحك العمدة واعدًا بإعادة الزيارة في القريب، فأهالي قريته قد أنابوه عنهم ليستأجر أرضًا من عزبة جون؛ ليزرعوها.

بعد أن خرج العمدة ورجاله، وقفت الهادية، صاحت بادئة بالهجوم لأنها تعلم أن بنيامين سيهاجمها ويهاجم ابنها هارون، قالت: «بنيامين، اخرج من بيتي».

- إنه ليس بيتكِ يا الهادية، هو بيت جون ابن عمي.

كان رزق في حيرة بين أبيه وصديقه، والهادية التي صارت قريبة منه الآن، تعامله - رغم صغر سنه - كزوج لها، تسير معه وسط أراضي اليهود، وتضحك، وتضمه إليها. بنيامين صار عقبة في طريق رزق. إنه يفسد عليه كل مخططاته؛ أن يكون شريكًا لهارون والهادية في كل ما آل إليهما من أرض ومال، وأن يكون رزق زعيمًا ليهود الطابية، وبالتالي يهود سوق السمك أيضًا؛ فهو قادر على هذا، لما يمتاز به من خشونة وذكاء يفوقان خشونة وذكاء هارون؛ الوريث الأول لأرض جون. اقترب رزق من بنيامين وهمس في أذنه: «أحلفك بالرب، اذهب الآن ولا تفسد جلستنا».

تابعه بنيامين في أسى. إنه ابنه من ملاذ، وهارون ابنه أيضًا من الهادية، لكنّ الاثنين لا يعاملانه كأب. الاثنان يريدان أخذ كل شيء وتركه دون شيء.

سار بنيامين وهو ينظر إلى الجمع المحتشد من وقت لآخر. ذهب إلى بيته الذي بناه بجوار بيت جون، إنه يعيش فيه وحده، الكل هجره. ملاذ تأتي إلى البيت أحيانًا، لكنها لا تخالطه ولا تعامله، لقد امتنعت عن إعداد الطعام له منذ زمن بعيد. تذهب إلى سوق السمك وتغيب هناك، أو تزور صديقاتها في عزبة جون، وبنيامين لم يعد يريد رؤيتها، ورزق يتحرك أمامه في العزبة. يراه يخرج من بيت الهادية، أو يدخل فيه، فينظر كل منهما إلى الآخر دون اهتمام كأنهما غريبان، والولد الآخر ساهر - الابن التالي لرزق - احتل دكان

الحلاقة، يديره الآن بمهارة، ويرفض أن يحضر إلى عزبة جون. أخذ إخوته الصغار وأبقاهم في البيت، لم يسمح لهم بالذهاب مع أمهم إلى عزبة جون، وقام بعمل لوازم البيت بنفسه لكيلا يحتاج إلى ملاذ. هو غير راضٍ عن بنيامين، ولا ملاذ، ولا رزق، يراهم شياطين يتحركون أمامه، يقول لكل مَن يلقاه من اليهود الذين يعرفونه: «بنيامين يفعل أي شيء، ولا يستحي من شيء».

يذهب ساهر يوم السبت إلى معبد زرأديل القريب من الدكان، يصلي هناك، ويقابل الحاخام، يقفان طويلًا، يتحدثان. حتى أمه ضاق بحضورها إلى البيت، قال لها دون حياء: «لا نريد حضورك، لم نعد في حاجة إلى خدماتك».

يعرف الولد أنها تأتي من أجل مخلوف الرسام، تظل في حجرته المظلمة بالساعات، لا يسمع الأطفال من خلال الباب المغلق سوى ضحكاتها وهمهمات لا يعرفون معناها.

اشتكى الولد ساهر لحاخام المعبد من أمه، وأبيه، وأخيه رزق، الذي يعيش «عيني عينك» مع الهادية العجوز، متمتعًا من غناها.

لا بد أن ينهي بنيامين هذه المهزلة. سوف يعلن أمام الجميع أن هارون – مالك هذه الأرض الآن - هو ابنه من الهادية، وإنما نسبته الهادية إلى جون زورًا وبهتانًا.

لكنَّ ذلك سيجعله يخسر الكثيرين الذين يتعاطفون مع هارون؛ رزق ابنه، والهادية، وغيرهما، ليس مهمًا أن يخسرهم، فالهادية تكرهه منذ سنوات طوال، كما أنه خسر ابنه منذ أن اتفق مع زاكن وزوجته ملاذ على أن يقترب رزق من الهادية، ويستغل حبها الشديد للصبية، وميلها لرزق بالأخص، بعدها لم يعد رزق تابعًا له. لم يتبق بعد ذلك سوى أهل عزبة جون الذين سيتعاطفون مع الولد هارون الذي يحسن معاملتهم، ويعطف عليهم، ويترك لهم أرضه التي ورثها عن جون. ليس مهمًا، المهم أن يعلم الجميع أن مالك كل هذه الأرض هو ابنه من صلبه.

كان من الممكن أن يفعل بنيامين هذا وقت أن جاء العمدة ليتفق على تأجير بعض فدادين من عزبة جون إلى الفلاحين التابعين لعموديته، لكنه خاف من الهادية، واستجاب لتوسل ابنه رزق بألا يفسد جلستهم. ليس مهمًا. فهناك فرصة أكبر وأهم اقترب موعدها، سيجتمع فيها معظم يهود عزبة جون وسوق السمك، هي مولد جون.

* * *

يبدأ الاحتفال بمولد جون من 26 ديسمبر وحتى 2 يناير من العام التالي، يُقام الاحتفال في الأرض الواسعة أمام الضريح والمقابر القليلة حوله، فقد دُفن زاكن قريبًا من الضريح، وإلى جواره قبران لمسنين ماتا بعد أن انتقلا من سوق السمك بوقتٍ قليل.

وصل دوف من القاهرة قبل الاحتفال بأربعة أيام، وكان عامير في انتظاره بعربته التي يقودها فرج. أصر عامير على أن يذهبوا – في الأول – إلى قصره بوسط البلد، وينتقلوا من هناك إلى عزبة جون بعرباته لدراسة الاستعداد للاحتفال الكبير الذي سيُقام هناك. قال عامير لدوف: «لقد دعوت العديد من يهود أوربا، قابلتهم في زيارتي الأخيرة هناك، وسوف يأتون خلال أيام قليلة».

أكد دوف أهمية ذلك، وقال: «لا بد أن يكون ضريح جون مزارًا عالميًا ليهود العالم كافة».

ثم ساروا، دوف وعامير في المقدمة، وخلفهما فرج وزوجته سرينة، لم يكن بنيامين، وابنه رزق، وهارون، وأمه الهادية قد أحسوا بحضور دوف وعامير، ومخلوف يفضل البقاء في سوق السمك. منذ أن اشترك في مؤامرة قتل جون وهو زاهد في كل شيء، لا همَّ له إلا جسد ملاذ - التي تُكثر من مرافقته - وشرب الخمر والرسم. يرسم الآن أشياء غريبة، جون في صورة ملاك بجناحين، ويرسم زاكن – الذي خدعه وجعله يوافق على القتل – كشيطان بنابين كبيرين، وعينين تشعان نارًا.

وقف دوف وعامير أمام الضريح، وهو مبنى قديم، من الطوب النيء، يتوسط جبلًا ترابيًا لا يزيد ارتفاعه على مترين، إلى جواره تبرز المقابر القليلة، وللضريح مدخل؛ عبارة عن طريق يشق شونة التخزين الخاصة

بالقرية، تدخل منه عربات الضيوف، وتوجد سلالم توصل إلى قمة الجبل.

قبل الاحتفال يتم إخلاء الجزء الأكبر من الشونة ليُقام مكانها الصوان الذي يقضي فيه اليهود باقي احتفالاتهم.

قال دوف: «لا بد أن يُعيَّن خادم للضريح يقوم بتنظيفه والعناية به».

أومأ عامير برأسه، وشد فرج من ذراعه، وأمره باختيار شاب يهودي يصلح لهذا، ثم ساروا ناحية المقابر القليلة، قرأ دوف اسم زاكن على شاهد قبره، وتمتم بكلمات غير مسموعة، فهو يعرف زاكن وما كان يفعله من موبقات، ولمس عامير شاهد القبر المرتفع.

أشرف عامير على كل شيء، وأمر فرج بأن يتفق مع مؤجر مقاعد ليرصها أمام الضريح، وأن تُشد الأغطية فوق الأرض الواسعة أمام الضريح، فقد تمطر السماء وقت الاحتفال؛ خاصة أن الإسكندرية عرضة لنوات ممطرة في هذه الفترة.

قبل الاحتفال بيومين جاءت عربة عامير يقودها فرج، وعربات أخرى كثيرة، هبط دوف في الأول بمعاونة فرج الذي أمسك بيده حانيًا ظهره، ثم تبعه عامير الذي قفز من العربة في خفة. كان في العربات الأخرى كبار يهود الإسكندرية والقاهرة، وعدد قليل من اليهود الأوزبيين الذين لبوا دعوة عامير، وجاءوا لزيارة

ضريح جون. تفقدوا المنطقة باهتمام، وتابعهم أهل المنطقة بدهشة، ما الذي جاء بهؤلاء الأجانب إلى هذه الأرض الهادئة التي لم يسبق أن رأت أجنبيًا؟! هؤلاء اليهود أتوا بأشياء غريبة لم تعهدها المنطقة.

وجاء يوم الاحتفال - الليلة الكبيرة لمولد جون - حضر في هذه الليلة أكثر من مائة وستين يهوديًا من سوق السمك، ومن القاهرة، وطنطا، وباقي مديريات مصر، هذا غير اليهود الذين جاءوا من أوربا..

في تمام الساعة السابعة مساءً، كانت أعداد كبيرة من اليهود بطواقيهم الشهيرة يقفون أمام باب الضريح انتظارًا لشيءٍ ما، ربما لفتح الباب، يتقدمهم رجل في زي الأحبار يقولون إن اسمه حبقوق، وإنه جاء لحضور هذا الاحتفال، ويأتي أحيانًا في غير مواعيد الاحتفال حتى عرفه أهل المنطقة هناك.

لم تحضر ملاذ هذا الاحتفال، فقد ذهبت إلى سوق السمك لمقابلة مخلوف، وجدته في حالة صعبة، ينام فوق سريره، والحجرة مظلمة، نافذتها الوحيدة التي تطل على المنور مغلقة، وهو ممسك بقنينة الخمر من رأسها، كاشفًا عن بطنه، وفانلته الداخلية مرفوعة لأعلى، لا تغطي سوى جزءٍ من صدره. حاولت أن تأخذه معها لحضور احتفال مولد جون. قالت: «حضور الاحتفال مهم جدًا، فسوف يحضر دوف من القاهرة، وعامير وكبار اليهود».

لكن مخلوف لم يتحرك، كان يبكي ويردد كلمات غريبة، يتحدث عن الرب الذي تخلى عن جون رغم حبه له، وعن زاكن الذي يرافق مخلوف في حجرته الحقيرة، وينام بجواره على هذا السرير الصغير، يشغل المكان كله، فيقع مخلوف على الأرض. قالت: «زاكن مات، قتله الفلاح الشاب».

- لا، زاكن باقٍ، يرافقني في كل شيء، في شرابي وطعامي.

- بنيامين سيستغل عدم حضورنا ويأخذ كل شيء.

قال وهو يتابع جسد ملاذ الممتلئ: «سيكون زاكن موجودًا، وسيفسد كل شيء».

- مات زاكن منذ زمن.

- لا، إنه موجود هنا في سوق السمك، وفي الطابية، وفي كل مكان يعيش فيه اليهود.

حاولت حمله وإدخاله دورة المياه ليفيق، لكن الولد ساهر تصدى لها، واتهمها بالفجور، وحاول أن يضربها، بينما باقي الأطفال يتابعون ما يحدث، في دهشة. بكت ليلتها وشقت ثوبها من صدره حتى آخره، ولطمت خديها، إنها فقدت كل شيء.. بنيامين، ورزق الذي تنكر لها الآن، وأصبح زوجًا - دون توثيق - للهادية، ومخلوف الذي ظنته سيسعدها؛ لكن قتل جون أفقده عقله.

ظلت برفقة مخلوف، ليلتها نامت فوق صدره، كان تائهًا، يتصرف معها بالغريزة، كأنه حيوان يسعى إلى المتعة دون تعقل، والولد ساهر في الخارج يصيح بصوت يسمعه الجيران في سوق السمك: «الفاجرة تنام في أحضان عشيقها بالداخل».

قالت لمخلوف: «صوت ساهر وصل حتمًا لآذان الحاخامات في معبد زرأديل القريب».

- الكل منشغل بحضور الليلة الكبيرة لمولد جون بالطابية.

- لن نستطيع حضور الاحتفال فقد تأخر الوقت، والطريق طويل وصعب.

تابع الجميع خطبة دوف أمام ضريح جون، وخطبة عامير، وخطبة الحاخام حبقوق، وافتقد بنيامين زوجته ملاذ وعشيقها مخلوف. إنها تريد أن تحرجه وسط يهود العالم؛ لتشعرهم بأنها تترك زوجها وتركن في حجرة رجل غريب.

قال عامير: «سنبدأ مزادًا الآن، لمَن يفتتح الضريح، وستذهب أموال المزاد لإقامة مبانٍ لفقراء اليهود في الإسكندرية كلها».

وقف دوف وبدأ المزاد بمائة جنيه مصري، لكنْ يهوديًا من طنطا، رفع المزاد إلى مائة وعشرين جنيهًا، ووقف يهودي جاء من أمريكا، تحدث بالإنجليزية، فوقف عامير وقال: «لقد عرض 500 دولار أمريكي».

انتهى المزاد بثلاثة آلاف جنيه مصري، دفعها يهودي من القاهرة، صفق الجميع له، ثم وقف وخلفه دوف وعامير والحاخام حبقوق وهارون والهادية التي زاحمت الجميع، حتى الضيوف الذين جاءوا من أمريكا وأوربا. - أمسك اليهودي القاهري الذي رسا عليه المزاد باب الضريح، ودفعه في رفق، فاندفع الباب، وصفّق الجميع، ثم وقفوا كلهم في خشوع أمام قبر جون المغطى بقماش حرير أخضر اللون، والمحاط بحديد متشابك، مثله مثل أضرحة المسلمين، ثم أعلن دوف عن بداية المزاد الثاني، وهو عن سعيد الحظ الذي سيفوز بإشعال أول شمعة على قبر جون.

رسا المزاد على يهودي جاء من طنطا، صفق الجميع له وهو يشعل الشمعة.

كانت الأضواء زاعقة، رغم هذا خرجت المجموعات بالشموع وبدأوا إشعالها، ثم اندفعوا إلى رقص جماعي هستيري على موسيقى صاخبة، ثم سرعان ما تحولوا إلى بكاء ونحيب شديدين، ثم هرع بعض الموجودين إلى حيث يرقد جون، وتمسحوا به مدّعين أن فيه الشفاء، ثم نزلوا إلى الساحة وجلسوا وقد تبدل حالهم فجأة من الرقص والغناء إلى البكاء والعويل، ثم إلى الرقص والغناء ثانية، والعودة للجلوس إلى مقاعدهم مرة ثانية، ثم بدأوا في تناول الطعام والشراب بطريقة منظمة.

وتداخلت ليلتهم بين الرقص والبكاء والغناء والعويل والصمت والجلبة والصخب. لكنهم يأكلون ويشربون طعامًا وخمورًا معدة خصيصًا للاحتفال، أحضروها معهم للحفل. كانت عربة فرج ممتلئة بزجاجات الخمر، التي يأتي عامير بها من الخارج، كما أن دوف ساهم في هذا الاحتفال بكمية كبيرة من الخمر والمأكولات.

توصل بنيامين – أخيرًا – إلى أن عدم حضور مخلوف وملاذ فيه خير له، فملاذ تعمل لغير صالحه، وحتمًا ستفسد كل مخططاته، وسار وسط الموائد، تابع الهادية التي تجلس بجوار رزق ويحيطها بذراعه، وهارون يتحدث معهما وكأن شيئًا لم يحدث، لقد اقتنع هارون وارتاح باله بأن الهادية هي زوجة صديقه، حقًا هما لم يعقدا قرانًا في معبد يهودي، لكن الجميع يعلمون أنهما زوجان، فما الذي يشغله، أو يؤرقه؟!

ضحك بنيامين ساخرًا من رؤيتهم، ثم سار إلى أن وصل إلى مائدة عامير ودوف والحاخام حبقوق، كان معهم بعض الضيوف. رفع بنيامين يده محييًا، ثم أمسك بقنينة خمر كبيرة، وبالمزة، وسار بهما إلى المائدة التي كان يجلس إليها وحده، شرب وأكل المزات التي لم يذقها من قبل، إنها من أغنى يهود مصر والعالم. بنيامين كاليتيم الآن بعد أن تركته ملاذ ومات زاكن، لقد كان أستاذه الذي يرسم له الطريق.

تجلس سرينة مع زوجها فرج وبعض يهود العزبة أمام مائدة، أشارت سرينة إلى بنيامين، قالت لزوجها:

«صعبان عليّ، لقد صار ضعيفًا بعد أن هجرته ملاذ».

قالت امرأة أخرى لفرج: «ليتك تذهب وتدعوه ليجلس بيننا».

قام فرج إليه: «بنيامين تعالَ، اجلس معنا».

دفعه بيده التي تمسك القنينة: «إنني سعيد بوحدتي».

أمسك فرج ذراعه: «هيا معي».

- ابتعد يا فرج، فسوف أحدث دويًا هائلًا أعنف من مدافع الوالي سعيد التي اشتراها من أوربا.

- لكن سعيد مات، وخلفه إسماعيل الآن.

- وكيف يُنسى سعيد؟! لقد أعطانا هذه الأرض لننعم بها.

عاد فرج إلى المائدة التي كان يجلس إليها، قال وهو يضحك: «لقد سكر بنيامين».

نظر الجميع ناحيته، وقد رفع قنينته عاليًا، وصاح: «اشربوا في صحة جون الذي كان سببًا في اجتماعنا هذا».

ضحكت الهادية وقالت لرزق: «أبوك سيجن لفراق أمك ملاذ».

ضحك رزق وهارون. رآهما بنيامين من مكانه، فجلس حزينًا، ثم وقف ثانية، رفع ذراعه عاليًا وصاح: «الكل سيُدهش مما سأقوله الآن».

قال دوف لعامير: «هذا الرجل سيفسد احتفالنا بشكره».

كان الضيوف الذين جاءوا من خارج البلاد يضحكون، سعداء برؤية ذلك السكير، لكن عامير وقف بجسده الرشيق، وأشار إلى فرج الذي ينظر من وقتٍ لآخر إليه، فربما يطلبه لقضاء شيء. أسرع فرج إليه، بينما تابعه كل مَن يجلس أمام مائدته، قال عامير: «ذلك الرجل سيفسد الحفل بأفعاله».

أسرع فرج إليه: «عامير بك غاضب لأفعالك».

وقف بنيامين، قبّل فرج وقال: «لا، كله إلا عامير، سأذهب إليه لأستسمحه».

شده فرج: «أرجوك لا أريد مشاكل».

- أية مشاكل يا صديقي، سوف أذهب إليه بنفسي لأشرح له وجهة نظري.

ووقف بنيامين، ذهب نحو مائدة دوف وعامير وحبقوق، حاول فرج إبعاده، لكنه لم يقدر. سار مترنحًا وسط الموائد، يكاد يقع على كل مائدة تقابله، يلتقط المزة ويأكلها، وفرج يحاول أن يسنده، وقف أمام مائدة دوف وعامير وحبقوق، انحنى أمامهم وقال: «إنني أحبكم، ولا يمكن أن أسبب لكم ضررًا».

ضحك الضيوف، وشعر دوف بالضيق، وأمسكه فرج من تحت إبطه وهمس في أذنه: «كفى يا بنيامين، كفى».

أمسك قنينة خمر أخرى، وسار بها خطوات، ثم صاح: «هذه الأرض ملكي أنا».

وقفت الهادية غاضبة، لكن هارون أجلسها، وقال رزق لها: «لقد سكر، فلا تؤاخذيه على ما يقول».

تابعته الهادية في ضيق. فتح بنيامين قنينة الخمر بفمه، ورمى غطاءها بعيدًا، فوقع فوق رؤوس الواقفين الذين لم يجدوا موائد يجلسون إليها، شرب بنيامين

جرعة، ثم صاح ثانية: «إنكم لا تصدقونني، مع أن هذه هي الحقيقة».

قالت سرينة لمَن معها: «كان بنيامين يود لو منحه الوالي هذه الأرض».

قالت واحدة منهن: «لو حدث هذا، ما كنا قدرنا أن نجلس فيها هكذا».

وقال دوف لعامير: «الحقه، قبل أن يُفسد الحفل».

فقال عامير: «لو قسونا عليه، سيفضحنا أمام ضيوفنا».

قال بنيامين: «سأشرح لكم الحكاية، هذه الأرض ملك لهارون، أليس كذلك؟»

لم يجبه أحد، وقالت الهادية للموائد حولها: «إنه سكران».

وأكمل هو: «وهارون هذا ابني وليس ابن جون».

صاحت الهادية من مكانها بصوت سمعه دوف وعامير وباقي الضيوف الكبار في وضوح: «ابن الكلب».

ضحك بنيامين وأكمل: «جون يا سادة كان حصورًا، يعني لا يقدر على إتيان النساء. كلكم تعرفون هذا».

وقفت الهادية وقد أحسّت أن بنيامين قد قرر أن يفضحها: «جون كان أرجل منك».

أكمل بنيامين: «لقد فعلت بالهادية في دكاني الذي استأجرته في ميدان القناصل».

وعاد ثانية إلى مائدة دوف وعامير: «كان دكانًا تحت التشطيب، فرشت لها شوالًا قديمًا ممزقًا وأتيتها فوقه، وجاء هارون نتيجة لهذا اللقاء، وجون الأبله صمت وقبلها على ذلك».

أخذ بنيامين يضحك سعيدًا بعد أن قال ما تمنى أن يقوله منذ زمن بعيد.

وقف هارون غاضبًا، ورزق خلفه، وقفا أمام بنيامين، والهادية أسرعت خلفهما، أمسكت يد ابنها وصاحت: «إنه يكذب».

لكنه شدَّ يده منها وأسرع إلى الخارج وتبعه رزق. حاولت منعه من الذهاب، لكن بنيامين أسرع، وأمسك بملابسها: «أقسمي بالرب إنني كاذب، لا أقسمي بضريح جون الذي جئنا لنحتفل بمولده».

دفعته في عنف فوقع على الأرض. لكنه لم يكف عن الصراخ: «كل أهل سوق السمك يعلمون أنها كانت خطيبتي، ولفظتها لكي أتزوج ملاذ التي تشبه الدب بجسدها الممتلئ، وتلك كانت خطيئتي التي أدفع ثمنها الآن».

أخذت الهادية تصرخ وهي تضربه بقدمها: «أنت كلب».

وكان هو يضحك في هستيريا.

أحسّ الضيوف الأجانب الذين جاءوا تلبية لدعوة عامير أن الأمر لم يعد مسليًا، ولم يعد يدعو للضحك ولا

الابتسام. رجل يضحك في جنون، وامرأة تنبح ككلب وهي تضربه في كل مكان من جسده.

وهكذا أفسد بنيامين أول مولد لجون، وظل أهالي عزبة جون يتذكرونه، حتى الأجيال التي جاءت بعد ذلك، سمعوا عن هذا، وعلموا أن هارون ورزق سارا بعيدًا عن الاحتفال، وظلت الهادية تنتظرهما بشغف.

الأرض واسعة، ومليئة بالذئاب والثعالب والثعابين، والدنيا ليل، هذا غير قُطّاع الطرق الذين يلبدون في الظلام لاصطياد الغرباء الذين يمرون في المنطقة.

ليلتها حملوا بنيامين وهو مغمى عليه من شدة الخمر والضرب الذي ضربته له الهادية، وعاد دوف وعامير وحبقوق بعرباتهم وضيوفهم معهم، رغم أن البرنامج كان غير هذا، فقد اتفقوا على أن يظلوا في عزبة جون حتى الصباح، يقيمون في بيت الهادية الكبير، وفي الصباح يتفقدون المنطقة، ويعرض دوف وعامير على ضيوفهما - من مصر وخارجها – مشاريع تُقام على هذه الأرض.

ظلت الهادية واقفة في الظلام، أمام ضريح جون، وقد أخذ أصحاب المصابيح مصابيحهم، وظلت في الظلام تتابع الطريق فقد يعودان.

وعاد رزق وحده، قال: «لقد أصر على الذهاب بعيدًا عن الطابية».

دخلت الهادية بيتها مع رزق، ظنت أن ابنها سيعود بعد وقت قصير، أو سيذهب إلى سوق السمك ليقضي الليل هناك، ثم يأتي إليها في الصباح. ليلتها نامت فوق صدر رزق وبكت، فضمها إليه وطمأنها بأن هارون سيعود.

ظلت تنتظر عودته، وتسأل الذين يأتون من سوق السمك عنه، فيقولون إنهم لم يروه، ورزق يجدد تأكيده بأن هارون لا بد عائد إليها، ثم يضمها إليه، فتنسى ابنها للحظات، ثم تتذكره ثانية.

يقول البعض إن بنيامين كان قد أكرى على قتل هارون ليأخذ كل شيء تركه جون، ويدعي البعض أن ذئابًا قابلته في الظلام فقتلته، لكن هذا الزعم لم يكن قويًا، فلو قتلته الذئاب لوجدوا جثته ملقاة في الطريق، أو بين الأعشاب هناك؛ ويقولون إن الهادية عاشت كزوجة غير رسمية لرزق، وإنها كانت سعيدة معه، حتى إن اليهود هناك تساءلوا بدهشة عن المرأة التي نسيت ابنها الشاب وكأنه لم يغب عنها، لكنها كانت تجيب بأنها واثقة إن الرب سيعيده إليها، فهو لم يمت، أو يقتل، وأنه سوف يعود يومًا ليرث ما تركه له جون.

عاش رزق كسيد للعزبة، يأتي أهالي المعدية ليستأجروا الأرض منه، وكان يرتدي ملابس مشابهة لما يرتديه العمدة وكبار أهل القرية، لكنه مات قبل أبيه بنيامين دون أن ينجب، فكيف تنجب الهادية العجوز؟! وقد أكد حاخام معبد زرأديل أن موت رزق المبكر كان

متوقعًا؛ لأنه خالف تعاليم التوراة والتلمود، وعاشر امرأة دون زواج، ولأنه أكثر من معاشرة الهادية جنسيًا، فالهادية كانت مصابة بالشبق، ولا بد من ممارسة الجنس كل ليلة، وأحيانًا أكثر من مرة في اليوم، كما أنها عجوز، والعجوز تمص الشاب مصًا، وتقتله.

المهم أن كل شيء قد آل إلى بنيامين الذي شاخ، ونالت منه الخمر، وهجران ملاذ له، فترك كل شيء إلى أولاده الذين لم يتبق منهم سوى فتاة جاءت مؤخرًا، بعد علاقة ملاذ بمخلوف، وسمّتها أمها نظيرة.

يلبس ساهر الطاقية الصغيرة في منتصف رأسه، وتظل فوق رأسه إلى أن يأتي بيته لينام. كان حاذقًا في الحلاقة ومداواة الجروح، فقد تعلم من والده بنيامين، ومن شقيقه الأكبر رزق، وكان يتمتم بكلمات خافتة وهو يقص شعر الزبائن، فلا يتبينوا من قوله سوى كلمة الرب.

النقود التي يأتي بها الدكان لم تكن تكفي طعامه وطعام إخوته الصغار، فأحيانًا تأتي ملاذ بأطعمة، تحملها من عزبة جون إلى أطفالها الصغار، لكن ساهر يرميها من النافذة، فينظر الأطفال الصغار إليها بشغف، ولا يقدرون على الاقتراب منها، خشية أن يضربهم ساهر، فقد كان يضربهم في قسوة لأقل من ذلك، لكن للحق، كان يحرم نفسه من الأطعمة حتى يُطعم إخوته. وازداد ساهر كرهًا لملاذ عندما جاءت ابنتها نظيرة، قال لها: «إنها نتيجة لعلاقة آثمة بينك وبين هذا الرسام».

كان يدفع البنت نظيرة بساقه، حتى تقع على الأرض، أو يصطدم رأسها بخشب الكنبة، فتصرخ في جنون، بينما تضمها ملاذ لصدرها جزعة وتسبه، وتتهمه بالجنون.

زار ساهر حاخام معبد زرأديل، جلس بجواره حزينًا، سأله الحاخام – الذي صار صديقه – عما يُغضبه، فقال وهو يبكي: «ما زالت أمي تأتي لذلك الرسام، وتختلي به في حجرته».

لم يجبه الحاخام، فسأله ساهر: «ما عقاب امرأة كهذه؟»

- الرجم حتى الموت، هكذا تقول التوراة.

- لكن مصر ليس بها رجم، عقاب الموت يتم بالشنق.

- هناك طرق عدة للموت، المهم أن تنفذ تعاليم الرب.

عاد ساهر إلى الدكان وهو يفكر في كيفية تنفيذ تعاليم الرب، لقد أخطأت ملاذ مع هذا الرسام الذي لا يكف هذه الأيام عن السكر، إنه يشتري أردأ أنواع الخمر، ويظل يعوي ويصرخ في حجرته، حتى ضجت الجيران من أفعاله، سكان البيوت المجاورة لا يستطيعون النوم، فما بالك بالذين يشاركونه الشقة التي يسكنها؟!

لا بد أن يأتي اليوم الذي يذهب فيه ساهر إلى صديقه الحاخام ليخبره بأنه نفذ تعاليم الرب في أمه، لكن ملاذ قوية ولا يستطيع قهرها وحده، سيستعين بإخوته، هم صغار حقًا لكنهم يستطيعون مساعدته.

اقترب منه جزار يهودي يسكن قريبًا من دكانه، كانت يده مجروحة، الدم يسيل منها بغزارة، وهو يرفع يده عاليًا لكيلا يسقط الدم فوق قفطانه.

- الحقني يا ساهر، أوقف هذا النزيف.

شرد ساهر والجزار يتابعه في غيظ، إنه يتابع الدم المتساقط فوق أرضية الدكان في دهشة كأنه يراه لأول مرة في حياته، قال الجزار: «أول مرة تحدث معي، كنت أقطع اللحم، فانزلقت السكين وجرحت يدي».

ضمد ساهر الجرح، ولفّه بقطعة قماش، وجلس فوق مقعده يفكر. لقد حل هذا الجزار المشكلة، سينفذ ساهر تعاليم الرب، بأن يذبح ملاذ بالسكين.

أسرع إلى البيت، كان الأطفال في حجرة واحدة، إنهم يخافونه، يرتعدون عندما يرونه، فهو يحدثهم كثيرًا عن عقاب الرب، وعن ناره الملتهبة، الأولاد في حاجة إلى طعام، لكنهم لا يقربونه إلا في حضوره. قال قبل أن يقدم الطعام إليهم: «أمكم ملاذ تترككم دون عناية؛ لأنها تهتم بعشيقها الرسام، وبابنتها نظيرة التي جاءت بها منه».

أومأت البنت الكبيرة برأسها، فأمهم لا تهتم إلا بهذه البنت الصغيرة، وقال الولد: «إنها تحبها أكثر منّا جميعًا».

- لا بد أن نقتلها.

قالت الفتاة فرحة: «نعم، نقتل نظيرة لكي تعود أمنا إلينا كما كانت».

صرخ ساهر فيها: «لا، نقتل ملاذ».

ابتعد الأطفال، التصقوا بالحائط، كيف يقتلون أمهم، إنها – حقًا - لم تعد تهتم بهم كما كانت، لكن هذا ليس معناه أن يقتلوها. إنهم يكرهون البنت نظيرة لأن الأم تحبها أكثر منهم، وتعطيها كل شيء من دونهم، لكن ساهر يريدهم أن يقتلوا أمهم. ابتعد الأطفال عنه، فضلوا أن يناموا هذه الليلة دون أن يتناولوا الطعام.

في الصباح جاءت ملاذ من عزبة جون، وساهر ما زال في البيت، لقد تأخر عن الذهاب إلى الدكان، تعرف ملاذ أنه يذهب إليه مبكرًا؛ لذا جاءت إلى البيت مطمئنة، ستطعم أطفالها، ستضع الطعام أمامهم، وتسعد وهم يأكلونه مع أختهم الصغيرة نظيرة. فوجئت ملاذ بالولد ساهر يقف أمامها، قالت مبتسمة: «لماذا لم تذهب إلى الدكان ككل يوم؟»

قال وهو ينظر إليها نظرة غريبة، تراها لأول مرة: «أنتظرك».

البنت الكبيرة أدركت مقصد ساهر، هو ينتظر أمه ليقتلها، قالت ملاذ مبتسمة: «حتمًا لم تتناولوا الإفطار للآن».

وفرشت لفائفها أمامها، ووضعت البنت نظيرة فوق الأرض. لم تمتد يد إلى الطعام، كان ساهر يتابعها بنظرته

الغريبة هذه، والأولاد لا يريدون طعامًا، كل ما يريدونه أن تذهب أمهم، أن تعود إلى حيث كانت. مدت البنت نظيرة يدها الصغيرة السوداء إلى الأطعمة، قطعت الفطيرة، ووضعتها في فمها. أحست ملاذ بشيء غريب يحدث في البيت، ساهر مصمم على شيء لا تعرفه، والأطفال ينظرون إليها وإلى الأشياء في فزع، ستدخل لمقابلة مخلوف وتعود إلى عزبة جون؛ لتهرب من هذا الولد المجنون.

وقفت في حركة سريعة لا تتناسب مع جسدها الممتلئ، فأحست بتعب في جسدها كله، قالت مبتسمة للولد ساهر الذي تخافه: «سأطل على مخلوف، وأعود إلى أبيك في عزبة جون».

الولد ما زال يتابعها بنظرته الغريبة، لم يرد عليها، تابعها وهي تسرع نحو حجرة مخلوف. لقد اعتادت التعامل مع ظلام الحجرة. أخرجت شمعة كبيرة من صدرها وأشعلتها، وتابعت مخلوف الذي ينام على طرف السرير، وباقي جسده منزلق على الأرض، قالت: «ما الذي فعل بك هذا؟!»، ورفعت جسده بيديها القويتين، فضحك قائلًا: «أعدتِ يا ملاذ؟!».

عندما تحركت لكي تغلق باب الحجرة ككل مرة، رأت الولد ساهر يمسك ضلفة الباب ويمنعها من غلقه، ازداد خوفها: «ماذا تريد يا ساهر؟»

لم يجبها، لا تدري ما الذي حدث لهذا الولد، لقد كان في كل مرة تأتي فيها إلى سوق السمك يصرخ، ويطردها، ويرمي الطعام الذي تأتي به من النافذة. أفاق مخلوف، وقف أمام ساهر، مدَّ له يده مرحبًا: «تفضل».

مخلوف لا يفيق من سكره إلا نادرًا، وفي هذه الأوقات يبدو هادئًا ورقيقًا ومحبًا لمَن حوله.

- ادخل يا ساهر، سأعد لك شايًا.

كانت مفاجأة لساهر لم يتوقعها، ولم يُعد نفسه لها، كيف سيحقق تعاليم الرب ومخلوف هذا أمامه، إنه قوي، يستطيع أن يدافع عن ملاذ، ولن تنفع ساهر سكينه التي يخفيها في ملابسه، سيؤجل تنفيذ تعاليم الرب إلى وقت آخر.

خرج، نظر إلى إخوته المجتمعين حول الحجرة في فزع، ثم أسرع إلى الدكان. كانت ملاذ ترتعش من الخوف، قالت لمخلوف: «لديّ إحساس بأن هذا الولد يريد قتلي».

كان مخلوف رقيقًا معها، وعدها بأن يكف عن السكر، وأن يذهب معها إلى عزبة جون، ليبنيا بيتًا هناك، يتقابلان فيه، ويربيان ابنتهما نظيرة، لكن الخوف شلّ جسد ملاذ، قالت: «لا أستطيع البقاء في سوق السمك أكثر من ذلك، هيا معي إلى عزبة جون».

ظل مخلوف يضحك من جهلها، ويشدها إلى سريره، لكنها أصرت على الذهاب، قالت: «لو تريدني اذهب

معي».

* * *

اكتشف أهالي الطابية امرأة مقتولة، وجسدها يطفو فوق مياه المصرف القريب جدًا من عزبة جون، وشعرها الطويل معقود بفرع شجرة تقف بجوار الضفة، فتمنع جسدها من الغرق. كانت امرأة بدينة، ترتدي جلبابًا خفيفًا، وملاءتها ملقاة قريبًا جدًا من الشجرة.

أكد عمدة المعدية أن هذه المرأة ليست من سكان المنطقة الأصليين، وإنما هي من اليهود الذين جاءوا من سوق السمك بعد أن امتلك جون الممرض هذه الأرض الشاسعة.

لم يمر وقت طويل إلا واستطاعت الشرطة أن تقبض على ساهر وحاخام معبد زرأديل، واستجوبتهما، لكن الحاخام خرج من القضية دون إدانة، وتم ترحيل ساهر إلى سجن الواحات، فقضى فيه سنوات قليلة إلى أن مات فيه، وتم نقل جثمانه إلى عزبة جون حيث دفن هناك.

وصال

كمال وجوهرة فوق البمب والصواريخ

الإسكندرية في أواخر عام 1942م

يقف كمال عند ناصية الشارع، قريبًا جدًا من ضريح جون. الطريق إلى الضريح مغطى بالحشائش المهملة، فقد مضى وقت طويل دون أن تشذب، أو يقترب منها بستاني واحد.

يجلس مورجان – خادم الضريح – فوق حصيرته المتآكلة الأطراف، يداعب أظافر قدميه الكبيرة، يتابع الولد كمال، لا يجد مورجان عملًا يشغله، الضريح لا يزوره أحد. الكل منشغل بالألمان الذين يقتربون من الإسكندرية، يقولون إنهم يقتلون اليهود في كل بلد يدخلونه، كما أن مؤجِري الأرض المملوكة للضريح، والتي تقع حوله، لم يدفعوا الإيجار هذا العام، بحجة أن الكثيرين قد هجروا العزبة وسافروا بعيدًا عن الإسكندرية خوفًا من روميل الذي يتتبع يهود الإسكندرية، وأن ما يزرعونه لا يشتريه أحد منهم.

يبتسم مورجان، هل هتلر يعرف أن هناك منطقة في العالم اسمها الطابية، وتقع فيها عزبة اسمها عزبة جون، يسكنها اليهود؟!

مورجان لا يصدق هذا، اليهود مذعورون مما يُكتب في الجرائد عن الفظائع التي يرتكبها هتلر في حق اليهود، ويرددون هذا في معابدهم عند الصلاة يوم السبت، وفي مقاهيهم وفي جلساتهم في كل مكان.

منطقة الطابية كانت منسية، لم تُعرف إلا حين جاء نابليون بأسطوله، فاشتركت طابيتها الصغيرة في ضرب سفنه، وعندما استقر الأمر له في مصر، استولى على هذه الطابية، وأطلق مدافعه منها لصد هجوم نلسون – قائد الأسطول الإنجليزي - لكن نلسون حطم الطابية وأبادها، ولم يترك منها سوى آثار باقية تدل على أنه في يوم من الأيام كانت هناك منطقة عسكرية، تطلق مدافعها على السفن الغازية من ناحية البحر، ثم نُسيت المنطقة لسنوات عديدة، لا يعرف مورجان كيف تذكرها الكتخدا – مساعد سعيد باشا حاكم البلاد – واختارها لتكون هدية لجون، تنفيذًا لأوامر الوالي سعيد، ثم نُسيت المنطقة ثانية إلى أن اختارها الباشا حسن بدوي وأقام عليها مصانعه العديدة؛ الورق والألبان والصلصة.

يعرف مورجان الولد كمال، فهو يراه كثيرًا برفقة والده، الأسطى في مصنع الورق القريب من ضريح جون، ويعرف أن الولد يقف في عز الشمس الحارقة منتظرًا البنت الصغيرة ، ابنة منير صاحب ورشة البُمب والصواريخ.

تابع كمال الطريق الطويل أمامه، المصرف الذي يمتلئ بالماء، فيغسل الأهالي ملابسهم وأوانيهم فيه، وشريط السكة الحديد الممتد والذي يصل إلى مدينة رشيد القريبة من المكان.

عندما يمل كمال من متابعة الطريق، ينظر ناحية خادم الضريح، ويتابعه مورجان أيضًا. والده، جاء به

الباشا من مصنع «لاغوداكس» في حي محرم بك بالإسكندرية، وحدد له مبلغًا كبيرًا، وأعطاه بيتًا قريبًا من المصرف.

لا يأتي يهود عزبة جون إلى الضريح إلا نادرًا. أحيانًا ليستظلوا بمبناه وبالأشجار حوله من الحر الشديد في المنطقة، أو ليلعبوا «السيجة» بجوار جدرانه وفوق حصره؛ مع بعضهم البعض، أو مع سكان المنطقة من مسلمين ومسيحيين. لقد تنكروا لصاحب الضريح الذي ضحى بنفسه من أجل أن يعيشوا جميعًا في مكان واحد.

سار الولد كمال خطوات ناحية الضريح، فقد اشتدت الشمس عليه، صاح مورجان من مكانه: «تعالَ لتنتظرها هنا بجواري».

يرد كمال عليه بكلمات لا يسمعها، ويعود كل منهما إلى ما كان يفكر فيه، يدهش كمال مما يُقال، كيف يكون جون يهودي وله ضريح مثل أضرحة المسلمين؛ الذين يأخذه والده كثيرًا لزيارتهم؟! سأل كمال والده يومًا - وهما يقتربان من مبنى الضريح - عن ذلك، فقال: «ديانة الأكثرية تؤثر في طقوس الديانات الأخرى».

لم يفهم كمال شيئًا مما يُقال، ودهش أكثر عندما رأى والده يجلس فوق حصر الضريح حول المبنى مع زملائه في مصنع الورق؛ منهم المسلمون والمسيحيون واليهود؛ يلعبون السيجة، ينقلون قطع الطوب الصغيرة من مربع

إلى آخر، ويقدم مورجان الشاي والقهوة لهم، فقد وضع مائدة صغيرة خلف الضريح؛ ليعد عليها الطلبات، ويقدمها لمَن يلعبون السيجة ويستظلون بالمبنى وأشجاره من الشمس الحامية، وعندما يحل موعد صلاة المغرب، يبتعد هو وباقي المسلمين قليلًا، ويصلون فوق حصيرة من حصر الضريح.

لكن كمال لم يصل إلى مورجان في جلسته، اقترب منه، ووقف ملتصقًا بشجرة قصيرة هناك. قال مورجان: «تنتظر ابنة منير صانع البمب والصواريخ.. أليس كذلك؟»

أومأ كمال برأسه.

«أتحبها؟»

اندهش كمال من سؤاله المفاجئ ومط شفتيه ولم يُجبه. يعرف كمال ما يقصده مورجان. إنه يقصد الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة والذي يؤدي إلى العناق والقبلات، لكنه لم يفكر في هذا قط. أحس بالغضب من حديث مورجان هذا، فابتعد، لن يقف في ظل المبنى والشجيرات الصغيرة، سيحتمل حر الشمس القائظ بعيدًا عن هذا الرجل.

وعاد مورجان إلى عالمه. اليهود الذين يهجرون الضريح. يأتون عند المولد حاملين الشموع، يشعلونها متمتمين بكلماتهم التي لا تغنيه أو تشبعه، ويقف الحاخام وسط الجميع، يتحدث عن تأثير جون في

الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية كلها، بعضهم يعطي مورجان نقودًا - يدسونها في يده - فيتقبلها محنيًا رأسه ومتمتمًا بالشكر والامتنان، خاصة صموئيل الذي يمتلك مصنعًا للسجاد في اللبّان، لكن هذا العام لم يأتِ صموئيل ولا كبار اليهود، واقتصر الاحتفال على يهود عزبة جون الذين لا يدفعون شيئًا، فقد توارثوا من آبائهم السخرية من جون ومن شكله الغريب.

عندما سأل مورجان عن عدم حضور صموئيل ومَن معه، أخبره البعض بأنهم مشغولون بحضور اجتماع هام بخصوص مواجهة قوات روميل التي تقترب من الإسكندرية، كل الظروف تتكالب وتتحد ضد مورجان. استند إلى الخلف، ظهره لامس حائط الضريح، شد ساقيه إلى جسده وسندهما بيديه، تابع البنت وهي تأتي مسرعة نحو كمال، البنت اليهودية تحب الولد المسلم، كل العزبة تعرف هذا. لقد ازداد عدد المسلمين في عزبة جون وفي العزب الأخرى المجاورة، وذلك بعد أن أنشأ الباشا حسن بدوي مصنع الورق القريب جدًا من الضريح.

أراد مورجان أن ينام، يبتعد عن هموم اليهود، وعن هتلر الذي يمكث في بلده بعيدًا وعيناه على يهود عزبة جون، فيرسل روميل أهم قواده للبحث عنهم ومطاردتهم. يفكر مورجان في أن يلتحق عاملًا في مصنع الورق مثل الكثيرين من مسلمي ومسيحيي ويهود المنطقة. فالحرب التي تدور في العَلَمين أثرت

على دخله، وجاءت فوق رأسه، فمؤجرو الأرض المملوكة للضريح، والذين يزرعونها بالجرجير والفجل والملوخية؛ ليبيعوها أمام مصنع الورق، تركوا الأرض دون زراعة وهربوا خوفًا من مطاردة روميل لهم، لولا المشروبات التي يقدمها للجالسين بجوار الضريح؛ ما وجد قروشًا قليلة ليشتري بها طعامًا لأسرته.

أمسكت يد كمال، شدت عليها: «تأخرت عليك؟»

- كثيرًا.

- تخاف أمي أن أترك البيت.

- لماذا؟

- تقول هي وجدتي نظيرة إن الألمان يتتبعون اليهود في كل مكان.

ضحك كمال: «أتظنين أن طائرات هتلر سترصدكِ من فوق السماء لضربك؟!»

تركت يده غاضبة: «تسخر مني لأنك مسلم، وهتلر لا يكرهكم مثلما يكرهنا».

اقترب منها وأمسك يدها ثانية وسارا، قال: «لا أقصد الإساءة إليكِ، وإنما أوضح لكِ أن من المستحيل أن تصطادك طائرات الألمان».

- لا أقصد الطائرات طبعًا، وإنما الألمان يأتون متخفيين لقتل اليهود، هكذا تقول أمي وجدتي.

لم يعلق كمال بشيء، فقد يكون هذا حقًا، فهو لا يعرف شيئًا عن علاقة الألمان باليهود، اقترب منها ثانية، وقال: «إلى أين سنذهب؟»

قالت: «سأعود بك إلى بيتنا، فقد اتفقت مع أمي على ذلك».

أحس كمال بالفرح، فهو يحلم منذ زمن بعيد برؤية البمب والصواريخ التي تُصنع في ورشة منير اليهودي، لقد سمع والده كثيرًا يتحدث مع أمه عن هذه المفرقعات، وقال إنها تصنع دويًا عاليًا، وإن منير هذا يصنعها بدون رضى الحكومة، وعندما علم بصداقته بابنة منير، حذَّره من دخول بيتهم، خشية أن تنفجر المفرقعات في وجهه فتميته، لكن كمال يريد أن يجرب رؤيتها واستخدامها، قال: «أريد أن أرى المفرقعات التي يصنعها والدك».

- لكن والدي يمنعني من النزول إلى البدروم، حيث يخزن المفرقعات.

- سننزل إليه دون علم أحد.

أومأت برأسها، وأمسكت يده وسارا معًا إلى البيت.

كانت تقفز بجسدها الضامر القصير، وكمال يجري خلفها، تنسدل خصلة من شعره الأسود فوق جبهته، هو أطول منها بكثير، يسكن الشارع الخلفي لشارعهم، رآها أول مرة وسط الأطفال الكثيرين الذين يغنون ويدورون في دائرة مغلقة، كانت أكثرهم خفة، تابعها مبتسمًا؛ فقد

كانت تقفز ككرة صغيرة، وتغني بصوتٍ أعلى من كل الأصوات.

يتجمع أطفال عزبة جون في الأرض الشاسعة المتروكة دون زراعة أو بناء بجوار الضريح، والتي تُستخدم للاحتفال عندما يحل المولد. يلعب الأطفال الكرة ويجرون ويقفزون. وجد كمال جوهرة بجواره، تمسك يده بيدها الصغيرة الرقيقة. نظر ناحيتها، وجدها تبتسم فرحة.

وهو عائد إلى بيته – بعد انتهاء اللعب - وجدها تسير خلفه، قالت: «كمال».

توقف مندهشًا، فهو لا يعرف اسمها، قالت: «سأسير بجوارك».

لم يهتم بها، سار دون قول، قالت: «أعرف أنك مسلم، وأن والدك أسطى في ماكينات مصنع الورق».

كان يسرع بساقيه الطويلتين وهي تقفز بجواره بجسدها الضامر النحيل، عندما وصلا لشارعهم قالت: «ليتك توصلني إلى البيت، فإنني خائفة».

توقف مترددًا ثم سار، فبيته ليس بعيدًا عن بيتها، قالت: «أنت أكبر مني وجسدك قوي ويمكنك أن تحميني».

في اليوم التالي، عندما ذهبت إلى الأرض الفضاء لتلعب؛ لم تجده، ظلت تنتظره، وسعدت عندما رأته آتيًا،

جرت، قفزت حتى لامست يديه ودارت حوله كفراشة: «لماذا تأخرت؟»

- هل وعدتكِ بالحضور؟

- لا أستطيع أن ألعب بدونك.

ومن يومها صارا صديقين.

* * *

باب بيت منير كبير، ويظل مفتوحًا طوال النهار وجزءًا من الليل، ثم يغلقه قبل أن ينام، مثل سائر بيوت اليهود. دخلت جوهرة، صعدت الدرجة العالية أمام الباب، كانت منذ سنوات قليلة لا تستطيع القفز فوقها، تأتي أمها وصال، أو أبوها منير لحملها فوقها.

وقفت في مدخل البيت تنتظر كمال الذي يقف مترددًا، فهو أول مرة يأتي إلى بيتهم. كل أهالي عزبة جون يعرفون أن منير هذا يصنع البمب والصواريخ في ورشة ملاصقة للبيت، وتأتي عربات تجرها البغال؛ تحمل صناديق مغلقة وتذهب بها إلى الإسكندرية لبيعها للأطفال في الأعياد، خاصة أعياد المسلمين الأكثر عددًا.

صار منير غنيًا، قد يكون أغنى رجل في عزبة جون الآن، فالبمب والصواريخ يكسبان كثيرًا. قالت جوهرة مشجعة: «ادخل».

صعد الدرجة العالية واقترب منها فأمسكت يده وسارت به إلى الداخل.

تجلس أمها وصال في الحجرة الواسعة وحدها، ونظيرة – جدتها - في حجرة أخرى؛ تتابع وصال من بعيد. قالت جوهرة وقد وقفت أمام أمها: «ادخل يا كمال، لا تخف».

سار، مدَّ يده نحو وصال ليصافحها، فتابعته باهتمام، إنه كمال الذي تحكي ابنتها عنه طوال اليوم، ربّتت ظهره. كان الولد مرتبكًا، شدته جوهرة إلى الحجرة المقابلة التي تجلس فيها جدتها نظيرة ليصافحها هي الأخرى، وسارا بعد ذلك إلى الداخل، ضحكت نظيرة من مكانها وقالت لوصال: «ابنتك تأتي بالولد ليتزوجها».

ابتسمت وصال في تثاقل ولم تجب، فهي لا تحب سيرة الحب والعشق، وتخشى على ابنتها منهما، وتدعو الرب كل مساء، وفي صلاتها، أن ينجي ابنتها من العشق والعاشقين.

أدخلت البنت كمال إلى حجرتها، إنها ابنة منير ووصال الوحيدة، رغم زواجهما الطويل. أمسكت بعروستها التي صنعتها جدتها لها من القماش والقطن، وقصت خصلة من شعرها الأحمر المصبوغ بالحنة، وألصقتها برأس العروس، قدمتها جوهرة إلى كمال، فالعروسة أغلى شيء في حجرتها، لكن كمال لم يمسكها، فهو رجل، والرجال لا يلعبون بالعرائس، قال: «لا أريد العروسة، وإنما أريد أن ألعب بالبمب والصواريخ».

قالت وهي تمسك يده: «قد تجرح يدك، أو وجهك».

- لم أرَ هذه الأشياء من قبل.

- والدي لا يبيعها في الطابية.

- لماذا؟

- الناس هنا فقراء، لا يستطيعون دفع ثمنها المرتفع.

- لكنني أريد أن أراها، صدقيني، سأراها فقط، لن ألمسها.

سارت في حجرتها الكبيرة الواسعة: «أنا أيضًا لم أمس هذه الأشياء، والدي يخاف أن تؤذيني».

- لن تؤذيكِ، مادمتِ معي.

شعرت بالسعادة لحديثه هذا، فهي تريد أن يحميها، هو أطول منها، يبدو أكبر بكثير من عمره، يستطيع أن يحملها بين يديه القويتين ويسافر بها بعيدًا:

- سأدخلك البدروم الذي يضع أبي مفرقعاته فيه.

- حقًا؟!

فرح، حملت عروستها، هدهدتها بحنان، ثم سارت إلى الخارج ممسكة بيده، سارا في حذر، لا بد أن تجد شعلة، فالبدروم مظلم ولن يستطيع كمال أن يرى البمب والصواريخ من شدة الظلام. مرًا أمام الحجرة التي تجلس وصال فيها، كانت تقف أمام حجرة نظيرة تحدثها. الحمد لله، لم تكتشف مرورهما أمامها، خرجا من الباب الكبير، سارا في الحديقة التي تلتف حول البيت، وجدت جوهرة قطعة خشب، فأعطت عروستها

إلى كمال الذي أمسكها متقززًا، فقد كان وجه العروسة قبيحًا، وشعرها الأحمر يشبه شعر العفاريت والسحرة التي يسمع حكاياتهم من أمه. قالت جوهرة: «إننا في حاجة إلى قطعة قماش لنلفها حول رأس الخشبة؛ لنشعلها في الداخل».

دارت حول الحديقة، لم تجد شيئًا، اهتدت أخيرًا إلى فكرة، ستمزق العروسة وتأخذ قماشها لتلفه حول رأس الخشبة، ثم تسكب الكيروسين فوقه وتشعله.

هبطا الدرجات القليلة حتى وجدا بابًا ثقيلًا مغلقًا، دفعته بجسدها الضامر النحيل، لكنه لم يتحرك من مكانه، قالت: «أنت أقوى، وتستطيع فتحه».

دفعه بيديه وجسده كله حتى حركه قليلًا من مكانه، واستمر هكذا حتى استطاعا الدخول، شعرت بالسعادة لأن مَن تحبه قوي هكذا، إنه بقوته يشبه الرجال الكبار.

الشعلة لا تنير سوى جزء قليل من البدروم الكبير الذي يشمل البيت كله، اصطدمت ساقه بصناديق ثقيلة فوق الأرض، فكاد يقع، فدفعها أمامه، فأوقعها، الصناديق متراصة أمامهما، يستطيعان الوصول إليها وفتحها ورؤية ما فيها.

فتح الصندوق، فوجد الديناميت والمفرقعات، أمسك بواحدة منها، وقربها من أنفه ليشمها، قال: «هذه التي يلعب الأطفال بها؟»، صاحت في هلع: «اتركها، إنها

شديدة الانفجار، إنها المادة التي يصنع أبي منها البمب والصواريخ».

تركها وأغلق باب الصندوق وسارا ثانية، قالت: «الصناديق الممتلئة بالبمب والصواريخ عالية ولا نستطيع الوصول إليها».. قال في أسى: «هل سنخرج دون أن نراها أو نلمسها؟!»

أحست بالأسى من أجله، لن تدعه يخرج قبل أن تهديه البمب والصواريخ، ستوصيه بأن يبقيها في بيته في مكان أمين، وبعيدًا عن الحرارة حتى لا تنفجر، ويبقيها إلى أن يحين عيدهم؛ فيفجرها أمام الجميع؛ ليتحدثوا عنه، ويصير أهم طفل في عزبة جون، والعزب الأخرى حولها. قالت: «سأصعد فوق هذه الصناديق، وأرمي لك البمب والصواريخ».

- قد تقعين؟!

- إنني خفيفة وأتسلق الصناديق بسهولة، أمسك أنت الشعلة.

تسلقت الصناديق بمهارة حتى وصلت إلى آخر صندوق منها، كان قريبًا جدًا من السقف المرتفع، فصاحت فرحة: «وجدتها، ها هو البمب وها هي الصواريخ، لكنني لا أستطيع فتح الصندوق، فغطاؤه ثقيل».

- سأصعد إليكِ لأعاونك.

صعد فوق الصناديق المتراصة بعضها فوق بعض بيد واحدة، فيده الأخرى تحمل الشعلة، وقفا فوق حافة الصندوق، فتحا آخر، فأخرجت البمب وأعطته له.

- ها هو.

- كيف ينفجر ويحدث دويًا؟

- إذا دفعته بالأرض، أو أشعلته.

فجأة، سمعت صوت والدها في أول البدروم يقول: «ما هذا، مَن فتح باب البدروم؟!»

قالت في خوف وهي ترتعش: «أبي!»

- ماذا سيفعل بنا؟!

صاح الأب غاضبًا: «جوهرة، هل جُننتِ؟!»

وقعت الشعلة من يد كمال فوق الأرض، وتركت جوهرة غطاء الصندوق الكبير، فعاد إلى مكانه محدثًا دويًا عاليًا، فوقعت، لولا أن التقفها والدها؛ لاصطدم رأسها بالصناديق الكثيرة فوق الأرض، أما كمال فقد تعلق بالصناديق وهو يرتعش من الخوف، فقد انطفأت الشعلة عندما وقعت، وشمل الظلام المكان كله. أسرع منير بإشعال الشعلة ونادى الولد كمال: «اهبط على مهلك».

كانت الفتاة تبكي من الخوف، ومنير يمسك معصمها بقوة، فوجئت وصال بمنير يمسك يد ابنته في عنف

ويصيح بها، والولد كمال يسير خلفهما باكيا، قال منير لوصال: «هذا من إهمالك».

وقتها لم تكن وصال مدركة لما حدث، فقالت: «ماذا بك يا رجل؟!»

تطور الحديث بينهما حتى أسرع منير وصفعها في عنف: «أتريدين أن تخربي بيتي؟!»

أرادت نظيرة أن تقف لتمنعهما من الشجار، فوقعت على الأرض. وقتها أسرع منير إلى أمه ليحملها، ووقفت وصال في حيرة، تريد أن تسب زوجها الذي ضربها، وتريد أن تواسي العجوز التي وقعت، أما الولد كمال فقد أسرع إلى الخارج عائذا إلى بيته.

كان محسن – والد كمال - عاملًا في مصنع للورق، ووصل فيه إلى درجة أسطى ماكينة من الماكينات الثلاث التي يمتلكها الخواجة لاغوداكيس صاحب المصنع. هو يوناني من مواليد الإسكندرية – يبيع ورق البفرة في شارع محرم بك، عندما كان المدخنون يعتمدون على الدخان «الفرط» الذي يشترونه بالأوقية من الدخاخنية المنتشرين في كل مكان، خاصة في شارع العطارين، والفقراء منهم يشترونه من امرأة بدينة جدًا تجلس في ظهر مدرسة الطلياني، المواجهة لعمود السواري، وأمامها طست من الصفيح تحته نار هادئة، وفوقه كميات من «السبارس»[1]، يضع المدخنون كمية صغيرة من الدخان في منتصف ورقة البفرة، ويلفونها إما بأصابعهم، أو بماكينة خاصة بذلك.

كان باعة ورق البفرة كثيرين ومنتشرين في كل مكان، وكل بائع منهم يحاول أن يغري زبونه، فمنهم من يكتب على كل ورقة حكمة أو قولًا مأثورًا أو مثلًا عاميًا، ومنهم من يكتب اسم صاحب دفتر البفرة على كل ورقة، ومنهم من يكتب كلمات مسجوعة خفيفة الظل، وجمع لاغوداكيس بعض أشعار العامية ذات الطابع الساخر، اشتراها من مؤلفيها بثمن زهيد وكتبها على أوراقه، وكانت تُطبع بمطبعة حجر، وذلك جعله يفكر في إقامة مصنع لصناعة الورق، فاختار منطقة قريبة لترعة المحمودية من ناحية كوبري محرم بك؛ ليكون المصنع

قريبًا من مصادر المياه اللازمة جدًا لصناعة الورق، واشترى ثلاث ماكينات قديمة من السويد، وأقام مصنعه الكبير، الذي كان أول مصنع ورق في الشرق الأوسط، الماكينات الثلاث قديمة، وفي حاجة إلى إصلاح شبه دائم، وتتطلب رجالًا على درجة عالية من الوعي والذكاء والإصرار، وكان محسن أحد هؤلاء الرجال، بل كان أكثرهم مهارة وحذقًا.

تبدأ وردية محسن من الساعة الثالثة بعد الظهر، وهو يفضل أن يأتي إلى المصنع قبل موعده. يجلس على مقهى حمامة، وهو عبارة عن جدار متآكل مواجه لترعة المحمودية، ومقاعد متراصة من الخشب غير المدهون، وقعدة من الخوص، يجتمع محسن وزملاؤه الأسطوات في هذا المقهى، يشربون الشاي والقهوة، ويدخنون المعسل.

في هذا اليوم جاء محسن في الثانية، جلس فوق مقعد مواجه لباب المصنع ليراقب الداخلين إليه، فقد يرى أحد أصحابه فيدعوه لشرب كوب شاي معه، ويتحدثان فيما يحدث في المصنع من أمور.

لاحظ محسن أن أحد الجلوس يتابعه باهتمام وهو يشد نفس الشيشة، يعرف محسن كل الجالسين في المقهى، فقلما يأتي إليها غريب، كلهم تقريبًا من العاملين في المصنع.

أدار محسن وجهه للناحية الأخرى، قال في نفسه: «ربما أن ذلك الذي يتابعه، واحد من المقاولين الذين يأتون لعمل إجراءات في المصنع؛ إصلاح قزان، أو تركيب كسوة جديدة من الكاوتش لماكينة من الماكينات الثلاث»، لكن ذلك الرجل اقترب بمقعده الثقيل، وجلس بجواره قائلًا: «حضرتك الأسطى محسن، أليس كذلك؟»

- نعم.

- أنا أخوك مظلوم.

كان مظلوم هذا طويلًا إلى حدٍّ بعيد، وجسده ممتلئ إلى حد الترهل، ووجهه مكتنز، أحس محسن بالضيق من وجوده، كما أنه في عجلة، يريد أن يلحق بورديته، فهو أسطى ولا بد أن يتسلم الماكينة بكل ملحقاتها من الأسطى الذي يعمل في الوردية التي تسبقه؛ لذا فقد أشار إلى ابن حمامة الذي يعمل في المقهى الآن، ومدَّ له نقوده ثمن الشاي والمعسل، لكن مظلوم أمسك يده قائلًا: «أريدك في موضوع مهم».

لا يدري لماذا أحس بأن ذلك الرجل جاء ليورطه في مشكلة، فتصرفاته وشكله يعنيان هذا.

- لكنني في عجلة، ورديتي ستبدأ بعد قليل.

- ليس مهمًا.

- إنه عملي، أهم شيء في حياتي.

- جئت لأعرض عليك عملًا أهم، ستقبض منه مبلغًا أكبر.

- أي عمل؟

- سمعت عن شركة الورق التي أنشئت في الطابية؟

سمع محسن عن مصنع الورق الذي أنشأه حسن بدوي باشا قريبًا من الإسكندرية، وأنه يدفع لعماله أجرة أكبر مما يدفعه لاغوداكيس، وكان حديثه في مقهى حمامة يدور عادة في هذا الخصوص، لكن محسن لم يفكر في هذا، فالمصنع بعيد جدًا، في الطابية التي لا يعرف مكانها، إنه لا يعرف إلا طابية قايتباي القريبة من قصر رأس التين، لكن طابية حسن بدوي هذه لم يرها ولا يريد أن يراها.

قام محسن، لكن مظلوم كان عنيدًا، شدّه حتى أجلسه فوق المقعد، ماذا يحدث؟ أيريد أن يعينه في المصنع بالقوة؟! هذا ليس غريبًا، فالباشا صاحب المصنع كان صديقًا مقربًا من الملك فؤاد، وله اتصالاته ويستطيع أن يجبر مَن يشاء على العمل في مصنعه، هذا ما يحكونه عنه، كما أن محسن قرأ كثيرًا عن أخباره في جريدتي «المصري» و«الأهرام».

- حدّثت الباشا عنك، وأمرني بأن آتي بك.

- بالقوة؟!

ضحك مظلوم حتى أحس به كل الموجودين:

- لا، فهذه الأمور كالزواج، لا ينفع معها سوى التراضي.

- وأنا لا أحب أن أترك الإسكندرية.

- الطابية ليست بعيدة، كما أن سيارات المصنع ستأخذك من مكان قريب من بيتك وتعيدك إليه.

- ولماذا أنا بالذات؟!

- المصنع جديد وفي حاجة إلى كفاءات، وسألت عنك فوجدت أنك المطلوب.

- وكم سيدفع الباشا؟

- أضعاف ما تأخذه من مصنعك هذا.

وعمل محسن في مصنع الورق الأهلي، واضطر أن يسكن في عزبة جون، فقد جاء إلى العمل متأخرًا؛ بعد أن شغل الباشا المساكن التي أعدها لعماله، بالذين جاءوا قبله.

أحس محسن بالغربة في الطابية، المواصلات صعبة منها إلى الإسكندرية، وسيارات المصنع لا تتحرك إلا وقت الوردية، ولا يمكن أن تأخذ إلا العاملين في المصنع، وهو يريد أن يأخذ زوجته لزيارة أمها التي لا تستطيع البعد عنها، لكنه بعد وقت قصير تأقلم مع الجو، وصادق اليهود جيرانه، وترك ابنه كمال يلعب مع أطفالهم، ويزورهم في بيوتهم.

ما زال محسن يذكر أول يوم عمل له في مصنع حسن بدوي رغم مرور السنوات الطوال، كان لا بد أن يذهب إلى مكتب الباشا، هذه هي الأصول، كما أخبره مظلوم بك - سكرتير الباشا والمسئول عن كل شيء في المصنع - لكن الباشا لم يأتِ إلى المصنع في ذلك اليوم، بقي في

قصره الملاصق للمصنع، والمطل على خليج أبي قير، يومها اتصل الباشا من قصره وسأل مظلوم عن سير العمل فأخبره بوصول الأسطى الجديد، فقال له: «أرسله إلى القصر».

استدعى مظلوم أحد الخفراء وأمره بأن يرافقه إلى مقر الباشا، فسار الخفير - وكان شابًا نحيفًا واضح الطول - ومحسن بجواره، خرجا من بوابة المصنع الكبيرة، قال الخفير لموظف بدين، اتضح بعد ذلك أنه المسئول عن الأمن في المصنع، ويتبعه الخفراء والسعاة والجناينية: «الباشا يريد مقابلة الأسطى الجديد».

أشار مسئول الأمن بيده دون قول. سارا في طريق طويل محاط بشجيرات قصيرة، وعربات الباشا وأسرته تترك أثرًا على الأرض الترابية التي تغطي الطريق، ثم بدأ الشارع الذي يؤدي إلى القصر. طريق طويل مزروع بأشجار الجوافة والبمبوزيا والعنب والنخيل، قال الخفير: «ممنوع على العاملين في المصنع الاقتراب من هذا المكان إلا بسبب».

الجو هادئ، فليس هناك سوى حفيف أوراق الشجر والنخيل، قال الخفير: «تجد هنا الطيور الغريبة. الهدهد، والبوم، والنسور، كل الطيور».

يقف القصر وحيدًا في ذلك الخلاء، وكلما اقتربت منه زادت حدة المزروعات، من كل نوع، قال الخفير: «الجناينية يغسلون الأرض من وقتٍ لآخر».

دهش محسن من حديثه، واضطر أن يتحدث ويسأله عن كيفية غسل الأرض، قال: «الأرض قريبة جدًا من البحر، فالأملاح تؤثر عليها، ولا بد من غسلها بالماء العذب».

ثم أكمل: «ويزرعون الأرض بالبرسيم لتقويتها، الباشا لديه أراضٍ كثيرة في الأرياف، ويفهم جيدًا في الزراعة».

عندما وصلا إلى القصر، استأذن الخفير قائلًا: «هنا انتهت مهمتي».

وأشار إلى الباب الرئيسي من بعيد، وعاد إلى المصنع.

سار محسن فوق المرتفع الذي يؤدي إلى الباب الرئيسي الذي تحدث الخفير عنه، باب حديدي كبير جدًا، وأحد الخدم يرتدي ملابس بيضاء، ويلف شريطًا أخضر فوق وسطه، رأى محسن هذه المناظر في الأفلام العربية التي يهواها، ويأخذ زوجته لمشاهدتها كل أسبوع، قال محسن للخادم: «الباشا هو الذي طلبني».

أشار الخادم إلى حذاء محسن الملطخ بالطين، والمتسخ بالتراب، فمسحه في ممسحة ليف أمام الباب، وسار الخادم أمامه. سارا في ردهة كبيرة واسعة، ، وصعدا سلمًا خشبيًا كبيرًا مغطًى بسجادة حمراء ، ثم خرجت زوجة الباشا، وهي امرأة إنجليزية، حسناء وطويلة، تابعت محسن في ابتسام دون قول.

دق الخادم بابًا مغلقًا، ثم دخل ومحسن يقف في الخارج ، ثم عاد الخادم ثانية، وأشار لمحسن بالدخول.

سار محسن في الحجرة الصغيرة، رأى الباشا لابسًا النظارة، ومكبًا على أوراق أمامه، لم ينظر إلى محسن إلا عندما وصل إلى المكتب، فابتسم له، مشيرًا إلى مقعد من المقاعد الكثيرة أمام مكتبه، فجلس دون قول.

أمسك الباشا نظارته بيده، ورفع رأسه، يعرف محسن الباشا من خلال صوره التي كانت تظهر كثيرًا في الجرائد، له أنف بارز يميزه وشارب قصير، قال الباشا: «مظلوم يثني عليك كثيرًا».

- أشكرك يا باشا.

- إنني في حاجة إليك، فعندي ماكينة تتوقف كثيرًا، وأخبروني بأنك قادر على السيطرة عليها.

- ربنا يقدرني.

- أعتقد أن مهمتك هنا أسهل، فلاغوداكيس اشترى ماكيناته قديمة جدًا، وماكيناتي جديدة، لكن في حاجة إلى عمال مهرة.

جاء نفس الخادم الذي استقبل محسن بصينية فوقها كوب شراب. أكمل الباشا: «لقد بنيت مصنع الورق منذ عشر سنوات تقريبًا، وما زلت أبحث عن عمال مهرة».

وأشار إلى كوب الشراب: «تفضل».

أمسك محسن كوب الشراب المثلج، قبل أن يرشف رشفة واحدة، صاح الباشا: «سأدفع لك مبلغًا كبيرًا من المال، الأموال ليست مشكلة، الذي أنتظره منك أن تستمر الماكينات كلها في العمل».

عندما عاد محسن إلى مظلوم، قال له: «الباشا لا يستقبل في قصره إلا كبار موظفيه، وأنت من الآن صرت من كبار الموظفين، سيكون لك مكتب، ومساعدون، وأرجو أن تحقق ما يريده الباشا».

دخل محسن المصنع ليتفحص الماكينات التي تكثر من التوقف عن العمل، فهو لا يهمه أن يكون له مكتب وأن يصير من كبار موظفي المصنع، المهم عنده هو العمل.

لم يكن الباشا مريضًا كما ادعى لمساعده مظلوم، لكن أحس بالرغبة في متابعة أوراقه القديمة، أيام كان أقرب رجل إلى الملك فؤاد وأخلص مَن تعامل معه، لكن الإنجليز فجأة قرروا أن يبعدوه عن السياسة، غريب أمر هؤلاء الناس، لم يفكروا في منع سعد زغلول - عدوهم الأول - من ممارسة السياسة، لم يقدروا إلا على حسن بدوي الذي لم يعادهم قط، وكان يفعل كل شيء من أجل الملك ومن أجلهم.

أرسل جورج لويد - وكيل وزارة الخارجية البريطانية في ذلك الوقت – برقية إلى وزير الخارجية قال فيها: «لا أرى حلًا سوى توجيه ضربة سريعة إلى مصدر الشر

الحالي الذي يستند إلى القصر، وكما تعلمون فإنه مُنفِّذ سياسة الملك والموحي بهذه السياسة إلى حدٍّ ما، وهو حسن بدوي باشا الذي أرغب في إبعاده».

* * *

ليلة أن أبلغني فؤاد بإبعادي عن كل الوظائف السياسية والحكومية، بحثت عن مظلوم، سألت عنه في بيته، ولدى أصدقائه ومعارفه، كان يصلي في المعبد، ضحكت عندما أخبرني خادمه بذلك، قلت لمظلوم عندما قابلته: «ما لك وما للمعابد؟!»، لم يعلق بشيء، أعرف أنه يهودي، لكن أمور الدين لا تهمه، لا أدري، فقد كانت حالتي غاية في السوء، لم أحزن هكذا يوم أن ماتت أمي التي أحببتها كثيرًا. قلت لمظلوم: «لقد عُزلت من كل وظائفي الحكومية والسياسية».

أعرف أن هذا الخبر سيزعج مظلوم ويؤرقه، فهو مرتبط بي، وعزلي يعني عزله هو الآخر. فقد كان موظفًا في وزارة الأوقاف عندما كنت وكيلًا لها، وعندما تركت الوزارة وعملت وكيلًا للديوان الملكي أخذته معي، فأنا لا أستطيع الابتعاد عنه، ولا هو يستطيع الابتعاد عني. قلت له ليلتها: «أريد أسوأ بار في القاهرة لأسهر فيه».

لم يضحك كعادته، إنه ما زال غاضبًا لسخريتي من دخوله المعبد، شعرت بالضيق، بحثت عنه لينسيني همومي، فإذا به يغضب، ولا يضحك ضحكته العالية التي أحبها كثيرًا؛ وبحثت عنه من أجلها، فهو لا يهتم

بالوظائف والقيود، يدخل البارات الوسخة، ويعرف أرذل النساء.

وضعت ذراعي في ذراعه، تصرفت كالسكران، أترنح في الطريق، وألقي الطربوش فوق الأرض المبتلة من أثر المطر الذي غسل القاهرة في تلك الليلة على غير العادة.

مر الوقت وضاعت وظيفة الحكومة، وكيل الديوان الملكي، والقائم بأعمال رئاسته، الرجل الثاني في مصر بلا منازع، الكل يعلم أن رغباتي مستجابة من الملك فؤاد، فيلبونها دون سؤال الملك عن ذلك.

مر الوقت وضاعت السياسة التي كنت أتمتع بها كأنني في رفقة أنثى جميلة فوق سرير مريح. أتمتع بالسيطرة على حزب الاتحاد الذي أنشأته من أجل الملك.

مر الوقت دون أن أرتبط بفتاة أو امرأة أحبها وأسهر الليل من أجلها، وأخطبها، ونتقابل في أماكن عامة مغلقة، أمد يدي نحو المائدة التي تفرق بين جسدينا، فتمد يدها، فأمسكها وأشعر بالدفء.

مددت يدي، شعرت بدفء جسد مظلوم، الشوارع شبه خالية من أثر البرد الشديد، وسقوط الأمطار. قلت لمظلوم: «ذلك الجو يذكرني بالإسكندرية، كم أنا مشتاق لكي أعيش الباقي من عمري فيها».

ازدادت حدة سقوط الأمطار، المارة يتحاشون المطر تحت مظلات الدكاكين، ومواقف الأتوبيسات، وفجأة

شعرت برغبة عجيبة في أن أشد مظلوم لنقف وسط الشارع نستقبل الأمطار الغزيرة التي لا تسقط على القاهرة إلا كل عدة سنوات، قلت لمظلوم: «إنها فرصة لا تعوض. فقد لا نرى هذه الأمطار مرة أخرى في القاهرة».

الأمطار بللت البذلة السوداء، فخلعت الطربوش المبتل والملطخ بالطين، أمسكته بيدي لكي أشعر بلذة سقوط الأمطار فوق رأسي العاري، ومظلوم يغمض عينيه من تأثير نزول المطر المنهمر فوق رأسه، ويفتح فمه من شدة الإحساس بالبرد. وضحكت، قلت: «كيف تكون مظلومًا وقد أعطاك الله كل هذا الجسد؟!»

شعرت ببرودة في ساقي، فالماء يدخل الحذاء، ويصل إلى الجورب. ومظلوم يمسح الماء بمنديله الذي امتلأ بالماء، عملية لا فائدة منها. كيف يمسح ماءً بمنديلٍ في حاجة إلى العصر؟! ومظلوم يقف وسط الشارع ينزل الماء من جسده، بدا وكأنه طائر صغير وقع في إناء كبير ممتلئ بالماء، فضحكت. لكن السماء فعلتها بي وأوقفت ماءها، مثلما فعلها الإنجليز بي وأمروا بألا أمارس عملًا حكوميًا أو سياسيًا في مصر أو خارجها. حاول الملك فؤاد أن يوافقوا على أن أكون سفيرًا في أي بلد، أي وظيفة في خارج مصر، لكن الأوامر كانت صارمة. «حسن بدوي انتهى كسياسي وموظف كبير في مصر أو خارجها».

قال وكيل وزارة الخارجية الإنجليزية: «إقصاء بدوي ضرورة مثل اقتلاع الحشائش الضارة».

يضع العربجي غطاء من المشمع فوق ظهره ليقيه من المطر المنهمر، ويطرقع بكرباجه فوق أذني الحصان الذي يُسرع في عصبية، أحسست بالرغبة في البكاء، كل شيء يتغير، حتى مظلوم- الذي كان يضحكني طوال الوقت - صامت ومهموم هذه الليلة. تحدث مظلوم مع السائق المشغول بالمطر الذي ينزل على وجهه، فيمسحه بيده التي تمسك بمقبض الكرباج. وشردت إلى أن وصلنا إلى البار.

كنت مضطربا، أحاول أن أبدو جريئا، مَن يصدق أن حسن بدوي وكيل الديوان الملكي، والقائم بأعمال رئاسته، والذي كان يُسقط أية وزارة ليست على هواه؛ يدخل بارًا على هذه الدرجة من السوء؟! باب خشبي قصير من ضلفتين، وطرقة قصيرة بعدها باب طويل بزجاج مصنفر. سألت مظلوم: «أدخلت هذا البار من قبل؟»

- منذ زمن بعيد جدًا.

كانت ملابسنا مبتلة بشكل غريب، فحتمًا جاء إلى البار بعض الرجال بعد انتهاء المطر، لكن حالهم لم يكن كحالنا، أظن أن هذه الليلة لم يُجن سوانا، ولم يقف تحت المطر المنهمر سواي ومظلوم الذي وقف مضطرًا ومستجيبا لرغبتي الغريبة النزقة. كما أن طربوشي المتسخ لا يوحي بأننا من علية القوم.

تابعنا بعض رواد البار في استخفاف، وعادوا إلى ما كانوا يفعلون. جلسنا أمام مائدة من الخشب السميك

غير المطلي، ومقاعد ذات «قعدات» من الخوص.

قال مظلوم: «آه لو يعلم هؤلاء أنك حسن بدوي باشا الذي تحدثت الصحف عنه كثيرًا!»

أمسكت يد مظلوم الممتلئة والباردة: «لا أريد أن يعرف شخصيتي أحد».

جاء ساقٍ ذو وجه أسود شاحب، كأن وجهه ضهر في النار. دق على المائدة بالصينية الصاج التي يحملها، يسألني عما أريد، فنظرت بعيدًا عنه، وتولى مظلوم التحدث معه.

قلت لمظلوم بعد أن ابتعد الساقي: «تعرف كامل الخلعي؟»

أجاب مظلوم في دهشة، فما الذي جاء بذلك المغني والموسيقي إلى هذا البار السيئ؟!

- أعرف أنه كان صديقك، وكنتما تسهران معًا.

- إنني أفعل مثله الآن. لقد تنكرت له الحياة في آخر أيامه، فترك الشهرة والمكانة، وعمل ماسح أحذية، يطوف على المقاهي ليمسح أحذية الجالسين أمامه في استعلاء.

تابع مظلوم امرأة بيضاء، بدينة، تهتز أمام مجموعة من رجال يرتدون الملابس البلدية. أحدهم صفعها على قفاها في استخفاف، تألمت المرأة، وتحسست مكان الصفعة الذي احمر، لكنها ضحكت، ومالت لتقبل يد

الرجل الذي ضربها، ثم أحنت رقبتها لكي يضربها ثانية، لكنه لم يضربها.

قلت: «تعرف توماس إدوارد لورنس، الملقب بلورنس العرب؟»

- أعرفه.

قال مظلوم هذه الكلمة بضيق، فهل يُذكر لورنس والخلعي في بار مثل هذا؟! كان متلهفًا لمتابعة ما يحدث في البار، المرأة البيضاء التي يلهو بها الرجال الذين يرتدون الملابس البلدية، وامرأة شاحبة كأنها مسلولة تغني فوق التخت، كأنها في حالة ولادة.

- ذلك الذي كان قريبًا من ملك بريطانيا، وصديقًا للشريف حسين ملك العرب، يتنكر له الجميع. فيغير اسمه ويلتحق بسلاح الطيران البريطاني كجندي صغير.

تابع مظلوم امرأة أخرى دخلت البار، أكملتُ: «أفكر في أن أفعل مثل لورنس هذا، أعمل عملًا حقيرًا لا يتناسب مع مكانتي، ومع قوم يجهلونني».

لم يجبني مظلوم بشيء، فقد اقتربت المرأة من مائدتنا، تابعتنا في تردد، ثم ابتعدت عندما لم تجد مَن يرحب بها.

جاء الساقي بالأكواب، والخمر والمزات: ترمس وفول سوداني وبطاطس مقلية. قال مظلوم: «لكن لورنس العرب كان غاضبًا لأن الإنجليز خدعوه وجعلوه يعد العرب بأشياء وفعلوا غيرها بعد ذلك».

ضحكتُ، يقصد مظلوم - اللئيم - أن موقفي مختلف عن لورنس. فهو غضب لأجل المبادئ والأخلاق، بينما أنا أعاقب لأنني كنت ضد المبادئ والأخلاق. ضحكت لهذا طويلًا، فقال مظلوم معتذرًا: «آسف، سيادتك...»، ضربته

فوق ظهره الطويل، العريض قائلًا: «أنت صادق يا مظلوم، لقد كنت مع الإنجليز والملك، ضد الشعب. وفي الحقيقة الجميع لا يستحقون شيئًا، لا الملك ولا الإنجليز ولا الشعب».

جاءت المرأة البدينة، اهتزت بجسدها الهائل، اقتربت من مائدتنا، ضحكت، وآثار ضرب الرجل ما زالت فوق قفاها العاري. قالت: «تجلسان في ذلك البرد الشديد دون دفء».

قال مظلوم: «اجلسي لتدفئينا».

لم أكن مرتاحًا لجلوسها معنا، فأنا أريد أن أتحدث مع مظلوم، أخرج كل ما أخزنه داخلي، كما أنها من النوع الذي لا يروق لي، لكنني لم أعترض.

دفعت ساقها العارية بساق مظلوم، فأحست بالبرودة، قالت: «ما هذا؟! ملابسك مبتلة».

- نعم، وقفنا تحت المطر الشديد طويلًا.

ضحكت في اصطناع؛ فتابعها الرجال الذين يرتدون الملابس البلدية والتي كانت تجالسهم.

- غريبة، كنتم سكارى قبل أن تأتوا إلى البار؟

- إننا سكارى دائمًا.

ضحكت قائلة: «اخلعا ملابسكما وضعاها أمام النار لتجف».

خلع مظلوم جاكتته، لكني لم أشأ أن أخلع ملابسي، حملت المرأة جاكتة مظلوم ووضعتها فوق مقعد أمام النار، وعادت ضاحكة، وجاء الساقي خلفها ليسألها عما تشرب.

قالت لي: «إنك لم تتحدث منذ أن جئت إليكما».

أسرع مظلوم قائلًا: «ابتعدي عنه، هو لا يحب التخان، أنا الذي أحبهم».

أول مرة قابلت فيها مظلوم هذا؛ كان في اجتماع محفل ماسوني، ليلتها اقترب مني، ومد يده قائلًا: «إنني موظف تابع لك في وزارة الأوقاف».

لم أكن رأيته في الوزارة من قبل، وكيف أعرفه أو أميزه والوزارة بها آلاف العمال والموظفين؟! وجدت الكثيرين من أعضاء المحفل البارزين - ومعظمهم من اليهود - يتحدثون معه بود، خاصة الحاخام الأكبر موشي فنتورا، فشعرت بأنني يجب أن أصادقه وأتقرب منه.

في اليوم التالي سألت مدير مكتبي عنه، فاتصل تليفونيًا بالمكتب الذي يعمل به، واستدعاه. ضحكت عندما تذكرت ذلك، فمدير مكتبي، لم يكن يعلم أن هذه المكالمة التليفونية ستكون سببا في ضياع وظيفته منه وبعده عني، فبعد أيام قلائل أصدرت أمرًا مكتبيًا بنقل مدير مكتبي إلى وظيفة بعيدة عني، وفي مبنى آخر، وعينت مظلوم مديرًا لمكتبي.

قال مظلوم، والمرأة البدينة تضع خدها فوق يده كمحاولة منها لتدفئته: «الحل يا باشا».

تركت المرأة يد مظلوم وضحكت بطريقة استفزتني، وقالت: «باشا حتة واحدة؟!»، أردت أن أدفعها بساقي بعيدًا عن المائدة، أعيدها إلى الرجل الذي يضربها على قفاها في عنف، وأكمل مظلوم قوله: «لا بد أن تجتاز هذه العقبة».

- أفكر في ترك مصر، لي معارف كثيرون في لندن وإستانبول، يمكن أن يساعدوني في إيجاد عمل..

قاطعني مظلوم: «لا، الحل هو أن تحصل على مكافأة من الملك نظير ما قدمته له».

- أية مكافأة؟!

- إنه حزين من أجلك، ذلك شعور يعرفه كل مَن يقترب منه، لكن ذلك الشعور لن يدوم، فسوف ينساك ويبحث عن خليل جديد.

- ماذا تقصد؟

- استغل الموقف الآن، اضرب على الحديد وهو ساخن، اطلب منه أرضًا كبيرة جدًا لتقيم عليها مشاريعك التجارية.

ضحكت: «حقيقة أنت يهودي، كل تفكيركم في المشاريع التجارية».

قالت المرأة البدينة: «أنت يهودي؟»، ثم قامت مسرعة ولم تنتظر الإجابة. الغريب أنها اختفت تمامًا من

البار. ومظلوم لم يعلق على تصرفها، وعاد إلى موضوعه الذي يعرضه عليّ.

- أرض دون مقابل، وأمر ملكي بإقامة مصانع.

مططت شفتي، ولم أجب.

- أعرف أرضًا تصلح لكل المشاريع.

- أين؟

الطابية، منطقة قريبة من الإسكندرية. يعيش قريبًا منها يهود أعرفهم ويمكن أن يسهلوا مهمتنا.

قام مظلوم وجاء بجاكتته ما دامت المرأة البدينة التي أخذتها قد اختفت. قلت وهو يرتدي الجاكيت: «لماذا فعلت المرأة هذا؟»

قال في أسى: «امرأة غبية».

* * *

عاد مظلوم إلى بيته متأخرًا، ملابسه مبتلة، وجسده متعب من طول السير، كان يومًا طويلًا للغاية، بدأه الحاخام الأكبر موشي فنتورا باتصاله به:

- عزيزي مظلوم، اشتقت إليك، إنني مدعو لزيارة معبد راب حاييم في الجمالية، أتعرفه؟

- أعرفه.

- ليتك تقابلني هناك.

يعرف أن الحاخام يريده في شيء مهم، فلا يتصل به إلا إذا أراد منه شيئًا، لم يكن متحمسًا للقائه، فهو غير قادر على إسعاد نفسه، فكيف سيبحث عن إسعاد فقراء اليهود، كما يريد فنتورا منه دائمًا، مشاكل مظلوم ثقيلة وكثيرة.

حسن بدوي – رئيسه وولي نعمته - في أزمة، ومهدد بالطرد من الديوان الملكي الذي يعمل مظلوم فيه أيضًا. لقد ربط نفسه بحسن بدوي حتى صار مصيرهما مشتركًا.

سار مظلوم في شوارع الجمالية العتيقة، أحس باختناق، الشوارع مظلمة، وضيقة. ربما من تأثير الطقس السيئ، أو لأنه غير سعيد.

كان الحاخام الأكبر قد انتهى من الصلاة، وجلس في انتظاره مع العاملين في المعبد، انحنى مظلوم وقبله، لم يتحرك الحاخام، أبدى تثاقلًا وكبرياء أمام الحاضرين ما ضايق مظلوم، ثم أذن له بالجلوس بجواره.

وضع الحاخام ذراعه حول ظهر مظلوم، ثم ربت كتفه:

- كيف حال صديقك حسن بدوي؟

- يمر بضائقة هذه الأيام.

- الإنجليز غير راضين عنه، أليس كذلك؟

- لكن ما زال الملك فؤاد متمسكا به.

- لن يصمد الملك طويلًا أمام معارضة الإنجليز.

قام الحاخام بقامته القصيرة الأقرب إلى الأقزام، فاضطر مظلوم أن يقف أمامه، يجد مظلوم صعوبة في التحدث معه وهما واقفين، يبتسم مظلوم من رؤية الحاخام، فهو يهودي بكل معنى الكلمة، نفس الأوصاف المذكورة في تشريح اليهود القدماء والمذكورة في التوراة، يقولون إن قصر القامة في اليهود، راجع إلى العيش في الجيتو – حواري اليهود في كل مكان - وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد، كما أن الحاخام الأكبر ضيق الصدر، والقفص الصدري مسحوب مسطح، وذلك لتعود اليهود القدماء على ممارسة أعمال معينة تؤدي إلى ذلك، مثل الخياطة والصياغة وصناعة الأحذية، ما يستوجب الانحناء لساعات طويلة.

أما مظلوم فيخالف الأوصاف تمامًا، لقد تحدث في هذا مع الحاخام الأكبر، فضربه الحاخام على بطنه.. كان يريد أن يضربه على كتفه، لكنه لم يستطع الوصول إليها لقصره الظاهر، ثم قال: «إنك بجسدك الطويل العملاق تفسد ما ندعيه، من أننا جنس أصيل، لم تختلط بنا أنواع أخرى».

يضحك مظلوم مجاملة للحاخام، فمظلوم خير شاهد على فساد هذه النظرية، فجدته لأمه مسيحية، تزوجت من جده تاجر الملابس الداخلية بالموسكي، كانت واضحة الطول، بينما جده في طول هذا الحاخام. جده كان يهوديا أصيلا، وجاءت أمه مثل أمها، طويلة جدًا. وظلت متمسكة بديانتها المسيحية، وهو حائر بين

الديانتين. وسعيد لأنه جاء طويلا مثل أمه. لكن والده – هو الآخر – لم يكن يهوديا أصيلا كما يدعي اليهود، فهو لم يكن قصيرًا، وإن كان أقل طولا من أمه.

قال الحاخام وهو ينظر إلى سقف المعبد المرتفع: «راب حاييم صاحب المعبد كان قاضيًا لليهود في وقته، لكن أصابه العمى فجأة، وظل قاضيًا رغم ذلك، لكن بعض المتخاصمين لم يعجبهم حكمه فاتهموه بأنه انحاز بالظلم للمختصمين الآخرين، فغضب القاضي راب حاييم وقال لهم: سأصعد إلى بيتي، وفي الغد سأحضر إليكم في مقر المحكمة، فإن كنت ظالمًا – كما تدعون – فسأظل أعمى كما أنا، أما إذا كنت عادلًا، فسيرد الرب لي بصري.

وجاء إليهم في اليوم التالي وقد رد الرب له بصره، فآمن الجميع به، حتى المسلمين والمسيحيين، وشاعت حكايته هذه إلى أن وصلت إلى حاكم البلاد – في ذلك الوقت - فأقام ذلك المعبد على نفقته الخاصة، تخليدًا لذكراه».

صمت الحاخام قليلًا، وسأل مظلوم: «تعرف معنى كلمة راب؟»

لم يجبه مظلوم بشيء، وضاق بطريقة استجوابه هكذا، فأكمل الحاخام: «معناها الحاخام، ومنها جاء اسم مذهب اليهود الربانيين، أي الذين يتبعون الحاخامات».

لم يرتبط مظلوم باليهودية في أول حياته، لكنه اضطر لزيارة المعبد مع عدد من أصدقائه اليهود، كانوا يبحثون عن عمل دون طائل، فصاح أحدهم: «الحل أن نذهب لمقابلة الحاخام الأكبر، فحتمًا سيجد عملًا لنا».

ورأى يومها موشي فنتورا، لم يقل كلمة واحدة، فقد تولى غيره شرح حالتهم، فأومأ الحاخام الأكبر، ووعد بمساعدتهم، وشكرهم لثقتهم في معابدهم وحاخاماتهم. وبالفعل، أوفى الرجل بوعده، وكان سببًا في أن يعمل في وزارة الأوقاف، فحسن بدوي كان عضوًا في المحفل الماسوني، وقريبًا جدًا من الحاخام الأكبر.

وضع الحاخام ذراعه القصيرة فوق ظهر مظلوم العريض:

- ألم يحن الوقت لتتزوج؟

- لم يحن بعد.

- أنت يهودي، ولا بد أن تتزوج وتنجب.

وتلا الحاخام الآية 28 من سفر التكوين: «وباركهم الرب، وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض».

يقرأ مظلوم كثيرًا في الكتاب المقدس، الذي ورثه عن أمه التي ظلت متمسكة بمسيحيتها مثل أمها، لكن مظلوم ارتبط أكثر باليهودية، وذلك منذ أن التحق بالمحفل الماسوني، لم يذهب إليه من أجل الدين – رغم

علمه بأن معظم أعضائه البارزين من اليهود - ذهب إليه ليكون قريبًا من رئيسه حسن بدوي، وكيل وزارة الأوقاف الذي كان مظلوم يعمل بها. (هكذا أوصاه الحاخام الأكبر) أحاط اليهود بمظلوم وحدثوه عن الطائفة الإسرائيلية التي تحمل في طياتها كل تناقضات العالم. دين يدعو إلى القوة، حتى نبيه – موسى – كان قويًا جدًا، وأعداد كبيرة من الطائفة تملك المال والبنوك والمصانع التي تعطيها القوة، رغم هذا كله، تعيش الطائفة في خوف وقلق من المسلمين الذين يمثلون الأغلبية، والمسيحيين الأقل عددًا منهم.

يمثل مظلوم القوة، بجسده العملاق القوي، لقد لعب مصارعة في نادي المكابي، وكان يصرع اللاعبين في كل النوادي، ويفخر لأنه يحقق ما يريده الدين اليهودي، فهو وريث موسى القوي وشمشون الذي كان يقتلع الأشجار من الأرض، ويصرع الأعداء.

واستعد الحاخام لترك المعبد الذي جاءه زائرًا، فشد على يد مظلوم قائلًا: «سيترك حسن بدوي مناصبه الحكومية والسياسية، هكذا أراد الإنجليز، وأنت مرتبط به، لا بد أن تلحق نفسك».

- ماذا أفعل؟

- الملك فؤاد يحب حسن بدوي ولن يبخل عليه بشيء، خاصة في هذه الأيام، ونحن نرغب في الاستفادة من هذا الموقف.

- ماذا تقصد بـ «نحن» هذه؟

- الطائفة الإسرائيلية كلها.

لقد اشترك الحاخام الأكبر في جلسات حسن بدوي ومظلوم، في المحفل الماسوني وفي المعبد الذي كان حسن بدوي يزوره كثيرًا، وفي وزارة الأوقاف، ثم الديوان الملكي بعد ذلك، وكان موشي فنتورا يشترك معهم في حل مشكلات الملك، مع ابن أخيه عباس حلمي – الخديوِ المخلوع من قبل الإنجليز؛ ومع سعد زغلول وحزب الوفد، ومع السردار الإنجليزي الذي يتدخل فيما لا يعنيه. وكان الحاخام رشيدًا يشرح لهما أبعاد كل عملية، ويأتي بمثيلها من التوراة التي كان يتحدث عنها كثيرًا في لقاءاتهم.

مظلوم غير مطمئن للأيام المقبلة، يحس أن النعيم الذي عاشه مع حسن بدوي، قد انتهى أمره، وسيقاسي من الآن. ما له هو وما يقوله فنتورا هذا؟! إنه لا يحمل شهادات تؤهله لأن يعمل عملًا مهمًا، ولا يفهم في أمور التجارة كمعظم اليهود، فماذا يفعل؟!

قال للحاخام الذي يستعد لمغادرة المعبد: «سألجأ إليك في القريب لتجد لي عملًا مناسبًا».

أمسك الحاخام يد مظلوم الممتدة بجانبه: «أمامك منطقة الطابية، أرض واسعة بلا استغلال، وبها عدد كبير من إخواننا اليهود، في حاجة إلى مساعدتك».

أومأ مظلوم برأسه، وظل بعض الوقت في المعبد. تابع السقف الخشبي المرتفع والمطلي باللون البني، والأعمدة الخشبية الداكنة اللون، وَدَّ لو نام فوق مقعده لساعات طويلة.

اقترب خادم المعبد من مظلوم وهو يتابع النقوش المذهبة على الجدران، يراه الخادم لأول مرة، ومن ملابسه وحديث الحاخام الأكبر له؛ أحس بمدى أهميته، فشد على يده مرحبًا، وقال له: «إنه معبد قديم يرجع لأكثر من مائتي عام».

- جئت لمقابلة الحاخام الأكبر.

- المعبد يرحب بك في أي وقت.

انصرف الخادم لقضاء بعض أعماله وانصرف مظلوم هو الآخر. سار في شوارع خان الخليلي، وَدَّ لو عاد إلى بيته في عابدين لينام، فالجو بارد، وهو يسهر إلى وقت متأخر من الليل مع حسن بدوي الذي يفضل البقاء معظم الوقت خارج البيت. يصادق الممثلين، خاصة الممثلات، ويجالسهم، ويذهب إلى الندوات الأدبية، يرفع يده ويتحدث مع المحاضرين، يبدي رأيه في كتب العقاد وطه حسين، لا يدري متى يقرأ هذه الكتب، وهو لا يمكث في بيته إلا قليلًا.

عندما وصل إلى بيته أخبره خادمه بأن حسن بدوي سأل عنه أكثر من مرة بالتليفون، وجاء إلى بيته بنفسه،

وهذا لم يحدث إلا مرات قليلة طوال علاقتهما الطويلة معًا.

أسرع مظلوم لمقابلته دون أن يرتاح من عناء اليوم.

1() أعقاب السجائر التي يجمعها الأطفال من الشوارع لبيعها بعد ذلك.

أحلام وصال الوردية

تشد وصال شعر ابنتها الصغيرة جوهرة لكي تمشطه لها وتعقد به «الفيونكة» الحمراء من الخلف.

شعر جوهرة أكرت يصعب تمشيطه، ويجعل الفتاة الصغيرة تبتعد برأسها لتتفادى شد أمها له.

تريد جوهرة أن تنتهي أمها من تمشيط شعرها الذي يسبب الآلام لها لكي تلحق بكمال الذي ينتظرها على ناصية شارعهم ليذهبا إلى الأراضي الزراعية التي يزرعها اليهود في عزبة جون؛ فيلعبا هناك بجوار سواقي الماء العديدة.

تتصرف وصال بعصبية، تصيح غاضبة في ابنتها، تشد شعرها في عنف فتنجذب الفتاة بجسدها الضامر إليها، تصطدم بها: «إن لم تثبتي في مكانك لن تخرجي من البيت».

تدق الفتاة الأرض الترابية اليابسة بقدميها في عصبية، فقد يضيق كمال من تأخرها ويعود إلى بيته، أو يذهب إلى مكان آخر لا تعرفه. وهي لا تستطيع أن تزوره في بيته، تخشى أن يقابلها في جفاء لما فعله والدها به. حينذاك، ستعود إلى بيتها خائبة، تجلس مع أمها وجدتها نظيرة، تتأمل صمتهما الدائم.

لو تستطيع وصال لمنعت ابنتها من الذهاب إلى الولد كمال هذا. البنت شديدة التعلق به، تأتي به إلى البيت بحجة أن يساعدها في فهم دروسها التي يصعب عليها

فهمها، فهو يسبقها في المدرسة بعامين، ثم يدوران في البيت الكبير الذي يمتلكه زوجها.

تصيح وصال: «إن لم تثبتي أمامي؛ سأقسم بأغلظ الأيمان بألا تخرجي من البيت اليوم».

تهز نظيرة جسدها المتهالك من فوق كنبتها الأثيرة التي لا تنزل عنها إلا لقضاء حاجتها. الكنبة في الحجرة المواجهة للصالة التي يقضون بها جل وقتهم، تتابع نظيرة ما يحدث في ضيق. تزفر من وقت لآخر وتتنهد في أسى، تحاول ألا تتدخل بين المرأة وابنتها الصغيرة لكيلا تغضب زوجة ابنها. لكن البنت جوهرة «صعبانة» عليها.

شكت وصال لها من قبل، قالت: «أخاف من عواقب هذه العلاقة».

- أجننتِ يا وصال؟ البنت لم تتعدَّ الثامنة، والولد أكبر منها بعامين، لا أكثر.

- قد تنمو هذه العلاقة وتحدث المشكلة عندما يكبران.

ضحكت نظيرة ثانية، أرادت أن تطيل في ضحكتها كما كانت تفعل أمها ملاذ من قبل، لكن السعال يطاردها – الآن – كلما ضحكت. تسعل حتى تكاد تموت.

تدخلت نظيرة هذه المرة غاضبة: «دعي البنت تذهب يا وصال».

لم تجبها وصال بشيء، شدت شعر ابنتها في عصبية حتى بكت، وتابعت العجوز بطرف عينيها، ثم عادت للم

شعر الفتاة. لا تدري ما الذي سيحدث لها في هذا البيت.

انتهت من تمشيط شعر ابنتها، فخرجت جوهرة سعيدة، تقفز وهي تجري وتغني بأغان يغنيها أطفال اليهود في المناسبات. وجلست وصال فوق كنبتها حزينة، لم تنظر ناحية العجوز. تنهدت في أسى وأمسكت غطاء رأسها الذي كان ينسدل ببطء فوق شعرها الناعم وهي مشغولة عنه بعقد شعر ابنتها الأكرت. لماذا لم يأتِ شعر ابنتها ناعمًا وجميلًا مثل شعرها؟! يقول الناس في عزبة جون وفي سوق السمك إن جوهرة قد أخذت الكثير من أبيها منير، شعره الأكرت وكبر أنفه وضيق عينيه. تبتسم وصال في سخرية لهذه الملاحظة.

انشغلت وصال بفك عقدة غطاء رأسها بأسنانها وهي شاردة في منير زوجها.

كانت تعيش في سوق السمك مع والديها. تعمل أمها خادمة في بيوت الأغنياء – خاصة اليهود - ويجلس والدها على ناصية الحارة، يدق أحذية اليهود المهترئة نظير ملاليم قليلة، وتعمل هي حائكة ملابس في مشغل بمحطة الرمل تمتلكه يونانية. والدها قانع برزقه القليل الذي يأتيه من رتق الأحذية، وزوجته راضية عمًا أعطاه لها الرب. لم يفكرا في الانتقال إلى عزبة جون لامتلاك أرض يزرعانها، ما لهما وما للزراعة التي لا يعرفانها ولا يفكران فيها؟!

وتأتي نظيرة إلى سوق السمك لزيارة صديقاتها، فالصلة لم تنقطع قط بين يهود سوق السمك وعزبة جون. الفتيات هناك يعرفن نظيرة، رغم أنها ولدت في عزبة جون، وعاشت هناك.

نظيرة سوداء، ذات تقاطيع جامدة، وشعرها أكرت، تقول الفتيات هناك لوصال إنها تشبه مخلوف الرسام إلى حد كبير.

الفتيات لم يلحقن بمخلوف ولم يرينه. لكن سمعن عنه من أمهاتهن وقريباتهن، حكين لهن أنه كان يعيش في آخر أيامه في سوق السمك، تاركا شعره الأكرت يكبر ويحيط بوجهه الأسود، وتضحك الفتيات اللائي يعملن مع وصال في مشغل التطريز، تدهش وصال لضحكهن هذا، ماذا يقصدن؟!

نظيرة ابنة بنيامين؛ جاءت أمها بها بعد ذهابها وإقامتها مع زوجها في عزبة جون. تهمس أقرب فتاة إلى وصال: «لقد كان مخلوف الرسام عشيق أمها، وعاشت معه آخر أيامها».

لم تهتم وصال بهذا كله، ما شأنها بنظيرة التي جاءت من علاقة آثمة بين أمها ملاذ وعشيقها مخلوف؟! لكن وصال دخلت شقتهم ذات يوم فرأت نظيرة هناك، كانت تكشف عن شعرها المهوش حول وجهها، والذي غزاه الشيب، وأنفها الكبير الذي يهتز مع حركاتها وهي تتحدث. وأم وصال وأسرتها حول نظيرة، يضحكن من

حديثها وكلماتها اللاذعة.جاءت محملة بالهدايا. زارتهم كثيرا من قبل، كانت تأتي بطولها، لا تحمل شيئًا، فما الذي جد؟! لقد جاءت لخطبة وصال، نعم، تريدها زوجة لابنها منير الذي امتلك بيت جده بنيامين، والذي يغذي دكاكين الإسكندرية كلها بيمب وصواريخ الأطفال.

أسرعت أم وصال خلف ابنتها، فرحة: «نظيرة تريدك لابنها منير».

تعرف وصال منير، هو شديد الشبه بأمه، بأنفه الكبير وعينيه الضيقتين، لكنه يمتاز بجسد قوي، تردد نظيرة عن ذلك: «جسده مثل جسد جده بنيامين».

ويضحك السامعون من قولها، ويعلقون ساخرين بعد أن تتركهم، تصيح وصال في أمها بصوت سمعه كل الحاضرين في الخارج بما فيهم نظيرة: «لا أريد أن أتزوج».

لم تقصد وصال أن ترفض منير، فقد كان مغريًا بجسده الكبير وقوته الواضحة. لكنها تريد أن تعمل في السينما. الفتاة الصغيرة ليلى مراد التي كانت جارتهم في المسكن، أصبحت نجمة الآن. مثّلت مع محمد عبد الوهاب ويوسف وهبي وحسين صدقي؛ رغم أن وصال حاولت هذا قبلها. كانت تذهب إلى وكيل الفنانين في المنشية، تقف على بابه بالساعات منتظرة أن يأتي «ريجيسير» طالبًا فتيات يرقصن أو يغنين في الأفلام

التي تصور في الإسكندرية، كانت ليلى مراد تأتي معها، تسألها عن الأجر الذي يدفعونه لها.

لكن والد ليلى يعرف المخرجين والمنتجين، فجعلها تقوم بأداء أدوار مهمة في السينما، خاصة مع توجو مزراحي اليهودي الذي كان يأتي بنفسه لزيارة أقاربه في سوق السمك، وكان يجالس زكي مراد – والد ليلى – ويسمع غناءه. لكن وصال ليس لديها أحد. والدها يدق الأحذية المهترئة في سوق السمك، وأمها لم ترَ فيلمًا أو مسرحية في حياتها.

وصال ليست أقل جمالًا من ليلى مراد، لهذا تصر على مواصلة الكفاح لكي تصل مثلما وصلت ليلى مراد اليهودية مثلها.

ليلتها خرجت نظيرة من بيتهم خائبة وقالت: «كل فتيات اليهود يتمنين ابني، وسترون، سأزوجه ست ستها».

بكت أم وصال، وشدت ابنتها من شعرها وهي تقول: «يا خائبة، الشاب يمتلك بيتًا كبيرًا وأرضًا في عزبة جون».

- والتمثيل يا أمي؟

رمى والدها كوب الشاي من يده، حطمه فوق أرض الحجرة الوحيدة التي يسكنونها، صاح: «ستظلين بلا زواج، إنك فقيرة، والشباب الآن يريدون الدوطة، من أين سنأتي بها لهم؟!»

بكت وصال، فركت قدميها بعضهما ببعض. قالت أمها: «منير آخر فرصة لك في الزواج، فإما تبقين بلا زواج العمر كله، مثل الكثيرات من فتيات اليهود، أو تتزوجين شابًا لا يمتلك شيئًا، وتعيشين معه مثلما أعيش مع أبيكِ الآن».

دفع والدها الزجاج المكسور بقدمه الحافية وهو يسب وصال وأمها التي تعايره بفقره دائمًا، حتى سال الدم من قدمه.

قالت وصال: «لن أترك السينما مهما فعلتما بي».

صاح والدها وهو يضمد جرح قدمه: «لعنة تلعنك أنت والسينما في يوم واحد».

واقتربت وصال من أمها، قبلتها لكي تكف عن البكاء: «سأذهب في الغد إلى وكيل الفنانين، لقد وعدني بدور في فيلم سيصورونه في الإسكندرية، وبعدها سأنطلق مثل ليلى مراد، التي تعرفينها جيدًا، وسأنتشلكم من الفقر، مثلما انتشلت أهلها من الفقر».

دفعتها أمها عنها، وذهبت إلى «الوابور»، تشعله لتعد الطعام.

قالت زميلتها في مشغل التطريز: «منير مثل الثور، ونساء اليهود في سوق السمك يتمنينه».

- لكنه ليس وسيمًا.

- الحقي وتزوجيه قبل أن يجد زوجة غيرك.

لم ترغب وصال في أن يكون زوجها قويًا ومتينًا مثل منير، المهم أن يكون مثل نجوم السينما: حسين صدقي، وأنور وجدي، ويحيى شاهين.

عندما ذهبت إلى وكيل الفنانين لم تجده، ظلت جالسة فوق درجات البيت الكبير الذي يقع فيه مكتبه إلى أن جاء، لم يرحب بها، سار في تثاقل وكأنه لم يرها وهي تجلس فوق البلاط العاري:

- يا أستاذ، يا أستاذ.

- الفيلم يصورونه الآن في القاهرة.

- أعطني الدور الذي وعدتني به، وسأسافر إليهم في القاهرة.

كان الرجل يتحدث دون أن يلتفت إليها: «عملي يقتصر على الإسكندرية فقط. في القاهرة مكاتب فنانين أخرى».

دخل مكتبه، وأغلق الباب خلفه، وظلت تنتظر أمام الباب إلى أن ملت، فعادت إلى بيت أمها. لو كان والدها مثل زكي مراد لمثلت مثل ابنته ليلى مراد.

كل الطرق تؤدي إلى عزبة جون التي يسكنها منير ابن نظيرة والتي لم ترها وصال يومًا، وتتمنى ألا تراها أبدًا. لكن وكيل الفنانين – اليهودي مثلها – أغلق الباب خلفه وهو داخل لكيلا يقابلها. حتمًا هو يعرف نظيرة، ويعرف ابنها الطويل والعريض كتور. هما اللذان أوصياه بأن

يعاملها هكذا، وأن يتجاهلها لكي تقبل بالزواج من منير. والدوطة التي انتشرت بين يهود الإسكندرية.

يأتي الشاب راغبا في الزواج؛ وفي مبلغ كبير تدفعه له أسرة الزوجة كسلفة للاستعانة بها في إتمام الزواج أو شئونه الأخرى، وتستحق السداد في حالة وفاة الزوجة أو طلاقها، ذلك الأمر جاء به اليهود الكثيرون الذين جاءوا من أوربا ليستثمروا أموالهم في مصر، بعد أن وجدوا لليهود مزايا كثيرة فيها.

أرسلت أم وصال مرسالًا إلى نظيرة بأن تأتي إلى سوق السمك، فقد وافقت البنت على الزواج من ابنها منير. وبذلك صار منير الطويل العريض القوي زوجًا لوصال.

* * *

عندما يأتي الليل؛ تحس نظيرة بالقلق، تخشى الموت الذي سوف يأتيها مساء وهي نائمة. تعرف هي هذا، لا تنتظره ولا تريده أن يأتي، لكن ذلك مصيرها، ستدفن بجوار ضريح جون، بجوار مخلوف وبنيامين وملاذ وغيرهم. لقد قُتلت ملاذ – أمها – بيد أخيها ساهر ودفنت بجوار ضريح جون، ثم مات بنيامين أمامها بعد أن هده المرض، بعدها بسنوات قليلة، ومخلوف - الذي يدعون أنه أبوها الحقيقي - مات أيضًا. كلهم مدفونون قريبًا جدًا من ضريح جون. أرض شاسعة بلا أسوار. إذا

نظرت من القطار الذاهب – أو العائد – من رشيد؛ سترى هذه القبور.

تضحك نظيرة وهي نائمة فوق سريرها ذي العمدان العالية السوداء، تمسك حديد السرير بيديها، وتشد جسدها ناحية الوسادة، تشعر بالتلذذ، تأتيها ملاذ، تراها فوق ضلفة النافذة المغلقة، تشعر بحنان نحوها. لقد كانت بيضاء، وممتلئة، عندما تسير تجر خلفها عجيزتيها، وتنتظرهما حتى يعودا إليها، لتكمل المسير.

كانت تحبها ملاذ، ذلك أمر بديهي، فكل أم تحب بناتها وأولادها. لكن ملاذ أحبتها أكثر من كل إخوتها، ربما لأنها آخر العنقود، أو لأنها ابنة مخلوف الذي أحبته ملاذ أكثر من بنيامين رغم أنها لم تتزوجه. قبل أن تنجبها بشهور قليلة؛ امتنعت عن بنيامين ولم تتعامل إلا مع مخلوف.

ترك بنيامين كل شيء.. الحلاقة، ومداوة الجرحى، وطهارة الأطفال، والنساء، ولم يعد يذكر شيئًا سوى أن يرث ما تركه جون - ابن عمه - أن يضع يده على أرض جون المترامية الأطراف، بينما كان مخلوف مشغولًا بملاذ.

تضحك نظيرة لذلك الاستنتاج. تشد جسدها ثانية، تسمع أزيز السرير. تتذكر عندما كان يئز تحت جسدها وجسد عزيز - زوجها - ليس هذا وقته، فلتعد إلى ملاذ – أمها – ومخلوف الذي يدعون أنه والدها الحقيقي.

تضحك نظيرة، العمر طال، وتقترب – هي - الآن من الثمانين، وعزيز زوجها مات مثل الذين ماتوا، ولم يعد لها سوى الذكرى. ذكرى ملاذ ومخلوف. لقد صنعا قصة غرام جميلة، تركت أثرًا في سوق السمك وعزبة جون، وما زال الحديث دائرًا بين اليهود عنهما. تضحك نظيرة، ذلك لا يزعجها. والدها، والدها. فهي تفخر بأنها كانت نتاجًا لهذه العلاقة الجميلة، ولا تتمنى أن تكون ابنة بنيامين – الذي تنتمي إليه رسميًا - فقد كان أنانيًا، وسيرته سيئة للغاية، وكانت ترتاح لمخلوف الذي يضمها لصدره حانيا، وملاذ تتابعهما راضية سعيدة.

تقوم نظيرة عن فراشها، لم تلبس روبًا ليخفي عريها، فتحت باب حجرتها. منير نائم مع أسرته. أشعلت شمعة كبيرة وسارت في البيت. هبطت الدرجات القليلة. واجهها الظلام من بعيد، ما الذي يدفعها لفعل هذا؟! لعل الموت - الذي أخذ ملاذ ومخلوف وكل الذين أحبتهم – آتٍ؛ لذا، تبحث عن أشيائها القديمة. دفعت باب الحجرة البعيدة ودخلت. الحجرة مظلمة ليلًا ونهارًا؛ مثل حجرة مخلوف التي كانت أمها تقابله فيها. الشمعة لا تنير سوى جزء قليل حولها، والأشياء مبعثرة في كل مكان، فتصطدم قدماها بالأشياء الملقاة.

ترفع الشمعة لأعلى لترى لوحة رسمها مخلوف لنفسه، وجهه المستطيل، وشعره المهوش، وأنفه البارز، والشعيرات المبعثرة فوق خديه، لقد أجاد في رسم اللوحة، لكن، لماذا لم يجمل الصورة؟ لماذا أصر على أن

يكون كما هو بوجهه غير الوسيم، وبشعره المهوش؟ ولوحة أخرى لها وهي صغيرة. نفس القسمات والشعر الأكرت الذي يصعب تمشيطه. عندما ترى وصال – زوجة ابنها – تمشط شعر ابنتها – جوهرة – بصعوبة، تتذكر أمها ملاذ، وهي تمشط شعرها، وتشد المشط بخصلة الشعر، فتشعر نظيرة بالألم.

ترفع الشمعة الكبيرة، تكاد تلتصق بوجه مخلوف، تنظر إلى عينيه الغائرتين. اليهود الذين رأوه يحكون عن هذه العلاقة، والذين لم يروه يذكرون ذلك أيضا، طبقا لما سمعوه ممّن قبلهم. البعض يكذب هذا، ويقولون إنها افتراءات. فملاذ لم تخن بنيامين، ومخلوف لم يكن كذلك. تضحك نظيرة في سرها منهم، فقد شهدت العلاقة. لا، لم تقل هذا لأحد، أتفضح أمها الحبيبة؟!

تذكر هذا جيدا، ملاذ ترفعها فوق بطنها المرتفع، وتسير بها في شوارع سوق السمك. إخوتها الكبار يتحدثون مع أمها، هي لا تنزل عن صدرها.

ساهر، يلفت نظر أمه إلى ذلك: «أستظل هذه البنت معلقة فوق صدرك؟!»

تنزلها ملاذ عن صدرها. ونظيرة تبكي راغبة في أن تعيدها ثانية، ترتاح قدماها فوق البطن الطري المرتفع دومًا، فتعيدها المرأة ثانية إليها. رزق يقضي معظم وقته برفقة الهادية – زوجة جون – أو مع هارون صديقه، وباقي الأخوات في سوق السمك، ملاذ بعيدة

عنهم، فقد انصرفت إلى مرافقة مخلوف الرسام وتربية نظيرة ابنتها منه، وانشغل بنيامين بالبحث عن طريقة تجعله مالكا لعزبة جون كلها. وضاع الأطفال بين الاثنين.

لا تأتي ملاذ إلى سوق السمك إلا لمقابلة مخلوف في حجرته. وأين ستقابله؟! شقتها في سوق السمك مزدحمة بالأولاد والبنات. والبيوت في الطابية لا تصلح للقاء؛ خاصة بعد أن قتل الفلاح الشاب زاكن من أجل زوجة أبيه.

ساهر في الخامسة عشرة الآن، فتح دكان بنيامين وحلق شعور اليهود الذين فضلوا البقاء في سوق السمك، وضم أخته وأخويه المتبقين؛ بعد ذهاب رزق وبنيامين، قرر أن ينفق عليهم من الدكان. ويذهب بنيامين إلى حلمه الذي لن يتحقق، ورزق – أخوه الأكبر – إلى الهادية وابنها هارون.

كان ساهر يمسك بطعامه الذي سيتناوله في الدكان، نظر إلى أمه في تقزز وأسرع إلى الخارج. تابعته ملاذ في تردد، ثم أسرعت إلى حجرتيها.أرادت أن تترك نظيرة مع إخوتها إلى أن تنتهي من لقاء مخلوف، لكن البنت الصغيرة لا ترتاح لهؤلاء الأطفال، إنهم يكرهونها، يضربونها إذا ما غابت أمها عنها، فقد أخذت أمهم منهم.

بكت عندما لمست قدماها أرض الشقة، احتارت ملاذ، ماذا تفعل بها، أتأخذها معها؟! الحجرة صغيرة، وسوف

ترى البنت كل شيء. هي الآن لا تدري ما يحدث أمامها، لكن بعد سنوات قليلة ستتذكر كل شيء.

سارت ملاذ في طريقها إلى حجرة مخلوف، فبكت البنت ثانية، وعندما أراد أخ من إخوتها أن يلمسها؛ بكت، فعادت ملاذ إليها، قالت لنفسها: «قلبي لا يريد فراقها، كما أن مخلوف يحبها، ويرتاح لوجودها». وضعتها فوق أرض الحجرة، ووضعت أمامها بعض الأطباق الصفيح لتلعب بها، ونامت فوق سرير مخلوف..

الأطفال الآخرون – الذين جاءوا قبل أن تعاشر مخلوف – غير راضين عما يحدث. يتساءلون: «ما الذي يجعلك تتعاملين مع هذا الرسام؟!»

الأولاد يكبرون. رزق بعيد عنها الآن، وبنيامين لم يعد يهتم بها ولا بما تفعله مع مخلوف.

ابنتها الصغيرة – التي تلي ساهر في العمر – تقول لأمها: «ساهر يقول إنك تعشقين هذا الرسام».

تضحك ملاذ قائلة: «ساهر صار رجلًا».

تذكر نظيرة جيدًا ما حدث، حكت ملاذ للأطفال، ونظيرة فوق الأرض، تشد طرف ثوبها لتضعها فوق صدرها الممتلئ لتلمس بقدميها بطنها البارز. قالت ملاذ: «ذهبت امرأة يهودية إلى الحاخام تشكو إليه وتطلب النصيحة في مشكلتها مع جارها الشرير الذي يغتصبها كل ليلة أمام أطفالها الصغار، فنظر الحاخام إليها من أعلى إلى أسفل نظرة ذات معنى، ورد قائلًا: لا بأس أن

تسترخي وتستمتعي أثناء الاغتصاب طالما هو مفروض عليكِ، ولا تتخشبي حتى لا يؤذيك جارك الشرير. أما عن الأطفال؛ فعليك أن تقصي عليهم حكايات مسلية قبل نومهم لتمنع الكوابيس عنهم من هول ما يشاهدونه كل ليلة».

سعد الأطفال بما تحكيه ملاذ، وأحسوا بأن ذلك الرسام هو الجار الشرير الذي لا تستطيع أمهم مقاومته. وأعجبت نظيرة بهذه الحكاية وظلت تذكرها وتحكيها لصديقاتها بعد أن كبرت، وحكتها لزوجها عزيز الذي مات وتركها، وحكتها منذ أيام لوصال زوجة ابنها منير.

كل يهود عزبة جون وسوق السمك يعرفون مخلوف، الذين عاصروه ورأوه، والذين لم يعاصروه، فكلهم رأوا اللوحة التي رسمها لداود بن عنان مؤسس مذهب اليهود القرائيين، والمعلقة في ضريح جون. عندما تدخل الضريح تواجهك صورته، وعندما يرون الصورة يتذكرون ملاذ التي قُتلت منذ سنوات بعيدة، ومدفونة قريبة جدًا من قبر مخلوف، وبنيامين بعيد عنها، لا تدري نظيرة مَن قام بدفنهم على هذه الصورة، لا شك أنه يقصد أن يقول إن ملاذ كانت أقرب لمخلوف من بنيامين.

تزورهم نظيرة عند زيارتها لضريح جون، تصلي على قبر ملاذ، وقبر مخلوف، وتجزع من ملامسة قبر بنيامين.

تعود نظيرة بشمعتها التي كادت تذوي وتنتهي، تمر بالصالة، تسمع صوت منير ابنها يسعل داخل حجرته المغلقة عليه وعلى زوجته وصال وابنته جوهرة. تطفئ الشمعة وتعود إلى نومها المتقطع الذي تتخلله رؤيتها لجون الذي لم تره، فقد مات قبل أن تولد، لكنها تراه في نومها كثيرا. نفس الوجه الذي حكوا لها عنه. وملاذ بجسدها الممتلئ الذي ظل هكذا حتى قُتلت، ومخلوف الذي كان يبش لها، ويضمها لصدره ويقبلها، فتشد شعره الأكرت المهوش بيديها الصغيرتين.

كيف وصل حسن بدوي للطابية؟

عاد مظلوم إلى بيته في عابدين بعد الظهر، إدريس – خادمه – قابله بابتسامته الواسعة:

- الغداء جاهز.

- إنني متعب، سأنام قبل أن يتصل بي الباشا حسن بدوي.

يعمل إدريس خادمًا عنده منذ سنوات طويلة، الرجل يعرف متطلباته دون أن يطلبها، وذلك من طول العشرة.

نجح حسن بدوي في حصوله على موافقة الملك فؤاد على أن يمنحه أرضًا في منطقة الطابية ليقيم عليها مشاريعه، أرض بلا ثمن، هبة من الملك؛ نظير ما قدمه له من خدمات. الحاخام موشي فنتورا يسأل من وقت لآخر عما حدث في أمر المشاريع، كأنها ستقام من أجله. قال مظلوم للحاخام بعد أن ضاق بإلحاحه: «من رأيي أن تقابل الباشا بنفسك، لتقترح عليه ما تريد».

صاح الحاخام غاضبًا: «لا تنسَ أن الحظوة التي نالها لدى الملك فؤاد، كانت بسبب مساعداتي له، أنا الذي عرفته بالجواسيس الذين نقلوا أخبار الخديوِ المخلوع الذي يطالب بالعودة إلى العرش وأنا الذي...».

تذكر مظلوم المرأة البدينة في بار الأزبكية، «لقد هربت عندما علمت بأنني يهودي مع أنها تحملت ضرب وإهانة الرجال الذين يرتدون الملابس البلدية»، هذه هي مشكلة مظلوم، يخاف أحيانا من أن يكون إدريس

يكرهه، ولا يبدي له الحب إلا من أجل راتبه الذي يقبضه منه أول كل شهر، لكن ذلك محال، فالرجل يحبه حقًا، ويقلق من أجله، ويظل ساهرًا إلى أن يعود، مهما تأخر في الخارج.

وافق حسن بدوي على إقامة مشاريعه في منطقة الطابية من قبل أن يراها، أو يعاين الأرض فيها. كان الباشا يفكر في الأمر ويترك لمظلوم التنفيذ.

* * *

خرج حسن بدوي ومظلوم من فندق سيسل بمحطة الرمل بالإسكندرية في السادسة صباحًا، استقلا السيارة التي يقودها سائق حسن بدوي الخاص، في طريقهما إلى الطابية، لمعاينة الأرض الجديدة الممنوحة من الملك فؤاد إليه.

الطريق طويل وموحش، لقد زار مظلوم الطابية عدة مرات، تقابل فيها مع منير صديقه – صانع البمب والصواريخ – وأمه نظيرة التي لا تكف عن الضحك والسخرية من كل شيء. وزار ضريح جون، وشرب شاي مورجان خادم الضريح، ودخن الشيشة، وتابع نساء اليهود المتشحات بالسواد واللاتي يأتين لزيارة الضريح والتمسح به .

الطريق ضيق، محاط بمصرف مياه من الناحية اليمنى، وعلى يسار الطريق شريط السكة الحديد

المؤدي إلى رشيد، ونساء العزب يغسلن ملابسهن وأوانيهن في ماء المصرف العكر.

تأفف حسن بدوي من رؤية هذه الأشياء، وقال لمظلوم: «هل أستطيع أن أعيش في مكان مثل هذا؟!»

- لا بد أن تتحمل يا باشا.

دق مظلوم باب بيت منير، ففتحت الباب امرأة شابة، أخفت وجهها خجلة عندما رأتهما أمامها. قال مظلوم: «جئنا لزيارة منير، أظنك زوجته».

أومأت برأسها وابتسمت خجلة، ثم أفسحت الطريق لدخولهما. خرج منير من حجرته، وتبعته أمه، إنها تحب مظلوم، وتسعد لمقابلته، فهو يضحك كثيرا من نكاتها وقفشاتها.

- أهلا خالة نظيرة.

ثم نظر ناحية حسن بدوي وصاح: «تفضل يا باشا».

سعد منير بهذه الزيارة، مَن يصدق أن حسن بدوي باشا – الذي كان الرجل الثاني بعد الملك في وقت من الأوقات - يزوره في بيته؟! لكن نظيرة لم تهتم، ملك ولا سلطان، الرجل هو الرجل، لقد قابلت في حياتها أهم من حسن بدوي ومن الملك فؤاد نفسه.

جلس مظلوم وحسن بدوي ومنير ونظيرة في الصالة، ووقفت وصال من خلف الباب الموارب تتابعهم، جاء مظلوم إلى البيت من قبل، رأته وصال من مكانها هذا، تذكرت رؤيتها لمنير زوجها قبل الزواج، كان طويلا

وعريضا مثل مظلوم هذا، وسعدت بذلك، صدقت صديقاتها في المشغل الذي كانت تعمل به، عندما قالوا لها إن قوته هذه ستظهر وتتضح عندما يقابلها على الفراش، لكن هذا لم يحدث، لقد كان متعبًا، وتعامل معها في فتور. قالت في نفسها: «ما يفعله الآن لا يتماشى مع طوله وعرضه».

أتظن أن مظلوم هذا مثله، أم أن حالة منير زوجها حالة خاصة؟!

تحدث مظلوم وحسن بدوي عن إقامة مصانع الورق، والصلصة، والألبان. وخرجوا بعد أن شربوا الشاي الذي صنعته وصال، لكي يتفقدوا المنطقة، ويحددوا أماكن إقامة المصانع.

تابعتهم وصال وهم يخرجون إلى الشارع، ونظيرة تودع الضيفين، وتطالبهما بإعادة الزيارة.

قالت نظيرة وهي تقترب من وصال: «مظلوم هذا مثل البغل».

قالت وصال في استخفاف: «جسده قريب الشبه من منير ابنك».

أرادت نظيرة أن تجيبها، أن تقول إن منير ابنها أقل منه بكثير، لكنها أدركت ما تقصده زوجة ابنها، فصمتت.

لقد شكت وصال، بعد زواجها بأيام قلائل، من أن منير الذي يشبه الثور، لم يستطع معها، قالت هذا بلا حياء،

وفي ضيق، وأنها لم تعد تستطيع احتماله، فهو يرهقها بنومه عليها بجسده الثقيل بالساعات دون طائل.

سبتها نظيرة وقتها، وقالت لها: «هذه أمور لا يجب أن تشكو المرأة منها علنًا هكذا».

وأخذت نظيرة الولد منير إلى طبيب يهودي اسمه ساسون في شارع إيزيس براغب باشا. الطبيب يعرف نظيرة جيدًا، فقد زارها في الطابية، وزارته كثيرًا في عيادته هذه، الرجل عجوز، يقترب عمره من عمرها، لكنه متماسك. عندما رآها خرج من وراء مكتبه، وشدها إليه وقبلها، هكذا أمام ابنها العملاق، ثم نظر إلى منير وقال: «لا تؤاخذني فأنا أعرف أمك من قبل أن تولد».

الطبيب متخصص في الأمراض الجلدية والتناسلية، وعالج آلاف المرضى في الإسكندرية، خاصة في الأمراض التناسلية.

أرادت نظيرة أن تحكي له عن حالة ابنها دون أن يكون منير معهما، لكن الولد لم يفهم قصدها فظل جالسا في غباء بينهما. ما اضطر الطبيب أن يسأل: «خير يا نظيرة، تشكين من أمراض جلدية».

- بعد الشر، الولد ابني تعبان شوية.

- متزوج؟

- لم يكمل شهرًا.

فحصه الطبيب في الداخل، وظلت نظيرة في انتظارهما. عاد الرجل بعد أن غسل يديه، قال وهو

يجففهما: «ما زلت تعمل في صناعة البمب والصواريخ يا سيد منير؟»

- مهنتي التي لا أعرف غيرها.

- هذه هي مشكلتك.

فهمت نظيرة ما يقصده، فضربت على صدرها جزعة: «والعمل يا دكتور؟!»

أخذ الطبيب يكتب العلاج: «سأصف له مقويات لتعينه».

المفرقعات التي يعمل بها أضعفته جنسيًا، جعلت أعصابه مرتخية، غير قادرة على الانتصاب، وجعلت البنت وصال تسخر منه، وتتعالى عليه.

قال منير وهو يمسك روشتة العلاج: «هل لا بد أن أترك هذه المهنة».

مط الطبيب شفتيه وقال: «الذي أستطيع قوله إن المفرقعات قد أثرت على قدراتك، دبر حالك».

عادت نظيرة حزينة، سارت في شارع إيزيس في طريقها إلى محطة مصر، لتستقل سيارة توصلها إلى الطابية، تعرف هي أن ابنها لن يترك مهنته مهما حدث له، والبنت وصال في عجلة، تريد أن تحس بأنوثتها، وأن يتعامل زوجها معها كرجل.

كان ساسون يأتي إلى عزبة جون لعلاج اليهود هناك، اليهود أصيبوا بأمراض جلدية – خاصة الأطفال الصغار

- وذهبت نظيرة إلى العيادة التي أنشأها عامين، قبل أن يموت، لعلاج اليهود لم تكن تشكو مرضا جلديا، ربما شكت من آلام في البطن، لكنها قابلت ساسون هناك، كان نحيفا وذا وجه أصفر شاحب، لكن عينيه تشعان ضوءًا. لم تكن نظيرة جميلة، لكنها مغرية؛ بخفتها وبجسدها الممشوق، فزارت العيادة كثيرًا، سألته: «لماذا اخترت علاج الأمراض التناسلية؟»

ضحك وقال: «اليهود يهتمون بهذا التخصص، فهم بذلك يتلصصون على حال البلد الذي يعيشون فيه».

حكى لها أن معظم زملائه في هذا القسم كانوا يهودًا.

لم تكن قد أنجبت منير، وكان زوجها يعمل في صناعة المفرقعات، لا تدري لماذا اختار هذه المهنة الغريبة على الشعب المصري كله. كان عزيز زوجها ضعيفًا جنسيًا أيضًا، لكنها لم تفكر أبدًا في أن السبب هو صناعة المفرقعات. أول مرة تعرف هذا الآن.

عندما نزلت من السيارة في طريقها إلى البيت، سألت ابنها: «ستترك صناعة البمب والصواريخ من أجل وصال؟»

- المقويات التي وصفها الطبيب، ستأتي بنتيجة.

عزيز زوجها لم يهتم، وهي لم تشك له حالها، صبرت وتحملت، عوضت نقصها، بالحديث الكثير عن الجنس. تلذذت بهذا، ومات الرجل دون أن تشعره بعجزه، لكن وصال فاجرة، لم ترع زوجها ولا أمه.

نامت وصال في الليلة التي رأت فيها مظلوم قلقة، زوجها دائم العبوس في وجهها، يثور عليها لأقل شيء ، ولا يتردد في ضربها وسب أهلها جميعا، يعايرها بأمها التي ما زالت تعمل خادمة في بيوت الأغنياء، وبأبيها الذي كان يرتق أحذية اليهود على ناصية في سوق السمك . تعرف هي أن هذا بسبب ضعفه الذي لم تؤثر فيه أدوية ساسون الطبيب الذي كان يعرف نظيرة أيام شبابها.

هل مظلوم – العملاق هذا – سيكون عاجزا، أو ضعيفا مثل زوجها. لا تظن، فمظلوم لا يعمل في أشياء تسبب العجز أو الضعف. كما أن وجهه الأحمر وحيويته لا توحيان بهذا.

تقول نظيرة إنه جاء لإقامة مصانع للورق والصلصة والألبان على أرض الطابية، معنى هذا أنه سيكون موجودا أمام وصال، وستراه في كل وقت تريده.

***

جاءت أم محمود إلى بيت مظلوم، امرأة شابة، تميل للامتلاء، وفي وجهها ملاحة ظاهرة، تسكن في عزبة قريبة من المصنع، تأتي لمظلوم بخبز ساخن تخبزه ابنتها في بيتها، وبيض تبيضه دجاجاتها، وتشتري له اللحم من السوق الذي يقام كل أربعاء في قطعة أرض فضاء تابعة لعزبة جون. تتحدث المرأة كثيرا، تحكي لمظلوم عن أخبار المنطقة كلها، التي سرقت وضبطوها

في السوق، فأوسعوها ضربا، والتي فرت من زوجها لأنه يضربها، ويجبرها على العمل في بيوت الأغنياء. سألها حينذاك: «مَن هم الأغنياء هنا؟»، قالت وهي تمسح الأرض: «منير صانع البمب والصواريخ، والدكتور زقيلح، صاحب عزبة زقيلح، وغيرهما».

شرد مظلوم في منير صديقه، الذي يعرفه من قبل أن يأتي إلى الطابية ويقيم فيها، سأل المرأة: «وماذا يقولون عن وصال زوجة منير هذا؟»

شردت للحظات: «ومَن أدراك أن اسمها وصال؟!»

ضحك وأحسَّ بأن المرأة ترتاب فيه: «زوجها منير صديقي منذ وقت طويل».

ضحكت وقالت: «نسيت أنك يهودي مثلهم».

ثم ابتعدت، وعادت بالمكنسة لتكمل نظافة الأرض، تمنى مظلوم أن تكف عن العمل وتقترب منه، تحكي له عن وصال، لكنها لم تكن تكف عن العمل:

- يقولون إن وصال ليست سعيدة مع زوجها منير.
- إنها تكرهه؛ لأنه يكثر من شتمها وضربها.
- لماذا؟! لقد رأيتها، فوجدتها رقيقة و..
- يقولون إن صناعة البمب والصواريخ أثرت عليه كرجل، وإنها تعايره بهذا دائمًا.
- هذه أسرار، فكيف وصلت إليك؟
- أذهب إلى بيتهم من وقت لآخر لأخبز لهم.

- هل يتشاجران أمامك؟

- لا، إنما أسمع بضع كلما ت من منير لأمه، أو أسمع وصال تشكو لنظيرة.

تعود المرأة إلى بيتها بعد أن تقضي حاجات مظلوم، ثم تأتيه في اليوم التالي محملة بالأشياء التي يرغبها.

استأذنت أم محمود وسارت في طريقها إلى بيتها، ونام مظلوم، حلم بأبيه الذي جاءه أحد معارفه بلفة فيها حبات البمبوزيا، أبوه يحب هذه الثمرة، وهو وأمه يحبونها أيضا، لكنه وضع اللفة في الدرج الذي يضع فيه نقوده، وظل يخرج حبة، حبة، ويضعها في فمه، ويلوكها، ومظلوم يتابعه ويتمنى أن يعطيه واحدة، لكنه لم يفعل، حتى أنهى على اللفة.

في اليوم التالي حصل على نقود من أمه، وأخذ يطوف شوارع القاهرة، بحثا عن البمبوزيا، لكنه لم يجدها.

ربما هذا الذي يجعله يكره والده، ويتمنى لو كان له أب غيره، ويعجب كيف تزوجته أمه، وتحدت أهلها الذين عارضوا أن تتزوج يهوديا. وكيف احتملت بخله الشديد.

أمه المسيحية - التي درست في المدارس الأجنبية – تلح على أبيه لأن يلحقه بهذه المدارس ليتعلم الفرنسية والإنجليزية، حتى يجد عملا مناسبا عندما يكبر، لكنه يصر على أن يلحقه بدكانه ليساعده في تخليل الزيتون،

وحفظ الجبنة الإستامبولي في صفائح «مصنكرة»، ووضعها في مخزن الدكان.

بكت أمه واستعطفته لكنه لم يلن أو يرق لها، فأخذته في الصباح إلى المعبد القريب، أمه تدخل المعبد للمرة الأولى، فقد كانت متمسكة بمسيحيتها.

قابلت الحاخام، شكت له وهي تبكي، الحاخام كان يعرف أبوه، فهو يصلي في هذا المعبد، كما أن الحاخام يشتري منه لوازمه.

كتب الحاخام اسمه في ورقة، وأعطاها لموظف في المعبد لكي يلحقه بالمدرسة التي أنشأها عامير بك لأطفال اليهود.

* * *

ما زالت أم محمود تذهب إلى بيت منير صانع البمب والصواريخ، لكي تخبز لنظيرة، صديقتها الطيبة، التي تتحدث معها بود وبلا استعلاء، كمعظم أغنياء المنطقة.

أم محمود أشهر امرأة في العزب الثلاث في صناعة الفطير والقداسية، التي لم تكن نظيرة تعرف صناعتها، ذاقتها من يد أم محمود واستحسنتها، فأعدتها أم محمود أمامها، فنظيرة تحب أن تعمل كل الأطعمة بنفسها. فردت أم محمود فطيرة، ثم لفتها في شكل مستطيل ضيق جدا، وقطعتها بسكين حاد قطعا صغيرة، فبدت كشكل الكنافة التي يأكلها المسلمون في شهر رمضان، لكن فتل القداسية أغلظ قليلا، وسوتها أم محمود على البخار، بأن وضعت إناء به ماء، ووضعت

فوقه مصفاة، ولفت حول الإناء والمصفاة قطعة من القماش؛ لصقتها بالعجين حتى لا يتسرب البخار من خلالها، وبعد ذلك لفت القداسية بالسمن. ووقفت وصال تساعد المرأتين، هي لا تشترك معهما في عمل الخبيز، وتكتفي بالجلوس بعيدا، حتى لا يتعفر وجهها وملابسها من الدقيق، ويملأ الهباب ملابسها ويديها من نار الفرن في صحن البيت الكبير.

تحب وصال حديث أم محمود مع نظيرة، فهما تتبادلان النكات، والتعليقات الساخرة، كما أن حديثهما لا يخلو من معلومات شيقة ومسلية عن اليهود والمسلمين والمسيحيين الذين يسكنون الطابية.

ذهبت أم محمود لإحضار الماء من داخل البيت، وظلت نظيرة أمام الفرن. اقتربت أم محمود من وصال التي تجلس بعيدا، وتراقبهما من بعيد، قالت في صوت خافت: «مظلوم يسأل عنكِ؟»

أحست وصال بقشعريرة، ماذا تقصد هذه المرأة، هل أحست باهتمامها به؟ لكن كيف تحس بذلك، ووصال لم تتحدث فيه مع أحد، حتما الرجل سأل عنها حقًا:

- مَن مظلوم هذا؟

- يقول إنه جاء إلى بيتكم، ورآكِ.

تعرف وصال أن أم محمود تعمل عنده، وأن نظيرة هي التي اختارتها له.

ابتعدت أم محمود، عادت لتجلس بجوار نظيرة أمام نار الفرن، وظلت وصال قلقة، تتابع المرأة في حرص، والمرأة تنظر إليها من وقت لآخر، لتطمئن على حالتها.

قامت وصال من مكانها، أغلقت باب حجرتها عليها، وبحثت بين ملابسها، اختارت فستانين من فساتينها بحالة جيدة، وحذاء، ولفتهم، وعندما خرجت أم محمود حاملة لفة، وضعت نظيرة فيها فطيرتين كبيرتين، وعددا من الأرغفة لمحمود وأخواته البنات، أسرعت وصال خلفها، وأعطتها لفافتها:

- ملابس لابنتك.

أخذت أم محمود اللفافة وقالت: «يتمنى مظلوم أن يراكِ».

أسرعت وصال إلى الداخل خجلة، وابتسمت أم محمود، فقد أحست بأن وصال ترغب في مظلوم، ورددت لنفسها: «وأنا مالي، إنهما يهوديان ويخلصان مع بعض».

جوهرة: (وصال ومظلوم)

وقفت وصال على باب نظيرة، أمسكت ضلفة الباب المغلقة، ووضعت يدها في جانبها متحدية: «أريد أن أعمل في مصنع الصلصة الجديد».

تابعت نظيرة ما يحدث أمامها، فأحست بأن وصال تنوي على الشر، الولد منير أفسد علاقته بها، لقد فشل في معاشرتها، الدكتور ساسون أعطاه بعض المقويات ليتعامل معها عدة ليال، وكان التعامل ضعيفا. فتأثير المفرقعات التي يعمل بها ضيع قدراته، ففشل ونام بجوارها خائرا منهارا. ولم يكتف بذلك، بل أصبح عصبيا، يسبها ويضربها لأقل شيء.

لابد أن تتصرف نظيرة بحكمة، ولا تكون خائبة كابنها. قالت: «لكنك لست في حاجة إلى العمل؟!»

- لا بد أن أشغل نفسي بشيء وإلا مت كمدًا.

ابتسمت نظيرة وقالت: «تعالي يا وصال، اجلسي بجواري على السرير».

تعرف وصال حركات نظيرة، تريد أن تغلبها بلؤمها، لكنها لن تعطيها الفرصة هذه المرة. صاحت في عصبية: «لن تخدعيني هذه المرة، وأنا مصرة على العمل في مصنع الصلصة».

- إنهم يعاملون البنات معاملة سيئة.

- ولو، أرحم مما أعانيه هنا في هذا البيت.

- يا بنتي، منير ابني طيب ويحبك.

- لا، هو ليس طيبًا، ولا أريد حبه هذا.

قامت نظيرة من فوق سريرها، خافت أن تصر البنت على العودة إلى سوق السمك، فيسألونها هناك، عن سبب غضبها من زوجها منير، فتخبرهم بأنه عاجز عن إمتاعها، ولا يقوم بواجباته كرجل.

لمست نظيرة خد وصال، قرصتها منه في ود: «سآخذ الولد منير إلى الدكتور ساسون».

ازدادت وصال عصبية:

- لا أريد شيئًا منه.

- أعرف أنك عصبية من أجل هذا، إنني امرأة مثلك، حقيقة هذه الأشياء تريح المرأة نفسيًا..

انهارت وصال باكية، فضمتها نظيرة إلى صدرها وقبلتها. قالت: «سأرسل في طلب منير من الورشة، سأجعله يوافق على عملك».

* * *

وقفت وصال وسط البنات والسيدات اللائي جئن لأجل العمل في مصنع الصلصة، رجل بدين يرتدي بالطو أبيض ضيق حول جسده، يتفحص كل واحدة، يخاف من أن تعمل امرأة أو فتاة مصابة بالسل فتصيب الناس بذلك الداء؛ لذا طرد كل البنات والسيدات النحيفات. وعندما وصل إلى وصال نظر إليها، تفحصها جيدًا ثم مرّ من أمامها بما يعني أنه قد قبلها عاملة في المصنع. وصال ليست في حاجة إلى أجرة المصنع، كل ما تريده

أن تكون قريبة من مظلوم، وأن تجد فرصة للقائه، وجودها في بيت نظيرة وابنها منير لن يسمح لها بمقابلته.

سار الطابور الذي وافق الرجل البدين ذو البالطو الأبيض على تعيينه، نظرت وصال حولها لم تجد مظلوم، خشيت أن يكون غير معني بمصنع الصلصة، يكون مسئولا عن مصنع الورق أو الألبان، أو الاثنين معا، لو حدث هذا ستجن، ستكون تضحيتها من أجل لا شيء.لا، لو حدث هذا ستسعى للانتقال إلى المصنع الذي يعمل به.

كان عملها أن تدهس كميات الطماطم بقدميها الحافيتين، تابعت قدميها وقد تحول لونهما إلى اللون الأحمر. أي عذاب هذا، أهذا آخر المطاف، أن تضحي براحتها، وتكون النتيجة أن تلطخ قدميها بالطماطم، ومظلوم غير موجود، فجأة وجدت الرجل البدين يسير بجوار مظلوم، وهما يتحدثان، ويمران أمام وصال، مظلوم لم ينظر ناحيتها، معذور، كيف يخطر بباله، أن تأتي وصال إلى هنا، إنها زوجة منير الفني الذي يتاجر في المفرقعات، وتأتي العربات لتحمل بمبه وصواريخه وتذهب بها إلى كل مكان في الإسكندرية؟!

أحست بالتعب، وشعرت بخيبة أملها، لماذا اختارت هذا الحل، أن تعمل في مصنع الصلصة مع الفقيرات اللائي لا يجدن قوت يومهن، ويتحملن سباب وغطرسة المشرفين. ستعود في نهاية عمل اليوم إلى البيت وتقرر

عدم الذهاب ثانية. ابتعد مظلوم مع الرجل ذي البالطو الأبيض، لوحت وصال له، لكن الرجلان ابتعدا عنها. ونظرت النسوة والبنات إليها في دهشة، تساءلن: «لماذا تلوح هكذا؟!»، وتظاهرت هي بأنها تحرك يديها لتستعيد نشاطها.

عادت وصال إلى البيت بعد الثالثة بقليل، كانت متعبة، وقدماها وملابسها ملطخة بالصلصة، عندما رأت أم محمود تجلس بجوار نظيرة تتحدثان، أحست بالخجل، ماذا ستقول المرأة عنها؟! تعمل عاملة في مصنع، تتقاضى قروشًا قليلة وهي زوجة منير الغني، وريث جون مالك العزبة. لم تسألها أم محمود عن شيء. اكتفت بالحديث مع نظيرة، لا تدري وصال ماذا قالتا، لكنها واثقة من أن الحديث كان عنها.

دخلت وصال، غسلت قدميها وجسدها كله، ونامت من التعب.

* * *

ترددت وصال في الصباح، هل تذهب إلى مصنع الصلصة، وتعاني من التعب، ومن قسوة المشرفين الذين يسبون العاملات، وقد يضربونهن، أم تكتفي بما حدث وتبقى في البيت راضية بنصيبها مع منير ابن نظيرة؟

منير ذهب إلى ورشته مبكرًا، فاليوم ستأتي العربات لنقل البمب والصواريخ إلى الإسكندرية، ودقت نظيرة باب حجرتها: «وصال، هل ستذهبين إلى مصنع الصلصة؟»

تظن العجوز أنها ستتراجع، وأن ما حدث لها أمس جعلها تحس بأن نار منير ولا جنة العمل في ذلك المصنع. لكن وصال صاحت في تحد: «سأذهب بعد قليل».

سارت وصال بين المصرف وشريط السكة الحديد، رأت العربات التي تنقل البمب والصواريخ، ومنير يقف مع المشترين، تابعته من بعيد وابتعدت عن طريقه، هو يعرف أنها تعمل في مصنع الصلصة، وقد وافق مضطرا بعد أن حذرته أمه من الفضيحة التي يمكن أن تفعلها وصال لو تحدثت، وكشفت عن سبب غضبها.

وصلت إلى باب المصنع متأخرة، دفعها الخفير: «ابتعدي، لديّ أوامر من مظلوم بك، بعدم دخول المتأخرين».

لم تغضب من الخفير لأنه دفعها، اقتربت منه مبتسمة، قالت: «أريد مقابلة مظلوم بك».

دفعها ثانية:

- مظلوم بك لا يقابل العاملات.

- لكنني أريده في موضوع مهم.

جاء الرجل البدين الذي يشد البالطو الأبيض الضيق حول جسده، قال للخفير: «أدخلها، إننا في حاجة إلى عاملات اليوم».

سارت في هدوء ما أثار الرجل البدين، لو طالها لضربها على مؤخرتها التي ترقص مع كل خطوة. وقفت

أمام كوم الطماطم الذي ينتظر العصر بالقدمين، والبنات والنسوة يعملن في همة، والمشرفون يصيحون ويحثونهن على العمل السريع، نظرت حولها علها تجد مظلوم هذا لترتاح من العناء، بعدها ستقرر إن كانت ستستمر في العمل، أم تكتفي بما حدث. دفعها أحد المشرفين في عنف، حتى كادت تقع فوق أكوام الطماطم. رفعت عن ساقيها، ورمت خفيها بعيدا، واشتركت مع البنات والنسوة في عصر الطماطم. هل أحست نظيرة بما يدفعها إلى هذا العناء، هل أخبرتها أم محمود برغبة مظلوم فيها، حتى تدرك حقيقة ما يحدث؟

صاح أحد المشرفين: «هل بينكن واحدة اسمها وصال؟»

أسرعت إليه: «أنا وصال».

تابع قدميها الملطختين بالطماطم، وقال وهو شارد: «مظلوم بك يريدك في مكتبه».

شعرت بالسعادة، صاحت: «أين هو؟»

سار المشرف أمامها، وتبعته هي بقدميها الحافيتين، وملابسها الملطخة.

كان مظلوم يقف في الصالة – خارج حجرته - عندما رآها آتية ضحك بصوت مرتفع وهو ينظر إلى قدميها الحافيتين وملابسها المتسخة. ابتسمت، وقالت: «نسيت أن أضع قدمي في الحذاء».

قال للمشرف: «أرسل واحدة من العاملات بحذائها».

أومأ المشرف وسار مسرعًا.

دخلت مكتبه، جلس مظلوم في مكانه وظلت هي واقفة: «ما الذي جعلك تأتين إلى العمل هنا؟»

- العمل ليس عيبًا.

- لكنه لا يناسبك.

- تريدني ألا أحضر ثانية؟

- لا، ستعملين، ولكن ليس بين العاملات.

جاءت امرأة حاملة حذاء وصال، وضعته أمام قدميها وهي تتابعها في دهشة، عندما عادت إلى النسوة اللائي يعصرن الطماطم، قالت: «سأل عنها لأنها يهودية مثله».

قالت أخرى: «أنا يهودية، لماذا لم يسأل عني؟!»

كان بين العاملات العديد من اليهوديات اللائي يسكن عزبة جون.

قالت وصال: «كيف عرفت بأنني أعمل هنا؟»

- أم محمود أخبرتني.

كان مظلوم محتارًا، إنه لا يستطيع أن يدعوها للجلوس أمامه وهي في هذه الحالة، كما أنه ليس معها ملابس ترتديها الآن؛ لذا قال: «اذهبي إلى البيت الآن، وفي الغد ستعملين في مكتبي».

أحست بالسعادة، فقد تحقق ما كانت تصبو إليه، وها هو مظلوم يحس بها ويدعوها لمكتبه. قالت: «وماذا سأفعل؟»

- ألا تجيدين الكتابة؟

- أجيدها.

- ستعملين معي هنا.

في أول مرة ذهبت فيها وصال إلى بيت مظلوم، أحست بارتعاش، وبخوف شديد، لكنها لم تتراجع. لقد غامرت، وتحدت منير وأمه، وعملت مع اللائي يعصرن الطماطم بأقدامهن، لكي تصل إلى هذه اللحظة.

عندما فتحت أم محمود الباب لها، ازداد خوفها، ونظرت بعيدا عن عينيها: «مظلوم بك موجود؟»

ابتسمت المرأة، ونظرت إليها نظرة ذات معنى، ثم ضربتها على كتفها: «موجود في حجرته».

وأشارت إلى الحجرة المغلقة. ونظرت إلى وصال التي تسير مرتبكة. تابعتها حتى فتح مظلوم الباب، وأدخلها ثم أغلقه ثانية. وسارت أم محمود في الشقة سعيدة، فقد نجحت مساعيها، وجاءت بوصال إليه كما يريد. هو لم يطلب منها هذا، لكنها أدركت ما يريد، وأحست بأنها له. بحسبة بسيطة، تجدها من نصيبه، هما يهوديان مثل بعضهما، وهي تعاني من عجز زوجها، وهو لديه فحولة وقدرة ولا يجد ضالته. لا، لم تخطئ أم محمود عندما ساعدتهما على الالتقاء. كما أن هذا سيقربها من مظلوم وسيعطيها ما تريد، سيعين أقاربها في مصانع الباشا، وسيعطيها ما تطلبه منه، ووصال أيضا لن تبخل عليها بشيء.

قالت وصال وهو يضمها لصدره العريض: «أخاف من أم محمود».

- اطمئني، فهي تريد ذلك.

- إنها صديقة نظيرة أم زوجي.

- إنها تخلص لمَن يدفع أكثر. اطمئني.

رغم ذلك، قال مظلوم لأم محمود ضاحكا، ووصال ترتدي ملابسها في حجرته استعدادا للعودة إلى البيت:

- وصال تخاف من أن تخبري صديقتك نظيرة بما يحدث هنا.

- نظيرة ليست صديقتي، إنني أعمل عندها.

* * *

عادت وصال إلى البيت محملة بالهدايا لنظيرة ولمنير، أشياء ألح مظلوم بأن تأخذها معها.عندما رأت نظيرة الأشياء، شردت، وأحست بالخطر. فهي أشياء لا تشترى. واضح أنها مهداة من بيت. وصال تذهب إلى بيت، ولا بد أن تعرف نظيرة ما يحدث.

كانت وصال تفتح اللفائف، وتتصرف في شرود، تحس أن نظيرة تعرف سرها. نظيرة خبيثة وتفهم هذه الأشياء جيدًا.

- من أين جئت بهذه الأشياء؟

لم تفاجأ وصال بهذا السؤال. فهي طوال الطريق تفكر في إجابته. عندما تسألها نظيرة عن هذه الأشياء. ماذا

ستقول؟. قالت: «أهداني إياها أحد الموظفين في مصنع الصلصة».

لم تفكر نظيرة في مظلوم، لم يخطر ببالها أن تكون زيارته الأخيرة لبيتهم قد فعلت بوصال كل هذا. لكنها تحس بالخطر، مسكين الولد منير، لقد ورث هذا عن أبيه عزيز الذي أدخل صناعة البمب والصواريخ في مصر كلها، فعاقبته المهنة الجديدة بأن جعلته ضعيفا غير قادر على معاشرة النساء. لو تعرف نظيرة واحدة من اللائي يعملن مع وصال في مصنع الصلصة، لاطمأنت على مصير ابنها منير.

أمسكت نظيرة الأشياء، شبشب ملون لا يباع إلا في المدن الكبيرة، ولا يمكن أن يشتريه أحد من سكان المنطقة، لا بد أن يكون صاحبه – الذي أهداه إلى وصال – جاء من بعيد. جاء مع المصانع الثلاثة التي أقامها الباشا صديق الملك فؤاد. هو واحد من الموظفين الكبار الذين يعملون مع الباشا.

وفاكهة لا تباع إلا في الإسكندرية. هنا لا يفكرون في شرائها.

- الموظف الذي أهداك هذه الأشياء يعزك، ويقدرك.

ماذا تريد أن تقول هذه العجوز؟! أتلمح بشيء؟

- إنه مشرف من المشرفين...

كاذبة وصال لا شك، المشرفون الذين عينهم الباشا في مصانعه، فقراء، ويسكنون العزب. ولا يمتلكون

أشياء مثل هذه. «أقسم بملاذ التي كان يضاجعها مخلوف أمامي وأنا صغيرة، أن هذه الأشياء مهداة من عشيق لوصال».

لقد فكرت نظيرة طويلا في هذا، أحست بأن وصال قد خفت عصبيتها، ولم تعد تبكي وحدها في حجرتها، وضبطتها نظيرة تغني وهي تدعك كعبي قدميها في تلذذ، أحست نظيرة أن مشكلة وصال قد حلت، وأن نفسيتها هدأت واستكانت. فانتظرت المفاجأة التي ستدمرها وتدمر المسكين ابنها. وها هي وصال تؤكد ما توقعته، وأكدته.

- وصال، أين تقابلين عشيقك؟

ارتجفت وصاحت في وجه العجوز:

- أجننت؟ كيف تتهمينني هكذا؟!

أمسكت نظيرة الأشياء وتحدثت في هدوء شديد:

- دعك من كل هذا وأجيبيني.

صرخت العجوز، لا بد أن تحمي ابنها، لقد وافقت على أن تعمل لكيلا تفضحه في عزبة جون وفي سوق السمك حيث يعيش أهلها، لكن الآن الفضيحة ستلاحق ابنها في كل مكان. عندما يرى الناس وصال مع عشيقها الذي يعمل في مصنع الصلصة الذي تذهب إليه صباح كل يوم، ولا تعود منه إلا عند المغيب.

أمسكت شعر وصال الطويل، شدته في عنف:

- أخبريني يا ابنة مصلح الأحذية.

حاولت وصال أن تخلص شعرها من يدها:

- لا تذكري أبي بسوء.

- لن أخبر منير بشيء، أنا التي سأقتص منك ومن عشيقك.

دخل منير في هذه اللحظة حاملا بعض الأطعمة. نظر إلى أمه في دهشة:

- لماذا تمسكينها هكذا؟!

تركت شعر زوجة ابنها، وأرادت أن تبدو عادية أمامه، لكنها لم تستطع.

وضع الرجل الأشياء فوق المائدة وجلس متهالكا:

- العمل كان كثيرا في الورشة.

انحنى ليخلع حذاءه الكبير، وقال:

- ما زلت تصرين على العمل يا وصال؟

لم تجب بشيء. ما الذي حدث لنظيرة وابنها، ماذا يريدان منها. لن تكف عن الذهاب إلى مصنع الصلصة. ولن تكف عن الذهاب إلى بيت مظلوم. تذكرت وصال فجأة أم محمود، هل هي التي جعلت نظيرة تشك هكذا؟! ربما. لكن مظلوم أكد لها أن أم محمود لن تستطيع فعل هذا؛ لأنها في حاجة إليه. تأخذ منه مبلغا كبيرا كل شهر، وتأخذ الأطعمة لأهلها من بيته، كما أن ابنها محمود يعمل في مصنع الورق، وأقاربها يعملون في المصانع الثلاثة.

خلع منير الفردتين، ورماهما بعيدا، وانشغل بخلع جوربيه، ثم أعاد سؤاله: «ما زلت تصرين على العمل؟»

لم تتركه وصال ليكمل، وصاحت في ضيق: «نعم، ولا أستطيع البعد عنه».

كانت العجوز شاردة، الولد منير جاء في وقت عصيب، أفسد ما كانت تنوي فعله، وسؤاله هذا سيزيد النار اشتعالا.

تابع منير أمه الصامتة، ماذا حدث لها، إنها مهمومة على غير عادتها، وما معنى أن تمسك شعر زوجته بهذه الكيفية، إنهما يخفيان عنه شيئا: «ما رأيك يا أمي، وصال لا بد أن تبقى في البيت».

لم تجبه، المرأة لا تجد طريقة لحل المشكلة. تخاف على ابنها، تخشى أن يضيع منها، فهو الوحيد الذي بقي لها من أسرة بنيامين. الكل ذهب دون أن ينجب ذرية. والظاهر أن منير سيكون مثلهم. على الأقل الآخرون كانوا يقدرون على التعامل مع زوجاتهم. لكن ابنها مصاب بالعجز الذي لا يأتي بشيء، لا المتعة ولا الإنجاب.

كان منير هادئا، فقد تسلم منذ لحظات قصار ثمن بمبه وصواريخه. مبلغ كبير، سيشتري لوصال هدية قيمة، سيجعلها تذهب مع أمه إلى الصاغة في الإسكندرية، وتشتري لها عقدا كبيرا.

- وصال، إننا لسنا في حاجة إلى العمل.

لم تجبه، ظلت تتابع العجوز التي تنظر إلى الفضاء الآتي من خلف النافذة الكبيرة المفتوحة في صمت، منظرها مخيف. وصال لا تخاف منير، لكنها تخاف نظيرة، المرأة تفكر وتنوي على فعل شيء.

أخرج منير مبلغا كبيرا من المال، وضعه فوق المائدة أمام أمه وقال:

- اشترِ لوصال ولك ما تريدان.

صاحت وصال في تحد: «لا أريد شيئا».

أمسكت نظيرة النقود، وقالت لوصال:

- لو أصررت على الذهاب إلى المصنع؛ سأرسلك إلى أهلك في سوق السمك.

صمتت وصال للحظات، اقترب منير منها، ربت ظهرها قائلا: «وصال عاقلة، وستستجيب».

أمسكت وصال الأشياء التي جاءت بها من بيت مظلوم، لفتها ثانية، ثم دخلت حجرتها. ظنت العجوز أنها قد استجابت، خشية أن تطرد إلى أهلها الفقراء في سوق السمك، وارتاحت العجوز. فوصال ستبقى بجوارها في البيت، ستراقبها بنفسها، وستمنعها من خيانة ابنها. في الغد ستأخذها إلى الإسكندرية وتشتري لها مصاغا من الصاغة.

لكن وصال خرجت من حجرتها حاملة ملابسها، صعقت نظيرة مما رأت، وصاح منير في دهشة:

- إلى أين؟

- سأترك بيتكما لترتاحا مني.

قام منير إليها، وظلت العجوز في مكانها غير قادرة على التفكير أو التصرف، ربت منير ظهرها: «ابقي يا وصال. دعك من العند».

دفعت يده عن جسدها، وأسرعت إلى الطريق.

قال منير لأمه: «كيف ستذهب إلى سوق السمك الآن؟»

لم تجبه نظيرة. ففي ذلك الوقت يصعب الذهاب إلى الإسكندرية. لا يحدث هذا إلا إذا كانت عربة خاصة في الانتظار. كما أن ذلك يحدث في حالات الضرورة القصوى، فالطريق في الليل خطير جدًا.

أحست نظيرة بأن ما فكرت فيه منذ قليل، وظنته مجرد حدس، صار حقيقة مؤكدة، وصال ذاهبة إلى بيت عشيقها الذي أهداها الأشياء التي عادت بها إليه.

* * *

دقت وصال بيت مظلوم، ظن أن حسن بدوي قد أرسل إليه يطلبه في شيء مهم، فهو لا يأتيه في المساء إلا مراسيل حسن بدوي. مَن سيزوره في هذه المنطقة الموحشة؟!

فتح الباب في ضيق، فهذا معناه، أن يترك الدفء ويذهب لمقابلته، والبقاء في قصره إلى وقت متأخر من الليل، وأحيانا يظل معه حتى يشرق صباح اليوم التالي. فوجئ بوصال أمامه:

- ماذا حدث؟

- نظيرة أحست بأن هناك عشيقا.

- وعرفت مَن هو؟

- ستعرف في الغد.

- ولماذا هذا التحدي؟!

- هذا هو الحل.

نامت وصال حتى الصباح، شعرت بالدفء الذي لا تجده في بيت نظيرة، فهو بيت بارد، وممنوع إشعال النيران فيه للتدفئة خشية من الحرائق التي يمكن أن تنسف البيت والمنطقة كلها؛ من اشتعال الديناميت والمفرقعات الكثيرة المخزنة في البدروم.

في الصباح فتحت الباب لأم محمود التي صاحت فزعة:

- بسم الله الرحمن الرحيم. ما الذي جاء بك مبكرا؟

- لقد نمت هنا.

سارت أم محمود، وضعت صرتها فوق مقعد، وتابعتها في دهشة، ما الذي حدث؟ هل اكتشف منير العلاقة، فطرد زوجته؟

خلعت المرأة ملابسها التي جاءت بها، وارتدت ملابس قديمة لتكنس وتغسل ملابس مظلوم، قالت وصال:

- من الآن، سأساعدك في عمل البيت.

- أتنوين البقاء هنا إلى الأبد؟

- طبعا.

- لكن منير لن يسكت.

- لقد اتفقت مع مظلوم على أن أبقى معه لآخر العمر.

لم تعلق المرأة بشيء، فالموضوع كبير، وسوف ينفجر الموقف، وسيأخذ في طريقه كل مَن يتصدى له؛ لذا، يجب أن تبتعد. إنهم يهود في بعض، وكبار. وهي

مسكينة. تعمل في البيوت لكي تنفق على أسرتها. ما لها هي وهذه المواضيع الكبيرة؟!

عملت المرأة طوال الوقت دون أن تتحدث، كانت تتابع وصال السعيدة، والتي تتصرف كعروس في أول ليلة لها في بيت زوجها الذي تحبه، ولا تجاريها في الحديث، ترد بكلمات قليلة جدا. لو تطول أم محمود لتركت العمل لدى مظلوم ولامتنعت عن الذهاب إلى نظيرة. لكن أين البديل. لو وجدت البديل ستترك البيتين.

قالت وصال لها: «نظيرة تشك أن لي عشيقا، هل تحدثت معها في شيء؟»

أقسمت المرأة بكل أيمانات المسلمين إنها لم تفتح فمها بشيء، ولن تفتح فمها بشيء. قالت وصال: «لقد ارتحت الآن. وأريد أن تعرف نظيرة وابنها أنني أعيش هنا مع مظلوم».

لم تذهب وصال إلى مصنع الصلصة. لماذا تذهب إليه، ومظلوم معها الآن. تعيش في بيته كزوجته. لا، هي زوجته حقيقة.

وصل الخبر إلى نظيرة: «وصال تعيش في بيت مظلوم».

حتى منير جاءه الخبر وهو مشغول بالعمل في الورشة، أخبره به أحد العاملين عنده. فترك ما كان في

يده، وأسرع إلى أمه: «هل بلغك ما تتحدث عنه العزب؟»

أومأت برأسها.

قال منير: «مظلوم يا أمي؟ إنه صديقي».

- اهدأ ولا تفسد كل شيء.

- ماذا تقصدين؟

- وصال لا بد أن تعود ثانية إلى البيت.

- لكن..

- كفى ما حدث.

فكرت نظيرة، كيف تستطيع أن تعيد وصال إلى زوجها ثانية؟ «مظلوم يعمل مع الباشا، وأظنه لا يستطيع أن يرفض له طلبا». قالت: «سنذهب إلى الباشا، ونشكوه له».

- كيف أعيدها ثانية، بعد أن نامت ليلة في بيت غريب؟!

- اسمع كلامي، وارتدِ ملابس خيرا من ملابسك هذه، وسنقابل الباشا في قصره.

* * *

لم يكن الباشا قد تزوج، لكن الأخبار تملأ العزب الثلاث بأنه سيتزوج فتاة إنجليزية، وأنه يعد القصر من أجلها. الخدم كثيرون، يملأون القصر، فمعظم أهل العزب يتمنون خدمته، ويقنعون بأجرة قليلة منه. فهم يأكلون

ويشربون في قصره، ويعودون إلى أهلهم محملين ببقايا طعامه، كما أن أهلهم يعملون في مصانعه الثلاثة.

ترتدي نظيرة السواد، وتسير في كبرياء، هي تعرف كيف تتعامل مع هؤلاء الكبار، تحدثهم في ثقة، لكن منير ابنها كان مرتبكا، أيشكو للباشا قائلا: «إن زوجتي هربت إلى بيت مساعدك مظلوم!»

لكن نظيرة قالت: «لا تقل شيئا، أنا التي سأتحدث».

قال الباشا: «لقد رأيتك من قبل»، ثم صاح: «تذكرت، زرتك في بيتك قبل أن أقيم مصانعي الثلاثة».

ضحكت، أحس منير بتغيرها. كانت مهمومة طوال الوقت، منذ أن دخل عليها هي ووصال بالأمس. لكن الآن تضحك وكأن شيئا لم يحدث.

قال الباشا: «أظنكم أقارب مظلوم، أليس كذلك؟»

- لا، إننا يهود مثله.

- لم أذهب بعيدًا.

صمت الباشا لكي تتحدث المرأة، وتحكي له عن سبب مجيئها. قالت: «مظلوم، مساعدك، خطف زوجة ابني هذا».

نظر الباشا إلى ابنها الذي يقارب حجمه حجم مظلوم، وأراد أن يضحك من هول المفاجأة، خاصة من منظر منير هذا الذي يثير الضحك، فقد نظر إلى الأرض في

استحياء، والباشا حائر بين العبوس والابتسام لكنه تماسك لكيلا يغضبهما: «وماذا تريدين؟»

قالت في دهشة من سؤاله: «طبعًا، يعيد الزوجة إلى زوجها».

دهش الباشا، فقد كان يظنهما آتيان لكي يطالبا بمعاقبة مظلوم على فعلته، ومعاقبة الزوجة الخائنة.

نظر إلى منير الذي لم يقل شيئًا:

- هل أنجبت منها؟

- لا.

صمت الباشا، إنهما يهوديان مثل مظلوم، وكان من الممكن أن يتوجها إلى الحاخام، أو أي يهودي كبير. فلماذا يأتيان إليه؟!

قالت المرأة وكأنها قرأت ما بداخله: «مظلوم لن يطيع سواك، وأنا وابني لا نريد فضائح أكثر من هذا. يعيد المرأة فورًا قبل أن يحس الجميع بما حدث».

صافح الباشا نظيرة، وقد أعجب بشجاعتها، وحسن تفكيرها، وذهب بنفسه إلى مكتب مظلوم بمصنع الورق (فمظلوم له مكاتب في المصانع الثلاثة) وقف مظلوم مرحبًا. فالباشا قلما يذهب إليه في مكاتبه. إذا أراده، يتصل به تليفونيًا، أو يرسل في طلبه.

- تفضل يا باشا.

ضحك حسن بدوي ما أدهش مظلوم. فظل يتابعه للحظات، ثم قال الباشا: «ماذا فعلت بزوجة الرجل؟»

فهم مظلوم، لم يكن يظن أن منير سيفعلها، ظنه سيغضب لأن وصال تركته، ولن يسأل عنها. أو يسعى لطلاقها.

- تقصد زوجة منير صانع البمب والصواريخ؟

- رد المرأة لزوجها.

- لكن..

- لقد جئنا هنا لنعمل، مغامراتك النسائية هذه افعلها في مكان آخر.

لم يزد الباشا على ذلك، وسار تاركا مظلوم في حيرة. كيف سيعيدها ووصال لا تطيق منير ولا أمه. وقد وعد بحمايتها؟!

جلس مظلوم منهارا، إنه لا يستطيع أن يرفض طلبا للباشا. (لا، يقصد أمرا). أينتظر حتى ينتهي العمل، ثم يتحدث مع وصال، يشرح لها الظروف التي جدت.

لكن الباشا سيتصل به بعد ساعة أو ساعتين، ليسأله: «ماذا فعلت؟»، ولو كان يتحدث معه الآن في هدوء، فسيصرخ فيه ويسبه. فقد تغير الباشا منذ أن افتتح مصانعه الثلاثة.

* * *

كانت أم محمود في البيت، المرأة لا تكف عن العمل، ووصال تقف أمامها مبتسمة، تتابعها وتحدثها عن

أحلامها مع مظلوم.

أسرعت وصال إليه، ضمته لصدرها حتى نظرت أم محمود بعيدا في حياء.

دخل حجرته حزينا، أحست وصال بأن شيئا حدث، ليس مهما، فقد وعدها بأنه لن يفرط فيها مهما فعلت العجوز أو ابنها.

دخلت وصال الحجرة، وظلت أم محمود في الخارج تنتظر ما سيحدث. قالت وصال: «مالك؟»

- احملي ملابسك وعودي إلى زوجك.

- كيف، لقد وعدتني؟!

لم يجبها بشيء، جلس فوق حافة السرير، وتابع سقف الحجرة شاردًا.

- لن أذهب إلى زوجي، سأظل معك كما اتفقنا.

- لا أستطيع فقد تدخل الباشا.

- قل له إنني أريد أن أعيش معك.

- لقد أمرني الباشا وانتهى الأمر.

* * *

عادت وصال حاملة ملابسها، الأشياء التي سبق أن أهداها لها مظلوم أعادتها إليه ثانية، وأقسمت ألا تقابله بعد ذلك، فهو لا يستحق، بعد أن خذلها.

تابعتها نظيرة من مكانها. ثم قالت في ابتسام مصطنع: «تعالي يا وصال».

سارت إلى حجرتها، أعادت الملابس إلى مكانها، وجلست فوق سريرها صامتة، جاءت نظيرة إليها، قبلتها، وضمتها لصدرها قائلة: «تريدين أن تتركينا؟!»

بكت وصال في ضعف، أرادت أن تهرب منهما لكنها فشلت. إلى أين تذهب؟ قالت نظيرة: «صدقيني، كل شيء سيكون على ما يرام. سأذهب بالولد منير إلى الطبيب في الغد، وسيستطيع معك، صدقيني».

أحست وصال بالضيق منها ومن حديثها، لكنها صمتت. وأكملت نظيرة: «وستذهبين معنا إلى الإسكندرية، سأشتري لك عقدا ذهبيا. يزين رقبتك الجميلة هذه».

وخرجت نظيرة من الحجرة، أرسلت في طلب منير من ورشته لكي يبقى بجوار زوجته.

لم يظهر منير سعادته – كما فعلت نظيرة – كان حزينا وغاضبا من وصال. أشارت أمه من بعيد ليداعب زوجته ويحايلها، لكنه لم يستطع. تصرفاته كانت جافة، وحديثه كان قاسيا، رغم محاولاته لأن يظهر السعادة.

أصرت وصال أن تبقى في البيت كما هي ولا تذهب معهما إلى الإسكندرية لشراء العقد الذهبي لها. قالت لنظيرة: «اشتريه كما تشائين».

* * *

ذهبت نظيرة إلى ساسون، فحص منير وعاد بعد أن غسل يديه لم يكن مبتسما كعادته، قالت نظيرة في قلق:

«خير يا دكتور؟»

أمسك بالقلم ورسم خطوطًا فوق الورقة.

- لن أغشك يا نظيرة، ابنك لن يستطيع بعد ذلك.

انهارت المرأة، ورمى منير رقبته الممتلئة للخلف، لقد فكر في أن يبتعد عن الديناميت والمفرقعات، يكتفي بمحاسبة التجار من بعيد. لكن الداء سبقه وأنهى الموضوع.

سارت نظيرة حزينة، ومنير ابنها يجر ساقيه، يحس بأنه غير قادر على السير أيضًا. قال: «أنبحث عن عربة لنعود بها؟»

- والعقد الذي وعدنا به زوجتك؟

أحس بالضيق، هل هذا وقت عقود وذهب؟! إنه لا يجد رغبة في شيء. قالت نظيرة: «لا بد أن تشتري لها العقد، وتحايلها أكثر من الأول، وإلا هربت منك ثانية».

* * *

بعد شهور قليلة أحست وصال بتغيرات في جسدها، وحالة تعرفها نظيرة جيدا: «مالك يا وصال، أنت حامل؟!»

لم تجبها بشيء. «أيمكن أن تحمل وصال وزوجها حاله هكذا؟!»

وانتفخ بطنها، وعرف الجميع أن وصال حامل. قال منير لأمه: «كيف يا أمي؟ وأنا لم أقربها منذ أكثر من

عام؟»

- لا تقل هذا لأحد. المولود الذي في بطنها منك، أفهمت؟

- لكن..

قامت نظيرة، تابعت وصال، ساعدتها، وعندما ولدت، جاءت البنت جوهرة.

تحدث محسن مع الباشا بالأمس عن الآلات التي أصلحها، وعن نوع الورق الجديد الذي كان سببا في إنتاجه، ومظلوم يجلس أمام الباشا يبتسم، مؤكدا قول محسن، سأل الباشا محسن فجأة: «لديك أطفال يا سيد محسن؟»

- ولد صغير، في الثانية عشرة الآن.

أخرج الباشا مبلغًا من المال، ودسّه في يد محسن: «أعطه هذا المبلغ».

- لكن يا باشا..

أمسك مظلوم يده التي تمسك النقود، وهو يقول: «عيب، لا ترد مبلغًا أعطاه الباشا لك».

حكى الباشا عن ابنته الصغيرة عايدة، قال: «للأسف جاءت متأخرة، فقد تزوجت بعد أن شبت، البنت غير سعيدة، تعيش في القصر مع أمها الإنجليزية، والخدم، تريد أطفالا يلعبون معها، ولا أستطيع أن أتركها لتلعب في الشوارع مع...».

لم يكمل الباشا، أمها الإنجليزية تخاف عليها من أن تختلط بأطفال العزب فيعدونها بأمراضهم العديدة. فهي تراهم من خلف زجاج السيارة وهم يسيرون حفاة، وملابسهم متسخة، وتعرف أنهم يشربون من مياه المصرف.

قال مظلوم: «لقد رأيت كمال، ابن الأسطى محسن، ولد نظيف وجميل، وستحبه الهانم الصغيرة».

قال الباشا في كبرياء واضحة: «ليس لديّ مانع من أن يأتي إلى القصر ليرافق عايدة ابنتي».

خرج محسن من القصر ومظلوم معه، كان محسن شاردا طوال الوقت. وقف مظلوم أمام القصر، نظر إلى شجرات البمبوزيا التي أينعت وكبرت، وحباتها ملقاة تحتها، أمسك مظلوم الفرع المتدلي، وشده في عنف، فتساقطت حباتها، أمسكها وانحنى ليجمع الحبات الملقاة، مظلوم هو الذي اقترح على الباشا أن يزرع أمام باب القصر هذه الشجيرات. سأله الباشا وقتها: «لماذا البمبوزيا بالذات؟»

- لأنني أحبها.

لم يحكِ للباشا قصته معها. اللفة التي جاءت إلى والده في دكانه، فوضعها في الدرج وأخذ يتناولها حبة حبة، فتلونت أصابعه باللون الأحمر، لون الدم، ولم يعطِ واحدة لابنه، ثم مسح أصابعه في ورقة اللفة، وأخذ يلوك آخر حبة في فمه.

الباشا يذكر مظلوم بالبمبوزيا من وقت لآخر:

- شجراتك أينعت يا مظلوم.

- أية شجرات يا باشا؟

- البمبوزيا التي اقترحت زراعتها أمام باب القصر.

أخرج مظلوم منديله ومسح اللون الأحمر من يديه وفمه، ومحسن يتابعه في دهشة، قال مظلوم: «خذ لك مجموعة منها لبيتك، فطعمها لذيذ للغاية».

لكن محسن لم يأخذ شيئًا، سوف يأتي بابنه كمال إلى القصر، سيتركه للمرأة الإنجليزية وابنتها وخدمهما، لكن زوجته لن توافق، ستخاف على الولد لا شك، فهو الولد الوحيد المدلل، وسيصر هو على موقفه، وستحدث مشكلة بينه وبينها، فهو لا يستطيع أن يرفض أمرًا للباشا، ولي نعمته.

* * *

كان كمال يقفز فرحًا وهو يسير مع والده في طريقهما إلى قصر الباشا، فسوف يقابل ابنة الباشا كما يحدث في الأفلام التي رآها مع أبيه وأمه في سينما أمير - القريبة من البيت - ابنة الباشا تحب ابن الرجل الفقير الذي يعمل عندهم، لكن الباشا يرفضه. أمسك محسن يد ابنه: «اهدأ قليلًا لتسمعني».

يعرف كمال ما سيقوله والده، فمنذ أمس وهو يعيد عليه كلماته: «لا تنظر إلى الأشياء حولك، وتحدث بصوت خافت، وقبل يد الباشا عندما تصافحه».

لكن كمال لن يقبل يده كما أمره والده، سيصافحه وهو منتصب القامة كما يصافح أي رجل عادي.

ابتعد كمال عن يد والده، وقفز ثانية، ثم انحنى ليقطف زهرة من الأزهار اليانعة التي يزرعها البستانيون،

ووالده يجري خلفه:

- ارمِ الوردة، أخفها بعيدًا، خشية أن يراك أحد ويخبر الباشا بذلك.

الحارس الذي يقف أمام باب القصر، وقف عندما رأى محسن، وسمح له ولابنه بالدخول، فقد رأى محسن يدخل كثيرًا إلى القصر. اكتفى الحارس بابتسامة لهما. ولم يجد محسن ما يقوله. دق الخادم باب المكتب، ودخل قبل محسن وابنه، ثم أفسح مكانًا لهما ليدخلا على الباشا، الذي ابتسم عندما رأى الولد كمال، قال: «ابنك شكله جميل يا أسطى محسن».

ظل محسن واقفا، وكمال يصافح الباشا مبتسما، يسأله الباشا عن مدرسته، وعن الدروس التي يأخذها فيها، ثم جاءت مرجريت بقامتها المديدة، وابتسامتها الساحرة وشعرها الطويل الذي ينسدل على الكتفين، تابعها كمال في دهشة، من طولها الواضح. وهي ربتت شعره الأسود الناعم، كان لابد أن تعاينه، وترى إن كان يصلح للعب مع ابنتها عايدة أو لا.

الباشا ابتسم، فقد أحس بأن زوجته راضية بالولد الصغير، بل هي معجبة به، يعرف الباشا زوجته جيدا، فهي لا تخفي إحساسها، كل شيء واضح على وجهها الجميل.

جاءت الخادمة بالبنت عايدة، هي ليست في جمال أمها، فقد أخذت القليل من أبيها. تابعت البنت كمال،

تفحصته بعض الدقائق، وهو انشغل بمتابعة اللوحات الأصلية التي جاء بها حسن بدوي من أوربا في رحلاته العديدة إليها. قال حسن بدوي: «كمال ابن الأسطى محسن، لقد تربى في الإسكندرية».

أومأت عايدة برأسها، ومدت يدها نحو كمال، وسارت به خارج حجرة المكتب. واستأذن محسن في العودة إلى المصنع. فقال الباشا: «لا تخف على ابنك، سأرسله إلى بيتك مع أحد الخفراء».

أدخلته عايدة حجرتها، إنها حجرة كبيرة جدًا، أكبر من حجرته، ومن حجرة جوهرة التي أدخلته فيها يوم أن ذهبا إلى البدروم لمشاهدة البمب والصواريخ، كما أن لعب عايدة مستوردة من أوربا، بينما لعب جوهرة، صنعتها لها جدتها نظيرة. وحجرة عايدة مرتبة، الخدم الكثيرون يرتبونها لها، وينظفون الفرش كل يوم، بينما حجرة جوهرة متسخة، والأشياء فيها مبعثرة.

أجلسته عايدة فوق مقعد أمام مكتبها الصغير، وأخذت تكتب أمامه بالإنجليزية التي تجيدها أكثر من اللغة العربية، فأمها إنجليزية ووالدها يتحدثها كأحد أبنائها.

ثم أخرجت دفتر رسومها وعلبة ألوانها التي أهدتها إليها خالتها التي تعيش في لندن. أخذ كمال يلون معها، كان منحنيا ومنهمكا في التلوين، ففوجئ بعايدة تمسك

خصلة شعره الشديدة السواد، وترفعها بأصابعها سعيدة: «شعرك أسود، جميل».

تابعها كمال مندهشا، ثم عاد إلى رسومه ليلونها. قالت: «كنت أتمنى أن يكون شعري أسود مثل شعرك».

تابع كمال شعرها المائل للاصفرار، وأحس بدهشة من قولها، فشعرها جميل، تذكر شعر جوهرة الأكرت. شدته عايدة من شعره. أرادت أن يجري خلفها، أن يلعبا، لكنه كان مرتبكًا وخجولًا، فتركها تشد شعره. فشدت ملابسه، أخرجت طرف قميصه من بنطلونه. فجرى خلفها، كانت تضحك بصوت مرتفع، سعيدة. جريا خارج حجرتها، وسط دهشة الخدم الذين يرون هذا لأول مرة. خرجت مربية عايدة من حجرتها، صاحت في عصبية بالإنجليزية، ثم أمسكت نظارتها بيدها وجرت نحوها، لكن عايدة لم تهتم بها، قال كمال: «مَن هذه المرأة؟»

- دعك منها، إنها مربيتي الإنجليزية تخاف أن أقع وأنا أجري هكذا.

تابعت مرجريت ما يحدث بابتسام، ثم تحدثت مع المربية بالإنجليزية، فسارت المربية إلى حجرتها مندهشة مما يحدث أمامها. فهي أول مرة ترى فيها عايدة تجري في الصالة هكذا.

خرجا من باب القصر الكبير، وقف الخفير لهما مبتسما. عايدة هي التي تجذب كمال إليها. إنها تتصرف بطريقة لم يعهدها أحد فيها من قبل. وقفا أما شجرات

البمبوزيا الثلاث. انحنى كمال وأمسك حبة من حباتها التي ألقتها الشجرات على الأرض. وضع الحبة في فمه، فصاحت غاضبة: «لا، يجب أن تغسلها».

قال كمال: «طعمها لذيذ جدًا».

عايدة ترى هذه الشجرات كل يوم تقريبا، وترى حباتها التي تنضج فترميها الشجرة على الأرض. لكنها لم تفكر يومًا في تذوقها، تتذكر أمها وقد صرخت في وجه خادمة من خادمات القصر لأنها رأتها تضع حباتها في طبق وتأكل منها، قالت لها: «لا أسمح بدخول هذه الفاكهة قصري».

سألتها عايدة: «لماذا يا أمي؟»

- إنها فاكهة شعبية، لا يصح أن تدخل قصور الكبراء.

ومن يومها امتنع الخدم عن تناولها.

امتدت يد عايدة إلى حبات البمبوزيا في يد كمال، أمسكتها في حرص وخوف، من الممكن أن تموت بعد أن تضعها في فمها، لكنها ستفعل وتجرب ويحدث ما يحدث.

صاحت عايدة فرحة: «إنها لذيذة للغاية».

إنه يوم غير عادي في حياتها، أهم من الأيام التي تزورهم فيها أسرة أمها التي تأتي من لندن؛ للبقاء عندهم لأيام، أو أسابيع قليلة جدًا. تفرح فيها بهداياهم التي لا مثيل لها في مصر، لكن لقاءها بكمال هذا أهم؛ وأكثر دهشة.

حكت عن أصدقائها في المدرسة، وسألته: «هل لك أصدقاء؟»

- فتاة في سنك تقريبًا اسمها جوهرة.

- أجمل مني؟

لم يجبها بشيء، إنها أجمل بكثير من جوهرة. أكثر طولًا، وبشرتها بيضاء صافية مثل بشرة أمها الإنجليزية، وشعرها مسترسل خلف ظهرها. لكن كمال لن يقول لها هذا. فجوهرة غير موجودة الآن. ولا يجب أن يتحدث عنها بسوء في غيابها، هكذا قالت له أمه، ألا يغتاب الناس.

قالت عايدة: «هل يمكن أن تأتي لتلعب معنا في القصر؟»

- سأخبرها بذلك.

سارا، انحنت عايدة وقطفت وردة بيضاء وأعطتها له. قال كمال:

- والد جوهرة يصنع البمب والصواريخ، هل رأيتهما من قبل؟

- رأيت الصواريخ وهي تنفجر أمامنا، كنت مع أبي وأمي..

أكمل كمال: «والدها يعيش في عزبة جون، أتعرفينها؟»

- أبي يقول إن اليهود يعيشون فيها.

- نعم، هي يهودية.

صاحت عايدة في إلحاح: «أريد أن أراها، فلم أر يهودية من قبل».

أمرت مرجريت بأن يجهز الخدم لفائف من بقايا الطعام والفاكهة ليأخذها كمال معه إلى بيتهم، وأمرت الخفير الجالس أمام باب القصر بأن يحمل اللفائف بيد، وبالأخرى يمسك يد الولد كمال، ولا يتركه إلا أمام أمه.

أحس كمال بالضيق من مرافقة الخفير له. أمسك يده كأنه عسكري يقبض على مجرم. الطريق من القصر حتى بيتهم ليس بعيدا، فهو يسير أكثر منه كل يوم في طريقه إلى مدرسته البعيدة. في المرة الثانية سيشترط على عايدة أن يعود إلى بيته وحده، ولن يقبل هدايا أمها.

* * *

عاد الباشا من القاهرة، كان مظلوم في استقباله في محطة سيدي جابر، ركبا السيارة معا، قال الباشا: «استأجرت شقة في وسط القاهرة، سأجعلها مكتبا لمصانعي. فالطلبات زادت، ولا بد لها من مكتب».

شرد مظلوم بعض الوقت. العشرة طويلة بينهما. فأحس الباشا أن مظلوم يفكر في شيء.

- ما لك يا مظلوم؟

- أريد أن أشرف على مكتب القاهرة.

- لا أستطيع الاستغناء عنك، مكتب القاهرة عمله محدود، ومئات الموظفين يصلحون لهذا.

صمت مظلوم، تابع الطريق أمامه. قال الباشا: «أنت تريد أن تبتعد عن الإسكندرية هذه الأيام».

- نعم.

- تخاف من قوات روميل التي تقترب من الإسكندرية.

- حطم روميل الجيش الثامن البريطاني، ووصل إلى العلمين، يعني بيننا وبينه حوالي 70 كيلو مترا فقط.

- معظم الشعب فرح لهذا، إنهم يصيحون في كل مكان: إلى الأمام يا روميل.

- سيادتك تعلم الذي يفعلونه باليهود.

ربت الباشا ساق مظلوم التي تجاوره وقال: «لا تخف، هتلر لا يعرف أن هناك يهودا في منطقة اسمها الطابية».

- كبار اليهود يجتمعون في الإسكندرية، ليجدوا حلا لهذه المشكلة.

- احمد ربنا لأن الطابية بعيدة جدا عن العلمين.

لم يطمئن مظلوم، إنه لا ينام الليل من شدة الخوف، أرسل إليه موشي فنتورا صديقه، لكي يعود إلى القاهرة. قال له: «دعك من صديقك القديم حسن بدوي، فحتفك سيكون على يديه».

لدى مظلوم إحساس بأن هذا سيحدث، وما فعله مع حسن بدوي، سيأتي هتلر لأخذه منهما، لقد أرسله الرب

ليخلص حساب الناس منهما، تدخلهما في شئون البلاد لصالح الملك فؤاد والإنجليز، لقد مات فؤاد وخلفه ابنه فاروق، والحساب سيتحملانه عنه. لكن هتلر لن يحاسب الباشا على شيء، فهو لا يكره إلا اليهود، وقد يكافئ الباشا على ما فعله، خاصة أن الإنجليز هم الذين أقالوه من مناصبه، وأبعدوه عن السياسة.

قال مظلوم للباشا: «اليهود يتحدثون في الطابية عن ذلك».

- ماذا يقولون؟

- يقولون إن أغرابا تتحرك في المنطقة. أشكالهم غريبة، ويتحدثون مع بعضهم البعض بلغة غريبة. ويجلسون في مقهى رجب عسكر أمام مصنع الورق، ولدى مورجان خادم ضريح جون، ويتابعون بيوت اليهود بعناية واهتمام.

- صدقني، كل هذه أوهام، الخوف من هتلر يصور لكم أشياء غريبة.

صمت مظلوم وهو غير مقتنع بما يقوله الباشا. فهتلر يعرف كل شيء عن البلد الذي سيغزوه، ويرسل رجال مخابراته قبل الغزو بقليل.

* * *

ذهب كمال إلى بيت جوهرة، إنه أول مرة يذهب إلى البيت وحده، في كل مرة تكون معه جوهرة. تأخذه من

يده من الشونة التي يلعبون فيها أمام ضريح جون، وتدخله البيت في إلحاح.

دق باب البيت المفتوح، خرجت وصال، وقفت فوق الدرجات العالية المصنوعة من الطوب غير المطلي، قالت: «جوهرة في الداخل».

فجأة وجدت جوهرة تجري إليه، لقد سمعت صوته يحدث أمها.

- كمال، تفضل.

ابتسمت وصال ودخلت البيت. سألتها نظيرة من حجرتها:

- مَن يا وصال؟

- إنه الولد كمال.

ضحكت نظيرة. تابعتها وصال في صمت. أتضحك العجوز لأنها تذكرت ما حدث بينها وبين مظلوم؟! ربما. إنها لم تزه منذ أن طلب منها أن تترك بيته وتعود إلى زوجها. من يومها وهي تمكث في البيت، لا تبرحه. تعيش مع منير الذي لا يقدر على معاشرتها. ليتها ما استجابت لمظلوم وجاءت إلى هذا البيت. كانت أصرت على البقاء عنده، ليربي ابنته جوهرة. فهو غني. اليد اليمنى للباشا، ويستطيع أن ينفق عليها وعلى ابنتهما. لكن كل شيء راح، بسبب هذه العجوز التي شكت مظلوم عند الباشا.

دخلت جوهرة والولد كمال يسير خلفها في استحياء، كان يحكي لها في الخارج عن لقائه بعايدة ابنة الباشا. عن ألعابها الغريبة، والتي تجيئها من أوربا، وعن شجرات البمبوزيا التي ترمي حباتها على الأرض، وعن مذاقها اللذيذ، وأنه استأذن ابنة الباشا لكي تشترك جوهرة معهم في اللعب في القصر وحدائقه الكبيرة.

- سأذهب يا أمي مع كمال لزيارة قصر الباشا.

سمعت نظيرة ما تقوله جوهرة من مكانها، فقالت:

- وما شأنكما بقصر الباشا؟!

اقتربت جوهرة من حجرة نظيرة وقالت:

- كمال يزور ابنته ويلعب معها في حدائق القصر.

قالت وصال: «لكن»..

فقالت جوهرة وهي تمسك يد أمها: «لن أتأخر يا أمي، لن أتأخر».

ابتسمت وصال وقالت: «ساعتان على الأكثر».

قفزت البنت جوهرة، وأمسكت يد كمال وأخذا يجريان في طريقهما إلى الطريق العمومي المؤدي إلى قصر الباشا.

* * *

تابعت عايدة جوهرة في تحفظ، نظرت إلى وجهها المائل للسمرة، وأنفها الكبير، قالت لها: «أنتِ يهودية؟»

- يقولون هذا.

لم تهتم جوهرة إن كانت يهودية أم لا، فليس هناك فرق بينها وبين كمال، أو عايدة هذه. ساروا في الحديقة الكبيرة، قال كمال لجوهرة: «سأذيقك البمبوزيا التي حدثتك عنها».

لكنه لم يجد شيئًا فوق الأرض. الحبات ما زالت تلتصق بفروعها العالية، والبستانيون يجمعون الملقى على الأرض، خشية أن يغضب الباشا منهم لو رآه، يأخذونه إلى بيوتهم. فأهل القصر لا يحبونه، ولا يسمحون بدخوله. ما الذي جعل الباشا يزرع هذه الشجرات الثلاث ما دام لا يأكلها، لا هو ولا أهله ولا خدم القصر، لماذا استجاب لمظلوم هذا؟!

قال كمال: «سأصعد فوق الفروع لأحضر البمبوزيا لكما».

قالت عايدة: «سأساعدك».

حملته هي وجوهرة حتى تسلق الفروع القريبة، وصعد عاليا، رمى الحبات لهما. كان يقطفها ويرميها. فتسرع كلّا منهما إليها تضحكان في سعادة. البنت جوهرة تجيد المزاح، وتعلق على الأحداث بخفة. «شكرا لك يا كمال لأنك جئت بها إليها».

هبط كمال، تعلق في فرع كبير، وأخذ يتمرجح به، ويحاول ضربهما بساقيه، وهما تضحكان وتحاولان الإمساك به، ثم وقع فوق الأرض، فتسلخت ركبتاه،

واتسخت ملابسه. لكنه لم يبكِ. أخذ يمسح التراب العالق ببنطلونه وهو يضحك ويمازحهما.

جلسوا فوق المقعد الكبير الهزاز، وحكت لهما عايدة عن أقاربها الإنجليز الذين يأتون لزيارتهم كل عام، وقلدت جدتها العجوز التي يقترب عمرها الآن من التسعين. أحنت ظهرها، وتحدثت بصوت خافت ضعيف بإنجليزية لا يعرفانها.

توقفت العربة أمام الباب، وخرج الباشا من ناحية باب القصر، وخرج مظلوم من الناحية الأخرى. صاحت عايدة وهي تجلس بين كمال وجوهرة: «بابي»، ثم قفزت من بينهما، وأسرعت إلى أبيها لتعانقه، فقد كان مسافرا إلى القاهرة منذ أيام.

نظر مظلوم إليهم. إنه يعرف كمال بن محسن أسطى الماكينات، ويعرف عايدة طبعا، لكنه لم يرَ هذه الفتاة من قبل، والباشا مثله لا يعرفها. ظنها – أول الأمر – زميلتها في المدرسة، فاقتربا منهم. قفز كمال في أدب تحية للباشا، لكن جوهرة ظلت في مكانها، تتابع الرجلين في ابتسام. قال الباشا في ود: «ماذا تفعلون؟»

قالت عايدة: «أحكي لهما عن أقاربي الإنجليز».

ضحك الباشا، فقد رآها كثيرًا تقلد جدتها العجوز، وكان يضحك طويلًا، وكذلك كانت تفعل مرجريت.

اقترب مظلوم من جوهرة، سألها: «مَن أنتِ؟»

لم تجبه، قالت عايدة: «إنها يهودية».

ضحك الباشا وقال: «مثلك يا مظلوم، مثلك».

ازداد مظلوم اقترابًا من الفتاة، وسألها: «ابنة مَن؟»

- ابنة منير صانع البمب والصواريخ.

ابتلع الباشا ابتسامته، ونظر إلى الفتاة في دهشة، لقد جاءت لكي تذكر مظلوم بما كان بينه وبين أمها وصال. سار الرجلان في طريقهما إلى باب القصر، وهما يفكران في هذه المفاجأة التي لم تكن على البال. قال الباشا وهما يصعدان السلم الخشبي العريض:

- هل لدى منير هذا أطفال غيرها؟

- عندما كنت أعرف وصال، لم يكن لديهما أطفال.

وصلا إلى الصالة الكبيرة، تابعتهما مرجريت بقامتها المديدة، وشعرها المائل للاصفرار المسترسل على ظهرها العاري. ابتسمت ودخلت حجرتها.

حمل الخادم الحقيبة من يد الباشا وأسرع بها إلى حجرة مكتبه، وفتح لهما الباب ليدخلا.

قال الباشا قبل أن يجلسا: «ألم تقل لي إن الديناميت والمفرقعات قد سببتا العجز الجنسي له؟»

- هكذا أخبرتني وصال. قالت إنه فشل في معاشرتها.

- قد يكون استطاع بعد ذلك.

- ربما.

عندما خرج مظلوم من باب القصر لم يجد الأطفال في مكانهم. نظر حوله علّه يجدهم، لكنهم ابتعدوا، كان

يريد أن يتحدث إلى البنت جوهرة، يسألها عن أمها وصال، وعن أبيها منير، أتكون هذه الفتاة ابنته؟ أنجبتها منه وصال في الأيام القليلة التي عاشرها فيها، خاصة الليلة التي قضتها في بيته.

خرج من الطريق المؤدي إلى القصر، واجهه مقهى رجب عسكر بعد مزلقان السكة الحديد، تابع الجالسين في المقهى، رجل أسمر، يرتدي ملابس كاكية، ويضع طاقية من الصوف فوق رأسه. مظلوم يشك في هذا الرجل. الباشا يقول إن الخوف هو الذي يهيئ له هذه الأشياء. قد يكون هذا حقيقة. فمقهى رجب عسكر يزدحم كل يوم بالأغراب، رجال يأتون من كل مكان في مصر، بعضهم جاء لأخذ حصته من الورق، وبعضهم جاء ليبيع ورق الدُشت اللازم لصناعة الورق، وبعضهم جاء ليورد للباشا الطماطم التي تتحول إلى معلبات الصلصة، وآخرون يأتون لشراء منتجات الألبان.

متى تنتهي هذه الحرب اللعينة ليرتاح مظلوم، ويرتاح كل يهود مصر، خاصة يهود الإسكندرية القريبين من قوات روميل التي أرسلها هتلر لاقتناصهم وقتلهم في معسكراته. آه لو وافق الباشا على أن يشرف على مكتب المصانع في القاهرة، سيبتعد عن القلق إلى حين، فقد يفشل روميل في الوصول إلى القاهرة. أو حتى يجد مظلوم فرصة للهرب قبل وصول روميل إليها.

لم تعد أم محمود تأتي إلى بيته، لقد كبرت المرأة. إنها ترسل ابنتها لقضاء حاجته. وتعد له الخبز المرحرح الذي

يحبه في بيتها، والأطعمة التي يطلبها وترسلها مع ابنتها. أم محمود ما زالت تذهب لزيارة نظيرة – صديقتها – تتلاصقان فوق فراش نظيرة، وتتذكران ما حدث منذ سنوات طويلة. يفكر مظلوم في أن يسأل أم محمود عن جوهرة هذه، هل هي ابنته، أم ابنة منير. نعم، أم محمود هي التي ستفيده في هذا. سيلح على ابنتها – التي تخدمه – في أن تزوره أمها. ولو تعذر هذا، سيذهب هو لزيارتها، ويطلب منها ما يريد.

لو انتهت الحرب سيبحث عن وصال، سيهرب بها بعيدا عن الطابية وعزبة جون، وكل هذه المناطق، سيهجر الإسكندرية كلها، يعيش معها زوجا وزوجة، ويربي البنت جوهرة. لكن قد تكون ابنة منير، ليس مهما، حتى لو كانت ابنة منير سيربيها. المهم أن تكون وصال له. لقد مرت السنوات الطوال منذ أن تركت بيته – بناء على رغبة الباشا – وكبر مظلوم، وازداد جسده ترهلا، وبرز كرشه، حتى سخر الباشا منه لذلك. أتكون وصال ما زالت في جمالها، أم أنها كبرت وترهل جسدها أيضا؟ لو تحدث المعجزة ويدخل بيتهم مرة أخرى ليراها ويطمئن.

* * *

دق الرجل الأسمر ذو الطاقية الصوفية باب بيت نظيرة. خرجت له وصال، تابعته في حذر. فاليهود يتحدثون كثيرا عن عملاء هتلر الذين يتجمعون في

مصر، استعدادا للسيطرة عليها، بعد الانتصارات الكثيرة التي حققتها فرقة البانزر[2] بقيادة روميل.

لقد أغلق منير باب الورشة، وجعل عماله ومساعديه يدخلون من باب داخل البيت، حتى لا يحس أحد بما يفعل، قال الرجل الأسمر: «أريد الأسطى منير».

- ماذا تريد منه؟

- إني سائق، أرسلني عميل يشتري البمب والصواريخ منه.

- تفضل.

دخل الرجل وهو يتنحنح، وينظر إلى الأرض. تابعته نظيرة في قلق لكنها لم تعلق، وهو لم يحس بوجودها. ظل جالسا فوق الكنبة إلى أن جاء منير من ناحية البدروم، تابع الرجل في تردد.

- أهلًا.

وقف الرجل في أدب، صافح منير، وجلسا متجاورين، قال منير: «تعمل مع مَن؟»

- جئت إليك في خدمة.

وقف منير غاضبا: «كنت تكذب على زوجتي؟»

- إنني أجلس في بيتك لتطمئن.

رفعت نظيرة نصفها الأعلى في صعوبة، أرادت أن تحضر هذا اللقاء لتحمي ابنها من الخطر. ما كان يجب أن تدخل وصال هذا الرجل. كانت كذبت وقالت: إنه غير

موجود، أو حتى: لا يوجد أحد بهذا الاسم. لقد تسرعت. وعندما يذهب هذا الضيف ستحدث مشكلة بينها وبين منير، سيتهمها بالخيانة. وبأنها تريد أن تضره بدعوتها لهذا الرجل بالدخول.

قال الرجل: «إنني أعمل مع الثوار».

وقف منير غاضبًا: «وما شأني بالثوار؟!»

- نريدك أن تصنع لنا قنابل يدوية نستخدمها ضد الإنجليز.

لم تستطع نظيرة أن تصمت بعد ذلك، فصاحت من حجرتها غاضبة: «اخرج يا هذا من بيتنا، ما لنا وما للثوار والإنجليز؟!»

لم يهتز الرجل، وواصل حديثه: «سأدفع لكم مبلغًا كبيرًا جدًا».

قال منير في هدوء وقد أحس بالخوف: «إنني أصنع البمب والصواريخ للعب. إنها تصنع صوتا ولا تؤذي».

- يمكنك أن تصنع ما نريد، فالعملية سهلة للغاية، قنابل يدوية، سنلقيها على جنود الإنجليز.

أخرج الرجل مبلغا كبيرا من المال. تركه على الكنبة، وقام استعدادا للخروج. صاحت نظيرة من مكانها: «خذ نقودك».

كان المبلغ كبيرا، جعل منير يتردد. سوف يصنع ما يريدون، وليس من شأنه ما سيفعلونه به.

لم يلتفت الرجل إلى ما تقوله العجوز داخل حجرتها، بل لم يكلف نفسه بالنظر إليها من خلال باب حجرتها الموارب. ابتسم لمنير. وللمرأة الشابة التي دعته للدخول، ثم خرج واعدا بالحضور مرة أخرى.

أمسك منير بالنقود فرحا، أخذ يعدها، ونظيرة تصرخ من حجرتها: «أجننت يا منير؟ كيف تقبل التعاون مع رجل لا تعرفه؟!»

قالت وصال: «وفي وقت خطر مثل هذا؟!»

لم يجبهما، وأكمل عد النقود. ودخل الورشة من الباب المجاور لباب البدروم، ليبحث مع عماله كيفية صناعة قنابل يدوية، يمكن أن تقتل مَن تُرمى عليه.

2() الدبابات الألمانية.

تابع مظلوم الرجل الأسمر الذي يجلس على مقهى رجب عسكر؛ وهو خارج من باب مصنع الورق. فكر في الذهاب إليه وسؤاله عن سبب جلوسه في هذا المكان، لكنه لم يجد مناسبة لهذا، فسيقول الرجل: إنه حر، يجلس في أي مكان يعجبه. لا، الحل هو أن يسأل عامل المقهى عن ذلك. سيعطيه مبلغا من المال لكي يتجسس عليه، وهو يضع الطلبات أمامه.

ذهب مظلوم إلى بيته، كانت ابنة أم محمود تعد الطعام له، المرأة تخفي وجهها عندما تراه، اقترب منها، فازدادت ارتباكا، وشدت الطرحة على وجهها، قال:

- ما أخبار أم محمود؟

- بخير.

حديثها معه مقتضب، يحس أحيانا أنها خائفة منه، أو ربما هذه عادتها في معاملة الرجال الأغراب. قال:

- عندما تعودين إلى بيتك، أخبريها بأنني أريدها في مسألة مهمة.

- سأبلغها.

تظن المرأة أنه يريد أمها لتعد له طعاما خاصا، أو ليعطيها نقودا، فهو كثيرا ما يفعل هذا.

وضعت المرأة طعامه فوق المائدة، وأسرعت في ارتداء ملابسها، وخرجت دون حتى أن تخبره بأنها

ستذهب.

* * *

جاء الرجل الأسمر، ما زال يضع الطاقية الصوف فوق رأسه رغم الحر، صفق داخل البيت، سمعته وصال لكنها لم تفتح، إنها لن تتدخل في هذه المسألة الشائكة. قالت نظيرة من مكانها:

- منير ابني لن يعديها البر.

صفق الرجل مرة أخرى، فخرج له أحد عمال الورشة، قال:

- تفضل، الريس ينتظرك في الداخل.

سار خلف عامل الورشة، كان يتنحنح، ويحدث أصواتًا لا معنى لها ليعلن عن قدومه. قال العامل: «خذ راحتك، فالورشة ليس بها نساء».

كان منير يقف أمام ماكينة، والعامل يعمل عليها. عندما رأى الرجل الأسمر أسرع إليه مرحبا. أدخله حجرته الصغيرة؛ وأغلق الباب خلفهما. قال منير: «الورشة كلها تعمل من أجلك».

قال الرجل وهو ينظر إلى الأرض في حياء:

- في الحقيقة، لم أجئ اليوم من أجل القنابل، وإنما جئت لكي أختبئ في بيتك.

وقف منير مندهشا:

- ماذا تقصد؟

- لا تخف، الأمر بسيط للغاية، لقد قصدت منطقتكم لأنها بعيدة، ولا يفكر أحد في أن يتبعني فيها.

- مَن الذين يتبعونك؟

أخرج الرجل بطاقته، وقدمها لمنير: «لقد كنت ضابطا في الجيش، لكن»..

قاطعه منير قائلا:

- أرجوك، لا أريد أن أتعاون معك، ونقودك سأردها إليك.

- لا أريد نقودا، بل سأعطيك نقودا أخرى. لكن أخفني في بيتك لثلاثة أيام؛ لا أكثر. إلى أن أجد طريقة للهرب.

جلس منير مهموما، بينما انشغل الرجل بإخراج مبلغ من ملابسه ووضعه فوق المائدة. تابع منير المبلغ في رغبة شديدة.

- لكنني أعيش في البيت مع زوجتي وأمي العجوز، وابنتي الصغيرة.

- هذا عز الطلب. سأنام في أي مكان.

- بصراحة، إنني أخاف من الأغراب، فالألمان يكرهون اليهود، ويقبضون عليهم في كل دولة يسيطرون عليها.

ضحك الرجل وقال:

- ما لي والألمان. أهذه بشرة لها صلة بالألمان، كما أنني أثبت لك إنني كنت ضابطا في الجيش، لكنني مرفوت الآن.

- لكنك ستتسبب لي في مشاكل مع البوليس، وربما مع الإنجليز أيضا.

- لا، اطمئن، ثلاثة أيام لا أكثر. ولن يحس أحد بوجودي.

- ومتى ستأتي لتنام؟

- الآن إن شئت.

- انتظرني.

خرج منير من الورشة، دخل إلى زوجته. قال: «أريد فراشا ووسادتين».

قالت نظيرة من مكانها:

- ما لك، أستنام في الورشة؟

- إنها لرجل قصدنا في...

صاحت نظيرة في غضب:

- لولا الملامة لصرخت وملأت البيت بالناس، من هذا الذي ستؤويه عندنا؟

- الرجل الأسمر الذي...

- إنك تعمل في صناعة خطرة، ومن الممكن أن يقبض عليك، خاصة في ظروف الحرب هذه، فلماذا تعرض نفسك لخطر أكبر؟!

قالت وصال، وهي تمسك فراشا: «ابنك يفعل أي شيء من أجل النقود».

صرخ منير فيها وسبها، فقالت: «لا شأن لي بك، سأعد لك ما تشاء».

جاءت أم محمود، صافحت مظلوم مبتسمة، قال:

- عجُزتِ يا أم محمود.

- وأنت كما أنت، الزمن لا يؤثر فيك.

- ما زلتِ تزورين نظيرة؟

- ما زلت تفكر في وصال؟

- لا، إنما أريد أن أستفسر عن بعض الأمور.

- اسأل.

- لدى وصال ابنة اسمها جوهرة.

- هي وحيدتهما.

- ألم تقولي لي إن زوجها عاجز عن...؟

- هذا ما يقولونه في العِزب.

صمت، لقد خاب ظن المرأة، فقد أيقنت بأنه يطلبها لكي يعطيها نقودا وهدايا، لكنه يسألها عن عشيقته القديمة. قالت:

- أتظن أن هذه الفتاة ابنتك؟

أخرج نقودا من محفظته، ووضعها في يد المرأة:

- لا تشغلي بالك بشيء.

نظرت المرأة إلى النقود وقالت:

- سأذهب لزيارتهم، وسأتقصى الأخبار.

- ومَن سيخبرك بذلك، منير أم أمه؟! لا تتعبي نفسك.

- سأسأل وصال، سأقول لها إنك تظن أن جوهرة ابنتك.

- وصال لم تعد تحبني كما كانت.

- سأسألها ويحدث ما يحدث.

***

نام الرجل الأسمر في حجرة تقع بين البيت والورشة؛ كانت تتخذ مخزنا للوازم البيت؛ وما زال بها بعض أجولة الدقيق وعلب الزيت. لكنه لم يهتم، وضع جسده فوق الفراش ونام.

نامت نظيرة في تلك الليلة قلقة، أيكون هذا الرجل جاسوسا من الألمان لكي يقضي عليهم. الولد منير الخائب يقول: «كيف يكون ألمانيا ولونه أسود هكذا؟!». إنه الوضع الطبيعي، أن يرسلوا جاسوسا لا يشك فيه أحد.

ظلت نظيرة ساهرة لوقت متأخر من الليل، تنتظر أن يأتي هذا الرجل ليقتلها ويقتل ابنها وزوجته والبنت جوهرة. يذبحهم جميعا وهم نيام. لكن هذا لم يحدث.

استيقظت فإذا بابنها منير أمامها مرتديا ملابسه ومستعدا للذهاب إلى ورشته، سألته:

- أما زال صديقك في حجرته؟

- نعم يا أمي. إنه رجل طيب، ولا خطر منه.

- حبك للمال أضاع صحتك، زوجتك هربت منك لعجزك..

وضع يده فوق فمها:

- بربك اصمتي، وصال في الخارج وستسمعك.

- لن أصمت، كان من المفروض أن تلحق نفسك وتكف عن ممارسة هذه المهنة اللعينة. لكن حبك للمال أضاع كل شيء.

كانت وصال في حجرتها، تحتضن ابنتها جوهرة وهي نائمة، لقد أحست بمنير وهو يرتدي ملابسه استعدادا للذهاب إلى الورشة، لكنها لم تتحرك، تظاهرت بالنوم، وهو كان حريصا ألا يحدث ضجة حتى لا تصحو من نومها، إنه يتهرب منها في هذه الأيام. يأتي من ورشته متأخرا، يريد أن يصنع بُمبًا وصواريخ تكفي أطفال العالم كله، لتزداد ثروته. ولو اتصلت به بريطانيا سيصنع لها الأسلحة التي يمكن صنعها من أجلها، ولو جاءه الألمان أيضا سيعمل معهم، المهم أن يدفعوا له. لقد أحس بالسعادة عندما عرض عليه الرجل الأسمر صناعة قنابل يدوية بطريقة بدائية فكر في عرض الرجل، الجمعيات السرية تنتشر في كل جزء من مصر، في القاهرة والإسكندرية والصعيد. يلقون بالقنابل فوق العربات العسكرية التي تحمل جنود الحلفاء. وصول روميل إلى ليبيا، ودخوله الصحراء الغربية المتاخمة للإسكندرية، شجع هذه الجمعيات. فليس غريبا أن يأتيه ذلك الرجل الأسمر ليتفق معه على صناعة القنابل. فمنير يعلم أن هذه الجمعيات التي تسمي نفسها بالوطنية، قد اتفقت مع سباكين وسمكرية أرمن وجريج ومن ملل

مختلفة لمساعدتهم على صناعة هذه القنابل. أيهما أحق بصناعة هذه الأسلحة. السمكرية، أم صانع البمب والصواريخ؛ الذي يتعامل مع الديناميت والمفرقعات طوال الوقت؟!

فرك منير يديه سعيدا، ليس مهما أن يعيش باقي عمره حصورا، عاجزا عن إتيان النساء. المهم أن يغتني ويصير أغنى يهودي في مصر، أغنى من صموئيل نفسه الذي يأتي لزيارة ضريح جون، فينحني له الجميع ويقبلون يديه، وتأتي الشرطة لحمايته، وقتها سيسافر إلى أوربا لعرض نفسه على الأطباء هناك، حتما سيجدون له علاجا، وسيكيد وصال، وربما يتزوج امرأة غيرها. المهم النقود. قام منير ليلتها، وجاء بصندوق خشبي مما يخزن فيه مفرقعاته، فتحه بعناية وأخرج جنيهاته الورقية والذهبية، تحسسها وشم رائحتها وأخذ يعدها بمتعة شديدة، مر الوقت دون أن يحس، حتى كادت الشمس تشرق، فأسرع بجمع نقوده ووضعها في الصندوق، وأغلق الدولاب عليه كما كان، ونام الساعات القليلة المتبقية من الليل.

خرج منير إلى ورشته، سيتابع ما بدأه في صناعة القنابل اليدوية التي طلبها الرجل الأسمر، حتى لو لم يأخذها هو، فسيبحث عن آخرين لشرائها، وسيجد الكثيرين. ستكون هذه تجارته من الآن.

بعد قليل خرج الرجل من حجرته، مر من أمام مدخل بيت منير، دون أن يراه أحد. اشترى كمية كبيرة من

الأطعمة، ودق باب البيت، صاحت نظيرة من مكانها: «افتحي يا وصال».

أسرعت جوهرة بفتح الباب فوجدت الرجل الأسمر مبتسما، وممسكا بلفائف كثيرة وكبيرة. قالت الفتاة لجدتها: «إنه...»

تنحنح الرجل وقال: «معذرة يا سيدتي».

وجدته نظيرة أمامها: «لقد أسرعت بشراء الإفطار لنفطر معا».

ازدادت نظيرة خوفا منه، إنه جريء أكثر من اللازم، لقد أقحم نفسه عليهم. لم يكتف بالبقاء في حجرته البعيدة عن الشقة، بل دخل حياتهم كأنه أحد أفراد الأسرة.

جاءت وصال من حجرتها، فوجئت بذلك الرجل الذي ما زال يلبس طاقيته الصوفية، ويرتدي ملابس كاكية من التي يرتديها السائقون والعتالون. كانت وصال في ملابس النوم، فأسرعت إلى حجرتها ثانية لكي تغير ملابسها، ووضع الرجل لفائفه فوق المائدة: «إنه إفطار متواضع أرجو أن تشاركوني فيه».

كانت جوهرة تتابع الجميع في دهشة. رجل غريب أصبح فردا من الأسرة. وجدتها نظيرة تريد أن تقول شيئا ولا تقدر، وأمها وصال حائرة، أتجالس هذا الرجل الغريب، أم ترفضه ليعود إلى الحجرة التي حددها منير له، ولا يبرحها إلا إلى الشارع؟!

أمسك الرجل لفائفه ثانية وقال: «نجلس في حجرة سيدتنا نظيرة، ونتناول الإفطار معها».

الكل لا يستطيع الحديث، هو الوحيد الذي يتحدث. جاءت وصال من حجرتها، وجلست بجواره، وجوهرة ابتسمت له.

تناولن طعامه، كان يقدم الطعام إلى نظيرة بنفسه، فتأخذه صامتة، وجوهرة تتابعه سعيدة. بعد لحظات قصار تحدثن معه، اطمأنت نظيرة، سألته عن سبب تحمله المشاق هكذا دون طائل.

- لماذا لا تعيش حياتك مثل الآخرين؟

- ونترك الإنجليز في بلادنا؟!

أخرجت وصال له ملابس نظيفة من ملابس منير ليرتديها ويجلس معهن في البيت. وأخذ يلعب مع جوهرة، علمها ألعابًا لطيفة، سوف تلعبها أمام صديقيها كمال وعايدة ابنة الباشا، ثم أخرج علبة دخانه، وأشعل سيجارة وأخذ يدخنها في تلذذ وهو يتابع جوهرة التي تلعب أمامه في ابتسام. قام من مكانه فجأة، قال: «تعالي معي يا جوهرة، سأعطيك لعبة جميلة».

أخذ جوهرة وذهب إلى حجرته. سمعت نظيرة دقات على الباب. مَن الذي سيأتي إليهم الآن؟! الحمد للرب لأن الرجل الغريب في حجرته لكيلا يراه القادم، لكنه قد يعود فجأة، فيتقابل مع القادم الذي لا تعرف نظيرة مَن يكون. سوف ترسل وصال إلى ذلك الرجل الأسمر في

حجرته، لكيلا يعود الآن، يختبئ في الحجرة إلى أن يذهب ذلك الوافد.

فتحت وصال الباب فوجدت أم محمود أمامها. سمعت نظيرة صوتها من قبل أن تراها، فصاحت: «إخص عليكِ يا أم محمود، أتغيبين عنا كل هذه الغيبة؟!»

أسرعت أم محمود إلى حجرة نظيرة وقبلتها: «لا أستطيع أن أنساكم، لكن العمر يا أم منير. ساقي تؤلمني. أعمل وأنا جالسة على الأرض».

شمت أم محمود رائحة الدخان، منير لا يدخن. فمَن الذي كان موجودا من قبل أن تدخل. فرائحة الدخان تعبق المكان، كما أن ملابس غريبة ملقاة بجوار المائدة، تعرف أم محمود ملابس منير التي غسلتها له كثيرا. هذه ليست ملابسه.

خرجت أم محمود إلى الصالة، بحثت عن وصال، وجدتها تقف أمام الحوض لتغسل الأطباق:

- أساعدك يا وصال؟

- لا، ارتاحي في الداخل مع خالة نظيرة.

همست في أذنها:

- مظلوم ما زال يسأل عنك.

زفرت وصال في ضيق:

- ألن ننتهي من هذه السيرة؟!

- إنه يظن أن جوهرة ابنته.

صاحت وصال:

- كله إلا جوهرة، إنها ابنتي وحدي، لقد تخلى عني عندما كنت في أشد الحاجة إليه.

شعرت أم محمود بالخوف، فصوت وصال كان عاليا، وقد تسمعه نظيرة، فأسرعت إلى الصالة وقالت بصوت مرتفع: «أنت حرة يا وصال، لقد أردت مساعدتك».

فوجئت بوجود رجل غريب؛ لم تره من قبل، وهو يمسك بيد جوهرة، التي تلعب بساعة قديمة كبيرة الحجم. قالت أم محمود: «أهلا». فلم يجبها الرجل، المفاجأة ألجمته. فقالت نظيرة من مكانها: «إنه خال وصال، كان في العراق منذ سنوات طويلة».

تابعته أم محمود في اهتمام، نظيرة تكذب، ذلك واضح في حديثها، الكلمات ترتعش فوق شفتيها، الكذب ليس له «رِجلين»، كما يقولون.

كانت السيجارة في يده، إنه نفس الدخان الذي شمته أم محمود عندما دخلت البيت، نظيرة تخفي شيئا في بيتها، ولا تريد أن يطلع عليه أحد.

أحست أم محمود بأن وجودها يسبب قلقا لأهل البيت فاستأذنت، إنها أول مرة تأتي إليهم ولا تبقى طويلا في البيت. الغريب أن الجميع رحب بذهابها، وكانوا في كل مرة يلحون لكي تبقى.

* * *

أحبت جوهرة هذا الرجل الغريب الذي أهداها ساعته الكبيرة القديمة التي تدق من وقت لآخر، وعلمها ألعابا كثيرة ستزهو وتفتخر بها أمام صديقيها كمال وعايدة. هي واثقة أن الاثنين لا يعرفان هذه الألعاب.

تعرف جوهرة الآن كيف تذهب وحدها إلى قصر الباشا، تستأذن من الخفير الواقف أمام الباب لكي تدخل، تقابل عايدة. لكن كمال قد لا يكون موجودا هناك، وهي تريده أن يرى هذه الساعة، ويرى بنفسه الألعاب الجديدة التي تعلمتها. لا بد أن تذهب في الأول إلى بيت كمال، وتأخذه معها إلى قصر الباشا.

دقت جوهرة باب شقة كمال، فتحت أمه الباب، تابعتها في ابتسام، إنها تعرفها جيدا فقد جاءت إلى كمال مرات عديدة، قالت الأم: «جاءته ابنة الباشا وأخذته إلى القصر».

شعرت جوهرة بالضيق، إنهما يتقابلان وحدهما، تأتي إلى بيته، ويلعبان بدونها، ستذهب الآن وتفاجئهما. وجدتهما يلعبان حول شجرات البمبوزيا الثلاث القريبات جدًا من باب القصر الحديدي. صاحت جوهرة فرحة: «انظرا إلى هذه الساعة».

تابع كمال الساعة في غير اهتمام، فوالده لديه ساعة قديمة ورثها عن والده، وكمال يلعب بها كثيرا، لكن عايدة صاحت مندهشة: «إنها ساعة مدهشة».

وأمسكتها بكلتا يديها، وضمتها لصدرها فرحة، كانت جوهرة تريد أن يتحمس كمال للساعة أكثر، فهو يهمها أكثر من عايدة.

مر الوقت وهم يلعبون في الحديقة، عايدة تلف زمبلك الساعة، لتسمع دقاتها، فتقربها من أذنها وتصيح منتشية فرحة. حتى اضطرت مربيتها الإنجليزية أن تنزل بنفسها، وتصيح فيها: «عايدة، لقد تأخر الوقت وأنت ما زلت في الحديقة».

كان الحل، أن تدخل عايدة بضيفيها إلى القصر، وتلعب معهما في حجرتها.

حكت أم محمود لمظلوم عن الرجل الأسمر الذي رأته في بيت منير، وعندما وصفته له، تذكر الرجل الذي كان يلبس الطاقية الصوف ويجلس على مقهى رجب عسكر. منير يضحي بكل شيء من أجل المال. الألمان يتتبعون اليهود في كل مكان، ويرسلون عملاءهم للإيقاع بهم، وهذا الرجل الأسمر عميل للألمان لا شك في ذلك.

لم يستطع مظلوم أن يحكي لأم محمود عن ظنونه في هذا الرجل الذي يعيش في بيت منير. فالمرأة لن تفهم شيئا مما يقصد. لا بد أن يتخذ موقفا سريعا لإنقاذ منير وأمه وزوجته وصال، والبنت الصغيرة جوهرة. التي يثق مظلوم بأنها ابنته؛ من صلبه.

قالت أم محمود وهي تضحك: «ما الذي تفكر فيه».

ظنته المرأة يفكر في كيفية الحصول على جوهرة وأمها وصال من ذلك الرجل الذي لا يبحث إلا عن المال.

فكر مظلوم في الذهاب إلى بيت منير ليحذره من ذلك الرجل الذي يعيش في بيته، متخفيا عن الشرطة، لكن منير لن يقبله في بيته، وحتما سيطرده، ويدفعه من فوق درجات البيت القليلة، لكن الأمر خطير، وعلى مظلوم أن يتحمل أية إساءة إليه في سبيل إنقاذ وصال وجوهرة، ومنير وأمه، وكل اليهود الذين يعملون في الورشة.

مد مظلوم يده نحو حذائه ليذهب إلى بيت منير، لكن الوقت متأخر الآن. في الغد سيذهب لمقابلته، وسيتحمل أي شيء في سبيل إنقاذ يهود عزبة جون، وقرر أن ينام بعض الوقت إلى أن يتصل به الباشا ككل مساء ليقدم له تقريرا عن سير المصانع الثلاثة.

* * *

جمع الرجل الأسمر أشياءه في حقيبة كبيرة، وتنحنح قبل أن يصل إلى باب شقة نظيرة، كانت وصال فوق سريرها في حجرتها، تنظر إلى السقف، وهي تضع يديها خلف رأسها، تفكر في مظلوم الذي أرسل أم محمود ليسأل عنها وعن جوهرة ابنته، لقد مرت السنوات، من قبل أن تولد جوهرة، وهو بعيد عنها، لم يفكر في أن يتابعها، أو يسأل عنها. أحيانا كانت تتعمد الذهاب إلى سوق الأربعاء في عزبة جون لشراء لوازم البيت، كانت

تلح في الذهاب. فمنير يرسل عمال الورشة لشراء لوازم البيت. لكن وصال تريد أن تذهب بنفسها فقد ترى مظلوم، وكانت تتعمد أن تسير من أمام بيته؛ حتى أيقنت – آخر الأمر – أنه قنع بالبعد عنها، واستجاب لطلب الباشا، لكنه يسأل عنها الآن، وأرسل في طلب أم محمود التي كانت قد امتنعت عن الخدمة عنده؛ بعد أن شاخت وكبرت. حتما هو يسأل عن ابنته جوهرة. عندما رآها تلعب في قصر الباشا مع ابنته عايدة، ومع الولد كمال.

تذكرت وصال ابنتها، لقد تأخرت، خرجت للعب مع كمال وعايدة في قصر الباشا منذ وقت طويل، ولم تعد للآن. سمعت صوت تنحنح الرجل الأسمر الذي لم تسأل نفسها عن اسمه، فحتما سيختار اسما غير حقيقي، حتى لا يكتشف أحد أمره، ويبلغ الشرطة عنه. سمعت نظيرة تصيح من فوق كنبتها: «تفضل، ادخل».

فهبت وصال من مكانها وخرجت إلى الصالة. وجدت الرجل أمامها حاملا حقيبته. قالت: «أستترك البيت الآن؟»

ابتسم في خجل: «لقد أثقلت عليكم كثيرا».

قالت نظيرة من حجرتها: «لقد آنستنا، وأخذنا عليك».

لم يتحرك من مكانه، كان ينظر إلى لا شيء، قال: «جئت لوداعكم».

قالت وصال:

- هل أخبرت منير بذلك؟ إنه في الورشة.

- ليس مهما، فسوف أعود في القريب.

سار خطوات قليلة نحو الباب، ثم نظر إلى الخلف قائلا:

- كنت أود وداع جوهرة، لكنني في عجلة الآن.

خرج الرجل حاملا حقيبته، واختفى عن الأنظار.

* * *

استيقظ مظلوم من نومه على صوت انفجار رهيب، ظن أول الأمر أنه يحلم، وأن كثرة التفكير في قوات روميل؛ والخوف من إيذائهم ليهود الإسكندرية؛ جعله يحلم بهذا أثناء نومه. كما أن الرجل الأسمر جعله يفكر كثيرا فيما سيحدث ليهود عزبة جون. لقد قضى الرجل أياما في بيت منير صانع البمب والصواريخ، وكان مريبا في تصرفاته، حتى أيقن مظلوم أنه جاسوس للقوات الألمانية التي تحارب الإنجليز في العلمين.

لم يكن الوقت متأخرا، فالساعة لم تتجاوز التاسعة مساء. مظلوم في البيت وحده. فقد عادت أم محمود وابنتها - اللتان تخدمانه - إلى بيتهما بعد المغرب بقليل، فمن النادر أن تسير امرأة أو فتاة في شوارع الطابية بعد سماع أذان المغرب في المساجد الكثيرة هناك. فالظلام يحل في المكان، ويندر أن يسير إنسان في هذا الوقت. فالشوارع والطرق ليست مضاءة، وعادة ما تغلق المحلات أبوابها في ذلك الوقت. حتى أفراحهم تنتهي

بعد صلاة العصر بقليل. سمع مظلوم أصواتا عالية أمام البيت، ورجالًا يصيحون: «ورشة منير وبيته يحترقان».

هبَّ من فوق سريره. خرج إلى الشارع ببيجامته، وجد الناس يجرون نحو بيت منير، أسرع بينهم ذاهبا إلى مكان الورشة والبيت، لكن انفجارات أخرى هزت المنطقة ثانية. فاضطر الجميع إلى العودة؛ خشية أن تلحق النيران بهم.

وخرج الباشا حسن بدوي - بالروب دي شمبر – يتابع النيران والانفجارات من الفراندة الكبيرة التي تطل على البحر، فعزبة جون - المشتعلة الآن - قريبة جدا من مصنع الورق الذي يمتلكه؛ وأوراق الدشت التي يشتريها من الزبّالين وجامعي الورق من الشوارع؛ تخزَّن في الخارج، ومن الممكن أن تصل النيران إليها، ثم إلى المصنع، وربما إلى المصنعين الآخرين أيضًا.

اضطر أن يخرج من باب القصر بالروب والشبشب. صاحت مرجريت من الفراندة: «ادخل يا باشا، لا يصح أن يراك الناس هكذا».

تردد قليلا، ونظر إلى رجاله حوله، ثم دخل قصره ثانية. أمسك بسماعة التليفون، وأدار القرص، يستغيث بمطافئ الإسكندرية والبحيرة. «لا بد أن تسرع السيارات قبل أن تصل النيران إلى مصانعي الثلاث؛ إنها أموال ناس يا عالم، الحقونا».

ارتعد مظلوم، كانت شفتاه ترتعشان من شدة الخوف، فسوف تأتي قوات روميل إلى المنطـقة، وتحـمل اليهود في عربات مثل التي يجمعون فيها المجرمين؛ والتي يراهـا كثيرا قريبا من المحكمة الكلية بالمنشية.

أين سيذهب الآن، أين سيختبئ؟! ليس هناك سوى قصر الباشا، إنه واصل، وله صلة بكبار القوم، ولا شك أن الملك فاروق – ملك البلاد - يعلم أن والده كان الصديق المقرب له، نعم، حسن بدوي هو وحده الذي يمكن أن يحميه.

كانت جوهرة تقف مع عايدة وكمال؛ يتابعون ما يحدث في دهشة، لم تفهم – أول الأمر – سر اللهفة التي يتحرك الباشا فيها، ولا سر هذه الانفجارات التي تسمعها لأول مرة، وسمعت رجال الباشا يرددون كلمة «يهود»، تعرف هي أنها يهودية، وأنها تسكن في عزبة معظم سكانها من اليهود، لكنها لم تدرك الصلة بين الانفجارات واليهود.

فجأة دخل والد كمال وهو يجري جزعا على ابنه. لم يلتفت إلى أحد. رفع ابنه إلى كتفه، ونظر إلى جوهرة وكأنه يريد أن يقول شيئا. لاحظت جوهرة أن الجميع ينظر إليها بشفقة عندما يذكرون كلمة «يهود»، وخرجت الدادة الإنجليزية من باب القصر غاضبة، وأمرت خادما بأن يحمل عايدة عنوة ويدخلها القصر، وظلت جوهرة وحدها. لقد شمل الظلام المكان كله، حتى اللمبات التي كانت مشتعلة لتنير الطريق إلى القصر؛ أمر الباشا بأن

تطفأ. فالذي يحدث له صلة وثيقة بالحرب، فربما يستعد الألمان لدخول الإسكندرية عن طريق خليج أبي قير، وأنهم تذكروا هذه المنطقة عندما قرأوا عن حملة نابليون إلى مصر.

استغلت جوهرة انشغال الكل عنها بما يحدث وسارت في الطريق المظلم، فسوف تجتازه إلى أن تصل إلى الطريق العمومي الذي يحده شريط القطار الذاهب إلى رشيد، والمصرف، ومن هناك ستصل إلى بيتهم.

لكن مظلوم أسرع الخطى أمامها. عندما رآها من بعيد؛ أبطأ خطواته، وتبعها باهتمام، ثم انحنى أمامها؛ حتى لامس وجهه وجهها:

- إلى أين تذهبين؟

- إلى بيتنا.

- لكنه يحترق الآن.

- كيف؟

- ورشة والدك انفجرت بما فيها من ديناميت ومفرقعات.

صرخت، ماذا يعني هذا، هل ماتت أمها وصال، ومنير والدها ونظيرة جدتها؟!

أمسك مظلوم يدها الصغيرة وعاد بها إلى قصر الباشا، وأوصى الخدم بأن يهتموا بها، وسوف يأتي في الصباح لأخذها إلى بيته.

* * *

خرج من ناحية ضريح جون ولد صغير أسمر ورأسه صغير للغاية، وشعره أكرت وفكه بارز وأنفه كبير يشمل جزءا كبيرا من وجهه الأسود والمتسخ من أثر الحريق، وملابسه ممزقة، وصوته الأخرق يشق الآفاق. إنه زكي بن مورجان خادم ضريح جون. لقد وصلت النيران الرهيبة إلى البيت المجاور لبيتهم، القريب جدًا من الضريح، كان مورجان في الحجرة يرتعد من الخوف، بينما ابنه زكي أكثر تماسكا، ربما لأنه لا يقدر مدى المأساة.

يشرئب الولد محاولا النظر من خلال نافذة الحجرة ليتابع النيران العالية التي تهب في قوة آتية من كل مكان، محاولة الدخول من الباب الموصد. فقد أغلق والده مورجان الباب لتجد النيران صعوبة في اقتحام المنزل.

أم الولد - نائلة - خرجت كعادتها منذ أيام قلائل، تعودت الغياب خارج المنزل بالليلة والليلتين والثلاث، وأحيانا أكثر، لكنها تعود بعد ذلك بقامتها المديدة، ووجهها الشاحب المبتسم دوما، تهز جسدها ويديها المحملتين بأشياء كثيرة، علب مربى وحلاوة طحينية وخبز فينو ولحم، أشياء كثيرة أهداها لها مَن كانت لديهم.

ما إن تدخل الحجرة، حتى تجري إلى ابنها تحمله في خفة وتقبله في لهفة، وتفتح حقائبها، تخرج له المربى والحلاوة الطحينية اللتين يحبهما للغاية، ويأتي مورجان بعد ذلك بقليل، أحيانا يلمحها وهي آتية، من خلال جلسته أمام الضريح، وأحيانا يخبره أحد المارة، إن زوجته قد عادت إلى البيت، يسرع تاركا كل شيء، لا يسألها أين كانت، وكيف قضت الأيام والليالي بعيدة عنه. كل ما يهمه أن يبحث داخل حقائبها باحثا عن أشياء تصلح له.. جلباب قديم، أهداه لها أحد معارفها، أو سرقته منهم دون أن يحسوا. جوارب تدفئ قدميه اللتين يشكو منهما طوال الوقت. يخرج الأشياء بنهم، يسرع ناحية الولد زكي، يأخذ المربى والحلاوة الطحينية من أمامه، يأكلها بينما نائلة تسبه بألعن السباب.

يتمنى زكي لو كانت أمه نائلة موجودة في دارهم وقت الحريق؛ فهو – على أي حال – لا يحب أن تبتعد عنه، رغم ما يناله من أطعمة يحبها نتيجة لرحلاتها العديدة والمتكررة، فوجوده في الدار مع مورجان يعذبه، الرجل يمنع عنه الطعام، لولا ما يعطيه له الجيران في غياب أمه لمات جوعا. ويضربه أحيانا دون سبب، ويسخر من صوته الأخرق، ووجهه الدميم. لو يستطيع زكي أن يخرج الآن لكي يبحث عن أمه، ملاذه في هذه الظروف الصعبة. لكن الخوف يشله، لقد سمع كثيرا عن محاولة الألمان لقتلهم دون أن يعرف سبب

هذا، سمع هذا في جلسات الناس بجوار ضريح جون؛ وهم يتشمسون ويحتسون الشاي والقهوة والقرفة التي يقدمها والده إليهم، نظير ما يدفعونه له من قروش.

مورجان يرتعد خوفا من النيران التي تحاول الدخول؛ فتلتهم خشب الباب، وخشب النافذة، فيقف الرجل ذاكرا الرب في رجفة وارتعاش، يناجي جون الذي يخدم ضريحه، يتوسل إليه لأن ينقذه من هذا الخطر القادم إليه. لكن النيران هاجمت المكان، ودخلت – أول الأمر – من تحت عقب الباب المغلق، ومن فتحات النافذة المغلقة، ثم أشعلت الباب والنافذة فأتت عليهما، وهبت في عنف نحو كل ما هو قابل لأن يحترق داخل الحجرة.

قبع الولد في ركن الحجرة البعيد، بينما وقف مورجان محاولا منع النيران من أن تصل إليه، فاشتعل طرف جلبابه، واشتعلت النيران في جاكتته التي يرتديها فوق القفطان، واستطاع الولد أن يخترق ألسنة اللهب التي تلتهم كل شيء في البيت، ويخرج إلى الشارع.

لم ينتبه أحد إلى الولد زكي، إنه يوم الهول الكبير، الكل يبحث عن خلاص لنفسه، لا يفكر أحد في غيره. فانزوى الولد قريبا من الطريق العمومي الذي يؤدي إلى رشيد. حيث تأتي أمه – عادة – بعد رحلاتها المتعددة، والتي لا يعرف الطفل أين تكون. قد تأتي فجأة بقامتها المديدة، وطرحتها السوداء التي تلفها فوق رأسها، مثل

نساء منطقة الطابية، المسلمين والمسيحيين واليهود، فكل نساء المنطقة، يرتدين ملابس متشابهة.

إنه الآن يحمد الله لأن أمه لم تكن موجودة وقت الحريق، وإلا التهمتها النيران كما التهمت مورجان، سوف تأتي نائلة مهما غابت.

لقد قبع الولد بجوار الممر الضيق بين الشارع العمومي، وقضيب السكة الحديد، الممر مندى بمياه قليلة تغطيه؛ وبرطوبة عالية. نام الولد خائفا من النيران التي ابتعد عنها، ظنا بأنها ستصل إليه في هذا المكان المبلل بالماء، وخائفا من الثعابين التي تتوارى عادة بين المزروعات التي تنمو دون أن يزرعها أحد، وكان عندما يسير مع أمه، محاولا اجتياز هذا الممر الضيق لكي يختصر السكة، تحذره أمه، وتشده من يده في عنف، بعيدا عن الممر، قائلة: «إنه ممتلئ بالثعابين والعقارب السامة».

لم ينعس زكي، لكنه ظل في مكانه غير قادر على الحركة إلى أن تهدأ النيران؛ وتسكت الانفجارات التي كانت تدوي من وقت لآخر، فيغوص قلبه الصغير داخل صدره جزعا وخوفا، أو أن تأتي أمه لتنقذه من هذا العذاب.

لقد كان زكي مع جوهرة والولد كمال قبل أن يشمل الظلام المنطقة، نادته جوهرة من بعيد: «زكي، انظر إلى هذه الساعة العجيبة».

أراد أن يلمسها، لكنها شدتها بعيدا عنه ودستها في ملابسها بسرعة وهي تقول: «لقد أهداني إياها الرجل الأسمر الذي جاء لبيتنا».

أراد زكي أن يذهب معهما إلى قصر الباشا ليشاركهما اللعب مع ابنته، لكن كمال تأفف منه، وأعلن أنه لو ذهب معهما؛ سيعود إلى بيته فوزا، واختارت جوهرة أن تذهب مع كمال من دونه، ليس رغبة لإرادة كمال؛ وإنما لأنها لا تحب مرافقة هذا الولد القبيح الذي يزعجها صوته الأخرق، فدفعته بعيدا عنها، وذهبا مسرعين ليلحقا بموعد عايدة.

ساعة اليد التي أعطاها لها الرجل الأسمر معها، تلمسها بأصابعها من وقت لآخر وهي داخل ملابسها. وتخرجها من مكمنها، وتضعها على أذنيها - طوال الطريق - لتسمع دقاتها، ثم تعيدها ثانية إلى مكانها في حذر. والولد زكي يقف في مكانه، يتابعهما في حزن وهما يبتعدان عن ناظريه، والدموع تنبعث من عينيه في صمت، كحاله الآن، وهو يقبع في هذا الممر الضيق الرطب باحثا عن أحد يشده إليه، ويأخذه معه إلى بيته، حيث الأمان والدفء. لو وافقت جوهرة لكان معهم الآن في القصر بعيدا عن الحريق والانفجارات.

شاهد الولد عربات المطافئ وهي تدخل المنطقة بأجراسها العالية التي تطلب أن يخلو الطريق لها لتنقذ مصابي الحريق، تلك الأجراس موجهة للناس في المنطقة، فالسيارات من النادر أن تمر في هذه الطرق.

لكن الناس تجمهروا في الطرق والأزقة، جاءوا من كل العزب المجاورة: عزبة الباشا وعزبة المكن وعزبة زقيلح وعزبة الحاج محمد. هذا غير سكان عزبة جون الذين نجوا من الحريق.

* * *

ظلت جوهرة في قصر الباشا، تلعب مع عايدة، ثم نامت، فحملها الخدم لتنام في حجرتهم، وفي الصباح استيقظت فزعة، كانت نائمة فوق أرض المطبخ الواسع الكبير، والخادمات الكثيرات ينمن حولها فوق البلاط المفروش باللباد الذي يأتون به من مصنع الورق، والذي يرفعونه عن الأرض فور صحيانهم، ويضعونه في الدواليب البعيدة. صرخت جوهرة، وسألت: «ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟»

ضمتها امرأة نوبية إلى صدرها في حنان وقبلتها، ثم مصمصت شفتيها شفقة عليها. وتحدثت في همس مع باقي الخادمات: «مات أهلها جميعا في الحريق».

بحثت جوهرة عن ساعتها الفضية الثمينة، حمدت الله لأنها ما زالت في سترتها كما كانت، أخرجتها، ووضعتها فوق أذنيها، سرت لسماع صوتها.

تناولت فطورها مع الخدم، ثم دارت في أركان القصر، تبحث عن عايدة صديقتها، وتنتظر أن يأتي كمال ليشاركهما اللعب. لكن عايدة اختفت، وكمال في بيته، فقد حذره والده من الخروج في ذلك الوقت العصيب.

في الصباح كانت النيران قد أطفئت، وسكتت الانفجارات التي كانت تدوي طوال الليل، وعادت سيارات المطافئ التي جاءت من الإسكندرية ومن البحيرة، وخرجت سيارات الإسعاف تحمل الضحايا.

لقد مات منير وكل العاملين في ورشته، وماتت وصال ونظيرة، كما تهدمت الدور والحوانيت في الحارة التي تقع بها الورشة عن آخرها، ما تسبب في خسائر فادحة بالأرواح والأموال، واتضح من معاينة البوليس أن سبب هذا الانفجار القنابل التي كان يصنعها منير للرجل الغريب الذي جاء ليتفق معه على ذلك، فورشته لا تقوى على صنع هذه القنابل، وكل ما كانت تصنعه طوال سنوات طويلة، هو بمب وصواريخ الأطفال الذين يلهون بها في الأعياد، فهي من أندر المواد وأشدها فتكا.

وهذا ما ذكرته الصحف الصادرة خلال هذه الأيام، بأن أحد المصابين الذين كانوا يعملون في ورشة البمب والصواريخ، قال وهو في حالة خطيرة جدًا إنه حذر منير من أن ورشته لن تستطيع احتمال هذه المواد القوية الانفجار. لكنه لم يهتم، وربت ظهره قائلا: «شوف شغلك، ورشتي أقوى مما تتصور، كما أننا كدنا ننتهي من صنع كل الكمية التي اتفقنا عليها».

تابع أهالي الطابية رجال الإسعاف وهم يخرجون الضحايا من تحت ركام البيوت، ويحملونهم في سيارات الإسعاف، التي تطلق أجراسها عاليا ليفسحوا لها الطريق، ليتمكنوا من إنقاذ المصابين. لكن الموتى كانوا أكثر. النيران التهمت الأهالي ، فالحارة التي تقع بها الورشة لم ينج منها أحد ، وموتى كثيرون كانوا في الحواري التالية، ووصلت النيران إلى ضريح جون، فاحترقت ستائره، وأجزاء كبيرة من مبانيه وخشبه، حتى وصلت النيران إلى قبره، وكادت تصل إلى ما في داخله. وتهدم بيت مورجان - خادم الضريح - ولا يدري أحد هل كانت زوجته نائلة معه في ذلك اليوم، أم كانت غائبة كعادتها، أعلن الناس أن مورجان وابنه قد ماتا، وربما زوجته أيضا.

* * *

جاء الحاخام الأكبر موشي فنتورا ليتفقد الحدث، فدعاه الباشا حسن بدوي إلى قصره إلى أن يحين موعد دفن الموتى، وحضر مظلوم المقابلة.

قدم خدم قصر الباشا الأطعمة للضيوف، فالحاخام الأكبر لا يأتي إلى القصر إلا في المناسبات، كما أنه شخصية كبيرة ولا بد من الاحتفاء بها.

وعد فنتورا أن تقام الجنازة على أعلى مستوى، فسيحضرها مندوب عن الملك فاروق، ومحافظ الإسكندرية، وكبار رجال المال - خاصة من اليهود - وأكمل فنتورا: «سنبحث في إعادة إعمار عزبة جون ثانية. وإعادة بناء الضريح من جديد».

قال مظلوم في أسى: «هذا إذا انهزمت ألمانيا، فلو كسبت الحرب لن تقوم ليهود مصر قائمة».

قال فنتورا: «لا بد أن نحتاط لكل شيء».

* * *

وقف الحاخام الأكبر أمام ضريح جون، تفقد الخسائر التي حدثت نتيجة للحريق، أمسك بيديه الستائر المحترقة، والأخشاب البارزة نتيجة لهدم المباني التي لم تحتمل الحريق وأخذ يتمتم بكلمات غير مسموعة لمَن حوله، وبكى اليهود الذين تبقوا في عزبة جون بعد الحريق الكبير. كانوا يبكون مصيرهم الذي لا يعرفون عنه شيئا؛ قبل أن يبكوا مَن فقدوهم، وتقدم رجل من اليهود، قبّل يد الحاخام، ويد كبار رجال المال من اليهود، وبكى بصوت مسموع، حتى رق الحاخام له، فربت ظهره. قال:

- ستتركنا إلى أن يقتلنا هتلر هنا؟!

ربت الحاخام ظهره قائلا: لا تخف.

ألقى الحاخام خطبته، وطلب من الموجودين الدعاء للضحايا، وأكد لهم أن الضحايا جميعهم سيدخلون الجنة؛ لأنهم ماتوا شهداء. لم يشر الحاخام إلى سبب قتلهم، هل كان بسبب إهمال منير صاحب الورشة، أم بسبب عمل تخريبي قام به عملاء هتلر في الإسكندرية، الرجل لا يريد أن يدخل في مشاكل في هذه الأوقات العصيبة.

كان مظلوم قلقا، لا بد أن يرحل عن هذه المنطقة، سيحصل الليلة على تأكيد من الباشا حسن بدوي، بأن يسافر في الغد إلى القاهرة، ويقيم فيها، ليشرف على مكتب المصانع هناك. سيذوب في القاهرة وسط الجموع، فلن يتمكن هتلر من اصطياده. سيطلب من فنتورا أن يؤكد طلبه لدى الباشا، والباشا لا يستطيع أن يرفض طلبا لفنتورا . فقد ساعده كثيرا في الماضي.

وقف محسن قريبا من الباشا، كان يضع يديه فوق بطنه، والحزن باد عليه، والبنت جوهرة تقف مع كمال الذي بكى وأصر على أن يحضر الجنازة مع جوهرة، وعندما ألحت البنت عايدة على حضور الجنازة، رضخت مرجريت آخر الأمر، واشترطت أن تحضر الدادة الإنجليزية معها، وأن تمسكها من يدها حتى لا تضيع وسط العزب هناك.

قام اللحادون بحمل الجثث الكثيرة، دفنوها بجوار القبور القليلة الموجودة هناك.

توزعت القبور وسط بنيامين وملاذ ومخلوف والولد ساهر. ابتعدت نظيرة كثيرا عن أمها ملاذ، رغم أنها أوصت كثيرا بأن تدفن معها، لكن من سيحرص على تنفيذ الوصية؛ والأقارب كلهم ماتوا. صرخت أم محمود حزنا على نظيرة وابنها منير ووصال، فقد قضت أياما كثيرة جدا في بيتهم.

ومظلوم طوال الوقت يتابع جوهرة، يخشى أن تبتعد عن ناظريه وتضيع منه، وما أن انتهت مراسم الجنازة الرهيبة؛ حتى أسرع وحملها: «ستأتين معي إلى القاهرة، سنعيش بعيدا عن جند روميل وهتلر».

لكنها حاولت الإفلات منه، والانزلاق من بين يديه القويتين وهي تستنجد بكمال لكي ينقذها. الكل تابع ما يحدث؛ حتى الحاخام الأكبر. وانصرف الجميع عن الولد زكي، هو يتيم مثلها، مات أبوه مورجان وأمه في الحريق، لكن لا أحد يهتم به. أسر كثيرة طالبت أن تأتي جوهرة معها؛ لتعيش في بيوتهم، وظل زكي واقفا في مكانه وكأنه قد تجمد، قالت جوهرة: «لا أريد الذهاب إلى القاهرة، كل ما أريده أن أبقى مع كمال».

اندهش مظلوم، فهو والدها الحقيقي. جوهرة لا تعرف هذا، ومعظم سكان المنطقة يجهلون هذا. حتى وإن كانت لا تعلم أنه والدها الحقيقي؛ فيكفي أنه

يهودي مثلها، كيف تتركه وتذهب لتعيش في بيت رجل مسلم غريب عنها؟!

قبّلها مظلوم في حنان:

- ستجدين كل الراحة معي. يكفي أن قوات روميل ستكون بعيدة عنا.

ضربت رأسه بكلتا يديها وبكت: «أرجوك دعني».

انسلت من بين يديه القويتين، وصلت قدماها إلى الأرض، فجرت بعيدا عن مظلوم، لكنه أسرع خلفها وأمسكها، فصرخت حتى جعلت الجميع ينصرف عن كل شيء سواها، فحملها مظلوم في حنان، لكنها ضربته ثانية بيديها وساقيها، فتركها تنسل من بين يديه ثانية.

أسرعت نحو كمال، الذي كان يقف بجوار والده، كان يتابعها باهتمام، فحملها والده محسن، وقبلها.

ابتسم الحاخام الأكبر رغم المأساة ولم يعلق، ثم سار مع مرافقيه في طريقه.

بعد انتهاء الدفن عاد فنتورا إلى العربة التي جاءت به من معبد إلياهو، بشارع النبي دانيال. سيعود إلى المعبد مع صموئيل، وكبار رجال المال اليهود لبحث هذه الأزمة، وتقديم طلب إلى الملك فاروق بأن يصدر أمرا ملكيا بنقل يهود الإسكندرية إلى القاهرة وباقي محافظات مصر، البعيدة عن قوات روميل التي جاءت لاصطيادهم، وسار معظم الموجودين خلفه مودعين.

وظل مظلوم في مكانه، لم يسر خطوة. حتى عندما تحرك الباشا حسن بدوي ليودع الحاخام لم يتحرك، فالباشا سيعود حتما لكي يتفقا على إجراءات نقل مظلوم إلى القاهرة وكيف سيدير مكتب الشركة هناك. وسارت جوهرة برفقة كمال ووالده لرؤية موكب الحاخام الأكبر وهو يتحرك، وظل الولد زكي في مكانه ونظرة الرعب لا تفارق وجهه.

عندما عادوا بعد تحرك موكب الحاخام، وجدوا ذلك الطفل يسير بملابسه الممزقة، والمحترق أطرافها، وآثار النيران تجعل وجهه أسود متسخا، وهو يسير بساقيه المعوجتين، يهتز بهما جسده هزات منتظمة.

سار الولد، وعيناه الواسعتان، الجاحظتان تطلان في رعب، وتتحركان في عصبية، باحثة عن شيء تستقران عليه. اندهش مظلوم مما يرى، أيكون هذا المخلوق العجيب نتيجة للحرائق والتشويه الذي حدث في المنطقة.

عندما اقترب زكي من الجموع المحتشدة؛ تبين أن ذلك القادم الذي يهتز؛ ما هو إلا طفل صغير، أول الأمر لم يتذكر مظلوم أنه رأى هذا الولد من قبل، لكن عندما اقترب منه، وبعد لحظات، تذكر أنه رآه كثيرا برفقة مورجان، إنه ابنه المسكين الذي كان يذيقه العذاب أمام الجميع، ويعلن دائما أنه ليس ابنه، وإنما جاءت نائلة به من إحدى غرامياتها الكثيرة، والتي يعرفها الجميع.

سارت «الدادة» الإنجليزية بعايدة في طريقها إلى القصر القريب، ففاجأها ذلك المخلوق، فصرخت، وضمت البنت عايدة إلى صدرها، ورددت بالإنجليزية كلمات غير مفهومة لمعظم الموجودين. لكن جوهرة اقتربت من الطفل الذي يسير مترنحا غير مهتم بما فعلته الدادة الإنجليزية، قالت: «إنه زكي بن مورجان خادم ضريح جون».

توقفت الدادة وتابعت الولد زكي، بينما هدأت عايدة، فقد رأت زكي الذي رأته وتعاملت معه كثيرا من قبل. إنه هو، لكن الحريق أثر في ملابسه، وجعل وجهه أكثر سوادا من قبل.

سارت الدادة الإنجليزية ممسكة البنت عايدة بيدها، التي تلوح من بعيد بيدها الأخرى لكمال وجوهرة، بعد أن اطمأنت أمها على سلامتها وبعدها عن النيران التي كانت تأكل بيوت اليهود.

سار مظلوم خطوات بعيدا عن الولد الذي جاء ليدهش الجميع بمنظره؛ في طريقه إلى الباشا ليتفقا على إجراءات عمله الجديد، والباشا في مكانه يريد أن تنتهي هذه الليلة المتعبة، بعدها سيترك منطقة الطابية، لا، سيترك الإسكندرية كلها، ويقضي أياما وربما أسابيع في القاهرة، ليرتاح من عناء ما رآه. واستدار ذاهبا بعيدا عن منطقة الخطر؛ لكن أحد سكان المنطقة صاح: «وهذا الولد المسكين مَن سيكفله؟»

استداروا ونظروا إلى هذا الكيان الغريب المتشبث بالأرض، والدموع جمدت فوق خديه، وفكه البارز قد تدلى أكثر من كل مرة. استدار مظلوم ونظر ناحية الولد زكي. وجاء الباشا. لم تعرض الأسر اليهودية أن يعيش زكي معها - كما فعلوا مع جوهرة - بل فضل معظمهم الإسراع بالعودة إلى بيوتهم، خشية أن يضطرهم أحد إلى ذلك.

حسن بدوي يقترب من مظلوم، ومظلوم يحني قامته المديدة، فيضغط كرشه البارز على صدره، فيتألم، أمسك بيدي الولد زكي ورفعه إلى أعلى: «لا تخف، سآخذك معي».

كانت جوهرة تنظر نحوهما في قلق، تريد أن تطمئن على مصير هذا الولد المسكين. بينما والد كمال يمسك يدها اليمنى، وكمال يمسك اليد اليسرى ويسيران، فتنظر خلفها ثانية حتى تتعثر بطوب الطريق.

قال حسن بدوي لمظلوم:

- هل ستأخذه معك حقًا؟

- نعم، فمن سيهتم به هنا؟!

تأفف حسن بدوي من وجه زكي؛ وفكه البارز الذي يرتعش من الخوف، مظلوم هذا غريب، ما الذي يجعله يحتفظ بهذا الولد القبيح؟!

أحس مظلوم ببلل في بنطلونه، وماء يتساقط من بين يديه اللتين تحملانه. فقد أثرت فيه الليلة التي

قضاها في الطل وبين الأعشاب المبتلة حتى الصباح بين الطريق العمومي وقضيب السكة الحديد. فوضعه فوق الأرض. وشده من يده وسار به.

سيجعل أم محمود – خادمته – تخلع عنه ثيابه، وتبحث عن ملابس تصلح له، سيدفع لها كثيرا لكي تأتي بملابس أحفادها الذين في مثل سنه، وسيجعلها تحميه، وتدفئه في السرير، إلى أن يجيء الصباح فيأخذه إلى محطة القطار ويسافران إلى القاهرة.

لم يرتح مظلوم لمورجان – والد زكي – رغم أنه جالسه بجوار ضريح جون، وجعله يعد له شايا وقهوة، وأعطاه نقودا كثيرة، لم يدفعها له سوى صموئيل أغنى يهودي في الإسكندرية في ذلك الوقت. لكن مظلوم كره فيه قسوته على ابنه، لقد كان يدفعه بساقه فيرميه بعيدا أمام الضريح، ويضربه في عنف.

وحكوا له في الجلسة – بعد أن ابتعد مورجان لإحضار الشاي والقهوة، بأنه يقيده بالساعات أمام الضريح، وقد أسر أحدهم له بأنهم يشكون في انتساب الولد إليه، فزوجته هربت كثيرا مع شباب المنطقة، وكانت تعود ثانية وتعيش في البيت كما كانت، ولا يعلم أحد ما الذي حدث بينها وبين مورجان. وردد البعض بأن تشويه الولد جاء كنتيجة حتمية لما تفعله نائلة - أمه - فالتي تأتي الفاحشة يكون مصيرها؛ أن يأتي أطفالها مشوهين.

في المساء ذهب مظلوم إلى قصر الباشا، كان حزينا، ومتعبا. قال له: «حدثني فنتورا عن رغبتك في ترك الإسكندرية، ويمكنك أن تسافر من الغد».

لم يمكث طويلا في القصر، شد على يد الباشا ممتنا، وأحس برغبة في أن يقبل يده، لكن الباشا ضمه إليه وقبله، مؤكدا له أن الأزمة سرعان ما ستنتهي، وسيعود في القريب ليشرف على المصانع الثلاثة في الطابية كما كان.

* * *

وجد مظلوم أم محمود وابنتها في بيته، كانتا تبكيان على ما حدث لليهود. قال لهما: «سأسافر في الغد إلى القاهرة، وما أريده منكما أن تحافظا على البيت إلى أن أعود. أقيما فيه كما تشاءان».

وصدر الأمر الملكي بإيجاد أماكن ليهود الإسكندرية في القاهرة وباقي محافظات مصر. فجمع يهود عزبة جون متاعهم استعدادا للرحيل، وتقدم بعض الأهالي من المسلمين، وقليل من الأقباط بشراء ما يستغني عنه اليهود. واشترى الباشا الكثير من أراضيهم، واشترى الكثير من مسلمي ومسيحيي المنطقة بيوتا كثيرة من بيوتهم، لكن الناس خافوا من شراء البيوت المحترقة، ولم يجرؤ سوى القليل على شراء بعضها.

جاءت السيارات لنقل أمتعة اليهود، وسافروا وهم يلوحون باكين للمسلمين والأقباط الذين تجمعوا على

الصفين لوداعهم.

ظلت البيوت في الحارة التي أقام فيها منير بيته وورشته؛ كما هي، مهدمة، وآثار الحريق واضحة فيها، وأمتعة من مات منهم؛ كما هي، معلقة فوق الركام، بقايا أسرة ودواليب وملابس، لم يتبق يهودي واحد في الطابية. الكل سافر هربا من قوات هتلر التي تطاردهم، لم تتبق سوى البنت الصغيرة جوهرة التي تعيش مع كمال، في شقتهم التي تقع في الحارة التالية للحارة التي تقع فيها ورشة منير وبيته.

فكر محسن في أن يعلن إسلامها، وأن تقيم شعائر المسلمين، لكن زوجته - فردوس - حذرته من هذا الفعل: «قد يظهر لها قريب، فيأتي ويثير علينا المشاكل».

ظلت البيوت المحترقة والمهدمة كما هي لسنوات طويلة، ولم يستطع الذين اشتروا هذه البيوت الاقتراب منها، رغم أن لديهم أوراق ملكية، موقعة من أصحابها اليهود قبل أن يتركوها ويسافروا. فالعفاريت تلهو فيها طوال الليل. هذا غير الفئران والثعابين التي وجدت في أركانها أماكن للاختباء. ومرحت القطط، والكلاب داخلها. حتى أصبح السير من أمامها صعبا. وأكد الكثيرون أنهم كانوا يرون الرجل الذي حضر الجنازة بزيه المميز - يقصدون فنتورا - يسير في ظلام الليل، وسط حارات اليهود المهجورة.

سارت نائلة في الطريق العمومي بهدوء شديد، كانت تطرقع بشبشبها فتثير تراب الطريق خلفها، وتتمايل بجسدها النحيل المشدود، وترمي طرحتها السوداء خلفها من وقت لآخر.

تركت منطقة الطابية منذ أيام قلائل لتبحث عن رزقها ورزق ابنها الصغير زكي؛ فإذا بالقيامة تقوم، فيموت مورجان والكثير من اليهود، إنها القيامة حقا، التي يتحدث الحاخامات عنها كثيرا في عظاتهم. فمورجان لا تميته إلا قيامة وفعل رباني كبير، فهو متمسك بالدنيا، يستمد قوته من ارتباطه بالدين اليهودي وبضريح جون. لقد تعبت نائلة من حياتها معه، كان شحيحا في كل شيء، يجمع ما يعطيه له زوار الضريح كل يوم، وثمن الشاي والقهوة التي يعدها لزوار الضريح والذين يجلسون قريبا منه، يجمع كل هذه النقود، ويضع القروش بعضها فوق بعض، ونصف الفرنكات، بعضها فوق بعض. يعدها مئات المرات في تلذذ شديد، ثم ينام على بطنه فوق الكنبة، كاشفا عن ساقيه الرفيعتين، ويضع النقود في مخبأ في باطن الكنبة، بينما تدق نائلة الباب المغلق، صارخة: «ماذا تفعل يا رجل في الحجرة؟»، ثم يفتح الباب وكأنه لم يفعل شيئا. تصيح فيه: «أكنت تخبئ النقود في الحجرة؟!»، فلا يجيبها، يبتسم ابتسامته الباردة التي تكرهها، فتتمنى وقتها أن ترميه بأي شيء قريب منها لتدمي وجهه وتشج رأسه.

الولد زكي يتابعه في خوف شديد، فهو يقسو عليه، وكثيرًا ما همس في أذنها وهما نائمان: «كيف أنفق على ولد أعلم جيدًا أنه ليس ابني»، فتشده من ملابسه في عنف، وتضربه في صدره، فلا يتحرك من مكانه. لقد أقسمت له بكل أيمانات اليهود بأن الولد ابنه، ومن صلبه، وأنها في ذلك الوقت لم تكن تتعامل مع رجل غيره، لكن الرجل يريد أن يجد سببًا لعدم الإنفاق عليه، فيقول في هدوء شديد: «كيف يا امرأة يكون ابني وهو بهذا القبح العجيب؟!»، فتزداد غيظًا، وتضربه في صدره في عنف، وتبكي لأنه ذكرها بمأساتها، تتساءل بينها وبين نفسها: «كيف جاء الولد بهذا التشويه الغريب؟!»، هي في الحقيقة لا تعلم مَن يكون أبوه، ربما يكون مورجان، ففي هذه الأوقات كان يضاجعها، وربما يكون ابن واحد من عشاقها الكثيرين.

مات مورجان، ياه، إنها رغبة طالما تمنت أن تتحقق، لو أطال الرب في عمره لاضطرت لأن تتفق مع أحد عشاقها لكي يقتله، شكرا لمنير – صاحب ورشة البمب والصواريخ – فقد حقق لها ما تتمناه دون معاناة، فحتما كانت جريمتها ستنكشف، وستدخل السجن، أو تعدم من أجل رجل لا يستحق شيئا.

دهشت من تصرفاته الغريبة بعد أيام من زواجهما، فقد كان قويا، يقدر على إتيان امرأة وأخرى، لكنه يبخل على نفسه، ويتعامل معها في حذر، كان يقرأ في كتبه القديمة الصفراء والممزقة، ويضع العسل الأسود على

أعشاب لا تدري من أين يأتي بها، ويغليها على النار، ثم يشربها بعد أن تبرد. ويأتي بالحمص، ويصحنه ويقليه في الزيت، هكذا قالت له كتبه المتآكلة الأطراف، لكي يحمي جسده من مقاربة النساء، ويعوض ما فقد منه. سألته عما يفعل، فقال: «لو تعلمين، فأكثر ما يضر الرجل؛ كثرة معاشرة النساء، هكذا تقول كتب الطب القديمة».

- لكنك قوي، ولست في حاجة إلى كل هذه الاحتياطات.

فيجيبها وهو ما زال «يلحس» المتبقي من وصفته المقدسة: «الاحتياط واجب».

وكان يتظاهر بالنوم لكي يهرب من ملاحقاتها له، لا، هي لم تكن تلح عليه، وإنما تصرفات عروس في بداية زواجها.

كانت تسمع نساء الحارة يتحدثن عن أيام زواجهن الأولى، وكيف كان الرجل يتعامل معها مرات عديدة، تصل أحيانا إلى أكثر من عشر مرات في اليوم، فتتحسر على نفسها، فالرجل كان يفعلها مرة في اليوم، ويتهرب في اليوم التالي. يتذرع بأسباب واهية. حتى قالت له مرة: «ما لك يا رجل، أتريدني أن أبحث عن رجل غيرك؟!»، قالت له هذا ثانية، كانت خائفة من أن يضربها، أو يعيدها إلى بيت أهلها، أو يطلقها إلى الأبد. لكنه لم يفعل هذا. بل ابتسم ابتسامته الباردة التي تكرهها، وأكمل نومه دون أن يمن عليها بالقليل من صحته لترتوي وترتاح كسائر النساء المتزوجات.

احتملته نائلة، ووجدت أن الحل هو التصرف في المشكلتين بطريقتها. هي في حاجة إلى المال الذي يخفيه عنها، والرجال لن يعطوها المال إلا إذا أخذوا منها ما يريدون، وهي في حاجة إلى هذا أيضا؛ بعد أن حرمها مورجان منه. فسعت لنيل الاثنين معا: المال والجنس.

هو لم يهتم. تظاهر بالغضب أول الأمر، وسرعان ما انشغل بالبحث في ملابسها ليعرف ما الذي أخذته نظير ما قدمت، واكتشفت أنه أخفى جزءا كبيرا منه، وصار هذا مقننا، في كل مرة تغيب فيها عن البيت؛ يحصل على مبلغ محدد، قد يزيد أحيانا، لكنه لا يقبل أن يقل عن المحدد.

وزادت المشكلة بعد أن أنجبت ابنها زكي، فقد امتنع الولد عن أخذ ثدي أمه. هكذا دون سبب واضح، حتى جف اللبن في صدرها، وشعرت بآلام شديدة، وكان لا بد أن تعوض الطفل المسكين بلبن صناعي، يباع في الأجزاخانات بمبلغ كبير، فامتنع مورجان عن دفع ثمنه. قال في أسى: «من أين، الضريح لم يعد يأتي بشيء».

فاضطرت أن تأتي بثمن اللبن من الرجال الذين يتعاملون معها. وارتاح مورجان لهذا، وقرر أن تتكفل هي بمصاريف الولد، وادعى أنه ليس ابنه.

عاد الرجل الذي قضت ليلتها عنده، والذي لولاه لخرقت مع مورجان الكريه، ولجمعها معه قبر واحد في

مقابر اليهود، قال الرجل ضاحكًا: «معجزة حدثت، تؤكد أن بك شيئًا لله».

- ماذا؟

- الخطيئة التي تحدثينها؛ أنقذتك من الموت حرقا، فقد احترق بيتك ومات مورجان زوجك، وأعلنوا أنك أيضا مت معه، ولم أستطع أن أؤكد كذبهم، أأقول إنك نائمة في بيتي؟!

عندما أبلغها الرجل بأن مظلوم أخذ ابنها زكي، أرادت أن تنزل من بيت عشيقها هذا في وقت متأخر من الليل؛ لتصل إلى مظلوم وابنها، لكن الرجل وصفها بالجنون: «كيف يا امرأة تسيرين في الشوارع في وقت متأخر كهذا؟!»

كما أن المسافة كانت بعيدة جدا، ولن تجد مواصلة تصل بها في ذلك الوقت من الليل.

تبعها المارة وهي تتمايل في مشيتها قاصدة الشارع الذي يسكنه مظلوم، نادتها امرأة من بعيد: «ليلى، ليلى».

توقفت عن السير، فقد اختارت لنفسها اسم ليلى، وتخجل من أن يعلم أحد بأن اسمها الحقيقي نائلة؛ فالناس ينادونها بـ «نايلة»، وكانت القافية تحكم، فينادونها بـ «نيلة» فتغضب من أمها لأنها دعتها بهذا الاسم، كما أن كلمة نايلة قريبة جدًا من كلمة ليلى، ثم فضلت اسم ليلى، فإذا سألها أحد عن اسمها، قالت: «ليلى».

توقفت نائلة، وانتظرت المرأة حتى تصل إليها: «إنهم يذيعون أنك مت في الحريق مع زوجك مورجان».

- الله يرحمه.

- ابنك زكي لدى مظلوم في بيته.

- سأذهب لآخذه منه.

- كيف يا بلهاء تفعلين هذا؟! مظلوم غني، وسيربيه ويدخله أفضل مدارس.

- أتريدين أن أترك له ابني؟!

- وأين سيذهب ابنك؟! يمكنك أن تريه في أي وقت تشائين.

سارت المرأة ذاهبة إلى مقصدها، ونائلة سارت في طريقها إلى بيت مظلوم. دقت الباب، بعد أن دعكت خديها الأصفرين ليبدوا أحمرين، وتحسست خصلة شعرها بيدها، لتتأكد من ترتيبها.

فتحت أم محمود الباب، تعرف هي نائلة، فزوجها مورجان معروف في الناحية كلها، فالكل يعرف ضريح جون الذي يخدمه، كما أن سيرة نائلة المضطربة جعلت النسوة في الطابية كلها يتحدثن عنها، وعن مغامراتها العديدة التي لا تنتهي: «ليلى؟! ظننتك مثي في الحريق».

لم تستطع أم محمود أن تدعوها لدخول البيت، فالبيت ليس بيتها، وليس من حقها أن تدعو إليه مَن تشاء. البيت له صاحب ولا بد من أن تستأذنه. ذهبت،

وظلت نائلة في مكانها في انتظار أن يسمحوا لها بالدخول.

كان مظلوم في الحمام، والولد زكي ما زال نائمًا، لقد قضى الولد ليلة طويلة في الخلاء وحده، كان يصرخ من الخوف والألم والبرد. فذلك جعله يتبول على نفسه دون أن يحس، كما أن التعب جعله ينام طويلًا.

وقفت أم محمود في انتظاره، حتى خرج يجفف رأسه بالفوطة: «زوجة مورجان في الخارج».

مظلوم، مثل سائر الأهالي في الطابية، يعرف أن نائلة تحترف البغاء، وأنها تعيش مما يعطيه لها الرجال بعد أن امتنع زوجها البخيل عن الإنفاق عليها وعلى ابنها، لكن مظلوم لم يرَ نائلة هذه، ولا يتذكر وجهها.

عندما اختار الولد زكي لكي يعيش معه في القاهرة لم يخطر بباله أن أمه ستأتي لتسأل عنه، فقد ظنها ماتت في الحريق، وإن كان البعض يشكك في خبر موتها، فهم يعلمون أنها تختفي من بيت زوجها بالأيام، وتعود ثانية، وأحيانا تختفي بالأسابيع، ومرة غابت أكثر من شهر، حتى ظن مورجان أنها لن تعود ثانية، وأخذ يشكو لكل مَن يزور الضريح من ذلك، بل وصل به الأمر لأن بكى.

وقف مظلوم أمامها ببيجامته، وهو ما زال يجفف يديه من الماء، فلم يمد يده ناحيتها ليصافحها. تابعته

في نظرة خجلي. «أنا نائلة التي قابلتك كثيرا، وتابعتك باهتمام، لكنك لم تعطني اهتماما».

- أهلًا بك.

- أنا ليلى، أم زكي الذي أخذته مساء أمس.

- تفضلي.

دخل شقته، وتبعته، وظلت أم محمود تتابعهما باهتمام شديد، فنائلة معروفة بعلاقاتها المتعددة، خاصة مع الرجال الذين يمتلكون أموالا كثيرة، ومظلوم صالح تماما لهذه المهمة، فهو أعزب وفي حاجة دائما إلى رفيقة، بعد أن هجرته وصال، كما أنه غني، ينفق على عشيقاته بسخاء، ونائلة لا تريد من الرجال غير هذا، بعد أن تعذبت من بخل زوجها.

جلست نائلة وهي تتابعه في خجل، محاولة أن تخفي وجهها بطرحتها السوداء: «أهلًا بك».

بكت، لا، لم تتصنع البكاء، فما مر بها منذ أن بلغها خبر موت مورجان يضنيها، ويعذبها، ارتاحت من بخل زوجها ومن بروده الذي لا يحتمله أحد، لكن البيت احترق، ولم يعد لها مكان يضمها هي وابنها. كما أن نقوده الكثيرة احترقت داخل الكنبة العربي.

ربّت كتفها قائلًا:

- الرب لن ينساك.

- أشكرك لاهتمامك بابني زكي.

- سآخذه إلى القاهرة ليعيش معي هناك.

- لا، لقد جئت لآخذه.

- وكيف ستنفقين عليه؟

أحست بما يريد مظلوم أن يقوله، إنه يذكرها بأنها تحترف البغاء، فكيف سيعيش ابنها معها، في أيامها السابقة كانت تترك ابنها مع زوجها مورجان، فماذا ستفعل الآن وقد مات الرجل، هل ستـأخذ الولد معها في شقق زبائنها؟!

قالت في حدة:

- ابني وأنا حرة فيه.

- لكن الولد مريض الآن.

- ماذا به؟

- عانى كثيرا مما رآه. كما أنه قضى ليلة كاملة في الهواء.

- أريد أن أراه.

سار مظلوم وسارت خلفه، وقفا أمام الحجرة التي ينام فيها الولد، كان مستغرقا في نومه، وجسده الضئيل متقوقع، يكاد يصنع دائرة مغلقة. عادا معا إلى المقاعد في الصالة، قال مظلوم:

- استدعيت له طبيبا، فحذرني من أن أسافر به اليوم، لذا أجلت سفري للغد.

جاءت أم محمود بصينية عليها أكواب الشراب، وضعتها فوق مائدة قصيرة بجانبها وعادت لتتابعهما من بعيد كما كانت. هل ستحل نائلة محل وصال، فتنجب له طفلا، كما أنجبت وصال جوهرة منه؟!

قال مظلوم وهو يقدم كوب الشراب إليها:

- ماذا ستفعلين بعد أن مات مورجان؟

- لا أدري.

- ليتك تتركين الولد معي، وتأتين لزيارته في أي وقت تشائين.

تمنت لو عرض عليها أن تأتي معه إلى القاهرة لتكون مع ابنها، لا، لن تطلب منه أن يعاشرها كما كان يعاشر وصال، المهم أن تكون بجوار ابنها، ستكون خادمة له. ولو أنها لا تظن أنه سيقنع بأن تكون مجرد خادمة، فهي شهية، كل الرجال الذين تعاملوا معها يقولون هذا عنها. حتما سيحاول معها بعد ذلك، وذلك لأنه يرغب في النساء، ولأنها - هي أيضا - لا تستطيع أن تبتعد عن الرجل؛ دفع لها أو لم يدفع. «هل أستطيع أن أذهب معكما لأعرف المكان الذي سيعيش فيه ابني؟»

تردد مظلوم قليلا، ثم قال: «سأترك العنوان معك، وتأتين لزيارته في أي وقت تشائين».

أحست بالأسى، فها هو الرجل يمتنع عن أن ترافقه إلى شقته في القاهرة.

وقفت، مدت يدها مودعة، فأسرع ليكتب عنوان شقته في القاهرة، لكي تأتي إليه بعد ذلك.

في اليوم التالي خرج مظلوم من بيته ممسكا بالولد زكي الذي كان ينظر إلى الأشياء في شرود، ووقفت أم محمود وابنتها يتابعانهما من نافذة الشقة بابتسامة واسعة، فلوح مظلوم لهما، وهو يدخل سيارة مصنع الورق التي ستسافر به إلى القاهرة، حيث لن يعود إلى الإسكندرية إلا بعد أن تنتهي الحرب؛ إذا انتهت.

وكانت نائلة تقف على الطريق بعيدا، متوارية خلف شجرة كبيرة، قريبة من قضيب السكة الحديد، تابعت ابنها الذي ينظر إلى الأشياء وكأنه يراها لأول مرة، وقد ارتدى ملابس لم ترها نائلة عليه من قبل. لقد وعدت مظلوم بأنها لن تأتي إليه في شقته بالطابية، وإن اشتاقت إلى ابنها؛ ستزوره في شقته بالقاهرة التي كتب عنوانها في ورقة؛ تضعها الآن في صدرها، وتطمئن من وقت لآخر على وجودها في مكانها.

* * *

أغلق الخدم باب القصر الكبير، وظل الباشا في حجرته يدخن سيجاره الغليظ، كان يسعل من شدة الدخان، فحجرة مكتبه مغلقة، والنوافذ مغلقة أيضا، وهو شارد في الورطة التي وضعه فيها هتلر. إنه لا يرتاح لوجوده في الإسكندرية في ذلك الجو المضطرب. كما أنه لا يستطيع أن يترك مصانعه الثلاثة في ذلك الوقت. لا بد أن يبقى بجوارها ليدافع عنها، فلا أحد

يدري ما الذي سيحدث، يمكن أن تدخل القوات عن طريق أبي قير، وتحتل الطابية، ويكون طريقها إلى القاهرة من هنا، حينذاك سيحتلون قصره هذا ليكون مكانا لإدارة جيوشهم، فقصره أهم مبنى في المنطقة كلها، وسيسيطرون على منتجات مصانعه لصالح جيوشهم. سيأخذون ما ينتجه مصنع الصلصة، ومصنع تعليب اللحوم والألبان ليكون غذاء لجيوشهم، وربما أخذوا ما ينتجه مصنعه من ورق لمراسلاتهم، أو لاتخاذ الورق وقودا في وقت هم في أشد الحاجة إلى الوقود.

دقت مرجريت الباب في عصبية، سعلت من شدة الدخان: «أف يا حسن، الدخان يقتل هنا».

وضع سيجاره الضخم في المطفأة، وتابعها في ضيق، بينما انشغلت بفتح نوافذ الحجرة. يعرف الباشا أنها تأتي لكي تعلق على ما حدث في بيوت اليهود، وتطلب منه أن يسرع بها وبابنتها إلى القاهرة.

عادت إليه، وجدته قد رجع بظهره إلى ظهر المقعد، وكأنه يريد أن ينعس قليلا، قالت ما كان ينتظره، والذي تلح به عليه كل ليلة وكل وقت:

- أسنظل في هذا المكان المزعج المخيف؟

- قلت لك ألف مرة، لا أستطيع ترك أعمالي في هذا الوقت العصيب.

- أكاد أختنق. وأخاف على ابنتنا.

- قلت لك من قبل؛ أرسليها إلى القاهرة.

- لا أستطيع العيش بدونها؟!

- أرجوكِ، لا أستطيع الحديث الآن، أحس أن رأسي سينفجر.

- أنت هكذا، كلما ناقشتك تهرب بحجة رأسك الذي سينفجر.

خرجت غاضبة، الحل هو أن تسافر إلى القاهرة مع ابنتها، وتترك زوجها في هذا الجو الخانق وحده. لكن ذلك لا يليق، كيف ستطمئن عليه؛ والمشاكل الكثيرة تحيط به من كل جانب، كما أن صحته لم تعد تصلح للمقاومة، لو تركته وحده، لن يهتم بنفسه، سيدخن ويسهر، ويتعب إلى أن يموت فجأة، سيبلغونها في القاهرة أنه مات وهو يراقب العمل في مصانعه الثلاثة. لا بد أن تبقى بجواره لتراعي صحته التي انهارت في السنوات الأخيرة. لقد حذرها أطباء بلدها - إنجلترا – عندما فحصوه هناك، وهي لا تريد أن تفقده.

دفعت الباب خلفها في عنف، وسارت في الممر الضيق أمام حجرة المكتب، ثم اجتازت الردهة الواسعة في عصبية. تمنت لو سافرت إلى لندن هي والباشا وابنتهما، لتبعد عن هذا الجو الخانق، لكن لندن أكثر خطورة من الإسكندرية، فهتلر يدك بيوت لندن بآلاف القنابل من الجو.

كانت المربية تجلس على مقدمة السرير، وعايدة فوق المكتب تلون الصور التي قدمتها المربية إليها، تبتسم سعيدة. أرادت مرجريت أن تصيح في المربية: «لماذا تبقين في حجرتي، لماذا لا تذهبين إلى حجرتك، أو حجرة البنت؟!» لكنها اكتفت بزفرة غيظ طويلة، فوقفت المربية احتراما لها، ثم جلست فوق مقعد بجوار عايدة.

كل العاملين في القصر يحسون بمدى عصبيتها هذه الأيام. الباشا رغم مشاغله الكثيرة أكثر هدوءا.

***

تذكرت مرجريت، زوجة مدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة الرمل الثانوية، اسمها ميري، كانت أقل منها جمالا، وأقل طولا، لم تكن تعرفها ولا تعرف زوجها. لكن أم مرجريت وأختها جاءتا من لندن لزيارتها قبل قيام الحرب اللعينة.

رحبت مرجريت بهما، فهي لم تقابلهما منذ وقت طويل، خاصة أختها التي تأتي إلى القصر لأول مرة، بل هي تزور مصر للمرة الأولى. مازحتها أختها وضربتها على صدرها فرحة وانشغلت الأم بالحديث مع المربية التي سبق أن أرسلتها لتربية حفيدتها في مصر.

أخرجت أختها قصاصة ورق من حقيبتها وقالت:

- لي صديقة تعيش في الإسكندرية، وأريد زيارتها.

كانت قصاصة الورق صغيرة جدا، قرأت مرجريت ما بها:

- فيلا...، ياه إنها بعيدة، ولا أستطيع أن أزورها بدون الباشا.

عندما جاء الباشا في المساء ألحت عليه مرجريت بأن يذهب بأختها إلى صديقتها الإنجليزية، فهي مشتاقة إليها كثيرا. حاول الباشا أن يؤجل الزيارة إلى الغد؛ لأنه متعب، ويريد أن يرتاح، لكن مرجريت تعرف كيف تنال منه ما تريد.

ذهبت أختها مع مرجريت والباشا، وظلت الأم في القصر مع عايدة والمربية الإنجليزية التي ترتاح للحديث مع الأم، حيث لا تكفان عن الحديث بالإنجليزية.

كانت الفيلا صغيرة، بيت جميل وحيد في أرض شاسعة، حوله حديقة تصل إلى البحر، وقفت سيارة الباشا أمام الفيلا. تابعت أخت مرجريت المكان في إعجاب شديد: «إنه رائع».

أومأ الباشا برأسه، واقترب من السائق هامسا: «لا تذهب بعيدا، فلن نتأخر».

ثم عاد لزوجته وأختها. سارا في الحديقة الصغيرة التي تحيط بالبيت من كل جانب. لم يكن الباشا مرتاحا لهذه الزيارة، فكيف يزور أسرة لا يعرفها، وبدون دعوة

أو استئذان، لكن أخت زوجته؛ ضيفته ولا بد من إكرامها.

قالت مرجريت: «أخشى ألا يكونا في البيت».

فقالت أختها في ابتسامة واسعة: «لا، لقد كتبت لي في خطاباتها إنهما لا يخرجان من البيت بعد الظهر».

دق الباشا زجاج باب البيت المغلق، ففتحه شاب متوسط الطول، جسده نحيف، ويلبس نظارة، ابتسم في ود:

- أهلا.

- أنا حسن بدوي باشا.

مد الشاب يده وقد ازدادت درجة حماسه في الترحيب، أتراه يعرف الباشا، أو سمع عنه؟

دخلت أخت زوجته، وصاحت بإنجليزيتها المتقنة: «أهلا مستر فخري».

فوجئ الباشا بها، تضمه لصدرها وتقبله، ثم قالت مبررة تصرفها: «لقد كان زميلي في كلية أكستر، وكنت صديقة لزوجته ميري».

تبتسم مرجريت في حياء، فهي لا تعرف مستر فخري هذا ولا تعرف زوجته، لقد قابلتهما أختها في كليتها بعد حضور مرجريت إلى مصر وزواجها من الباشا، وقد أوصتها ميري – عندما علمت بزواج أختها من مصري - أن تزورها عند زيارة أختها، وأعطتها عنوان الفيللا.

جاءت ميري، كانت ترتدي بنطلونًا وفانلة بسيطة، صافحت أخت مرجريت بحرارة، لكنها لم تقبلها كما قبلت زوجها.

جلسوا في الردهة، لم تكن واسعة كردهة الباشا في قصره الكبير، لكن الجو كان فنيا، لوحات معلقة، وتماثيل في كل ركن، وبيانو في الركن البعيد.

قال الباشا: «إنكما تعيشان في جو فني رائع».

ابتسم فخري في حياء ولم يعلق، لكن أخت مرجريت قالت: «فخري شاعر معروف في مصر».

دهش الباشا، فهو لصيق الصلة بالشعراء والأدباء، وكثيرا ما حضر ندوات أدبية مع كبار الأدباء: العقاد وطه حسين والمازني وغيرهم، فكيف لم يسمع عن فخري هذا؟!

قال فخري: «أنشر قصائدي ومقالاتي في مجلتي الرسالة والثقافة وغيرهما».

أحس الباشا بالسعادة، فهو يرتاح لمقابلة الأدباء خاصة الشعراء، لولا السياسة التي أضرته؛ لكان أديبا أو شاعرا. فقد كتب في صدر شبابه أشعارا كثيرة، ما زال يحتفظ بها للآن، ومن وقت لآخر؛ يخرجها من مكمنها، ويقرأها في عاطفة شديدة، تصل إلى درجة البكاء.

تحدث فخري عن عمله في مدرسة الرمل الثانوية، لقد عين فور عودته من البعثة الدراسية في إنجلترا لدراسة اللغة الإنجليزية في مدرسة العباسية

الثانوية[3]، ثم انتقل إلى مدرسة الرمل الثانوية فور إنشائها، لاحظ الباشا أن فخري لا يشاركهما شرب الشاي أو المثلجات التي قدماها لهم. وعندما سأله عن ذلك، قالت ميري: «أنا وزوجي لا نشرب سوى الماء واللبن».

وأكمل فخري في حياء: «قررنا منذ أقل من عام أن نمتنع عن تناول كل أنواع اللحوم، ونكتفي بتناول الخضراوات».

قالت ميري: «فخري هو الذي بدأ في هذا، وأنا اقتنعت برأيه».

أحس الباشا بتجاوب وثيق بين فخري وزوجته، تمنى لو استطاعت مرجريت أن تتجاوب معه هكذا.

وقامت ميري، غابت بعض الوقت ثم عادت ممسكة ببعض الكتب، قدمتها إلى زوجها، الذي أخرج قلمه، وهو يقول:

- سأهديكم آخر كتاب صدر لي. هي رواية «تسي، سليلة آل ديرفيل» من تأليف توماس هاردي، قمت بترجمتها عن الإنجليزية.

أراد الباشا أن يقول له: «يكفي أن يهديه نسخة واحدة من الرواية، فزوجته وأختها لا تستطيعان القراءة بالعربية»، لكن الرجل كان سعيدا بكتابه ويريد أن يفخر به.

تحدث فخري مع الباشا، بينما انشغلت زوجته ميري بالحديث مع مرجريت وأختها عن إنجلترا. قال فخري:

- لقد ألفت كتابا بعنوان «محمود سامي البارودي» وآخر بعنوان «الخلافة السياسية» وقد فازا بجائزتين من جوائز وزارة المعارف العمومية، وسوف أطبعهما في القريب، وسأرسل إلى سيادتك نسختين منهما.

لقد سعد الباشا بمعرفة فخري هذا، ودهش من نفسه: « لو لم أقابل هذا الإنسان الساحر الليلة؛ لفقدت الكثير».

حكى له الباشا عن مصانعه الثلاثة. فقال فخري: «يا باشا أنا أعرفك منذ أن كنت وكيلا للديوان الملكي».

ربت الباشا ساقه بإعجاب شديد، ووعد فخري بزيارته في قصره، قال الباشا: «لقد زارني في قصري كبار رجال السياسة والأدب والفن».

أكملت مرجريت: «زارتنا الممثلة عقيلة راتب وزوزو حمدي الحكيم، وفاتن حمامة ويحيى شاهين وشكري سرحان وغيرهم».

لم يكن الباشا يتوقع أن يطيل البقاء هكذا في بيت صديقة أخت زوجته، فقال وهو ينظر إلى ساعته: «لقد مر الوقت دون أن نحس».

خرج فخري لوداعهم في الخارج، كان السائق نائما في السيارة، فهو لم يظن أن تطول الزيارة لهذا الوقت.

شد الباشا على يد فخري قائلا: «كنت أريد أن أسمع شعرك، لكن لنا لقاءات أخرى قادمة».

دق الباشا على الدركسيون بأصابعه سعيدا: «أسرة نموذجية».

وأحست مرجريت وأختها بالسعادة لأنه يثني على امرأة من دولتهما.من يومها صار فخري وزوجته من أقرب أصدقاء الباشا وزوجته، يتقابلان كثيرا، ويتحدثان في التليفون كثيرا.

* * *

أخذت الدادة الإنجليزية البنت عايدة لكي تنام في حجرتها، وظلت مرجريت وحدها شاردة، ما الذي فكرها بفخري وزوجته ميري؟! إنه الخوف – لا شك - على ابنتها عايدة. لقد سافرت ميري إلى إنجلترا لزيارة أهلها ومعها ابنها الصغير البالغ من العمر ست سنوات. ما زالت مرجريت تذكر الولد الصغير، لقد ربياه على طريقتهما الهادئة، حياة رتيبة هادئة.

كان وزوجته؛ زوجين ائتلفا في نغم جميل، يعجبها ما يعجبه، وتميل إلى ما يميل إليه، وبلغا من هذا الاتساق العجيب حدًا بعيدًا.

سافرت ميري وقامت الحرب وهي في إنجلترا، كانت رسائلها تأتيه كل عدة أيام، تحدثه عن زهور الحديقة، والبيانو في ركن الردهة البعيد، وعن الببغاء الذي كان يحدثها كلما اقتربت من قفصه، وتوصي فخري بالاهتمام بقططها الصغيرة، وأن يشتري الطعام لها كل يوم، وأن يدخل عصافيرها من الحديقة كل مساء حتى لا يقتلها البرد.

كانت تكتب إليه معتذرة لأنها تتعبه، وتحمله فوق ما يطيق، وأنها ستأتي إليه مسرعة - عندما تبدأ الرحلات إلى مصر - لكي تقوم بكل هذه الأعباء، وتريحه، وتتركه لأشعاره وكتبه التي يحبها، والتي أحبتها من أجله. تحدثه عن المسرحيات التي شاهدتها في لندن رغم جو الحرب الذي يخيم على البلاد.

وفجأة انقطعت الرسائل، لم يتبق لفخري غير الصمت في الفيللا الصغيرة المحاطة بالصحراء من كل جانب، صوت الهواء يخترق الجدران، يطارده في حجرة نومه الدافئة، لم يتعود أن يسهر في المقاهي والمنتديات، لم يعد يسير كل صباح في طريق الكورنيش، ولا يلعب التنس في الحصص التي لا يعمل بها، ولا يسبح في البحر في الشاطئ القريب من بيته، لم يعد يقرأ، لا شيء إلا الصمت الرهيب.

في المساء يغلق باب الفيللا الخارجي بالمزلاج، لم يكن يفعل هذا أيام كانت ميري معه، لكنه الآن يخاف. ويغلق الباب الداخلي، نسي كثيرا أن يدخل العصافير إلى داخل الفيللا حتى مات بعضها، يصعد إلى حجرة النوم، تواجهه صور ميري وابنه الوحيد معلقة على طول الجدران وهو صاعد السلم، يقبل صورهما، ويغلق حجرة نومه، يغطي جسده بالبطاطين، يخفي وجهه تحت الغطاء، تأتيه ميري بجسدها القصير وابتسامتها الرائعة، تحدثه بإنجليزيتها المحببة إلى قلبه، لقد وعدته بأن تترجم أشعاره إلى الإنجليزية، وتنشرها في بلدها

ليصبح شاعرا كبيرا مثل لورد بيرون الذي تحبه كثيرا، وترى أن أشعار زوجها قريبة من شعره.

إذا نام يحلم بها وهي محبوسة في معسكرات الأسرى التي يكتبون عنها كثيرا هذه الأيام، وابنها يقف خارج السياج يبكي جزعا عليها. ميري ببنطلونها وقميصها البسيط تتحرك في كل ركن من البيت الصغير، والولد ابن الست سنوات يلتصق بالأب، يتابع صور المجلات التي يقرأها.

يزوره، يجالسه، لم تعد جلسات فخري مسلية كما كانت، كان يتحدث مع زائره لحظات ثم يعود لاكتئابه..

تصل الجرائد إلى فخري كل صباح؛ خاصة الإنجليزية منها، قرأ ذات صباح – قبل أن يذهب إلى مدرسته - عن غرق سفينة تحمل أطفال إنجلترا، كانت ذاهبة إلى كندا، لتكون بعيدة عن خطر الموت الذي يرسله هتلر كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة. لكن. استطاعت الغواصات الألمانية أن تغرق سفينة منها، كان فوقها ابن فخري، مات الطفل ابن الست سنوات غرقا في المحيط. أي عذاب هذا؟!

تخاف أن ترسل مرجريت عايدة إلى القاهرة؛ فتموت في الطريق، تصطادها طائرة ألمانية وهي داخل السيارة، أو سائق عربة نقل مأفون، فتعود إليها جثة هامدة كما قُتل ابن فخري وميري في ماء المحيط، «لا. لن أجعلها تبرح القصر».

عندما علمت مرجريت بغرق ابن فخري بكت. الطفل كان جميلا، وكان مرتبطا بأبيه أكثر من أمه، فقد كان فخري أكثر حنانًا منها. قالت للباشا: «الرجل سيجن، لا شك».

زاره الباشا ومرجريت معه. حاولا إخراجه من صمته وكآبته دون طائل.

وجاءت دعوة من جمعية أدبية بالإسكندرية لحضور حفل لتخليد ذكرى وفاة الشاعر المسرحي القصاص محمد تيمور، كان ذلك في منتصف أكتوبر 1940. الحفل مقام في قاعة نادي موظفي الحكومة، بمحطة الرمل، كان الجو باردا جدا، والنادي في عمارة قديمة وكبيرة جدا على البحر، لكن دخولها من زقاق جانبي مظلم دائما، والسلم مظلم ومتآكل، والباشا لا يرتاح لمثل هذه الأماكن، لكنه يحب محمد تيمور ويعجب به. كما أنه قرأ في الدعوة اسم فخري؛ سيلقي قصيدة في رثائه، فقال لزوجته: «لا بد أن نكون بجوار الرجل في مثل هذه الظروف». جلس الباشا في الصف الأول ومرجريت بجواره، وقف مقدم الندوة للترحيب بهما، وأعلن أكثر من مرة عن تشريف السياسي الكبير، ورجل الصناعة المرموق حسن بدوي باشا للندوة.

القاعة مزدحمة، فالفقيد كان على صلة بمعظم التيارات الفنية والأدبية في مصر، وتتابع الشعراء والكتاب على المنصة، ليذكروا محاسن الفقيد الغالي،

وجاء دور فخري ليلقي قصيدته التي أعدها لهذه المناسبة وكان مطلعها:

حيــا الخلود محمدا تيمورا قد كان روضا للفنون نضيرا

فوجئ الحضور بما يرون، فالشاعر لم يستطع أن يشد اهتمام السامعين كعادته، كان تائها، تضيع الكلمات منه، فيتوقف، ليبحث عنها في الورق الذي يقرأ منه، ضاع ألقه وتوهجه الذي كان جليا في جلساته مع الباشا وزوجته في فيلته الجميلة الصغيرة برمل الإسكندرية، أو في قصر الباشا بالطابية. كان يريد أن ينتهي من قصيدته ليسترد أنفاسه التي تضيع وتخنقه، وضع يده على رابطة عنقه، فكها قليلا، ثم عاد إلى قصيدته فلم يجدها، لقد تاهت الحروف، فلم تتكون الكلمات، وروحه ومشاعره بعيدتان جدا، في عالم مجهول. حيث يحركهما الموت الذي تحدد له منذ أن سافرت ميري بابنها الصغير. وهكذا، فقد فخري الاتصال بالموجودين، فهو غير متحمس لإلقاء قصيدته، ولولا حبه لمحمد تيمور ما خرج من فيلته، لم يكن واعيا بما يقول، فانصرف الناس عنه، بدأ الهمس في القاعة: ما الذي حدث لفخري؟ لقد كان أنيقا، وظريفا، موت ابنه المفاجئ أضر به.. تدلت رابطة عنقه فوق الياقة المفتوحة، فبدا كرجل يستعد للانتحار شنقا، وظهر بوضوح مدى اتساخ قميصه. كان يرفع بنطلونه من وقت لآخر، بسبب فقده للكثير من وزنه بعد موت

وحيده، فخرج القميص من بنطلونه، وشعره الطويل، غير مهذب. فتحس أنه لم يمشطه قبل أن يخرج من فيلته. كانوا – في القاعة – يعلمون بما حدث لابنه، الذي غرق في المحيط، وزوجته التي لا تستطيع أن تأتي لمقابلته ومشاركته أحزانه، لخطورة السفر في البحر. فتركوا شعره وتحدثوا عن مصيبته. مسكين فخري، لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا بأشهر معدودة، وبدا كأنه في أواخر العمر.

أراد الباشا أن يقول لمرجريت بجواره: «ماذا حدث للرجل؟»، « لكن فخري كان قد انتهى من إلقاء قصيدته، وسار على المسرح غير مدرك للطريق الذي جاء منه، صمت للحظات، وبحث عن مخرج، الجمهور يتابعه مندهشا، نسوا أن يصفقوا له، ثم أسرع في مشيته، كأنما ألقى بعبء يثقل كتفيه، فكاد يقع وهو ينزل درجات المسرح القليلة، فتعالت آهة بين الموجودين، وأصوات متداخلة.

سار في طريقه لمكانه وسط الصفوف، فوقف الباشا، ومد يده له مصافحا، لكنه لم يره ولم يرَ يده الممدودة، وكاد يستمر في سيره، لولا أن شده الباشا من ملابسه التي بدت فضفاضة على جسده الذي ازداد نحولا منذ أن توقفت رسائل ميري إليه.

فعاد فخري وابتسم ابتسامة ميتة.

وجاءت الصحف بعد أيام قليلة من هذا اللقاء تفيد بأنه قد مات.

انتحر فخري بأن أطلق رصاصة مسدسه على رأسه وهو مستلقٍ في استرخاء على كرسي طويل هزاز.

3() كانت المدرسة الثانوية الوحيدة في الإسكندرية، مكانها الآن مبنى كلية العلوم في محرم بك، والمنطقة كلها ما زالت تسمى باسم العباسية.

جوهرة تعيش في بيت كمال

اعتادت جوهرة على الحياة في بيت كمال، أمه الست فردوس، امرأة ممتلئة تتحرك بصعوبة، لكنها – رغم هذا – تستيقظ مبكرة، لتوقظ زوجها محسن، الرجل أقل منها حجمًا، يهتم بصحته. يبدأ يومه بالصلاة، ثم إجراء التمرينات الرياضية في الصالة، يتابع خلالها ساعة الحائط القديمة المعلقة أمامه، المرأة تسير في أناة، تدخل المطبخ الواسع. تحب فردوس جوهرة كأنها ابنتها. تهتم بأكلها، وفي المساء تدخل الحجرة تغطي ابنها الذي ينام في سريره وحده، ثم تغطي جوهرة، وتعود إلى حجرتها في انتظار زوجها الذي يسهر كل ليلة في مقهى رجب عسكر أمام مصنع الورق.

نامت جوهرة بجوار كمال في سريره، فلم يكن لديهم سرير آخر لتنام عليه، قال محسن لزوجته في صوت خافت، لكن البنت جوهرة سمعته: «لا بد أن أشتري سريرا للبنت، لا يصح أن تنام مع الولد في سرير واحد».

وأكدت المرأة على قوله، قالت: «البنت أمانة، ويجب أن نصونها».

يذهب كمال إلى مدرسته القريبة من البيت، وتظل جوهرة وحدها في البيت، كم تمنت لو كانت زميلة لكمال في المدرسة، لكيلا تفترق عنه لحظة، لا بد أن تتحدث في هذا مع خالتها فردوس، لكي تحدث زوجها – عم محسن – فيسعى إلى إدخالها المدرسة مع كمال.

دخلت جوهرة المطبخ، كانت المرأة البدينة تقف أمام وابور الجاز، وبملعقة كبيرة تقلب الطعام: «خالتي فردوس، أريد أن أذهب إلى المدرسة مثل كمال».

انحنت وقبلتها في خدها قائلة: «سأحدث عمك محسن، وستذهبين إلى المدرسة خلال أيام قليلة».

وبالفعل ذهبت جوهرة إلى المدرسة، كانت تقف أمام المرآة لكي تمشط شعرها الأكرت، وكمال يحمل حقيبته في انتظارها: «كفى يا جوهرة، فشعرك الأكرت هذا لن يتمشط».

تغضب جوهرة، تتذكر أمها وصال التي كانت تؤلمها وهي تشد شعرها إليها، لكي تعقد في آخرها رباط الشعر الأحمر.

يسيران في حواري الطابية، تقفز سعيدة، يقولون إن هناك بعض الزيوت تجعل شعرها ناعما يسهل تمشيطه. ستسعى إلى شراء هذه الزيوت، وسيكون شعرها ناعما، حتى لا يسخر كمال منها ثانية، ويصف شعرها بالأكرت.

في العودة، تشده جوهرة من ملابسه، تخرج قميصه من بنطلونه، فيجري خلفها محاولا شد رباط شعرها، يقتربان من الساحة الكبيرة الملاصقة لضريح جون، حيث كانا يلعبان هناك، في هذا المكان رأت جوهرة كمال لأول مرة، وأصرت أن يسير معها ليحميها من الأولاد الذين يريدون ضربها. يصلان إلى ضريح جون الذي تهدم، وبرز الخشب من بين الطوب الملقى في كل

مكان، مد كمال يده وشد قطعة خشب، فأسرعت جوهرة إليه: «دعها يا كمال، فهو مكان مقدس».

لكن كمال لم ينتبه، وشد قطعة خشب أخرى، قالت جوهرة: «ممكن يؤذيك جون، صاحب الضريح، فسره باتع».

ضحك كمال منها، وأسرع ليسير فوق التراب الكثير المتراكم أمام الضريح، تسرع جوهرة إليه: «هيا يا كمال نبتعد عن هذا المكان، خشية أن يصيبنا مكروه».

أمسك يدها ساخرا، فقالت في جدية شديدة: «أريد أن أرى بيوت اليهود المتهدمة».

يترك يدها فزعا، فمَن يستطيع أن يقترب من هذه البيوت التي تؤوي الثعابين والفئران؟!

أصحاب البيوت خافوا من أشباح اليهود الذين قُتلوا في الحريق؛ وأكد الكثيرون أن أشباحهم تأتي كل ليلة، تنير الحجرات التي كانوا يسكنونها، ويسمعون دقًا في ورشة منير التي احترقت، بل إن بعضهم أكد وأقسم بأغلظ الأيمان إنه رأى العمال الذين كانوا يعملون في الورشة والذين تفحموا نتيجة للانفجار، وهم يعملون في الورشة، ويحملون صناديق البمب والصواريخ فوق أكتافهم؛ لتنقلها العربات إلى محلات وسط البلد ليبيعوها للأطفال، وأن الحاخام القصير ذا الزي المميز يأتي كل ليلة، يسير في خفة أمام الخرابات ويختفي مبتسما. كثير من سكان المنطقة رأوا ذلك الحاخام

عندما حضر جنازة ودفن اليهود الذين قُتلوا في الحريق الكبير.

أصحاب البيوت المشتراة من اليهود تركوها ولعنوا أنفسهم لأنهم - بغبائهم – دفعوا فيها أموالا دون طائل. حاولوا بيعها - ولو بالخسارة - لكن مَن سيشتري بيوتًا تسكنها العفاريت؟!

قالت جوهرة وهي تمسك يد كمال: «لا تخف».

- لقد حذرتني أمي من المرور أمام هذه البيوت.

شدت على يده: «أرجوك، لن أستطيع الذهاب إليها إلا معك».

سار معها مضطرا؛ يدها تنبش بأظافرها في يده، يشعر بالألم وبالرغبة في أن يجري عائدا إلى بيته، يرتمي في صدر أمه فردوس باكيا، لكنه تعود أن يبدو أمام جوهرة قويا، فهو الذي يحميها من كل أطفال المنطقة، الكل يعلم أنها في حمايته، ومَن يعتدِ عليها من الأطفال؛ يضربه كمال فهو الأقوى بين الأطفال، لطوله الواضح، ولجرأته.

تزداد دقات قلبه عندما يصلان إلى الشارع الذي تقع فيه البيوت المحترقة: «جوهرة، فلنعد إلى البيت».

تلتصق به، تمسك يده بكلتا يديها: «سأذهب لأرى بيت أمي وصال».

ثم صمتت بعض الوقت وأكملت في صوت أقل خفوتا: «ومنير أبي، وجدتي نظيرة».

- لكن...

- أنت قوي، أقوى من كل أطفال المنطقة، والعفاريت ستخافك، صدقني؛ لن تخاف سواك.

لولا ذهابها إلى قصر الباشا حسن بدوي لملاقاة ابنته عايدة، لاحترقت في الانفجار الرهيب.

لاحت من بعيد بيوت اليهود؛ فتوقف كمال عن السير، شاهد الأشباح تأتي إليهما مسرعة؛ منير - الذي ما زال يذكره كمال بجسده العملاق - يقف أمام ورشته بزيه الأزرق؛ وشعره الطويل الذي يمشطه للخلف، ونظيرة أمه تجلس مقرفصة كما هي فوق كنبتها العربي، والكنبة تطير فوق البيوت التي ما زالت تحترق. والنيران تحيط بها من كل جانب.

- «أريد أن أعود يا جوهرة».

شدت على جسده القوى بيديها النحيفتين وسارا معا.

تقف جوهرة أمام بيوت اليهود المتهدمة صامتة؛ ودموع تسيل على خديها، تمد يدها ناحية كمال. تعرف يدها الطريق إلى يده، تلمسها دون أن تنظر إليها، تشد على يده المترددة، يحس ببرودة تسري في كيانه من شدة برودة يدها. تحاول يده البعد عن يدها؛ لكنها تستجيب - آخر الأمر - لأصابعها النحيلة، تتشبث يدها بيده، تكاد أن تنبش أظافرها فيه لكيلا يتركها أبدا.

تترك جوهرة يده، تبتعد عنه قليلا وتتابع البيوت المتهدمة في صمت رهيب، تضع يديها فوق بطنها كأنها

تصلي. ما زالت تذكر وقفة الحاخام الأكبر أمام الأجساد التي احترقت في الانفجار، زارها ذلك الحاخام كثيرا في نومها، كان يقف هكذا واضعا يديه فوق بطنه الممتد. أحيانا كانت تقف في شقة والد كمال وحدها، فتضع يديها حول بطنها كما كان يفعل، يطاردها الولد زكي بن مورجان بوجهه الدميم وأنفه الكبير وفكه البارز، كان يرتعد وقت الحريق، امتنعت جوهرة عن أخذه معها في زيارتها لقصر الباشا، وهو مصر على الاقتراب منها، حتى عندما تم طرده صراحة؛ سار حزينا باكيا، عايدة الآن تدعوهما إلى حجرتها في حضور الدادة الإنجليزية فيضحك ثلاثتهم. ظل متابعا لها من بعيد، أي عشق هذا! لو لم تطرده جوهرة، ووافق كمال على اصطحابه وذهابه معهما لقصر الباشا؛ ما حدث له ما حدث. غضب لطردهما له، فعاد إلى البيت، كان حزينا، ووالده مورجان في حجرته مشغولا بعد قروشه، توطئة لإخفائهم في ركن كنبته العربي، التي كانت سبب موته، فقد أمسك بها، ولم يهرب مع بعض مَن هرب، أراد أن يخرج نقوده منها، فاحترق معها، وصار والكنبة والنقود شيئًا واحدًا.

رأى مورجان – والده – والنيران تحيط به من كل جانب، والناس تحيط بالمكان، تشاهد ما يحدث من بعيد، لم يكن مورجان يهرب، وإنما يندفع أكثر نحو الحريق، وكأنه لا يحس بالألم، حبه للنقود أنساه حتى أن يتألم.

لم تكن جوهرة تحب زكي هذا، تنفر من صوته القبيح الذي يجعل مخارج الحروف نشازا تضحك منها عايدة ويضحك منها كمال، ويصران على ألا يلعب معهما. لم تحس بكره نحوه وقت الحريق، ولا سخرية من طريقة نطقه للحروف، كان صراخه فظيعا؛ جعل الواقفين يرتعدون ويحزنون من أجله.

هي لم ترَ زكي من ليلتها، ولم ترَ مظلوم الذي أراد أن يأخذها معه لكي تعيش في القاهرة بعيدا عن هتلر وروميل ومطاردة الألمان التي لا تنتهي.

أشارت جوهرة إلى بيت كبير وسط البيوت المحترقة وقالت لكمال:

- إنه بيت منير أبي، وأمي وصال.

- إنه أكبر بيت في المنطقة.

- إنني الوارثة الوحيدة لهذا البيت.

- لكنه بلا ثمن الآن، فمَن سيشتري بيوتا لا تصلح للبناء، ولا للإقامة؟!

تمتمت بكلمات، لم يفهمها فسألها:

- ماذا تقولين؟

- علمتني جدتي نظيرة هذه الكلمات، وطلبت أن أذكرها عندما أستيقظ من نومي، وقبل تناول الطعام، وقبل النوم.

ابتعدا عن البيوت المحترقة، كانت شاردة، كفت عن ضحكها ومداعبته، ودموع تسيل على خديها في صمت، قابلتهما مقابر اليهود، تمتمت بكلمات غير مفهومة، وهي تضع يديها على بطنها. الأرض واسعة حول المقابر، أهل المنطقة استغلوا هذا الفضاء وجاءوا بترابهم وزبالتهم وطوبهم ورموه فيها.

عادا معا إلى البيت متأخرين، وفردوس تنحشر بجسدها الكبير، في النافذة الضيقة، تنظر إلى أول الطريق لعلها تجدهما آتين لتطمئن، فقد تأخرا كثيرا، وعندما رأتهما يدخلان الحارة، حمدت الله، وعادت إلى الحجرة لتفتح لهما. كانت غاضبة، قالت لجوهرة: «كمال لم يكن يتأخر هكذا عندما كان يذهب ويعود من المدرسة وحده».

بكت جوهرة، ودخلت الحجرة لتكمل البكاء فيها. لكن فردوس جاءت بعد لحظات وقبلتها واعتذرت لها، قالت:

- لقد خفت عليكِ أكثر من كمال ابني، فأنت ابنتي أيضا.

* * *

تزور نائلة بيت مظلوم بالقاهرة، يستقبلها إدريس، رجل طويل شديد النحافة، شعره أبيض يميزه. الولد زكي صار ممتلئا، إدريس يهتم به، مظلوم مشاغله كثيرة، فهو مسئول عن المصانع الثلاثة في القاهرة، يذهب إلى المكتب بشارع عدلي وسط البلد، ويظل يعمل لوقت متأخر من الليل. المكتب به الكثير من

الموظفين والموظفات، عليهم تلقي طلبات الشراء للمصانع الثلاثة، وتحصيل ثمن البضائع، وإرسالها إلى إدارة المصانع في الطابية، مندوب من المكتب يسافر كل أسبوعين لإرسال الشيكات والأموال، وتسليم طلبات الشراء، والاطمئنان على تسليم المنتجات إلى المشترين. لكن مظلوم لم يسافر منذ أن ترك الإسكندرية، لن يسافر إليها إلا بعد أن تنتهي هذه الحرب السخيفة.

يعود مظلوم إلى شقته متأخرا، يكون الولد زكي قد نام، يتناول مظلوم طعامه في عجلة ليرتاح من عناء العمل، والرجل الطيب – إدريس – يظل ساهرا، لا ينام إلا بعد أن يتناول مظلوم عشاءه، ويدخل الحمام ليستحم.

أرسل مظلوم أحد موظفيه ليلحق الولد زكي بمدرسة أجنبية، تدرس العلوم كلها باللغة الفرنسية، هي تحصل على مبالغ كثيرة، لكن مظلوم يمتلك الكثير الآن، فراتبه ارتفع بشكل كبير منذ أن أشرف على مكتب القاهرة، هذا غير العمولة الكبيرة التي حددها الباشا له، لكي يشجعه على بيع المنتجات، وتحصيل أموالها من الزبائن.

لم يكن مظلوم في البيت عندما زارته نائلة، وكان زكي في المدرسة.

رحب إدريس بها. وقال: «ابنك زكي يتحدث عنك كثيرا. وكنت أنتظر زيارتك منذ وقت طويل».

قالت في أسف: «أريد أن أراه منذ أن سافر مع مظلوم بك، لكنني أخشى أن يغضب مني».

ضحك إدريس قائلا: «مظلوم بك رجل طيب، ولا يمكن أن يغضب من امرأة تأتي لتطمئن على ابنها الصغير».

قدم الرجل الشراب إليها وهو يقول: «أريد أن أقدم الطعام إليكِ، لكنني أعلم أنك تشتاقين لتناوله مع ابنك؛ لذا سننتظر حتى يعود من المدرسة، لتتناوليه معه».

كانت خجلى منه: «لا أريد طعامًا، سأرى ابني وأعود إلى الإسكندرية ثانية».

أصر الرجل على أن تبقى حتى يعود مظلوم في المساء ويقابلها، وبعدها تحدد إن كانت ستترك البيت، أم تبقى للغد لتسافر.

أحست نائلة براحة مع إدريس، فالرجل يحب ابنها، يحدثها عنه باهتمام واضح. بعد وقت قصير، قامت نائلة لتساعد إدريس في عمل البيت، رأت بنفسها ملابس ابنها الكثيرة جدا، والتي تملأ الدولاب، لو ظل مورجان على قيد الحياة؛ ما لبس ابنها رداءً واحدًا من هذه الملابس، ولا عاش في هذا النعيم.

دخلت المطبخ، وساعدت الرجل في إعداد الطعام، كانت تضحك من تصرفاته، وكأنها تعرفه منذ وقت طويل. عندما وصلت الشمس إلى جدار الفراندة، قال

إدريس: «دقائق قليلة وتصل سيارة المدرسة، وترين ابنك».

وبالفعل، أطلقت السيارة نفيرها، فترك ما في يده، وأسرع ليفتح باب الشقة، في انتظار صعود زكي.

سمعت نائلة ابنها يتحدث مع إدريس ويضحكان معا، قال الرجل: «ستجد مفاجأة في الشقة».

ظن الولد أن المفاجأة عبارة عن أكلة يفضلها، أو رداء جديد اشتراه له مظلوم، وما إن دخل الشقة حتى رأى أمه أمامه، فرمى حقيبته على أول مقعد صادفه، وجرى ليحتضنها، بكت نائلة من الفرحة والمفاجأة غير المتوقعة، فابنها تغير كثيرا، أحست بأنه كبر كثيرا خلال الشهور القليلة التي عاشها في بيت مظلوم، كما أن وزنه زاد كثيرا وملابسه أنيقة.

ظل الولد يحكي لها عما يحدث في مدرسته، قال: «إن مدرس النشاطات في المدرسة اختاره لكي يؤدي دورا في مسرحية ستعرضها المدرسة في حفل سيقيمونه للذين تخرجوا في المدرسة العام الماضي، وعندما وقفت على المسرح لعمل البروفة، وتحدثت، ضحك الجميع من تصرفاتي، وطلبوا مني أن أعيد وأعيد، وأن المدرس يتوقع لي أن أكون ممثلا كبيرا في المستقبل».

وأخذ زكي يؤدي الدور الذي يتدرب عليه أمامها، وهي وإدريس يضحكان من تصرفاته وحديثه. أين

كانت كل هذه المواهب وهو يعيش مع مورجان هناك؟!

قالت نائلة: «ليتك تأتي معي لزيارة الطابية، ستدهش الناس هناك، من شكلك، وملابسك، والتمثيل الذي تجيده».

- لو ذهبت معك، في أي بيت سأنام بعد أن احترق بيتنا؟

ضمته لصدرها قائلة: «لقد استأجرت حجرة في بيت قريب من شركة الورق».

قال في هدوء شديد: «ما هي أخبار جوهرة؟»

- تعيش في بيت والد كمال الذي يعمل أسطى في مصنع الورق.

- وعايدة صديقتها؟

- ما زالت تعيش مع والديها في قصرهم، هل اشتقت لرؤيتها هي وجوهرة؟

- سأزورهما بعد أن أتخرج في المدرسة، وأصبح ممثلا مشهورا.

ضحكت نائلة في خلاعة ونادت إدريس الذي يعد الطعام في المطبخ: «اسمع يا عم إدريس، زكي ابني يحب...»

عاد الرجل مسرعا وهو يقول: «أعلم أنه يحب جوهرة، فهو لا يكف عن الحديث عنها».

قالت نائلة لابنها: «شد حيلك في المدرسة، وسأزوجها لك، فهي يهودية مثلك وتصلح لك».

في المساء جلست نائلة فوق الكنبة، وإدريس أمامها يحدثها عن مظلوم الغلبان الذي أضاع عمره لكي يكسب الباشا حسن بدوي، فليس لديه وقت لأن يتزوج، أو يهتم بصحته.

ليت مظلوم يأتي هذه الليلة مبكرا، لكي تحدثه عن ابنها، وأن تخرج إلى محطة القطار لكي تعود إلى الإسكندرية.

الولد نام، فقد تعود على النوم في وقت محدد، ويصر إدريس على تنفيذ هذا، فهو يستيقظ مبكرا ليلحق بسيارة المدرسة.

سمعت صوت تحرك المفتاح في « كالون الباب»، فدق قلبها داخلها في عنف، فهي لا تدري كيف ستواجه مظلوم بعد ما فعله مع ابنها. لقد أنقذ حياته وأنقذه من الضياع.

قال مظلوم بعد أن رآها: «مساء الخير يا مدام نائلة».

إنها لم تتعود على هذه المعاملة المحترمة. كان مورجان يسبها ويلعن أهلها جميعا، كما أن معظم عشاقها يعاملونها في استخفاف وسخرية، بعضهم يضربها في عنف دون سبب، قالت: «إني أنتظرك منذ الظهر، لكي أشكرك لكل ما فعلته من أجل ابني».

كان مظلوم لطيفا معها، وعندما أخبرته بأنها ستسافر الليلة، أصر على أن تقضي ليلتها في سرير ابنها، فهو كبير، يكفي لاثنين. وفي الغد يفعل الرب ما يريد.

يسهر مظلوم كل ليلة إلى وقت متأخر من الليل. أحيانا يظل ساهرا إلى الصباح، فالأرق أصبح شريكه في سريره، ونائلة تعودت – هي الأخرى – على السهر. إنها تذهب إلى عشاقها الذين يدفعون كثيرا، فتظل ساهرة معهم، عملها أن تسهر معهم.

قال مظلوم: «ما زلت تعملين في...»

لم يكمل، فأجابت: «ماذا أفعل؟ إنها المهنة الوحيدة التي أتعيش منها، لا أعرف سواها».

- يمكنني أن أجد لك عملا هنا في القاهرة.

- أعيش هنا، كيف؟

- ستكونين بجوار ابنك، ويمكنك أن تزوريه كل يوم إن شئت.

- وأين سأعيش؟

- المساكن كثيرة.

كانت تود لو قال لها، أن تعيش لديه في شقته. قال مظلوم لها: «إدريس نام كما ترين، وأنا عائد من العمل متعب كثيرا؛ لذا أرجوك أن تأتي بالفاكهة من الثلاجة، وأن تعدي المشروبات لي ولك».

قامت فرحة. تعمدت أن تقترب منه، وأن تلمس ركبته بمؤخرتها، وأطالت في لمسها، فضحك طويلا، ثم ضربها فوقها، فضحكت حتى خشي أن يستيقظ إدريس من نومه، أو يستيقظ الولد زكي.

قررت نائلة أن تجعله عشيقا مثل سائر عشاقها الكثر، والذين لا تستطيع أن تحصيهم، أو تتذكرهم جميعا في جلسة واحدة، فالرجل يستحق منها كل خير، على الأقل ترد له شيئا من جميله الذي فعله مع ابنها زكي.

صاح مظلوم بها: «أرجوكِ، إدريس قد يستيقظ، وكذلك ابنك زكي».

أحس مظلوم برغبة إليها، خاصة أن العمل أنساه أن يذهب للبحث عن امرأة – كما كان يفعل من وقت لآخر – ونائلة تستحق أن يتخذها عشيقة، شدها إليه، وأشار إليها بأن تتصرف في هدوء، وفي صوت خافت، أو بدون صوت أفضل.

الشقة واسعة، وبها حجرات كثيرة غير التي يشغلها الولد زكي، والتي يشغلها إدريس. قالت:

- قبلت أن أعيش في القاهرة بجوار ابني.

- لا، الشقة عندي لا تصلح لك.

- ليس مهما، المهم أن تجد لي عملا لأتعيش منه.

- وإن كنت أشك في أنك تستطيعين البعد عن هذه المهنة.

- لو ظللت عشيقتك، سأكتفي بك، لن أبحث عن رجل غيرك.

3

جوهرة

نهاية حسن باشا وتابعه مظلوم

يأتي كمال إلى بيته القديم الذي ما زالت تشغله جوهرة، لقد تركه لها بعد أن تزوج عايدة وسكن القصر الكبير الملاصق لمصنع الورق. كانت مرجريت تأتي إلى القصر أحيانا، فهي تقضي معظم وقتها بين القاهرة ولندن.

الجو في القصر مخيف خاصة في الشتاء، الهواء يدفع النوافذ العتيقة في عنف، وصوت ارتطام الماء بالصخور يوقظه من نومه. يرى الباشا بجسده الكبير معلقا بجوار النوافذ العريضة التي تهتز من شدة الهواء في الخارج، فيهتز جسد الباشا معها، اعتادت عايدة على هذا، فهي تنام دون قلق أو خوف، يوقظها: «عايدة، إنني أخاف من ذلك الصوت».

هي رقيقة وهادئة، لكنها وقت النوم لا تحتمل أن يقترب منها أحد. تدفع الغطاء عنها في عنف، وتصيح: «كمال، أرجوك لا توقظني من النوم».

يضطر أن يصمت، وأن يتعذب من أصوات ارتطام الموج بالصخور، ودفع الهواء للنوافذ التي تهتز فتزيد خوفه. ما له هو والقصور؟! لقد جاء إلى هذا القصر كثيرا وهو صغير. أحيانا وعايدة غير موجودة ، كان يأتي ليسأل عنها فلا يجدها . يذكر يوم أن دخل القصر وسار فيه باحثا عنها، والخدم يبتسمون له عندما

يقابلونه في الطرقات، لم يسأله أحد عما يريد، وسمع صوت مرجريت يأتي من بعيد:

- مَن الذي يقترب؟

- أنا كمال .

قالت: «ادخل وناولني المنشفة».

أحس بارتعاش، أين يدخل؟ صاحت في حدة: «ناولني المنشفة بسرعة».

سار في طريقه، وجد باب الحمام أمامه مواربا، دفعه وسار، أمسك بالمنشفة، وضحكات مرجريت تطارده، كانت مستلقية في «البانيو» عارية تماما، بقامتها الطويلة، وجسدها الأبيض الذي يشع نورا.

أمسكت المنشفة منه. ثم قامت، كشفت عن الجسد العملاق، تابعته، أحست بما يحسه فازدادت ضحكا. تعمدت أن تترك جسدها عاريا لمدة طويلة.

- ما رأيك؟

- في أي شيء؟

- في جسدي؟

خرج من الحمام مسرعا وضحكاتها تطارده، عاد إلى البيت ثانية. لا يريد أن يقابل عايدة، ماذا تريد مرجريت منه، تظنه صغيرا لم يزل. إنه تجاوز العاشرة ويعرف كل شيء.

عندما يرى مرجريت الآن يتخيل جسدها الرائع عاريا، فيخفي وجهه رعبا.

- عايدة، فلنذهب لنعيش في بيتنا.

- بيتك يا كمال؟! وجوهرة التي تكرهني، وتتمنى قتلي لأنني تزوجتك.

- إنه بيتي، وهي تعيش فيه مؤقتا.

- لو تريدني أن أترك القصر، ابحث لي عن سكن آخر غير بيتك الذي تسكنه جوهرة.

أرسلت جوهرة في طلبه، انتظرته أمام مصنع الورق الذي يعمل به، وطلبت منه أن يزورها في البيت لأمر مهم. لقد أخفى هذا عن عايدة، فلو علمت به، لن تسمح له بالذهاب. تعرف أن جوهرة تحبه بجنون، ولن تبتعد عنه مهما حدث.

صعد كمال درجات السلم العتيق، لقد ازدادت الدرجات اتساخا، وتهاوت بعض جدرانه، وتساقط الطلاء من كل الأماكن. البيت في حاجة إلى ترميم وإلا هوي بمَن فيه. لو توافق عايدة، سيرممه، ويطليه ويعيش فيه بعيدا عن قصر أبيها المخيف، وتذهب جوهرة بعيدا، فالشقة في آخر الأمر شقته.

الشقة التي تربى فيها صارت غريبة عنه، الأثاث كما هو، لم تزد جوهرة فيه شيئا. لكنه ازداد قدما وقتامة، ما زالت تحتفظ بصورة أبيه عندما كان شابا، وصورة أمه في آخر أيامها في الدنيا. وصور عديدة له وجوهرة

تلتصق به، وأخرى تحتضنه. صورة لهما وهما ينامان فوق النجيل في حديقة أنطونيادس، وأخرى بين الورد في المسابقة التي تقيمها الحديقة لمنتجي الورد في أيام الربيع، قبل شم النسيم بأيام قليلة. الصور في حاجة إلى رفع التراب عنها، وتغيير الإطارات التي بليت، وتآكلت أطرافها.

دق جرس الباب، لم ينتظر كثيرا، فقد فتح الباب وكأن جوهرة تقف خلفه في انتظاره، كانت ترتدي قميصا شفيفا، يكشف عن جسدها الأسمر المكتنز باللحم، وتطلي وجهها بالمساحيق وكأنها ذاهبة إلى حفل. هي تستعد لمقابلته، تريد أن تستثيره. شدته إليها في رغبة محمومة:

- إنني في انتظارك منذ الصباح.

- لكنك تعلمين أنني أخرج من العمل في الثالثة.

- أعلم، لكنني تمنيت أن تخرج قبل الموعد وتأتي إليّ.

دهش كمال، فهي تذهب إلى المستشفى الأميري وتعود بعد الرابعة، فما الذي جاء بها مبكرا اليوم؟!

- ألم تذهبي إلى عملك اليوم؟

- اليوم راحتي.

يريد كمال أن تنتهي مما تريد ليسرع إلى عايدة، فهي لا تتناول الغداء قبل أن يعود، وستسأله عما أخره، ولن ترتاح لبقائه لدى جوهرة.

قالت سعيدة: «سنتناول الغداء معا، كما كنا نفعل قبل أن تتزوج».

قالت هذا في عتاب واضح.

- لكنني لا أستطيع أن أتناول شيئا.

غضبت وصاحت: «تخاف من عايدة، أليس كذلك؟»

- جوهرة، لقد أرسلت في طلبي، وها قد لبيت، فماذا تريدين؟

- ألا تستطيع احتمالي لوقت قصير؟

- تعلمين أنني تزوجت...

صاحت فيه غاضبة: «لا تكمل».

ثم أسرعت وأحضرت جريدة الأهرام، وقدمتها إليه: «انظر».

نظر إلى صدر الجريدة وصاح: «ماذا بها؟»

كان لدى كمال إحساس بأن جوهرة تختلق الأسباب لكي تقابله، وها هي الرؤية تتضح، ترسل إليه لكي تريه نسخة من جريدة «الأهرام: ستشير الآن إلى حادثة، واحدة ضحت بكل شيء من أجل حبيبها، لكنه غدر بها وتزوج غيرها؛ فقتلته. كل عدة أيام تحدثه في حكايتهما معا. إنه لم يحب جوهرة قط، ومنذ أن رأى عايدة وهو يحبها ويتمنى أن تقبله زوجا.

- انظر إلى هذه الصورة.

- إنه الرئيس السادات.

كان السادات في زيارة لأحد المصانع الكبيرة وهو يلبس خوذة فوق رأسه. صاحت جوهرة بضيق، فكمال لم يستطع احتمالها للحظات، يريد أن ينتهي ليعود إلى زوجته التي أخذته منها.

- السادات في هذه الصورة، يشبه إلى حد بعيد الرجل الأسمر الذي جاء إلى بيتنا قبل انفجاره بأيام قلائل.

رمى الجريدة في استخفاف: «إنك تحلمين، ليس هناك شبه بينهما».

- إنك لم ترَ الرجل الأسمر الذي جاء إلى بيتنا إلا مرات قليلة، وكان هذا من بعيد، لكنني اقتربت منه، وحدثته، ومكث معي طويلا.

- وماذا تريدين منه؟

- أن أذكره بما حدث، فلا شك سيهتم بي، لا تنسَ أنه رئيس الدولة الآن.

أمسك الجريدة ثانية، وتابع صورة السادات في إمعان وقال:

- جوهرة، أنت أختي وتعلمين مدى حبي لك، ابتعدي عن هذا الطريق، وإلا ستندمين.

- ماذا سيحدث لي؟

سار ناحية الباب وهو يقول: «إلا السياسة يا جوهرة».

أغلق الباب خلفه، وظلت تتابع صورة السادات شاردة.

بحثت بين حاجياتها القديمة، فكت جلبابا قديما متسخا، وأخرجت من داخله حقيبة جلدية كبيرة، فتحتها بصعوبة، إنها تضع بها صورا عديدة لها مع كمال في حديقة الشلالات وأنطونيادس، والنزهة، حيث يركبان الفيل معا، وتركب جوهرة الحمار الوحشي المخطط، وكمال يمسكها لكيلا تقع من فوقه، ووالداه يتابعانهما في سعادة. لكنه ترك كل شيء وذهب إلى عايدة ابنة الإنجليزية والباشا حسن بدوي، وتركها لعذابها.

التحق كمال بكلية العلوم، كانت تنزل معه كل صباح، يستقلان سيارة من شركات مصنع الورق مخصصة لنقل أبناء العاملين في الشركة الذاهبين إلى كلياتهم، أو مدارسهم في الإسكندرية. كانت جوهرة تجلس بجواره ، تلتصق به، يحاول أن يبتعد عنها، لكن أين يذهب وهي تشغل جزءا كبيرا من المقعد بجسدها العريض، تعرف أنه يحاول الابتعاد عنها، لكنها لن تتركه وشأنه، ستغريه حتى يحس بها ويتزوجها، يترك عايدة ابنة الباشا الذي أمم عبد الناصر مصنعه، وجعله يعود من شركته راكبا سيارة قديمة تُستخدم في نقل العاملين الذين يسكنون الإسكندرية، وحكى العمال في اليوم التالي عما حدث للباشا داخل السيارة، لقد سخر منه بعض العمال، قال أحدهم ساخرا بصوت مرتفع: «راحت عليك يا باشا زي ما راحت على زينب عصفور»[4].

وظل الباشا واقفا بين الصفوف، يترنح من تحركات السيارة، ولم يقم عامل واحد ليجلسه مكانه.

كان المفروض أن تعيده إدارة الشركة الجديدة بسيارة ملاكي، لكنهم تعمدوا إذلاله.

ثار كمال وغضب عندما حكى له والده عما حدث، قال: «حديث الرسول يقول: ارحموا عزيز قوم ذل».

والده كان يعمل في الشركة وقتها، وكان قريبا من الإدارة الجديدة التي عينتها قيادة الثورة، وكان يلح على ابنه بأن يشد حيله ليتخرج في كلية العلوم ليعينه في الشركة، فهو قريب من الإدارة الجديدة، ولن ترفض له طلبا.

ليلتها انتظرت جوهرة حتى نام والد كمال، ونامت أمه، وتسللت في الليل، تعمدت ألا تنير مصباح الصالة، تعثرت في المائدة الكبيرة الموضوعة في المنتصف، كادت تقع فوق المقاعد الكثيرة حول المائدة، دخلت حجرة كمال. أيقظته من نومه، صاح فيها: «ماذا حدث؟ هل حدث مكروه لأمي؟»

جلست بجواره على السرير، واقتربت بأنفاسها من وجهه، كان وجهها مشتعلا من شدة الوجد والرغبة. قبلته في جنون، وعندما اعتاد على ظلام الحجرة، وجدها ترتدي قميص نومها العاري. ماذا لو أحس بها والده، حتما سيصر على طردها من بيته. أو ربما سيسمح بزواج كمال منها، لكن كمال لم يعطها الفرصة،

فدفعها في عنف، حتى رماها على الأرض، قال: «أنت أختي يا جوهرة، أختي».

بكت ليلتها، ليس من آلام جسدها من أثر الوقعة على الأرض؛ وإنما من تجاهله لها. قالت في صوت مرتفع غاضب: «أنت انتهازي، تريد أن تتزوج ابنة الباشا السابق لكي تأخذ نقودها».

نظر إليها ثم قال: «لكنها لم تعد غنية كما كانت».

مسحت دموعها بيدها في عصبية وهي تقول: «ليس المال هو السبب، وإنما حسب ونسب أسرتها».

لم يجبها، تابعها وهي تتصرف في عصبية، ترمي الأشياء وهي تنظر إليه لترى تأثير كلماتها عليه، كل ما يريده الآن، أن تذهب مسرعة إلى حجرتها قبل أن يستيقظ والده، أو أمه، وتكون فضيحة كبيرة.

تسللت حزينة إلى حجرتها، لم تنم، غطت جسدها العاري وظلت تبكي، حتى سمعت صوت أم كمال تصلي الفجر – كعادتها – ثم بدأت المرأة في إعداد الإفطار للأسرة، لكمال الذي سيسرع إلى ركوب الأتوبيس المخصص لنقل طلاب المدارس والكليات لأبناء العاملين في شركة الورق، ومحسن الذي ما زال يعمل في الشركة، بعد أن رقي وأصبح مسئولا عن الإنتاج فيها، وجوهرة التي تخرجت في مدرسة الممرضات بالمستشفى الأميري.

أرادت ألا تذهب اليوم إلى المستشفى، تظل في البيت لكيلا تحس زميلاتها بما تعانيه من فشل وإحباط. دقت أم كمال الباب: «جوهرة، هل استيقظتِ؟»

ردت عليها في ضيق، لقد استجاب كمال لها كثيرا، فما الذي غيره هكذا، كلما اقتربت منه - الآن - يقول: «أنت أختي». إنها ليست أخته، وليست هناك صلة قرابة بينهما، فما الذي يجعله يذكر هذه الكلمة التي تكرهها. عايدة هي التي غيرته، لقد ابتعدت عنه عدة سنوات، سافرت فيها مع أمها إلى لندن، وأحست جوهرة بالسعادة، فقد صار كمال خالصا لها، ولن تسمح لأحد بأخذه منها. كانت تتسلل في الليل، وتدفع باب حجرته – الذي يتركه مفتوحا من أجلها – تغلقه هي بالمزلاج لكيلا تفاجئهما أمه أو أبوه. تنام بجواره على السرير، توقظه لو كان نائما، يقول في هدوء وسعادة: «جئتِ؟» تضمه لصدرها العريض، تقبله في جنون، تقول في أذنه، بصوت عذب: «لن أسمح لك بأن تبتعد عني».

أحيانا تنسى نفسها وتنعس بجواره، ينامان الساعات الطوال، لولا ستر الله، لضبطتهما أمه، يوقظها، فتهب مسرعة إلى حجرتها، مرات عديدة، تسمع صوت أم كمال وهي تستعد لدخول الحمام لتتوضأ، فتسرع إلى حجرتها، مرة ضبطتها المرأة قريبة من حجرة كمال، فتظاهرت بالبحث عن شبشبها في حجرته، لا تدري هل صدقتها المرأة، أم فهمت، وأدركت ما بينها وبينه، وفضلت التظاهر بعدم الفهم. فقد رددت المرأة: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، رددتها عدة مرات، ثم دخلت المطبخ لتكمل إعداد الطعام.

بعد ذلك كان يأتي كمال إليها، تسمع صوت خطواته بجوار حجرتها، فتفسح مكانا له بجوارها، وتنتظره بشغف، فيصعد سريرها العريض، ويدس جسده تحت الفراش، ويمد يديه تحت قميصها، يكشف عن جسدها، وتخلع هي بنطلون بيجامته، ويظلان هكذا.

الآن لا يسمح لها حتى بهذا اللقاء الذي كان يساعدها لاحتمال عناء العمل، وكبرياء الأطباء الذين تعمل معهم في المستشفى الأميري.

في ذلك الوقت جاءها زكي، زارها في المستشفى، لقد صار طويلا، أكثر طولا منها ومن كمال أيضا، لكنه شديد النحافة، يرتدي بدلة أنيقة، ويتصرف في ثقة، أخذته إلى حجرة الممرضات الخالية، جلس أمامها واضعا ساقا فوق ساق، وأشعل سيجارته وهو يتابعها في سعادة، قالت: «أتابع نشاطك في فرقة نجيب الريحاني».

اكتفى بابتسامة عريضة ولم يعلق، رأت صوره في المجلات الفنية، «الكواكب» و«الاثنين»، كتبوا عنه أنه لفت الأنظار في دوره أمام ممثلي فرقة الريحاني المشهورين عادل خيري وحسن فائق وماري منيب وميمي شكيب، وسمعت جوهرة بعض اسكتشاته المضحكة التي ألفها واشترك في تمثيلها مع فرقة ساعة لقلبك الشهيرة. قال: «سأسافر إلى إسرائيل، ليتك تأتين معي».

فزعت، ما الذي يريده منها، ما لها وإسرائيل؟! إنها مصرية، وستتزوج مصري مسلم.

قالت: «أنت ممثل ناجح الآن، وقرأت أن فرقة الريحاني ستمثل مسرحية من تأليفك، لماذا تترك كل هذا وتسافر إسرائيل؟!»

- مآل كل إنسان مهما طال عمره؛ الموت. وكذلك اليهود مآلهم إسرائيل.

كان فكه يتحرك في حركة عصبية رغم الابتسامة التي لم تفارقه طوال الجلسة. دخل التومرجي بكوب شاي كبير، صنعه خصيصا من أجل جوهرة، وضعه أمام الضيف وهو يردد: «جوهرة غالية علينا جميعا».

بعد أن ترك التومرجي الحجرة، قال زكي: «الظاهر أنك غالية على الجميع».

- من رأيي أن تبقى في مصر، وتكمل مشوارك الفني.

- لا، لو بقيت، حكام مصر لن يتركونا نعيش في هدوء.

- كل اليهود يعيشون هنا بدون مشاكل.

- زملائي في فرقة الريحاني، لم ينسوا أنني يهودي، يريدون أن أفعل كما فعل الكثير من اليهود، ليلى مراد وكاميليا ونجوى سالم ونجمة إبراهيم وغيرهن.

لم تجبه بشيء، أحست بأنه يعاني من حالة نفسية، فقال: «لكنني غير قادر على أن أكون مثلهم».

نظرت إليه ولم تجب. وفجأة ارتعشت السيجارة في أصابعه، ورشف الشاي صامتا حزينا، ثم أخرج من سترته التوراة وأهداها إلى جوهرة: «لا تنسي أنك يهودية».

وعاد ليكمل تدخين سيجارته، ويرشف شايه شاردا طوال الوقت، وعندما وقف ليصافحها قال: «سأراسلك من إسرائيل، وسأظل أنتظر عودتك، أم تنتظرين أن يتزوجك كمال؟»

لم تجبه، وظلت تتابعه وهو يسير في الردهة الطويلة جدا واضعا يديه في جيبي بنطلونه، وعندما كاد يخرج من الباب، لوح لها من بعيد.

* * *

لم ينتظر زكي حتى يعمل بالسينما، لو بقي في مصر سيصل إليها، فالمخرجون يأتون كثيرا إلى مسرح الريحاني، يختارون بعض الممثلين لأدوار صغيرة في الأفلام التي يخرجونها، كما أن الممثلين الكبار – في الفرقة – يعجبون بتمثيله، ويتوقعون له مستقبلا باهرا، خاصة التمثيل الكوميدي. لكن زكي غير مرتاح لعملية التمثيل هذه، هو يعلم أن الضاحكين على تمثيله؛ يضحكون لتشويه وجهه. إنه يحرك فكه الممتد، ويجحظ عينيه أكثر، فيضحكون.

كلما التقطت له كاميرات الصحفيين صورا، لنشرها بمجلاتهم، يتذكر جوهرة، كثيرا ما حلم، بأن يأتي عامل

المسرح، ليخبره بأن امرأة تريد مقابلته، فيذهب فيجدها أمامه، فيدعوها إلى كافيتريا المسرح لتشرب زجاجة مثلجة على حسابه، وتحدثه عن أدواره على المسرح.

لو سافر إسرائيل ستتبخر مسألة التمثيل هذه التي لا يحبها، سيكتفي بكتابة المسرحيات الكوميدية، والقصة القصيرة، سيحكي عن الممثلين اليهود الذين ظهروا في السينما المصرية: شالوم وتوجو مزراحي وراقية إبراهيم، وكاميليا، وسارينا إبراهيم، وفيكتوريا كوهين، ونجوى سالم وليلى مراد التي خذلت كل يهود مصر بزواجها من أنور وجدي المسلم، كل اليهود يتحدثون عنها آسفين. سيكتب زكي مورجان عن هذا عندما يصل إلى إسرائيل، لن يكتب بالعبرية، فهو حتى لو أجاد النطق بها، فلن يستطيع أن يكتب إلا بالعربية.

قابلته سينما ريتس، وهي سينما درجة ثانية، بمعنى أنها تعرض الأفلام التي سبق أن عرضت في سينمات الدرجة الأولى. عالم السينما يمتعه، يذكره بأمه نائلة، التي تصر على أن يناديها الناس بـ «ليلى». جاءت إلى بيت عم مظلوم الذي أخذه من إهمال الناس له في منطقة الطابية، وألحقه بمدرسة فرنسية مصاريفها غالية جدا، حتى جعله يتحدث الفرنسية وكأنه أحد أبنائها. علم بعد ذلك أن نائلة كانت تحترف البغاء، كانت تنفق عليه، وعلى نفسها، وتعطي مورجان أيضا من النقود التي يدفعها لها المتلذذون بجسدها. جاءت إلى

شقتهم في عابدين، كان صغيرا وقتها، وسعيدا لأنها عادت. فقد كان يحبها ويرتاح عندما تضم رأسه الصغير إلى صدرها.

فوجئ بعد ذلك بأنها تعمل في كازينو شهير بالقاهرة، وتبتعد عن البيت بالأيام الكثيرة، وأحيانا بالشهور، وعمه مظلوم لا يسأل عنها، لكن عندما تأتي يرحب بها ويحتفل بقدومها، لكنها – عادة – ما تذهب في اليوم التالي، من النادر عندما تزيد في بقائها على ليلة واحدة.

في صباح لا ينساه كان عمه مظلوم ثائرا، لدرجة أنه شد إدريس العجوز من ذراعه، فأوقعه على الأرض، ولم يعتذر له، أو يساعده على القيام، كان يسبه ويهدده بإبلاغ الشرطة، حتى بكى الرجل. فهم بعد ذلك أن كل نقود عمه مظلوم التي كان يخفيها في خزانة بالحائط قد سُرقت. فاتهم عمه إدريس بأنه كان شريكا لأمه في سرقتها. كان يصيح وهو يشد شعره من شدة الغيظ: «أين كنت يا رجل، وهي تفتح خزانة بهذا الحجم، وتسرق ما فيها؟!»

أبلغ عمه مظلوم الشرطة التي جاءت لتعاين، وأخذوا عمه إدريس معهم، ولم يعد بعد ذلك، إنه يبكي كلما تذكر ذلك الرجل الطيب، الذي ساعده كثيرا، وهم يشدونه إلى عربة الشرطة، وهو ينظر ناحية عمه مظلوم في أسى: «بعد كل ما قدمته إليك ترميني هذه الرمية؟!»

لا يدري ما الذي حدث له، لكن أمه عادت بعد سنوات طوال، جاءت في سيارة فارهة، يقودها سائق خاص، وكانت تتحدث في عنجهية، وتحدثت مع عمه مظلوم في ثقة، وبلا خوف، ففهم من حديثهما، أنها أخذت النقود واشترت كازينو شهيرًا بالقاهرة، أكبر من الكازينو الذي كانت تعمل به، وأن عمه مظلوم لم يستطع أن يثبت شيئا عليها، فقد فتشت الشرطة سكنها، ومكان عملها - وقتذاك - ولم يجدوا شيئا، لكنها أخرجت النقود، التي كانت تخفيها مع عشيق شاب، تزوجته بعد ذلك، واشترت الكازينو.

لا يستطيع أن ينسى ما فعلته نائلة، ولا عمه إدريس الذي اختفى، والذي لا يريد عمه مظلوم أن يذكر عنه شيئا. سأله مئات المرات عن طريقه، لكنه كان يقول في اقتضاب: «لا أعرف عنه شيئا»، وفي كل مرة يغير الحديث إلى حديث آخر.

وصل زكي مورجان إلى ميدان محطة الرمل، سار في الميدان، إذا سافر إلى إسرائيل لن يستطيع العودة إلى هذه الأماكن ثانية. إنه يريد أن يهرب من مظلوم الذي تغيرت معاملته له منذ أن سرقته نائلة، كان لسان حاله يقول: «لقد كانت مكافأتي من أمك، نظير كل ما قدمته إليك، هو أن سرقتني وغيرت حياتي، جعلتني أتهم الرجل الطيب الذي خدمني سنوات طويلة، وكنت أأتمنه على كل ما أملك».

ويريد أن يهرب من مصر كلها حتى لا تقابله صور أمه نائلة في المجلات الفنية وهي ببذلة الرقص، والمعجبون حولها، لقد استطاعت أن تؤقلم مورجان زوجها على تقبل هذا، والرضاء عنه، لكن مع ابنها، لم تستطع.

إنه يحب الإسكندرية أكثر من أي مدينة أخرى. ولن يحب إسرائيل كما يحب هذه المدينة الأثيرة عنده، لكنْ هناك دافع يدفعه للهروب من كل ما يطارده في مصر، مظلوم ونائلة، ومورجان البخيل، وجوهرة التي لا تحبه. وكمال الذي اختارته جوهرة يوم الانفجارات الرهيب، لكي تعيش بين كنف أبيه وأمه، وما زالت تحبه، وعايدة البنت الجميلة، ابنة الباشا حسن بدوي، التي تحب كمال أيضا. ياه. سيرتاح في إسرائيل من كل هؤلاء، سيكونون بالنسبة إليه مجرد ماضٍ لن يعود.

عندما عمل كمال في شركة الورق، سعدت جوهرة، وأيقنت بأن موعد زواجها منه اقترب. سيتزوجها في هذه الشقة، أو يحصل على شقة في مساكن الشركة التي توزعها على العاملين فيها.

كانت تدخل الشقة، بعد عودتها من العمل بالمستشفى، فتدخل حجرته – حيث ينتظرها كل يوم – يظل بلا غداء إلى أن تعود. يحدثها عن العمل بمعمل الشركة، رئيسه الدكتور عباس، حاصل على دكتوراه في الكيمياء من جامعة القاهرة، لكن مطاردة البوليس السياسي له، رمته على الإسكندرية، حيث عمل كيميائيا، ووصل إلى إدارة المعمل. الرجل يعمل بالسياسة، يعتنق الفكر

الماركسي، اعتقل مرات عديدة قبل ثورة يوليو 1952 وبعدها، كان معه في المعتقل كبار رجال الفكر في مصر، عبد العظيم أنيس ولويس عوض ويوسف إدريس، والمطرب محمد حمام وغيرهم.

يحدثها كمال عن الدكتور عباس بإعجاب شديد، حتى أحبته جوهرة دون أن تراه. يذهب كمال لمقابلته في نادي الشركة بشارع سعد زغلول، الرجل مثقف جدا، يتحدث بطلاقة عن ماركس وإنجليز وتروتسكي ولينين، يعطي لكمال الكتب، يظل كمال ساهرا في حجرته يقرأها، ويكتب ملاحظات عنها، ثم يعطيها لجوهرة لكي تقرأها. وعدها بأن يأخذها معه إلى نادي الشركة لكي تقابل الدكتور عباس، وبالفعل ذهبت معه إلى النادي، كان الدكتور عباس شاحبا، وسحابتان سوداوان تحيطان بعينيه البنيتين، كانتا تظهران بوضوح عندما يخلع نظارته ليمسحها، ويضعها ثانية على عينيه. حدثها عن الشيوعية، وأن يهود مصر كانوا سباقين إلى نشرها في مصر، لا تدري جوهرة عن سبب قوله هذا، هل أخبره كمال بأصلها اليهودي، أم أن الرجل كان يتحدث دون قصد. فقد سمعته دون تعليق، لم تقل له إنها يهودية، وإن والدها قُتل لأنه كان يصنع قنابل يدوية لمقاومة الإنجليز المحتلين.

كل هذا ضاع فجأة عندما تقابل كمال ثانية مع عايدة ابنة الباشا.

عندما سمعت جوهرة صوت زغرودة أم محسن، أدركت أن كمال ضاع منها، وأنه سيتزوج عايدة، فقد سمعت منذ شهور عديدة كلمات متفرقة، فهمت منها أن كمال يريد الزواج من عايدة، وأن أمها - الإنجليزية - تعارض هذا في إصرار. الغريب أن المرأة العجوز - أم كمال - لم تعارض في أن يتزوج ابنها فتاة أمها إنجليزية، وعارضت بأن تكون زوجته من أصل يهودي. فقد سمعت جوهرة أيضا الأم وهي تعارض زوجها في أن تكون زوجة ابنها من أصل يهودي، يومها قال لها الرجل: «لا تنسي أن البنت قد تربت في بيتنا ونعرف أخلاقها».

قالت المرأة العجوز ساخرة ليلتها: «أخلاقها؟ آه».

أحست جوهرة وقتها، بأن المرأة تعرف بما كان يحدث بينها وبين ابنها كل مساء في حجرتها وحجرته.

فتشت جوهرة عن باقي أشيائها، هدايا كمال إليها، بعض أوراق الشجر الجافة كان قطفها من فوق فروع الشجر في المنتزه وأعطاها لها، فقبلتها في حنان وأخفتها داخل كتبها، هذه الأوراق معرضة للتلف، تحملها في حرص شديد، لكيلا تتكسر، وتتفتت. كما تفتت علاقة كمال بها. وجدت نسخة التوراة التي أهداها زكي مورجان إليها، لقد نسيت هذا تماما، رفعت التراب عن غلافها البلاستيكي وأسرعت لتضعها في دولابها، وهي تنظر في قلق، خشية أن يضبطها أحد وهي تفعل هذا، ثم أخرجت ساعة فضية قديمة، مسحت التراب العالق

بها، وقربتها من أذنها، لكنها لم تسمع شيئا، أدارت مفتاحها لكي تملأها، لكن الساعة لم تستجب، ولم تصدر صوتا. هي في حاجة إلى إصلاح، مرات عديدة – منذ أن أهداها إليها الرجل الأسمر في الطابية – ووالد كمال يأخذها منها، ويعطيها لمصلح ساعات يعمل بالشركة، لكي يمسحها، ويعيد إليها صوتها الذي أحبته جوهرة وسعدت بسماعه.

أمسكت بجريدة «الأهرام»، وفيها صورة الرئيس السادات وهو يلبس الخوذة القريبة الشبه بطاقيته الصفراء ذات الأذنين التي كان يرتديها، ويغطي بها نصف جبهته وأذنيه، لكي يختفي من مطارديه. إنه هو لا شك. كمال يسخر من حديثها: «أي جنون هذا، كيف يكون الرجل الأسمر الذي جاء إلى المنطقة أيام الحرب العالمية، ليتفق على صناعة القنابل اليدوية، هو الرئيس السادات الذي يحكم مصر الآن؟! إنه تخريف لا شك».

أدركت جوهرة هذا منذ أن تولى السادات حكم البلاد بعد موت عبد الناصر، قالت وهي تتابع صور الرئيس الجديد وهي تجلس في الصالة مع كمال وأمه وأبيه: «إن الرئيس الجديد يشبه الرجل الأسمر الذي جاء إلى بيتنا قبل الانفجار بأيام قلائل».

لم يكن محسن قد رأى الرجل الأسمر، وكمال لا يذكره جيدا. فرجال كثيرون يأتون إلى الطابية للتعامل مع المصانع الثلاثة: مصنع الورق ومصنع الصلصة ومصنع تعليب اللحوم والألبان. لكن محسن لم يكن يظن أن

السادات سيحكم مصر، وعندما عينه عبد الناصر نائبا له، قال: «لا أتوقع أن يكون رئيس مصر رجلا يرتدي بذلة بصفين»[5].

كان يقصد أن السادات هذا رجل دقة قديمة، ولا يستطيع أن يتجاوب مع التقدم والمدنية التي تحدث في العالم.

لقد تحدثت جوهرة في هذا مع زميلاتها في المستشفى الأميري، قالت لهم عن معرفتها القديمة للرئيس السادات الذي جاء بالطعمية والطماطم والفول في الصباح لكي يشاركونه طعام الإفطار، فسخرن منها قائلات: «إنك تحلمين يا جوهرة لا شك».

وقالت واحدة منهن هذا أمام أحد الأطباء:

«جوهرة تدعي أن الرئيس السادات كان يختبئ في بيتهم وهي صغيرة، وكان يرتدي وقتها ملابس العتالين والشيالين».

وضحك الطبيب، وداعب جوهرة وناداها لكي تحكي له عما تدعي.

وصارت حكايتها هذه – في المستشفى الأميري – مدعاة للسخرية منها، حتى وصلت للأطباء الكبار، رؤساء الأقسام والمديرين، وكانوا يقولون عنها – إذا مرت أمامهم – إنها الممرضة التي تعرف الرئيس السادات، والذي اختبأ في بيتهم أيام الحرب العالمية الثانية.

سترسل إلى الرئيس السادات، تذكره بهذه الأيام، ستقول له: «إن الساعة التي أهديتها إليّ ما زالت معي، هي لم تعد تصدر صوتا كما كانت، لكنني سأعطيها إلى ساعاتي لكي يمسحها، ويعيد إليها الحركة والصوت». لكن هذا قد يعرضها للأذى، فالرئيس سيغضب، حتى لو كان هو – حقيقة – الرجل الأسمر الذي جاء إلى المنطقة وتناول طعامهم، ونام في الحجرة الصغيرة التي كانوا يتخذونها مخزنا لتموين البيت. كما أن هذه الرسائل لا تصل – عادة - إلى الرئيس، فلديه أجهزة تتلقى رسائله وترد على بعضها، وتتخذ الإجراءات في معظمها، ومن هذه الإجراءات؛ القبض عليها لأنها تجرأت على شخص الرئيس. فالقانون المصري يعاقب الذين يتجرءون على الرؤساء، أو يسيئون إليهم.

ماذا سيحدث لها؟ ستسجن؟ ليس مهما، فقد ضاع كمال منها، وذهب إلى ابنة الإنجليزية. ستكتب إلى الرئيس السادات، لكي يطلب مقابلتها، ستقول له حكايتها، كيف فضلت أن تعيش مع أسرة مسلمة لأنها أحبت ابنهم، لكنه تركها وتزوج ابنة صاحب المصنع، وحتما سيتعاطف الرئيس معها، وسيساعدها لكي يعود كمال إليها، ستجعله يطرد هذه الأسرة، كما طرد عبد الناصر القوات الإنجليزية.

قطعت جوهرة ورقتين من كراسة لديها، وكتبت للرئيس السادات عما تراه:

«هل أنت الرجل الطيب الذي جاء ليتفق مع والدي- منير – على صنع قنابل يدوية ليلقوا بها على الإنجليز المحتلين، وكنت ترتدي طاقية من الصوف صفراء اللون ذات أذنين مرفوعتين لأعلى، وعلمتني بعض الألعاب اللطيفة، ما زلت ألعبها مع زميلاتي في المستشفى الذي أعمل به الآن، وأهديتني ساعة جيب فضية اللون، تصدر أصواتا عالية؟

ملحوظة: الساعة ما زالت معي، ويمكنك أن تراها بنفسك لكي تتأكد من قولي».

كتبت جوهرة على المظروف: «السيد المحترم الأستاذ محمد أنور السادات رئيس الجمهورية».

لم تكتب على المظروف سوى هذا، وألقت الرسالة في صندوق الخطابات المعلق بجوار شركة الورق راكتا[6]، والقريب جدا من مكتب بريد الطابية، لتضمن وصول الرسالة.

مر الوقت ولم يسأل أحد عنها، ونسيت جوهرة أنها أرسلت إلى رئيس الدولة رسالة، وأيقنت أن كمال قد ضاع منها، ولن يساعدها أحد على إعادته إليها.

عندما عمل الباشا حسن بدوي مع الملك فؤاد لم يكن يظن أنه سيعيش إلى أن يرى شابا مصريا يطرد أسرة محمد علي من مصر، ويعلن نفسه رئيسا للدولة كلها.

وأطال الله في عمر الباشا حتى سمع بأذنيه خبر تأميم مصانعه الثلاثة التي آلت ملكيتها إلى الدولة. كان في قصره وقتذاك، فوقف في الفراندة الواسعة، وطل

ناحية البحر، لم يز سوى ظلام دامس، كيف سيستطيع الحياة في قصره هذا، وقد أصبح المصنع الذي أنشأه، وسافر إلى ألمانيا خصيصا لاختيار آلاته؛ وقد تحكم فيه غيره. وقتها أمر خدمه - وكانوا كثيرين – بأن يعودوا إلى بيوتهم، وأخذ زوجته مرجريت، وابنته عايدة وانتقل إلى محطة الرمل، ليقضي ليلته في فندق سيسل، لا يستطيع أن يبقى في قصره، وآخرون يتحكمون في مصنعه أمامه، سيترك لهم قصره إلى أن يجد حلا لمشكلته.

أى حل، هل سيناطح عبد الناصر؟ من يقدر في هذه الأيام على أن يعارضه، أو حتى يناقشه؟

في اليوم التالي ذهب بسيارته إلى مقر الشركة؛ ليعرف «رأسه من رجليه» – كما يقولون – قابله المسئولون باحترام شديد، لكنهم صادروا السيارة التي جاء بها لأنها من ضمن سيارات الشركة، ومذكورة في بياناتهم، وعندما أراد العودة إلى سيسل لم يجد مواصلة تنقله، لم تكن سيارات الأتوبيس – في ذلك الوقت - تمر في هذه الناحية، ليس هناك سوى قطار رشيد، وهو يمر مرة واحدة في اليوم، وسيارة أتوبيس – من رشيد وإليها - فات موعدها، ولن تأتي غيرها إلا في الغد.

اضطر أن يركب سيارة الشركة التي تقل العاملين الذين يسكنون الإسكندرية، السيارة قديمة ومتهالكة، والعمال يشغلون المقاعد كلها، وقف الباشا حاملا أوراقه المهمة التي أخذها من مكتبه، لم يكن يقف وحده، كان معه وسط السيارة بعض العاملين في شركات أخرى، وبعض المجندين في القوات البحرية، يركبون مع السائق ويدفعون له الأجر، ويطلق عليهم العاملون في مصنع الورق، لقب « براميل»، للتفرقة بينهم وبين عمال الشركة الذين يحق لهم ركوب السيارة دون أجر، ويصفون السائق الذي يسمح بركوب غير عمال الشركة، بأنه «يبرمل».

الطريق طويل من الطابية حتى محطة الرمل، والباشا لم يعد قادرا على التحمل، كما أن السيارة مصابة بالتلف، والدخان يتسرب من عددها إلى الداخل، بدلا من خروجه إلى الشارع. سعل الباشا وكاد يختنق، وسمع

كلمات السخرية من العمال، أحد العاملين أصر أن يجلسه مكانه؛ عندما وجده يترنح ويكاد يقع.

ليلتها أحس الباشا باختناق، وطلب من مرجريت أن تنقله إلى القاهرة ليموت في بيته، فهو سكنه الوحيد الباقي له، قصره بالطابية لم يعد يصلح للإقامة، فالخفراء سيقفون بجواره بحجة حماية المصنع الذي يعملون فيه، ولن يدعوه يتهنى في قصره.

مات الباشا في القاهرة بعد أيام قليلة، وترك لعايدة وأمها القصر الكبير الذي يطل على خليج أبي قير. لكن المصانع الثلاثة أممت، إدارة الشركة الجديدة ترغب في شراء القصر لكي تتخذه مقرا لإدارة شركتها، والقوات البحرية تفاوض زوجة الباشا لتشتري القصر وتضمه للكلية البحرية بعد أن انتقلت من رأس التين إلى الطابية وبات القصر قريبا جدا من الكلية. وزوجة الباشا غير راغبة في بيعه. لقد شهد أيام هناها، رأت فيه أصدقاء الباشا السياسيين والفنانين، تذكر مرجريت عام 1954 عندما جاء المخرج هنري بركات مع زوجها إلى القصر، ومعه وحيد فريد مدير التصوير وبعض العاملين في مجال السينما، جلسوا في البهو الكبير، ثم ساروا حتى الفراندة الكبيرة التي تطل على البحر وجزء من الحديقة الكبيرة. لم يمكثوا كثيرا في القصر، خرجوا ليعاينوا باقي المنطقة. قال الباشا يومها: «سيصورون فيلما في قصري هذا».

كانت زوجة الباشا سعيدة، فهي تعشق السينما الأمريكية والإنجليزية والفرنسية، وشاهدت الكثير من الأفلام العربية بعد أن عاشت سنوات طويلة في مصر. وأحبت فاتن حمامة ومريم فخر الدين التي تشبهها كثيرا؛ بقامتها المديدة، ووجهها الطويل. بعد أيام قلائل أخلى عمال المصنع الأثاث ليعطوا فرصة للعاملين في الفيلم لوضع آلاتهم، وتركت زوجة الباشا حجرة نومها لفاتن حمامة لكي تنام فيها مع يحيى شاهين. وشاهدت الأسرة كلها باقي العاملين في الفيلم: شكري سرحان الذي يقوم بدور شقيق فاتن والذي يحب أخت زوجها (زهرة العلا)، ورشدي أباظة – ابن عمها – والذي خذلها وتزوج غيرها (شريفة ماهر) عندما علم بأن عمه – والد فاتن – يعاني من ضائقة مالية. كان سراج منير – الذي قام بدور والد فاتن حمامة – رفيقا مع الباشا وأسرته، يقضي الليالي برفقته، يلعبان الطاولة ويتحدثان في السياسة والفن والأدب لوقت متأخر من الليل، وكان يجلس عايدة فوق ساقيه ويهزهما، ويداعبها.

كانت فترة العمل في الفيلم من أجمل الأيام التي عاشتها مرجريت، والتي ظلت لسنوات طويلة تحكي عنها. هي ما زالت على علاقة بزهرة العلا، وشريفة ماهر، تتصل بهما بالتليفون، وتسأل عن صحتهما. ويتصلان بها، لتهنئتها بعيد ميلادها.

وعندما يعرض فيلم «ارحم دموعي» في التلفزيون، الذي مثل في القصر ومصنع الورق، تتذكر مرجريت هذه الأيام. ترى مدخل القصر، والردهة التي أقيم الحفل فيها، والشاطئ الذي كان شكري سرحان وزهرة العلا يصطادان السمك فيه، وتصيح مرجريت ضاحكة عندما ترى بعض عمال المصنع وقد ظهروا في الفيلم، ويحيى شاهين يقف أمام الطواحين التي تطحن الورق، ويطل على جزء من الماكينة الكبيرة. كل هذا ضاع بعد أن أخذوا المصنع من زوجها الباشا؛ لذا، لن تترك القصر لهم. لكنها في حاجة إلى أموال لتعيش هي وابنتها عايدة التي تريد أن تتزوج ابن عامل المصنع الذي جاء الباشا به من مصنع لاغوداكيس ليعمل في مصنعه.

ستبيع مرجريت القصر وتأخذ ابنتها إلى القاهرة، لتعيش هناك، ولو أنها تحب الإسكندرية أكثر. لكن لم يتقدم لشراء القصر سوى شركة الورق والكلية البحرية التي انتقلت إلى الطابية حديثا، وهي لا تريد أن تبيعه لهما.

قررت مرجريت أن تسافر إلى القاهرة، لكن ابنتها أصرت على الرفض، حاولت مرجريت معها كثيرا دون طائل، سافرت على أمل أن تلحق بها ابنتها بعد شهور قليلة، لكن البنت لم تأتِ، وجاءتها الأخبار من الإسكندرية بأن ابنتها تزوجت أحد الموظفين في مصنع الورق، ويقيم معها في قصر أبيها.

عادت مرجريت في أول قطار قابلته، ركبت تاكسي وذهبت إلى الطابية، الطريق طويل ومتعب، وهي شاخت، وتعاني من آلام كثيرة في ركبتيها وظهرها، نصحها الأطباء بأن تنام على ظهرها فوق الفراش لعدة أيام، حتى تذهب آلام ظهرها. لكن ابنتها عايدة لا تريد أن تريحها، تحب الولد الذي جاء إلى قصرهم منذ سنوات بعيدة، وقتها طلبت منه مرجريت أن يأتي إلى القصر كثيرا ليلعب مع ابنتها. لم تكن تعلم أن هذا العرض سيكلفها الكثير.

اتفقت مرجريت مع سائق التاكسي أن يصل بها إلى داخل القصر وستدفع له مبلغا كبيرا.

دقت الباب الكبير في عنف، فجاء الولد الذي تزوجته ابنتها، كان غاضبا، ظنا منه أن أحد الخفراء الذين يعملون في شركة الورق هو الذي يدق الباب هكذا، وعندما رآها أمامه، أحس بالخجل، قال: «مدام مرجريت، أهلا، تفضلي».

نظرت إليه في احتقار: «ماذا تفعل في قصري؟»

- لقد تزوجت عايدة، ابنتك.

سارت في عصبية، دقت بلاط الصالة الكبيرة بكعب حذائها، فأحدث ضجة عالية، قالت وهي تسرع نحو الدرج الخشبي العريض: «هذا لا يعطيك الحق في أن تقيم في قصري».

وقفت عايدة فوق أعلى درجة من درجات السلم وقالت: «أنا التي طلبت منه أن يبقى في القصر».

البنت لم ترحب بأمها، رغم أنها لم تقابلها منذ ما يقرب من عام، صاحت مرجريت غاضبة: «ستخرجين منه أنتِ أيضا. اذهبي إلى شقتهم وعيشي معه فيها».

عادت عايدة، سارت أمامها في طريقها إلى حجرتها وهي تقول متحدية: «سأفعل يا أمي».

كان كمال يتابع ما يحدث في صمت، ما الذي تقوله عايدة. أي شقة هذه التي تتحدث عنها؟ شقته في الطابية التي تسكنها جوهرة الآن، لا تصلح للإقامة. كما أن جوهرة لن تتركها مهما حدث، والشقة بحالها الآن لن تستطيع أن تحتملها ليوم واحد.

ذهب كمال ليرتدي ملابسه، ويجمع أشياءه استعدادا لترك القصر. لقد تحدث كثيرا مع عايدة في أن يجهز شقة تليق بابنة حسن بدوي باشا، الذي كان صديقا للملك فؤاد ملك البلاد. لكن عايدة عارضت هذا كثيرا، قالت: «إن هذا القصر ليس ملكا لأمي وحدها، فأنا أشاركها في ملكيته».

سيسعى من الغد في إيجاد سكن خاص به بعيدا عن قصر الباشا الرهيب، وبعيدا عن شقة والده التي أخذتها جوهرة، ولن تتركها ولا بالطبل البلدي. المهم هذه الليلة، كيف سيتصرف. الحل هو أن يأخذ زوجته عايدة، ويذهب بها إلى جوهرة، ستفاجأ بهما أمامها، سيقول لها

أن تحتملهما ليوم واحد إلى أن يجدا سكنا في منطقة الطابية.

كانت المرأة العجوز تصيح، وابنتها ترد عليها كلمة بكلمة وهي تجمع ملابسها، وتضعها في حقيبة كبيرة.

هدأت مرجريت واقتربت من ابنتها التي كانت تبكي في صمت، لمست ظهرها وقالت: «يمكنك أن تبقي في القصر حتى الصباح».

أحس كمال بالفرحة لذلك، فقد حلت مرجريت المشكلة، سيصعد مع عايدة وينامان في سريرهما»، وفي الصباح يذهب إلى عمله، سيتحدث مع الدكتور عباس، يحكي له ما حدث، ويطلب منه سكنا في منطقة الطابية. وستحل المشكلة بإذن الله، فالدكتور عباس له معارف كثيرة في المنطقة، والكل يتمنى أن يحقق له ما يريد. لكن عايدة شدت يد أمها في عنف وقالت: «لن أنام فيه ليلة واحدة، خذيه وافعلي به ما تشائين».

صمتت المرأة، ونظرت إلى كمال في ضيق، فهو السبب في كل ما يحدث، لولاه ما خرجت ابنتها الوحيدة عن طاعتها، هو الذي يحدثها عن ماركس ولينين، وحق الفقراء على الأغنياء، لقد رأت مرجريت كتاب رأس المال بالإنجليزية فوق الكومدينو المجاور لسرير ابنتها عايدة، وكتبا أخرى تتحدث عن الاشتراكية.

خرجت عايدة حاملة حقيبتها الكبيرة فأسرع كمال وحمل الحقيبة عنها، وترك لها حقيبته الصغيرة، وسارا

في الحديقة الطويلة في طريقهما إلى الشارع العمومي المؤدي إلى بيت كمال. نادت مرجريت من فوق الدرجات القليلة أمام الباب، قالت: «عودي يا عايدة، الطريق موحش ليلا».

لكنها لم تعد، بل لم تكلف نفسها بالنظر إلى الخلف. سارا في الظلام، خرج من خلف شجرة البمبوزيا الكبيرة خفير يحمل بندقية، وصاح: «مَن، قف مَن أنت؟»

قال كمال: «أنا كمال الموظف بالشركة».

ضحك الخفير قائلا: «زوج ابنة الباشا، أين ستذهب في ذلك الوقت؟»

- سأذهب إلى بيتي القريب.

أصر الخفير على أن يحمل الحقيبة عنه، وأن يذهب ليوصلهما إلى البيت، قائلا: «لقد كان والدك – عليه رحمة الله - أسطى في الماكينات، كما أن المدام ابنة الباشا، سيدنا وتاج رأسنا».

دق كمال باب جوهرة، ووقفت عايدة تلهث من التعب ومن الغضب.

فتحت جوهرة الباب مسرعة، صاحت: «ماذا بك يا كمال، هل حدث شيء؟»

لم يجبها، نظر خلفه في الظلام وقال: «تعالي يا عايدة تفضلي».

ما الذي يحدث في هذه الليلة العجيبة، أوصلت به الجرأة لأن يأتي بزوجته إلى شقتها؟!

هو في الأوراق؛ الوارث لعقد الإيجار، لكنها تعيش في الشقة الآن، وكل الحارة يمكن أن تشهد بأنها قضت فيها سنوات طويلة جدا، ولا يحق له أن يخرجها منها. «تفضلي يا عايدة».

سارت بحقيبتها وهي مرتبكة، حائرة، تنظر إلى الشقة في دهشة، أين هذه من قصرهم الكبير القريب الشبه من قصري الملك فاروق في رأس التين والمنتزه.

قالت جوهرة وهي تتابع عايدة في اهتمام: «ماذا حدث يا عايدة؟»

تركت عايدة حقيبتها ونظرت إلى السقف، وقد تدلى العنكبوت من أعلاه، وتساقط الطلاء فوق الأرض العارية، قال كمال: «حدث خلاف بين عايدة وأمها، فاضطررنا لأن نأتي إليك».

قالت جوهرة وهي ما زالت تتابع وجه عايدة الذي ازداد احمرارا من الغضب، فازداد جمالا: «أهلا بك وبها».

يعرف كمال جوهرة جيدا، هي لن تنام الليلة من الغضب:

- ليلة واحدة يا جوهرة، وفي الغد سنبحث عن سكن جديد لنا.

- ماذا تقول يا كمال؟! إنها شقة والدك ووالدتك، يعني أنت أحق بها.

أسرعت جوهرة لتعد الطعام لهما، لكنهما أسرعا إلى حجرة كمال التي كان ينام فيها. ونامت عايدة فوق السرير وانخرطت في بكاء طويل، بينما ضمها كمال لصدره، وأخذ يربت ظهرها في حنان، وعندما دقت جوهرة بابهما، لتعلنهما بانتهاء عمل العشاء، كانا قد ناما.

في الصباح؛ ترك عايدة نائمة، وارتدى ملابسه في حذر حتى لا تستيقظ جوهرة وتطارده بإلحاحها، فتسمعها عايدة، فتستيقظ من نومها وتغضب من تصرفاتها معه، واجهته جوهرة بشعرها الأكرت الذي تظهر عيوبه واضحة عندما تستيقظ من النوم مباشرة، قامت مسرعة، أمسكت يده قائلة: «لن تخرج قبل أن تتناول فطورك».

كان ينظر ناحية الحجرة التي تنام فيها عايدة، يخشى أن تصحو وتتشاجر معها.

- أرجوكِ يا جوهرة، لقد تأخرت.

- لم تتأخر، دقائق وسأعد لك إفطارا سريعا.

- لا أريد الإفطار، كل ما أريده منك أن تحسني معاملة عايدة إلى أن أعود.

استطاع كمال أن يفلت منها بصعوبة، سوف يعمل الدكتور عباس إلى أن يجد له حلا. المساكن في منطقة الطابية كثيرة، ولم يصل إليهم «خلو الرجل» الذي يسود المدن الكبيرة الآن، كما أن معظم العاملين في الشركة من المنطقة، ويمتلكون أراضي يزرعونها بالجوافة

والموز والبرتقال، ويأتون إلى الشركة ليناموا، فالعمل في أرضهم يجهدهم، الدكتور عباس يستطيع أن يؤثر عليهم.

كان حديث قسم المعمل هو ما حدث لكمال وزوجته عايدة، لقد أثر الدكتور عباس في الكثير من العاملين معه في المعمل، فتأثروا بفكره، منهم كمال، ومساعد معمل، أصله من أسوان اسمه محمد أبو الدرداء، شديد الإعجاب بالدكتور مثل كمال. قال أبو الدرداء: «هناك شقة شاغرة في البيت الذي أسكنه».

لم يتحمس كمال للفكرة، فهو يعرف أن أبو الدرداء يسكن الطابية في بيت ملاصق لمدافن اليهود.

قال الدكتور عباس: «لكن بيتك لا تؤاخذني...»

ولم يكمل، قال أبو الدرداء: «سكن مؤقت إلى أن تنتهي المشكلة بين زوجته وأمها».

قال الدكتور عباس: «ما رأيك يا كمال؟! زوجتك تعودت على العيش في القصور».

قال كمال: «لا، زوجتي عايدة تغيرت، وعلى استعداد لأن تعيش في أي مكان، المهم أن تبتعد عن أمها في هذه الأيام».

قال أبو الدرداء: «صاحب البيت الذي أسكنه شيخ الخفراء في الشركة، يمكن أن نستدعيه ونتفق معه».

قال الدكتور عباس: «بيت شيخ الخفراء، يطل على مقابر اليهود».

- ليس مهما، فهي لم تعد مقابر. آخر يهودي دفن بها كان في عام 1942، أيام الحرب العالمية الثانية.

قال الدكتور عباس: «استدعوا الريس خلف، رئيس الوردية، فهو الوحيد الذي يستطيع التأثير على شيخ الخفراء».

ثم أخرج مائة جنيه، وأعطاها لأبي الدرداء قائلا: «ستحتاج إلى نقود، ادفع وحاسبني في الغد».

خلف هذا، كلمته مسموعة في الطابية، فهو يقوم بدور الحكم في الخلافات، ويعقد اللقاء في بيته، فقد اتفق الأهالي مع مأمور قسم المنتزه؛ التابعة له الطابية، بأن يحلوا مشاكلهم بأنفسهم، ووافق مأمور القسم بعد أن أخذ الإذن من رؤسائه، فعندما تحدث حالة سرقة مثلا، لا يذهبون بالسارق إلى الشرطة، وإنما يأتون به وبأهله، ويعرض صاحب المسروقات مشكلته، فيقوم خلف بتحديد العقوبة على المذنب، وهي عبارة عن مبلغ يتكفل بدفعه أهل السارق على المسروق منه. معظم سكان الطابية يعملون في شركة الورق، وخلف رئيس عليهم، بصفته رئيسا للوردية.

في المساء كان كمال يسكن شقة صغيرة في بيت شيخ خفراء شركة الورق، الرجل يتاجر في المواشي بجانب عمله بالشركة، الدور الأرضي لا تسكنه سوى الأبقار والجاموس والغنم التي يشتريها ويتاجر فيها، عماله يقومون بتنظيف الحظيرة وتقديم الطعام والماء لها في المواعيد المحددة.

فوجئت عايدة بموقع البيت، قبور متناثرة ليهود ماتوا منذ أن أسس جون عزبته، ثم الذين ماتوا في حريق ورشة البمب والصواريخ الشهيرة.

أمسكت عايدة يد كمال جزعة: «أتريدني أن أسكن أمام المقابر؟!»

- ذلك سكن مؤقت، وأعدك بأن أبحث عن سكن آخر.

شدت على يده قائلة: «أشعر بقشعريرة».

تزاحم أهالي الطابية على المكان، أراضٍ شاسعة حول المقابر غير مستغلة، ساحة كبيرة، كانوا يخزنون فيها قمحهم وشعيرهم، ويلعب الأطفال فيها عندما تكون خالية، وتستغل في مولد جون، حيث يأتي اليهود من كل مكان للاحتفال، لكن كل هذا ذهب وولى بعد الانفجار الرهيب، وقد وعد الحاخام الأكبر – في ذلك الوقت – بإصلاح مبنى الضريح، وإقامة جدرانه، لكن الرجل ترك مصر كلها، وبقي الضريح كما هو، ولم يعين خادم له بعد موت مورجان في الانفجار.

من الذين أسرعوا ببناء بيت له في هذه المنطقة شيخ الخفراء هذا. الرجل له بيت من طين ني مثل معظم بيوت المنطقة في ذلك الوقت، لكن تجارته في الماشية جعلته يفكر في إقامة بيت كبير، وحظيرة كبيرة تستوعب كل مواشيه التي يشتريها من رشيد ودمنهور وأدكو، فاختار قطعة أرض قريبة من مقابر اليهود، وبنى بيته بالأسمنت، والطوب الأحمر، الذي سوته النار، الأرض بلا صاحب، وهو معه نقود كثيرة من تجارة المواشي.

تأففت عايدة – أول الأمر – من رائحة روث البهائم، ومن الأوساخ الموضوعة في طريقها وهي صاعدة السلم، لكن هذا هو الموجود الآن.

اعتذر كمال لعايدة لرداءة البيت الذي يسكنها فيه، وجاء محمد أبو الدرداء وزوجته آمنة، وهي مساعدة معمل مثله، وتعمل معهم. هادئة ونحيفة، تلبس نظارة غامقة، لا تشارك زوجها في اتجاهاته السياسية، بل تحرضه دائما على أن يبتعد عن أفكار الدكتور عباس التي تراها كفرا. محمد أبو الدرداء، دائم الابتسام، منذ صغره وهو محب للقراءة، يقرأ الروايات والقصص، وتعود على القراءة لأكثر من ساعتين قبل نومه.

جاء أبو الدرداء وآمنة، زارا عايدة المنشغلة بإعداد الأثاث في شقتها الصغيرة. احتضنتها آمنة بود شديد، وساعدتها في إعداد الشقة، وحمل أبو الدرداء الأثاث الثقيل هو وكمال، ثم جلسوا في حجرة الصالون يلهثون من التعب. قالت عايدة لآمنة: «حكى لي كمال عنك كثيرا، لكنني وجدتك أكثر جمالا وهدوءا».

ضحك أبو الدرداء بصوت مرتفع قائلا: «لا يغرك هدوؤها، فعندما تثور تكون كالبركان الهائج».

ابتسمت آمنة في حياء، فقال كمال: «لا تصدقيه، فهي هادئة في كل وقت».

قالت عايدة: «والأستاذ محمد مثلها، رجل طيب ومخلص».

أكد كمال على قولها: «حقيقة، لم أجد مخلصا لأصدقائه مثله».

قالت آمنة: «عيبه، هو ارتباطه بأفكار الدكتور عباس».

ضحك أبو الدرداء بصوت مرتفع وقال: «لم يمن الله علينا بالخلفة، رغم أننا متزوجان منذ ثلاث سنوات، وترجع هي هذا إلى اعتناقي أفكار الدكتور عباس».

صاحت آمنة بحماس: «صدقيني، كل ما نلاقيه من عنت في حياتنا سببه تمسكه بهذه الأفكار».

صاح كمال: «أرجوكما أن تغيرا هذا الموضوع، فعايدة هي الأخرى لا ترتاح لهذه الأفكار».

قالت عايدة في هدوء: «هذه الأفكار كانت سببا في قتل أبي، تأميم مصانعه الثلاثة، أدى لموته».

قال أبو الدرداء في جدية شديدة: «قرارات عبد الناصر الاشتراكية، ليست لها صلة بأفكار الدكتور عباس».

صاحت عايدة في ابتسام: «إنني سعيدة لاقترابي منكما، وأنتهز الفرصة لكي أعرض عليكما رغبتي في أن أعمل في شركتكم».

صاح كمال في ضيق: «ستعودين ثانية لهذا الموضوع؟!»

- إنني أجيد الإنجليزية والفرنسية، ويمكن أن أجد عملا مناسبا في شركتكم.

- لكن...

- هذا هو الحل.

- إنني أرى هذا صعبا.

وضع أبو الدرداء يده فوق يد كمال وقال: «يمكن أن نتحدث مع الدكتور عباس في هذا، وأعتقد أنه سيقدر على تعيينها في الشركة».

سعدت آمنة، ضمت عايدة لصدرها سعيدة: «ستكونين أفضل زميلة لي هناك».

* * *

كان شيخ الخفراء سعيدا لأن ابنة الباشا حسن بدوي – ملك الضاحية كلها – تسكن بيته الآن، سبحان مغير الأحوال.

الغريب في الأمر أن مرجريت، الإنجليزية التي لا تدانيها امرأة في الطابية في جمالها وأناقتها ورشاقتها جاءت بتاكسي إلى بيت شيخ الخفراء، وأخرجت منديلها ووضعته فوق أنفها وهي تجتاز الدور الأرضي، وخطت من فوق الجلة التي تجففها زوجة شيخ الخفراء مع بعض جاراتها اللاتي يساعدنها في هذا العمل.

خرجت زوجة شيخ الخفراء ومن معها من نسوة ليشاهدن مرجريت بقامتها المديدة، وشعرها الأصفر الذي تكشفه وتغطي به جزءا من ظهرها العاري، وتعقده من الخلف برباط وكأنها فتاة في العشرين، صعدت، دقت باب ابنتها، لم تحدث أبو الدرداء أو زوجته، نظرت إليهما ثم تابعت كمال في غيظ، ولم تقل كلمة، فانسحب أبو الدرداء وزوجته دون قول. أمسكت يد ابنتها ورجتها بأن تترك هذه الحظيرة – التي تسكنها الآن – وتعود إلى قصر أبيها، وتفعل به ما تشاء، هي لن تعترض ثانية

على زواجها من ابن رئيس الماكينات التي تزوجته، ولها الحق في أن تعيش معه كما تشاء، وفي أي مكان تريده، بعيدا عن هذا البيت ذي الرائحة الكريهة. لكنها خرجت من البيت دون ابنتها، فقد أصرت الفتاة العنيدة على أن تبتعد عنها، وغاظتها عندما قالت لها: «لن أترك هذا البيت، فتعجبني رائحته التي لا تعجبك الآن».

زوجة شيخ الخفراء ومن معها من نسوة، شاهدن مرجريت وهي تمسك منديلها في يدها، لا لتضعه على أنفها لتتفادى الرائحة الكريهة؛ وإنما لكي تمسح دموعها، سارت على أقراص الجلة المصنوعة من روث البهائم، لم تحس بما تدوسه قدماها.

ظلت عايدة مستيقظة، وكمال؛ بعد أن قرأ في الكتب التي يعيرها له الدكتور عباس، توسد يمينه ونام، تشعر عايدة بالخطر على صحتها، فهي تفعل أشياء غريبة، لم تكن تظن أنها تحدث، ماذا لو علمت الفتيات اللاتي كن يزاملنها في المدارس الأجنبية، أن ابنة الباشا حسن بدوي تسكن بيتا يطل على مقابر اليهود، وفي أسفله حظيرة للمواشي؟! هل هي تفعل هذا رغبة في إيذاء نفسها، أم رغبة في تعذيب أمها؟

ياه.. أمها هي المشكلة. لقد تزوجها الباشا صغيرة، بعد أن شاخ، وأصيبت أجهزته بالتلف. انشغل بالسياسة ومرافقة رجال الفكر والفن والأدب، فإذا بالعمر يمر طويلا دون أن يتزوج.

حالة الباشا الصحية أثرت عليها - ما في هذا شك – فهي كانت تحب الباشا في جنون، وتخاف من أن يأتي يوم فلا تجده أمامها. كانت تعلم أنه سيموت يوما مثله مثل سائر البشر، لكنها لم تتخيل هذا اليوم. لقد ربطت حياتها بحياته. ماتت أمها في لندن. وأختها سافرت إلى أمريكا مع زوجها، وتمر السنوات الطوال دون أن تلتقي بها، أو تتحدث معها في التليفون، لم يتبق لها سوى الباشا وابنتها عايدة. لا، الأمر أكبر من هذا بكثير، فهي لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن مصر، والإسكندرية بالذات. فقد سافرت كثيرا إلى لندن، وقضت بها شهورا قليلة، لكنها تشعر فيها بالاختناق. في مصر لا تشعر بهذا، وفي القاهرة لا ترتاح كثيرا، تشعر برغبة في السفر إلى الإسكندرية، فبعد أن مات الباشا، فكرت في أن تنتقل إلى بلادها، تبحث عن معارفها القدامى، وتعيد اتصالها بهم، وشرعت في عمل هذا حقا، لكنها لم تقدر، كانت في كل يوم تصحو متأخرة، وتؤجل الذهاب إلى السفارة الإنجليزية في اليوم التالي؛ الذي لم يأتِ أبدا.

كان لا بد للأرملة التي ليس لديها أحد في مصر، أن تبحث عن حقوقها وحقوق ابنتها، اتصلت بمظلوم اليهودي الذي ترك العمل في المصنع، وأقعده المرض في شقته بعابدين، بعد أن سرقت أمواله امرأة يهودية مثله – كان يعطف على ابنها اليتيم.

قال مظلوم لها: «آسف يا مدام، إنني غير قادر على المشي، وما حدث للباشا كان متوقعا في مثل هذه

الظروف».

- لا أريد منك سوى أن تعرفني بمحام يبحث عن حقوقي وحقوق ابنتي.

- ذلك سهل يا مدام، سيتصل بك محامٍ شاب، ويأتي إليك في القصر.

وجاء المحامي الشاب، كان طويلا، طوله يقارب طول مرجريت، قال: «إنني أعمل في مكتب محامٍ كبير في المنشية، ولكنني آخذ عمليات خاصة بي خارج المكتب، توطئة لانفصالي عنه».

لم تكن عايدة في القصر، فأشارت إليه مرجريت بأن يتبعها إلى حجرة مكتب الباشا، أخرجت أوراقها وقدمتها إليه. كان يتابع الورق، وهو يضم شفتيه، حتى ابتسمت من تصرفاته. قال: «الأمر سهل يا هانم، وحقك محفوظ طبقا للقانون».

جاءت عايدة، سمعت مرجريت صوت دقات كعب حذائها فوق الدرج الخشبي، دقت باب حجرة المكتب المضاءة، وقالت: «مساء الخير».

قالت مرجريت: «إنه محامٍ أرسله مظلوم، لكي يبحث عن حقوقنا لدى الحكومة».

حمل الأوراق وذهب، بعد أن وعد بالرد عليها بعد ثلاثة أيام.

لم ترتح عايدة إليه، ولم يعجبها أن يأخذ عمليات من خلف ظهر صاحب المكتب الذي وثق به، وأن هذا النوع

من الناس يخوّف. وقالت مرجريت: «شاب، ويريد أن يشق طريقه».

قالت عايدة: «كيف تستعينين بمحام كهذا في مسائل كبيرة جدا؟!»

- الأمر سهل يا عايدة، وواضح أنه شاب طيب.

لا تدري عايدة ما الذي جعلها تكره المحامي الشاب منذ أول لقاء معه، قالت: «هو يهودي، أليس كذلك؟»

- لم أسأله. فاسمه إبراهيم وهو اسم مشترك بين الأديان الثلاثة.

- ما دام واسطته مظلوم، فهو يهودي لا شك.

* * *

لا تريد عايدة أن تطيل في تفكيرها في أمر هذا المحامي الذي أفسد الحياة بينها وبين أمها، فأمها حرة تفعل ما تشاء، لقد جاء المحامي إلى القصر كثيرا، مرة لكي يخبر مرجريت بما يحدث في القضية، ومرة لأنه يريد أوراقا مهمة تفيد في التحقيق، ومرة بدون سبب، يجلس طوال الوقت دون أن يذكر سبب مجيئه إليهما، كما أن أمها تتغير من قبل أن يأتي، فتمكث أوقاتا طويلة في الحمام، وترتدي ملابس لا تناسب سنها، مما يثبت أنها على علم بحضوره.

عندما يطيل المحامي في جلسته، تقوم عايدة في ضيق، وتتركهما معا. بعد أن يذهب تلوم أمها: «ما الذي يعجبك في هذا الفلاح؟»

فتجيبها مرجريت في ثقة: «خير من ابن عامل المكن الذي تريدين الزواج منه».

لم تجبها، وشدت الكتاب الذي كان معها، والذي وضعته على الكومدينو وهي تحدث أمها، وأسرعت إلى حجرتها، وأغلقت الباب عليها، وشردت طويلا وهي تنظر إلى سقف الحجرة.

مات الأب الحنون، وضاعت كل الأشياء، ومن حق الأم العجوز أن تعيش حياتها، لكن ليس مع ولد في سن ابنتها جاء ليسرقها.

ما أثار عايدة، ما رأته في المنتزه، كانت مع كمال، يسيران في الطريق الأسفلتي، يتحدثان، ويضحكان، فإذا بسيارة مرجريت تأتي متمهلة، والمحامي الشاب بجوارها، صاح كمال فجأة: «أليست هذه أمك؟»

توقفت الأم، وابتسم الولد في صفاقة، ومد يده، صافحه كمال، وتجاهلته عايدة. قالت الأم: «ما الذي جاء بكما إلى هنا؟»

قالت عايدة في غضب: «إنه خطيبي، وسنتزوج في القريب، المشكلة فيكما، ما الذي جاء بكما إلى المنتزه؟!»

قال المحامي محاولا الخروج من السيارة: «إنها صداقة بريئة».

- صداقة بريئة في المنتزه؟!

وأشاحت بيدها وسارت، وأمها تنادي: «اسمعيني يا عايدة».

لكنها لم تلتفت إليهما. اضطر كمال أن يتبعها، وقالت مرجريت: «حدثها يا كمال».

- سأحدثها.

وأسرع الخطو ليصل إلى عايدة، التي كانت غاضبة.

4() امرأة سكندرية، كانت تدير بيوت دعارة كثيرة، وتمتلك عدة عمارات كبيرة ما زالت موجودة في الإسكندرية.

5() لكنه حكم، بل وصار من أشيك رجال العالم.

6() مصنع للورق أقامته حكومة ثورة يوليو 52.

حدث حادث غريب، ما زالت تحكي به منطقة الطابية للآن، رغم مرور السنوات الطوال على حدوثه، فقد جاءت سيارات الشرطة الكثيرة من كل مكان، بعضها جاء من معسكرات قوات الأمن الموجودة في كوم الدكة، والبعض من ناحية المعدية، التابعة لمحافظة البحيرة. والمنطقة لم تتعود على هذه التحركات. لقد اختارها الباشا لإقامة مصانعه - بعد أن منعوه من ممارسة السياسة - لأنها منطقة آمنة، أهلها فقراء لا هم بالريفيين ولا من سكان المدن، شيء وسط بين الاثنين؛ فقراء إلى حد بعيد، لدرجة أنهم يسألون المرأة التي تلبس شبشبا في قدميها: «هل لديك حفل؟»

فمعظمهم لا يلبسون شيئا في أقدامهم إلا في الحفلات أو الأعياد، هذا إن وجدوا ما يلبسونه.

لم تتغير المنطقة إلا بعد أن انتقلت الكلية البحرية من رأس التين إلى هناك، فكان الأهالي يقفون في دهشة وهم يرون عربات القوات البحرية وهي تحمل الجنود والضباط لتخترق بهم الطريق الضيق الذي يحده من اليمين المصرف الطويل، ومن الشمال شريط السكة الحديد، لكن حتى عربات قوات البحرية لم تكن أبدا بهذه الكثرة.

اخترقت هذه القوات الطريق الضيق، وسارت سيارة؛ سيارة، وعرجت على عزبة جون، كان اللواء عبد التواب

هديب محافظ الإسكندرية في سيارته السوداء، ينظر من خلف الستارة الداكنة التي تحجب الرؤية عن الناظرين إلى سيارته، لا يدري ما الذي سيفعله الرئيس السادات في هذه العزبة التي لم يسمع عنها من قبل.

في الحقيقة سيادته لا يعرف عن منطقة الطابية إلا أن بها أكبر شركتين لصناعة الورق في مصر وهما راكتا والورق الأهلية ومصنع الصلصة التابع لشركة قها وغيرها من المصانع الصغيرة، ذلك من خلال التقارير التي ترد إليه كإجراء أمني ولم يزرها ولا مرة واحدة. لكن التعليمات جاءت بالأمس، وفي وقت متأخر جدا، بأن سيادة الرئيس سيزور عزبة جون التابعة لمنطقة الطابية، الملاصقة لمنطقة المعدية التابعة لمحافظة البحيرة.

وفي سيارات أخرى أعضاء الحكم المحلي، وأعضاء مجلس الشعب عن منطقة شرق الإسكندرية التابعة لها الطابية، وأعداد هائلة من العاملين في شركات راكتا والورق الأهلية وقها وقفوا على جانبي الطريق الضيق ليحيوا الرئيس وهو سائر بموكبه في طريقه إلى عزبة جون.

دخلت سيارة ملاكي سوداء كبيرة جدا، وبها رجال كثيرون برئاسة رجل طويل وعريض، ويرتدي بذلة سوداء، ونظارة سوداء، سأل عن بيت جوهرة ابنة منير الذي قُتل في انفجار في عام 1942.

دهش الناس هناك، ماذا تريد الحكومة من جوهرة، ولماذا يأتون بكل هذه القوات؟! لا شك أنها قد حنت إلى أصلها اليهودي، واتصلت بأهلها في إسرائيل وأرسلت إليهم بمعلومات عسكرية مهمة، خاصة أن منطقة الطابية أصبحت مهمة وحيوية بالشركات الكبيرة فيها وبالكلية البحرية التي انتقلت إليها حديثا، هذا غير قوات البحرية التي تتدرب هناك بعد هزيمة 1967.

لكن حتى لو فعلت هذا، ما دخل الرئيس بكل هذا، ألأنها جاسوسة يأتي رئيس الجمهورية بنفسه للتحقيق معها؟! إنه لم يحدث ولا حتى في القرون السالفة؛ عندما كان الحاكم يحقق بنفسه في كل المسائل، ويوقع العقوبة بنفسه أحيانا.

الرئيس لم يعطِ رجاله فرصة، لكي يسألوا عن جوهرة هذه التي يريد مقابلتها وزيارتها في بيتها، لقد فاجأهم برغبته الغريبة هذه، ولم يقدر أحدهم بأن يقول له: إن هذه الزيارة قد تسبب خطرا على حياته، وكان يجب أن تخطرنا قبل موعد الزيارة بأيام لنحضّر لكل شيء. لكنهم تعودوا من الرئيس هذه الرغبات المفاجئة، والغريبة.

صعد الرجل الطويل الذي يرتدي البذلة السوداء درجات بيت جوهرة، لم تكن استيقظت من نومها، ولم تحس بكل ما يحدث في المنطقة، لو علم أهل البيت الذي تعيش فيه، بأنها المعنية بكل ما يحدث؛ لأيقظوها وأخبروها بأن الرئيس جاء لمقابلتها.

فتحت جوهرة باب شقتها، وشعرها الأكرت يقف من تحت غطاء رأسها كأشواك القنفذ، كان الرجل يبدو كعملاق أمامها، وخلفه رجال أقل منه حجما، يرتدون مثله بذلا سوداء ونظارات سوداء، ويضع كل منهم منديلا أسود اللون في جيب الجاكيت: «أنت جوهرة منير؟»

- نعم، ماذا حدث؟! تفضلوا.

- أنتِ التي أرسلت إلى سيادة الرئيس بخطاب؟

أحست بالخوف، ارتعدت، ما قاله لها كمال تحقق، لقد غضبت الأجهزة التي تعمل مع الرئيس، وجاءت للقبض عليها والتنكيل بها.

- أرجوكِ ارتدي ملابسك بسرعة...

تعرف جوهرة أن هذه الكلمات تُقال لكل مَن يأتون للقبض عليه، يقولونها حتى لو كان المطلوب القبض عليه مرتديا ملابسه، فهو إجراء عادي من ضمن الإجراءات التي لا بد أن تتم.

- سيادة الرئيس سيأتي بعد قليل لمقابلتك.

لم تصدق ما قاله أول الأمر، تخيلت أنه قال شيئا آخر، لكن الرجل أعاد ما قاله.

- سيقابلني أنا؟

تابع الرجال الشقة، وجاءت قوات الأمن لتفحص المكان، وتتأكد من عدم وجود قنابل موقوتة داخل الشقة، فالبنت ابنة صاحب ورشة مفرقعات، كان يصنع

البمب والصواريخ للأطفال، وانفجرت ورشته عندما أراد أن يحولها إلى ورشة لصناعة القنابل والرصاص الحقيقية.

كانت ترتعش داخل الحمام، فلا بد أن تستحم، لتقابل رئيس الدولة نظيفة، وارتدت أفضل ما عندها من ملابس، الرئيس السادات يفعل ما كان يفعله ملوك زمان المذكورون في حكايات ألف ليلة وليلة، وغيرها من الحكايات، عندما يأتون إلى رجل فقير ويعطونه الذهب والمجوهرات، فيتحول بقدرة قادر إلى رجل ثري جدا، يتحكم في المنطقة التي يعيش فيها، بعد أن كان فيها ذليلا محتقرا.

دخلت القوات الكثيرة المكان. توقفت السيارات التي تأتي من رشيد، والذاهبة إليها. وظل عمال شركات المنطقة في أماكنهم غير قادرين على التحرك، فالأوامر الصادرة إليهم صريحة: «لا تخرج السيارات من أماكنها، وتتوقف الحركة لدى حد معين، من أجل أمن السيد الرئيس».

سار سيادة الرئيس بردائه الريفي وعصاه الطويلة، وشاربه الكث، لقد فضل ارتداء هذا الزي لأنه رآه مناسبا لهذه الزيارة.

سار في الشارع العمومي، الجماهير المحتشدة بعيدة، هناك سياج من حديد يمنع تحركها، لكن البعض رأى الرئيس وهو يسير فوق الأرض التي يدقها بعصاه،

وعباءته البنية المطرزة تشع نورا يراه الناس من بعيد. هللوا عندما رأوه هكذا، فنظر إلى الخلف ورفع عصاه لأعلى.

كانت جوهرة في استقباله أمام باب البيت في الحارة. جرت إليه، وضمته لصدرها، وابتسم الرجل العملاق الذي يرتدي البذلة السوداء في رضى عما يحدث، فهو واثق من أنها لا تحمل ولا تخفي أية مفرقعات تضر بالرئيس.

دخل الرئيس البيت، صعد الدرجات التي لم تسنح الفرصة لكي تنظف، أو تجري عليها بعض التعديلات التي تناسب مقام وقدر سيادته، كان يتحدث مع جوهرة: «ما زلت أذكرك، كنتِ ضئيلة الحجم، وكانت أمك، لقد نسيت اسمها...»

- وصال يا سيادة الرئيس.

- وصال، وجدتك نظيرة، ما زلت أذكر اسمها، كانت ظريفة، وتضحك من كل شيء. ألم تتزوجي للآن يا جوهرة؟

- لا يا سيادة الرئيس، النصيب.

- سنزوجك.

نظر إلى الرجل العملاق وقال: «زوجوها».

فأحنى الرجل رأسه مبتسما.

تابع الرجل العملاق جوهرة وهي تفتح صرة ملابسها بأسنانها، والتف حولها بعض الرجال خشية أن تصيب

سيادة الرئيس بسوء، أخرجت من صرتها حقيبة قديمة سوداء، فتحتها وأخرجت ساعة فضية قديمة بكتينة علاها الصدأ، وقدمتها إلى الرئيس، تقدم الرجل العملاق وأمسك بالساعة، قبل أن تمتد يد الرئيس إليها، لكنه أزاحه من طريقه، قائلا: «إنها ساعتي، ما زلت أذكرها».

قالت: «لكنها لم تعد تدق كما كانت».

قال الرئيس للرجل العملاق: «خذوها منها، وصلحوها، وأعيدوها إليها ثانية».

سمح الرجل العملاق لباقي الجيران بأن يدخلوا لمصافحة سيادته، هذا بعد أن فتشوهم جيدا، وتأكدوا من نظافتهم، وكشفوا على أجسادهم بأجهزتهم، التي تكشف عن المفرقعات والديناميت.

كان السيد الرئيس سعيدا، سمح لهم بالجلوس على الأرض بعيدا عنه قليلا، حتى لا يضايقهم دخان «البايب». قال: «التي لم تتزوج منكن، سأزوجها»، وضحك ضحكته المشهورة.

ثم جاء كبار رجال المنطقة، رؤساء مجالس الشركات هناك، وعمدة المعدية، وأعضاء مجلس الشعب، ورجال الحكم المحلي. استمع الرئيس إليهم. قال إنه يحب عزبة جون لأنها آوته عندما كان هاربا من الإنجليز، وإن والد جوهرة هذا مات شهيدا في الانفجار؛ لأنه كان يصنع القنابل من أجل مقاومة الإنجليز المحتلين.

اقترح عضو مجلس الشعب عن منطقة شرق الإسكندرية، أن يطلق اسم منير – والد جوهرة - على شارع في منطقة شرق المدينة، ومدرسة ابتدائية في الطابية كانت تحت التشطيب، ليتعلم النشء كيف تكون التضحية من أجل الوطن.

لكن أحد الحاضرين قال لسيادة الرئيس: «أقترح أن تسمى عزبة جون كلها باسمه».

فضحك الرئيس قائلا والبايب ما زال في فمه:

- لا، إخوتنا اليهود سيغضبون، فجون هذا مقدس عندهم.

أعطى الرجل العملاق لجوهرة صكا بمبالغ كبيرة من المال، حدد المبلغ الذي ستأخذه منه، والباقي عليها أن توزعه على أهالي المنطقة كما تشاء. كان المبلغ كبيرا جدا، لدرجة أن جوهرة حارت في كيفية إنفاقه وتوزيعه.

وأمر سيادة الرئيس بأن تقام وحدة صحية في عزبة جون، ومجمع استهلاكي، ومسجد كبير، وأن توزع عليهم الملابس والأطعمة: لبن مجفف وزبد وجبن مستورد.

وعندما صافح الرئيس جوهرة استعدادا لمغادرة المكان، ليعطي فرصة للسيارات لأن تسير في الطابية، وللجنود بأن ترتاح من وقفتها طوال الوقت؛ قال

لجوهرة: «ما زلت عند وعدي، اختاري من تريدين زواجه، وسأزوجك إياه».

* * *

لم يصدق كمال ما تردد عن زيارة الرئيس السادات للمنطقة؛ ووعده بأن يزوج جوهرة بمن تريده، قال لعايدة وهو يرتدي ملابسه استعدادا للذهاب إلى الشركة: «إنها مبالغات، وأشياء لم تعد تحدث في العصر الحديث».

قالت عايدة وهي تضحك: «السادات يمكن أن يفعل أي شيء».

دار كمال في الشقة الصغيرة يبحث عن الكتب التي استعارها من الدكتور عباس ليشغل بها نفسه بدلا من التفكير في هذه الأشياء التي لا تصدق. منير اليهودي صانع البمب والصواريخ، والذي كان سببا في احتراق المنطقة، وقتل الكثيرين لبخله وجشعه؛ يصبح بقدرة قادر شهيدا، ويطلق اسمه على مدرسة ابتدائية، وشارع من شوارع شرق الإسكندرية، إنها أشياء غريبة. لكنها من الممكن أن تحدث على رأي عايدة زوجته.

في الصباح تناول كمال فطوره مع عايدة وهما يتحدثان عما حدث في المنطقة، ونزلا إلى الشارع.. كانت آثار زيارة الرئيس واضحة في كل مكان، وفي عيون أهالي كل عزب منطقة الطابية.

استطاع الدكتور عباس أن يعين عايدة في قسم المشتريات الخارجية، تشرف على استيراد لُب الورق وما يحتاجه المصنع من الخارج، وساعدتها إجادتها للغتين الإنجليزية والفرنسية، في أن تتم هذا في أكمل وجه.

رأى كمال العمال يحفرون في مقدمة عزبة جون؛ استعدادا لإقامة الوحدة الصحية، ورجالًا آخرين يبنون مجمعًا استهلاكيًا، ورجال عزبة جون يتحدثون عن الخير الذي ستأتي به زيارة الرئيس للمنطقة، وعن الأموال الطائلة التي ستوزعها جوهرة عليهم.

ذكره هذا بيوم أن جاء نيسكون – رئيس أمريكا – لزيارة مصر، كان كمال يجلس مع صديق له في مقهى النيل بالمنشية، والناس سعيدة بالزيارة، رجل مسن قال: «سننعم بالخير الوفير، ما دمنا لجأنا إلى أمريكا».

وقال زميله الذي يجالسه: «يغور الروس بفقرهم»، وأجابه آخر من مائدة بعيدة: «السفن الأمريكية تلقي المأكولات للسمك في الماء، بينما تصطاد السفن الروسية السمك الذي أكل طعام الأمريكان».

صديق كمال سعيد بما يحدث، فهو خاطب منذ سنوات وغير قادر على إتمام زواجه ويمني نفسه بالأحلام، قال كمال: «الأمر ليس هكذا، الأمريكان لا يدخلون بلدا إلا أثاروا فيه المشاكل، وسترى».

في اليوم التالي زعم كمال – في الشركة – أن المجمعات الاستهلاكية توزع هدايا أمريكا من لبن

مجفف وزبد وجبن بدون نقود، والطوابير هناك طويلة جدا. يومها أسرع العاملون، وذهبوا إلى المجمعات، فلم يجدوا شيئا.

دخل كمال وعايدة باب شركة الورق، فإذا بالخفراء يأتون إليهما ويسألونهما عما حدث في عزبة جون، وعن وعود الرئيس لهم. قال كمال في ضيق: «لا أعرف شيئا».

ذهبت عايدة إلى مبنى إدارة المشتريات، وشرد كمال طوال طريقه إلى إدارة المعمل، أحس بأنه من الممكن أن يحدث ما يدعيه الناس، وقد يفاجأ بأمر من الرئيس بأن يطلق ابنة الباشا ويتزوج التي تحبه وتريد الزواج منه. جلس فوق مقعده في المعمل؛ فجاءه الساعي، وهو يسكن في عزبة المكن الملاصقة لعزبة جون، كان حزينا:

- ما لك يا سيد؟

- ألم تسمع بما فعله الرئيس لسكان عزبة جون؟

- وهل هذا يغضبك؟

- طبعا، سوف يغتنون، سيزوج بناتهم، ويعين شبابهم، ويرسل رجالهم إلى الحج والعمرة، كل هذا على حساب الدولة.

ضحك محمد أبو الدرداء بصوته المرتفع: «لم تذكر ماذا سيفعل بنسائهم وأطفالهم؟»

أحس سيد بالضيق من سخرية محمد أبو الدرداء، فالأمر جد، ولا يستلزم سخرية. قال كمال: «سوف

ينالكم في عزبة المكن، ما نال سكان عزبة جون».

فقال سيد في أسى: «لا يا باشمهندس، فهو لا يحب سكان عزبة المكن، يقولون إنهم أساءوا معاملته عندما جاء إلى المنطقة في الحرب العالمية الثانية. ضربوه بالطوب، ورفضوا أن يطعموه، فهو لهذا سينتقم منهم».

ضحك أبو الدرداء طويلا من هذا الخيال الخصب. فقال سيد: «أما زلت تسخر يا أستاذ محمد، إننا – أهالي عزبة المكن – نفكر في أن نغادر العزبة، ونسكن عزبة جون».

جاء الدكتور عباس بعد ذلك، فسيارته تأتي متأخرة عادة، قال لكمال: «هل بلغتك الأخبار الغريبة التي حدثت في المنطقة؟»

قال أبو الدرداء: «سيد، ساعي المكتب حزين لأنه لا يسكن عزبة جون».

حكى له كمال ما قاله سيد، فضحك عباس قائلا: «سائق السيارة التي أركبها يؤكد لي أن السادات قالب على سكان عزبة المكن؛ لأنه ذهب أيام كان يعيش هنا؛ ليصلي في مسجدهم؛ فسرقوا حذاءه».

ضحك الدكتور عباس قائلا: «الغريب أن الرجل يصدق ما يقولونه».

قال كمال في أسى: «المشكلة يا دكتور، أن ابنة منير الذي قُتل في الانفجار؛ تسكن في شقتنا، وتريد أن تتزوجني».

قال أبو الدرداء ضاحكا: «ما زالت تحبه يا دكتور!»

ضحك الدكتور عباس طويلا، وقال كمال في أسى: «يقولون إن الرئيس سيزوج من تريد الزواج».

قال الدكتور عباس: «أبشر، ستتزوج بأمر الدولة».

- أنت تضحك يا دكتور، لكنني حزين لكل ما يحدث.

كان عمل كمال وأبو الدرداء، أخذ عينات من أوراق الدشت التي تشتريها الشركة لكي تفحص، فيحددا درجة الرطوبة فيها، فبعض التجار يرشون بالاتهم بالماء ليزيدوا من وزنها، وكانا كذلك يحددان درجة المواد الغريبة التي فيها، فبعضهم – أيضا – يضع في البالات طوبا وزبالة وحيوانات ميتة، ليزيد وزنها.

كان العمل في ذلك اليوم كثيرا جدا، فانشغلا عما يحدث في عزبة جون، وفوجئ كمال بسيد – ساعي المعمل – يأتي متحدثا في لهفة: «يا باشمهندس، الآنسة جوهرة، الآنسة جوهرة».

نظر كمال إلى أبي الدرداء في دهشة: «أوصلت بها الجرأة لكي تأتيني في العمل؟!»

ضحك أبو الدرداء قائلا: «حتما جاءت لتحقق رغبتها التي وعدها بها السيد الرئيس، إنها لا تضيع وقتها، لم تنتظر ليوم واحد».

خرج كمال من حجرته وجدها أمامه، تقف في إصرار:
«أهلا جوهرة، إنك تزورينني في الشركة لأول مرة».

- الأمر مهم وعاجل.

جلس فوق مكتب الدكتور عباس – الذي ذهب لمقابلة رئيس الشركة – وجلست جوهرة أمامه:

- بلغك ما حدث من الرئيس السادات؟

- لا أعرف كل التفاصيل.

- لقد ترك لي مبلغا في البنك لا تستطيع تصديقه.

- كم؟

- كثير جدا.

- وماذا ستفعلين؟

- فرصة لكي أحقق لك السعادة.

- ماذا تقصدين؟

- تعيش معي، وسأجعلك ملكا.

- وزوجتي التي أحبها، والتي ضحت بكل شيء من أجلي.

- لن تعطيك ما أستطيع أن أعطيه لك الآن.

- لن أترك زوجتي مهما حدث.

لم تغضب جوهرة فهي الآن أقوى؛ يكفي أن رئيس الدولة معها، ووعدها بتحقيق كافة رغباتها.

وقفت، ومدت يدها له مودعة.

- إنني أنتظرك يا كمال، وسوف تأتي إليّ صاغرا.

لكن كمال لم يمد يده لها وقال: «لو امتلكت كل أموال العالم، لن أترك عايدة من أجلك».

ثارت، وصاحت بصوت مرتفع: «ستندم، صدقني ستندم».

كان صوتها عاليًا حتى جاء كل العاملين في المعمل ليشاهدوها وهي تدفع الباب في عنف. قال سيد الساعي: «كيف تغضبها يا باشمهندس، إنها المقصودة من زيارة الرئيس للمنطقة».

* * *

الكل يحييها وهي سائرة في الطريق، هي الوحيدة القادرة على منحهم النقود التي أهداها الرئيس لها، كما أنها مسنودة الآن، وكلمة منها ترفع لفوق، تخسف لسابع أرض. أحد الرجال الكبار والأغنياء في المنطقة لم يخجل من أن يُقبّل يدها في احترام أمام الجميع، وفعل الباقون مثله. كانت حزينة لأن كمال لم يخضع لإرادتها.

ما زالت تذكر يوم أن جاء ليخبرها - آسفا - بأنه اتفق مع عايدة على الزواج. قال كلماته في خجل؛ فهو يعرف مدى حبها له. يومها قاومت، ومنعت الدموع التي تتدافع في مقلتيها، حبستها في قسوة، وابتسمت رغما عنها، قالت يومها: «أنت أخي، وأتمنى لك السعادة».

وشدته إلى صدرها الممتلئ، وقبّلته، قال: «يمكنك أن تعيشي في الشقة كما تشائين، فهي شقتك».

لكنها بعد أن اختلت بنفسها بكت، وشقت جلبابها، مزقته.

ستطفئ النور الآن، لكيلا يأتي أحد لزيارتها، فمنذ أن زارها الرئيس والزوار لا ينتهون من بيتها. الكل يسعى لخدمتها، الرجال والنساء والأطفال.

كانت شاردة، عيناها زائغتان، تحركت في الشقة كالمجنونة، بكت، وصرخت، ونبشت أظافرها في وجهها. هل جنت، وماذا تنتظر بعد أن أضاع كمال كل شيء؟ أخرجت نسخة التوراة التي أهداها لها زكي مورجان، أخذت تقرأ وتقرأ، حتى أمسى عليها الليل، لم تدرِ بنفسها إلا وهي مستيقظة من نومها، لقد نامت فوق السجادة القريبة من النافذة المفتوحة، إحساسها بالبرد أيقظها، قامت مسرعة، دخلت الحمام، سعلت حتى أفرغت كل ما في جوفها، وارتدت ملابسها وخرجت. لا بد أن تترك له شقته، هو ليس بأخيها، ولا يتصل بها بصلة قرابة، لقد أعدت نفسها للزواج منه.

عندما جاءها زكي مورجان في المستشفى قبل أن يسافر إلى إسرائيل قال: «كمال لن يتزوجك، صدقيني، هو يحب ابنة حسن بدوي الباشا السابق».

ربتت ذراعه في شفقة: «ليس مهما».

كانت صغيرة عندما جاء زكي ليخطبها ويرحل بها عن مصر. وكانت – ببلاهتها – تنتظر أن يفك الله عقدة

لسان كمال، ويقول لها: « أحبك»، ثم يحدث أمه وأباه ويخطبها.

تنتظره عندما يعود من شركة الورق التي يعمل بها، تصنع الطعام له سعيدة، تصر أن تصنعه بنفسها، وتغسل ملابسه بنفسها، تجد لذة وهي تفعل هذا. تتابعها أمه مبتسمة، تمصمص شفتيها ولا تعلق. تقطع له حبات الخيار، تشتريه وهي عائدة من المستشفى الأميري، تقشره، وتضع فوقه الشطة والكمون والليمون، تعرف أنه يحبه هكذا. يُسرع بالاغتسال وارتداء ملابسه التي كوتها له بنفسها؛ لكي يقابل عايدة، ويسافر إليها عندما تذهب لتعيش في القاهرة مع أمها الإنجليزية بعد أن مات الباشا (انضم مصنع الصلصة لشركة قها التي تصنع المربى والخضراوات، ومصنع الورق ظل كما هو مصنعا كبيرا مستقلا، وتلاشى مصنع صناعة اللحوم والألبان، تآكل وانتهى).

سافر زكي إلى إسرائيل وأرسل الخطابات إليها، ناشدها بكل مقدسات اليهود بأن تأتي إليه، عمل في إذاعة إسرائيل – القسم العربي- وقدم اسكتشاته التي أضحكت المصريين في إذاعة القاهرة، ويفكر في عمل فرقة كوميدية من اليهود الذين يجيدون العربية. شكل زكي وصوته يساعدانه على إضحاك الناس. لكنها كانت تبني آمالا كبارا على كمال.

مرت جوهرة من أمام مقهى رجب عسكر، أرادت أن تذهب لشراء العشاء من محلات قريبة من شركة راكتا

للورق، تريد أن تمشي في الشوارع. مئات الرجال يتمنون خدمتها الآن، ويستجيبون لطلباتها، لكنها تريد أن تمشي في شوارع المنطقة، تبتعد عن شقة كمال التي تخنقها. لمحت قاعود - الخفير بشركة الورق - يتابعها باهتمام بالغ، لاحظت ذلك منذ مدة طويلة. كلما رآها تمر أمامه في الطريق، أو من أمام جلسته في مقهى رجب عسكر يظل يتابع جسدها المائل للامتلاء برغبة واضحة. هذا من قبل أن يزور الرئيس المنطقة وتصبح غنية بهذا الشكل.

سارت في طريقها كأن شيئا لم يكن، ثم وقفت من بعيد، واتجهت ناحية مكانه؛ وأشارت إليه بأن يأتيها. اندهش الرجل، ونظر حوله، فربما تشير لرجل غيره يجلس في المقهى، لكنه لم يجد أحدا يجلس في ناحيته. سألها بالإشارة: «أنا؟»

أومأت برأسها، فترك كوب الشاي من يده، وأسرع إليها. كان المكان مظلما، ومن النادر أن يمر أحد في هذه الناحية: «أمرك يا ست جوهرة».

- أريدك أن تبحث لي عن مقاول مباني.

منطقة الطابية مليئة بالمقاولين، ليس من أجل بناء بيوت المنطقة؛ وإنما للعمل مع الشركات الموجودة فيها.

قاعود لم يستطع أن يكون مقاولا، فاكتفى بالعمل خفيرا في مصنع الورق. واحتمى في أسرته القوية التي تجعله مهابا داخل المصنع، فالمسئولون يعلمون ما

لعائلته من مكانة، فلا يسيئون إليه، وهو اعتمد على هذا، وصبغ أداءه في العمل بصبغة من العنف والقوة، فعندما يقف أمام الباب الحديدي الكبير لتفتيش العمال الخارجين؛ يحس العمال بالخوف، فهو لا يتورع من أن يضربهم لأقل شيء، وإذا ما وجد عاملا ممسكا بقطعة ورق، لكي يلف فيها الجرجير، أو الملوخية التي سيشتريها من البائعات - خارج المصنع - يشده في عنف، ويصفعه على قفاه، ويركله بقدمه في بطنه لاعنا أهله. حتى كرهه العمال، وقدموا فيه الشكاوى المجهولة المصدر، لكيلا يقف أمام الباب وقت خروجهم.

كان قاعود سعيدا وهو يقف أمام جوهرة، ليس من أجل مالها الكثير الذي وهبه الرئيس لها، وإنما لأنه معجب بها كأنثى: «ماذا تريدين من مقاول المباني؟»

- أن يهدم بيت أبي منير، ويعيد بناءه.

دهش قاعود، إنه كلام مجانين لا شك، زيارة الرئيس وحديثه لها وجها لوجه؛ جننتها وجعلتها تخرف هكذا، فمن يجرؤ على اقتحام بيوت اليهود المتهدمة من أثر الحريق؟!

يعلم قاعود أنها كانت تريد الولد كمال، الذي تربت في بيتهم، لكنه خذلها وتزوج ابنة الباشا. ذلك جننها أكثر، لقد لاحظ قاعود هذا عليها منذ وقت طويل. رآها تسير بجوار المصرف تحدث ماءه الآسن، وتستنجد به لكي يعيد كمال إليها.

ابتسم قاعود وقال: «أنا تحت أمرك يا ست جوهرة في أي شيء إلا هذه المسألة».

- لماذا؟

- الكل يعلم أن مباني اليهود مسكونة.

- لو كان على الفئران والثعابين فالهدم سيجعلها تهرب.

- لا، أقصد العفاريت يا ست جوهرة.

- أعرف أن أقاربك مقاولون.

- أقاربي يتعاملون مع الشركات والمصانع هنا.

أريد أحدهم ليهدم البيت ويعيد بناءه. تستطيع أن تقنع أحدهم، أم أبحث عن غيرك ليحقق لي ما أريد؟

جوهرة حلم حياته، إنه يشرد طويلا بعد أن تمر أمامه وهو جالس في المقهى، الولد كمال هذا غبي، جرى خلف ابنة الباشا التي لم تعد تمتلك شيئا، أعجبه بياضها ونحافتها، أو ربما شده إليها تاريخ أبوها الباشا، وأقاربها الذين يمكن أن يحققوا له ما يتمنى، وترك جوهرة بجسدها الأسمر المائل للامتلاء، وصوتها الذي يزلزل قاعود، يجعله يتوه، وينسى زوجته وأولاده الثلاثة.

- سأتحدث مع ابن عمي، فهو له في مقاولات المباني، ولو أني...

لم يكمل، فصاحت فيه مستغلة حالة الهيام التي رأتها منذ أن جاء لمقابلتها: «ولو ماذا؟»

- الناس هنا يا ست جوهرة تخاف المرور من أمام بيوت اليهود، فكيف سيعملون فيها؟!

- أرجوك؛ لا تضيع وقتي. ماذا قلت؟

صاح بسرعة خشية أن تغضب ولا تحدثه مرة أخرى:

- لا أستطيع احتمال غضبك عليّ، في الغد سأحضره إليكِ.

***

لم تعد جوهرة إلى البيت، سارت في جنح الظلام، على غير عادة أهل الطابية، الذين لا يسمحون لامرأة بالسير في الطريق ليلا، إلا إذا كان معها رفيق، وقفت أمام ضريح جون، الذي يكاد يقع، حديده تآكل وأكله الصدأ، ومبانيه تلاشت، والشجرة الكبيرة التي كانت نساء اليهود يتباركن بها، كادت تضمر وتموت.

دخلت بلا خوف، أمسكت الخشب المتساقط من السقف، شدته في عنف، فوقع التراب فوق رأسها ووجهها، كان كثيرا لدرجة أنه ملأ الوجه والرأس، لم ترفع شيئا عنهما، وسارت.

وقفت أمام مقابر اليهود، صلت كما كان يفعل الحاخام الأكبر أمامها. البيوت تزاحمت، غطت على المقابر، آخر هذه البيوت تلامس القبور، لدرجة أن ساكنيها، لو مدوا أيديهم من النوافذ سيلمسونها.

نظرت ناحية بيت شيخ الخفراء الذي يسكنه كمال وزوجته، البيت مظلم من بعيد، إنه يبعد قليلا عن

المقابر، فشيخ الخفراء من أوائل الذين بنوا بيوتا هناك.

عادت جوهرة، سارت في نفس الطريق، رآها الرجال تسير واضعة يديها حول صدرها، وتسير في جدية شديدة، لا ترى الطريق أمامها، والتراب يملأ وجهها ورأسها.

لم تذهب إلى العمل في هذا اليوم، ولن تذهب إليه بعد ذلك، فالرئيس السادات سيرسل إليها مبلغا كبيرا، يمكنها أن تعيش به ملكة متوجة، نعم، لا بد أن تسعى لتكون ملكة متوجة على منطقة الطابية كلها، لقد قالها الرئيس بلسانه، «مَن لم يغتنِ في عهدي لن يغتني أبدا». والفرصة جاءتك يا جوهرة ولا بد أن تستغليها. سارت حتى شركة الورق، سألت الخفير الذي يقف أمام الباب:

- أريد قاعود الخفير في الشركة.

- ماذا تريدين منه؟

يعرفها الخفير، الذي سألته، هو من عزبة زقيلح البعيدة، هي أبعد عزبة في الطابية، الرجل يتحسر، فلن يصيبه من أموال جوهرة - التي ستأتيها - شيئا، هي تسأل عن قاعود لكي تعطيه من المال الذي ستوزعه كما تشاء، قالت في حدة: «اذهب وأبلغه بأنني أريده في أمر عاجل».

- أمرك يا ست جوهرة، لكن لا تنسيني أنا أيضا في الأموال التي ستأتي إليك، أنا صاحب عيال...

لم تجبه، فأسرع ليستدعي قاعود، وظلت في مكانها، زيارة السادات لبيتها أعطتها قوة وجرأة. الرجال الجالسون على المقهى ينظرون إليها في اهتمام، يتساءلون عما جاء بها إلى الشركة.

قال الخفير بصوت مرتفع لقاعود ومن بعيد: «أبشر، جوهرة اليهودية تريدك لكي تسلمك نصيبك من أموال السادات».

أشاح قاعود بيده غاضبا، وسار مع الخفير ناحيتها، لكنها سارت دون قول، فتبعها قاعود أيضا دون قول، وظل الخفير الآخر يتابعهما في أسى.

- أمرك يا هانم.

واصلت المسير، اجتازت قضبان السكة الحديد، واخترقت الأزقة الملتوية، والناس ينظرون إليها في دهشة، إنها تسير واضعة يديها فوق صدرها، وقاعود يتبعها صامتا.

يردد الناس: « جوهرة، التي زارها السادات، ومنحها هبته العظيمة؛ تسير في كل مكان في الطابية، لتبحث عن المستحقين للمنحة التي أرسلها الرئيس».

اقترب قاعود منها:

- أخبرت ابن عمك المقاول بما أريده؟

- لم أقابله للآن.

- لا تخبره قبل أن تجد لي أصحاب البيوت في المنطقة التي حدث فيها الحريق، تعرفهم؟

- أعرفهم، اشتروا بيوتا لا فائدة منها.

- أبلغهم برغبتي في شرائها.

***

تقف جوهرة أمام بيوت اليهود التي احترقت، ترتدي بنطلون «جينز» يظهر كبر حجم عجيزتها، وترتدي « كاب» ليقيها حرارة الشمس، وقميص نصف كم ملون ألوانا عديدة، والعمال يهدمون بيت منير، يخرجون كنبة نظيرة التي ظلت في مكانها، محطمة ومحاطة بالتراب لسنوات عديدة، وسرير وصال بعمدانه السوداء. تتذكر جوهرة أمها، وهي تمسك العمود، وتقفز إلى السرير في عنف، فلا يهتز ولا يتحرك، كانت عمدانه قوية تحتمل. الآن هي مفتتة، والصدأ مصها وأنهكها.

تجري الفئران من تحت أرجل العمال، فيصرعون بعضها بأقدامهم، ومعظمها يجري، فلا يجد غير البيوت الكثيرة التي لم يجرؤ أصحابها على الاقتراب منها؛ يختبئون فيها، ويصيح العمال لقاعود الذي يقف بجوار جوهرة: «الثعابين كثيرة جدا، إننا في حاجة إلى رفاعي».

وبالفعل يذهب قاعود ويأتي برفاعي يعرف كيف يسيطر على الثعابين ويصطادها، والتف أهالي المنطقة ليشاهدوا عملية اصطياد الثعابين. أحست جوهرة بالسعادة، فقد استطاعت أن تؤثر على الناس في الطابية كلها، جعلتهم يقفون أمام بيوت اليهود المحترقة بلا خوف:

- أين العفاريت التي تتحدثون عنها يا بلهاء؟! ها أنا أقف أمامها في عز الليل ولا يحدث لي مكروه.

هناك بيوت كثيرة تركها أصحابها من اليهود وهاجروا، منهم مَن ذهب إلى إسرائيل، ومنهم مَن اختفى ولا تعرف جوهرة أين ذهب، وأين أولادهم، أو أحفادهم، ستستولي عليها كلها، فهذا حقها، ستبنيها، وتؤجرها لمَن تشاء، لا، لن تؤجرها، ستقيم عليها مشاريع كبيرة، وعندما يفيق أصحابها من سباتهم، ستعرف كيف تتصرف معهم. لا بد أن تستغل فترة السادات، فهو يحنو عليها، لقد اختارتها الأقدار ليكون بيتها هو الوحيد الذي لجأ إليه ذلك الرجل الطيب، ويعجب بها، فيداعبها

ويعلمها بعض الألعاب الظريفة، ويهديها ساعته الفضية، ولأن السماء راضية عنها وعن أهلها الذين ماتوا في الحريق، أصبح هذا الرجل الطيب رئيسا للدولة، مع أن كل المؤشرات كانت لا تؤدي إلى ذلك. رجل مستكين، لا يهش ولا ينش، يتحمل الإيذاء، ويصبر، لكنه يفوز آخر الأمر، ويحقق ما لم يكن متوقعا. هذه طبيعة مصر، يسهل حكمها، لأن الرجال الذين يحيطون بالحاكم يسهلون له كل شيء، ويعاملونه كأنه إله، ويرفعونه إلى أعلى؛ ولو كان أقل من ذلك بكثير، وينسبون إليه أعمالا لم يفعلها، أو يقدر على فعلها، كما أنها اشترت البيوت التي اشتراها أهل المنطقة من اليهود قبل مغادرتها، هم استغلوا ظروف اليهود الصعبة وقتذاك، حيث الحريق والانفجارات من ناحية، ومطاردة روميل الذي يقترب من الإسكندرية من ناحية أخرى، فقبل اليهود بأقل ثمن، وها هي جوهرة تعطي لهؤلاء أقل ثمن أيضا.

أعطت جوهرة نقودًا كثيرة إلى قاعود، وجعلته يبصم على الورق الذي سترسله إلى المسئولين، قالت: «إنها أمانة، وسوف يسألونني عن النقود التي أخذتها منهم».

كما استطاعت أن « تُبصِّم» الكثيرين ممن اشترت أرضهم، على إيصالات عن هبة الرئيس إلى المنطقة، لكن الذين أحست بأنهم يعرفون القراءة، وسيكتشفون لعبتها، أعطتهم ثمن الأرض، وجعلتهم يوقعون أمامها.

ترك قاعود العمل بالشركة، وتفرغ للعمل معها.

هو جسده يشبه جسد الثور، طويل وعريض وقوي، الرجل لم يتعود على الشقاء، ينام في المصنع معظم الوقت، ولا يستطيع أحد أن يسأله شيئا. وفي الأوقات التي يستيقظ فيها، يمازح زملاءه الخفراء، يصارعهم، فيغلبهم بقوته. قاعود هذا يصلح للمهمة التي تريدها جوهرة. لقد ذهب كمال ولن يعود ثانية إليها، وهي بمالها ستنال منه وتذله.

سارت أمام قاعود في الأرض الواسعة التي أزيلت البيوت عنها، لا توجد سوى آبار محفورة، وطوب وأسمنت وحديد تسليح، والعمال كلهم ذهبوا بعد أن أمسى الليل. قاعود متزوج من صبحية التي تعشقه بجنون، هكذا يحكون عنها في الطابية، تغار عليه من النساء العاملات في الشركة، وقفت مرة في انتظار عاملة منهن أمام باب المصنع، وضربتها وشدتها من شعرها؛ لأن قاعود قال لها؛ ليثيرها: «فلانة عينها مني».

مرت جوهرة، وهزت ردفيها من تحت الجينز الضيق، فاهتز قلب قاعود، ومد يده ناحية الردفين، لكن جوهرة صفعته في عنف: «ماذا تفعل يا حمار؟»

الرجل أكد لنفسه، التي تريدها وتتمناها، ما دامت فعلت هذا أمامه؛ فلا بد أنها تريده وتحاول إثارته.

وضع يده مكان الصفعة القوية التي أشعلت خده وكادت توقع أسنانه. عندما يذهب إلى صبحية ستعرف أنه ضُرب على خده.

- لماذا فعلتِ هذا يا ست هانم؟

- لأنك حمار وغبي.

سار خطوات أمامها، وحمد الله لأنهما وحدهما في الأرض الواسعة الخالية، ماذا كان سيفعل لو فعلت هذا به أمام الناس؟

- أريدك أن تأتي إلى البيت لأعطيك نقودا لتسلمها إلى المقاول.

قال وهو ما زال يضع يده فوق مكان الصفعة: «أمرك يا ست هانم».

سارت أمامه، وتعمدت أن تهز ردفيها أكثر، لقد كانت سعيدة لأن هذا الحمار تجرأ ومد يده نحوها، لقد حان وقت العمل، سيعرف كمال، وعايدة وباقي سكان الطابية، مَن هي جوهرة.

***

سار قاعود في حواري الطابية، وهو يضع يده فوق خده الذي ما زال يؤلمه، تابعه المارة، مازحوه، فقاعود يشاكل طوب الأرض، لكنه هذه المرة يسير حزينا. يحدثه البعض وهو تائه عنهم حتى دخل بيته.

كانت صبحية تجلس على الأرض غاضبة. قالت ساخرة عندما رأته: «قابلت ست الحسن والجمال؟»

هجم عليها، وشدها من شعرها، وكال لها الضربات، وأولاده الثلاثة ينظرون في خوف، صرخت صبحية:

«جننت يا قاعود، ماذا فعلت لك لكل هذا؟!»

فجلس منهارا، تمنى لو بكى ليرتاح، لكن قاعود لا يبكي أبدا. سيظل صامدا أمام هذه المجنونة المسماة جوهرة إلى أن يرى آخرتها معها.

كانت زوجته قد تشاجرت معه عندما علمت بأنه سيترك الشركة، ليتفرغ للعمل لدى جوهرة اليهودية، قالت: «العمل في الشركة مضمون، إخوتك مقاولون كبار، ومتمسكون بالعمل في شركات القطاع العام. هل أنت تفعل شيئا في الشركة يا رجل؟!»

قال لها: «الهانم غير موافقة».

أثارتها هذه الكلمة، فصنعت بيدها حركة بذيئة، وقالت كلمات بذيئة أخرى: «ما شأن الهانم بنا؟ أنت رجل طويل وعريض، كيف تقبل أن تكون خادما لامرأة؟!»

وقتها لم يضربها، نظر إليها في ضيق، ودخل حجرته لينام.

لكن اليوم غير الأمس، فجوهرة أهانته عندما صفعته، وسخرت من رغبته فيها. ولا بد أن يتخذ موقفا سريعا:

- سأترك العمل مع الهانم يا صبحية.

زغردت المرأة رغم ضربه لها منذ قليل، وقالت: «الحق نفسك في الشركة، فللآن لم يفصلوك».

دخل ينام ليرتاح، شرد في جوهرة وجسدها الذي يترجرج.

صبحية زوجته ليست دميمة، لكنها لا تمتلك مثل جسد جوهرة، ولا صوتها الرنان الذي يحب سماعه، والذي يخيل إليه أحيانا أنها تقصد إثارته به، فتزيد في تلوينه، وتنغيمه.

كان مغمضا عينيه، يفكر فيما سيحدث معها، سيذهب إليها، ويرمي لها الباقي من النقود التي أعطتها له، ويقول : «أنا لست بخادم أهلك».

دخلت صبحية، حاملة كوب الشاي له، فرأته مغمضاً عينيه، فقالت لنفسها: «لقد نام».

لكنه، بعد لحظات قصار، هب فزعا وارتدى جلبابه الذي لا يرتديه إلا في المناسبات وأسرع إلى الطريق ليلحق بموعد جوهرة، فرددت صبحية آسفة: «أقسم بالله، إن هذه اليهودية ساحراله».

وقف أمامها وهو ما زال يتحسس مكان الصفعة، إنه لا يحس بآلام فيها الآن، لكن المفاجأة هي التي تؤلمه وتعذبه، لقد ضحى من أجل إرضائها فلماذا تفعل به هذا؟! يحس أحيانا أنها تحبه وتريده، فإذا اقترب منها وتجرأ، عاملته في غلظة. هذه الفتاة مجنونة، ما في هذا شك. مرة هادئة، ومرة مشتعلة كالجحيم.

كانت ترتدي قميصا يكشف عن ذراعيها الممتلئتين، إنه لن يتأثر بما تفعله معه، فهي مجنونة، وقد تضربه

بالكرسي على رأسه.

تحدث معها وهو غاضب وحزين: «أمرك يا ست هانم».

ضحكت في ود:

- مالك يا قاعود، لماذا تقف بعيدا هكذا؟

- أعطني النقود لكي أمشي.

- اجلس، أريد التحدث معك.

جلس غير مطمئن، فالتعامل مع المجانين صعب، كل وقت في حال.

- ماذا فعلت صبحية معك؟

- لم تفعل شيئا.

- ما زالت تلح عليك لكي تعود للعمل بالشركة؟

الذي بينه وبينها هو العمل، فلماذا تجول في أشياء أخرى. قامت، طوقت رأسه بذراعيها الممتلئتين:

- سنتناول الطعام معا.

فوجئ بما تفعل، لكنه أفاق، لو جاراها فيما تفعل ستعود إلى ما كانت وتضربه هذه المرة أيضا.

تركته، ودخلت المطبخ لكي تأتي بالأطباق، وهو مندهش مما يحدث.

وضعت الأطباق فوق المائدة، تعمدت أن ترفع ساقيها، لترفع قميصها القصير عنهما، أي عذاب هذا الذي يعيشه

قاعود، إنه غير قادر على الاحتمال، فجسدها المكتنز باللحم يضنيه، يثير أشجانه.

- سأقيم مستشفى كبيرًا، سيعمل به أطباء كانوا يعملون معي في المستشفى الأميري، سأكون مديرة عليهم، وولية نعمتهم.

ثم اقتربت منه، وداعبت شفتيه في دلال:

- وستعمل معي، ستكون الكل في الكل في المستشفى.

- حقا؟

وقتها لم يستطع المقاومة، فأمسك كتفها العارية، وانتظر رد الفعل منها، فقد تصفعه ثانية، لكنها لم تفعل.

عادت إلى مائدة الطعام، فأسرع خلفها، وضم جسدها إليه من الخلف، قالت: «انتظر حتى نتناول الطعام».

قال فرحا: «لا أريد سواك».

دخلت به حجرة النوم التي كانت تنام فيها فردوس – أم كمال – ومحسن والده.قالت وهو يقبلها في ظهرها العاري: «ما معنى قاعود».

- إنه الجمل.

ضحكت: «غريب أمر والدك هذا، يسميك قاعود، وأخوك الأصغر الجمل، والاكبر بكر، وكلها من أسماء الجمل».

ضحك بصوت مرتفع، كان سعيدا، قال: «والدي في الأصل، تاجر جمال».

***

ارتفعت قوائم بيت جوهرة، بيت كبير جدا. فالأرض كلها ملكها وهي حرة في التصرف فيها، أصحاب الأرض الذين باعوها، برخص التراب، حزانى الآن، يقولون: «لقد خدعتنا اليهودية، لو كنا نعلم أن المنطقة ستكون هكذا، ما بعناها لها بهذا المبلغ الضئيل».

البناءون يرصون الطوب، وقاعود – الذي تغير الآن – منذ أن رضت عنه جوهرة؛ يتعامل في جد، ويحمي أملاكها التي يظن أنها ستكون ملكا له في القريب، بعد أن تعطيه توكيلا لإدارة شئونها في المنطقة.

في المساء يعودان إلى البيت، يدخل الحمام ليزيل التراب والأوساخ العالقة بجسده، ويتناول طعامه معها، ثم يدخلان حجرة النوم ليرتاحا، كما يفعل أي زوجين متحابين.

وصبحية تولول في البيت: «الرجل ترك بيته وأولاده الثلاثة من أجل اليهودية».

لعنت محسن – والد كمال – الذي وافق أن تبقى هذه اليهودية في بيته، ليربيها مع ابنه، حتى استولت على المنطقة كلها.

قاعود يترك بيته دون نقود، ستذهب إلى أخيه بكر لكي يحدثه، وإلا ذهبت وشدت هذه اليهودية من شعرها. لكن النسوة حذرنها من خطورة ما تنوي فعله،

فجوهرة لم تعد كما كانت، هي الآن محمية من الرئيس نفسه، أقوى شخص في مصر كلها.

يحدثها قاعود عما يحكيه له زملاؤه الخفراء القدامى، يقولون إنهم يجوبون حول قصر الباشا حسن بدوي، ويطلقون الرصاص في الفضاء، ويثيرون الزوابع والضجيج، فيخرج إليهم المحامي الشاب الذي تزوج مرجريت أم عايدة، ويضيف: «زوجة صاحبك كمال الذي تربيت معه، وتزوج ابنتها».

توجعها كلماته عن كمال الذي تركها وفضل عايدة عليها، فترغب في أن ترميه بساقيها من فوقها، لكنها تنشغل أكثر بخبر زواج مرجريت من المحامي الذي أتت به ليطالب لها بحقوقها من الحكومة. ماذا ستفعل عايدة، وأمها تتزوج شاب في مثل عمر ابنتها؟!

قال الخفراء إنهم يذهبون مساء كل يوم لمضايقة العريس الجديد، وإثارته لكي يخرج إليهم ويأخذ في إطلاق الصراخ والسباب. فيعتذرون إليه، قائلين: «إنها أوامر، علينا أن نحرس هذه المنطقة؛ لأن اللصوص يأخذون البضائع ويهربونها من ناحية البحر».

فيعود ثانية لزوجته العجوز، ويغلق الباب الكبير ساخطا لاعنا كل شيء. لكنه ما أن يدخل ويغلق الباب حتى يعودوا إلى إطلاق الرصاص في الجو، ويثيروا الزوابع والضجيج.

ضحكت جوهرة طويلا، وتمنت لو ذهبت لزيارة كمال وعايدة في بيتهما الذي يمتلكه تاجر المواشي، وتسألها عما حدث لأمها التي تعيش في القصر وحدها مع عريس الغفلة؟

قامت جوهرة فجأة، شدت قاعود من شعر رأسه الطويل: «ما رأيك لو سعيت لشراء قصر الباشا؟»

صاح في دهشة: «هل يعقل أن يكون قصر الباشا ملكك؟»

صفعته على قفاه غاضبة: «ما زلت حمارا لا تفهم».

تعود قاعود هذا منها، وافق معها على ألا تفعل هذا أمام أحد، وهي وافقت على شرطه.

* * *

تم إقامة مستشفى جوهرة، مبنى كبير جدا، فيه كل التخصصات، وقسم داخلي لإجراء العمليات الجراحية، وقاعود يجلس أمام الباب، يرتدي بذلة جديدة اشترتها له، والموظفون يجلسون في المقدمة، يقفون لها احتراما عندما تدخل، والممرضات اللاتي كن يزاملنها في المستشفى الأميري يعملن معها، اختارت منهن اللاتي يسكن قريبا من الطابية، لكي يأتين للعمل بعد الانصراف من المستشفى الأميري، والأطباء الذين كانوا يسخرون من ادعائها بأنها تعرف الرئيس السادات شخصيا، اختارتهم بالاسم ليعملوا في مستشفاها، ليتأكدوا من صدق قولها.

تابعت قاعود من بعيد وهي تقترب من مبنى المستشفى، الرجل بينه وبين الثور شبه كبير، صبحية زوجته لها حق تجن عليه، هو عقله على قده، لكن فوق السرير جن مصون، الرجل يشبعها، تتأوه تحت جسده الثقيل، وتنام بعد ذلك مرتاحة، لقد أوصته كثيرا بأن يتركها تنام بعد كل عملية، فهي تسعد بالنوم في ذلك الوقت، فهي المرة الوحيدة التي تنسى فيها كمال وما فعله بها، أحيانا يحاول كمال أن يتسرب إلى ما تحسه من لذة وسعادة، يقترب من خيالها، يذكرها بما كان يحدث بينهما في حجرته أو حجرتها، أيام كان معها في شقة والده محسن. رغم إعجابها بما يفعله قاعود بها، لكن ذلك لا يساوي شيئا بجوار لذتها مع كمال.

قالت في كبرياء واضحة وهي تشير بإصبعها لقاعود: «اتبعني».

- أمرك يا هانم.

هكذا أمرته، ما دام خارج البيت، فلا بد أن يحدثها باحترام، ولا يحدثها إلا بكلمة «هانم» مثل سائر رجال الطابية.

وسار خلفها، لا بد أن يكون خلفها بخطوتين، ولا يساويها في المشي.

«اذهب إلى البيت وأحضر كل ملابسك».

لقد آن الأوان لكي يعيش معها ويترك صبحية نهائيا، فقد بلغها ما تقوله عنها في الأسواق والطرقات.

- لماذا يا هانم؟

- افعل ما أقوله لك.

- أمرك.

سارت في بهو المستشفى الكبير، الكل يقف عندما تدخل؛ حتى الأطباء الذين كانوا يتعالون عليها في المستشفى الأميري، نظرت خلفها ونادت قاعود ثانية، فجرى ليلحقها، قالت: «ليس هناك داعٍ للذهاب إلى البيت، سأشتري لك ملابس غيرها، المهم ألا ترى هذه المرأة ثانية».

- لكن أولادي؟

- افهم يا حمار، سنرسل إلى زوجتك الغبية مبلغا لم تكن تحلم به.

- ربنا يوسع عليكِ يا هانم.

* * *

ذهب العديد من العاملين بشركة الورق – والذين يسكنون عزبة جون – إلى إدارة المعمل، لمقابلة كمال محسن، قال أحدهم في ضعف شديد: «الست جوهرة أخذت نقودنا التي أرسلها الرئيس إلينا».

كمال يعرف ما تفعله جوهرة الآن، لقد تغيرت وافترت منذ أن زارها الرئيس في بيتها، تعامل أهالي المنطقة في كبرياء وتعالٍ.

قال الدكتور عباس: «ألم تدفع لكم شيئا من الأموال التي جاءتها من الرئاسة؟»

قال آخر: «لم نأخذ شيئا منها».

قال أبو الدرداء: «قد تكون أعطت غيركم».

- إننا في المنطقة ونعرف ما يحدث فيها، لم تعطِ إلا لقاعود، رجلها الآن.

قال عباس: «قدموا الشكاوى ضدها».

ابتسم كمال في سخرية، فالشكاوى لن تؤثر فيها، النقود أخذتها لنفسها، ولكي توزع منها على مَن تشاء، معنى هذا أن لا أحد سيسألها عن ذلك.

اقترب منه أحدهم قائلا في صوت خافت: «أنت لك معزة عندها، ولن ترفض لك طلبا».

وقال آخر: «لقد تربت في بيتكم، وتعتبر مثل أختك».

- لكن...

قال الدكتور عباس: «حاول يا كمال، فربما تستجيب لكلامك».

كانت جوهرة تجلس في حجرتها بالمستشفى، والتلفزيون أمامها، وقاعود يجلس فوق مقعد بعيد، يتابعها في دهشة، لقد فرحت بخطاب الرئيس عندما أعلن عن استعداده لزيارة إسرائيل، لم يرها قاعود فرحة هكذا.

لقد تباينت الأحاسيس في منطقة الطابية وقتذاك، البعض كان غاضبا وثائرا، والبعض ارتاح لقرار الرئيس على أساس أن هذا سيحد من نزيف الدم في الشباب الذي يموت كل عدة سنوات أمام اليهود في سيناء وغيرها من الأراضي المصرية، لكن جوهرة هللت فرحة، ونادت قاعود، قالت: «وزع الشربات على كل العاملين في المستشفى، وعلى كل الناس في الطابية».

تفرغ قاعود ليلتها للإشراف على توزيع الشربات، كان يصيح في صوت مرتفع: «هذا شربات الرئيس».

معظم الناس شربوا فرحين، لكن البعض رفض هذا، وردد: «عندها حق تفرح، فهي لم تنس أبدا يهوديتها».

واليوم تجلس جوهرة أمام التلفزيون لسماع الرئيس وهو يخطب في الكنيست الإسرائيلي، لقد أمرت قاعود بألا يشاركهما أحد - من العاملين في المستشفى - في ذلك، فالعاملون سيتابعونه في تلفزيونات المستشفى الكثيرة، بعيدا عنها، فهي لا تريد أن يفسد أحد سعادتها؛

لأنه من الممكن أن تحدث مشادة بينها وبين المعارضين لزيارة الرئيس.

بعد انتهاء الرئيس من إلقاء خطابه التقى ومعه عدد من أعضاء الوفد الذي كان يصاحبه في الزيارة؛ مع رئيس الوزراء الإسرائيلي وعدد من معاونيه، على مأدبة عشاء أقامها مناحيم بيجين في فندق الملك داود، على شرف ضيوفه المصريين. وعلى الرغم من عبارات المجاملة الدبلوماسية ومحاولات التظاهر بالمرح، فقد كان جو المأدبة التي ضمت ثلاثين، نصفهم من المصريين، ونصفهم من الإسرائيليين؛ يتسم بالفتور بسبب الخطاب الذي ارتجله بيجين ردا على خطاب السادات أمام الكنيست، كان الخطاب جافا ويخلو من أي لباقة، فلم يراعِ فيه تقاليد الضيافة أو يقدر فيه حجم المخاطرة التي قام بها الرئيس المصري، وكان معظم أعضاء الوفد المصري يتصورون أن الزيارة ستنتهي كالسحر، إلى تسوية الصراع مع إسرائيل، وأن رد بيجين عليها سيكون بإعلان انسحابه من الأراضي المحتلة، فإذا به يعلن بصفاقة أن أحدا لا يستطيع أن يأخذ شيئا مقابل لا شيء، وكأن الزيارة كانت لا شيء، ما جعل المأدبة تبدو أقرب ما تكون إلى مأتم عزاء منها إلى حفل عشاء.

قالت جوهرة لقاعود الذي يدخن سجائره في تلذذ، وكأنه يستحلبها، ويتابع وجه جوهرة المورد من فرط

السعادة: «تعرف أن زيارة الرئيس السادات لإسرائيل موجودة عندنا في التوراة».

أومأ برأسه دون أن يفهم، أكملت: «يخاطب الرب شعب إسرائيل في سفر أشعيا، فيقول لهم: يأتيكم فرعون مصر يعرض عليكم السلام فاقبلوه، فإن ذلك يحوّل السيوف إلى مناجل للحصاد، وحذار من أن تتحول المناجل إلى سيوف مرة أخرى، ففي ذلك نهايتكم».

أومأ قاعود وهو يستحلب السيجارة المشتعلة بين شفتيه، وعيناه تطلان على صدرها البارز العاري، صاحت في غضب: «أفهمت شيئا مما قلت؟»

أحس بالخوف منها، فقد ترميه بأقرب شيء إليها إذا قال إنه لم يفهم شيئا، فصاح ليتجنب هذا: «طبعا، مكتوب في قرآنكم...»

صاحت فيه مقاطعة: «ابتعد عني الآن».

كانت سعيدة ولا تريد أن يغير قاعود ما هي فيه بغبائه، سارت في بهو المستشفى بعد انتهاء نقل الاحتفال، ما فعله السادات أعطاها الفرصة لكي تفعل أشياء كثيرة، كانت تود فعلها، لكنها خافت من عواقب الأمور. ما فعله السادات أكبر مما كانت تود أن تفعل، لذا لن تخاف شيئا. السنوات تمر مسرعة، والأيام تغير حياتها، تنقلها من حال إلى حال، عندما تنفرد بنفسها، لا تصدق أنها فعلت كل هذا، لقد دفعها كمال إلى ذلك

عندما لم يستجب لرغباتها. حاولت أن تشتري قصر والد زوجته لتغيظه وتغيظها، لكن شركة الورق سبقتها واشترته من مرجريت التي هجرت مصر تماما، تركت ذكرياتها مع زوجها، وتركت المحامي الشاب الذي أخذ منها المتبقي معها؛ والذي تركته الحكومة لها.

وكمال كما هو في البيت الذي يمتلكه تاجر المواشي، وزوجته تسير معه كل صباح يذهبان إلى الشركة. تتسرب جوهرة أحيانا من الشقة، تخطو فوق جسد قاعود الكبير وهو نائم، فهو ينام كالعجل، يخرج شخيرا عاليا، طردته مرة إلى حجرة أخرى من حجرات البيت الجديد الكثيرة لكي ترتاح من شخيره، لكنها خافت من أن تنام وحدها في الحجرة، فأمسكت بيده وجرته من فوق سريره، فسعى معها كأنه منوم، ونام كما كان. تدوس فوق رقبته أحيانا بقصد النيل منه وإيذائه، فيتململ، ويزوم، لكنه يعود إلى النوم ثانية.

تخرج، تقف قريبا من البيت الذي يسكنه كمال، تراه يمسك يد زوجته التي تزداد جمالا، إنها لا تكبر أبدا، يبدوان وكأنهما خطيبان في أيام الخطوبة، تمازحه، تبتسم له طوال الطريق، وتعود جوهرة حزينة، تندس تحت الغطاء بجوار قاعود لتكمل نومها.

لقد حاول كمال أن يسترد شقة أمه وأبيه، لكن جوهرة لم تمكنه منها، رغم أنها ليست في حاجة إليها، فأملاكها كثيرة جدا، أسرعت إلى صاحب البيت، وعرضت عليه أن يغير العقد باسمها، فهي لها حق في

الشقة، وهو يعلم أنها جاءت إليها صغيرة، امتنع الرجل أول الأمر، لكنه رضخ بعد ذلك عندما رأى النقود الكثيرة، وظل كمال وعايدة في شقتهما في البيت القريب من المقابر، والذي تشغل الدور الأرضي منه الأبقار والجاموس والأغنام.

* * *

ذهبت جوهرة لمقابلة المسئول عن أملاك الطائفة الإسرائيلية في محطة الرمل، سارت في شارع السلطان حسين، واجهتها مدرسة الطائفة الإسرائيلية التي تحولت إلى مدرسة الإسكندرية الثانوية للبنات. في آخر الشارع دكان الفول الشهير الذي كان يمتلكه بنيامين اليهودي الذي تركه لمصري وسافر إلى إسرائيل، من المبنى الذي تقع فيه المدرسة، وكل المباني خلفها في شارع النبي دانيال، حتى شارع سعد زغلول كانت ملكا للطائفة الإسرائيلية، بيعت منها مبان كثيرة بعد هجوم إسرائيل على مصر في حرب 56، لكن هناك بقية من أملاك تابعة للطائفة. من هذه الأملاك عمارة قديمة بشارع النبي دانيال يقع فيها مكتب المسئول عن أملاك الطائفة.

قابلها الرجل بترحاب، ظنها مسئولة من الحكومة جاءت لأمور بينها وبين الطائفة، لكنها بعد أن جلست، ووضعت ساقا فوق ساق، قالت: «إنني يهودية وأسكن منطقة الطابية، أتعرفها؟»

- نعم، حدث فيها الانفجار الشهير بعزبة جون التي كان يسكنها اليهود.

- لقد جئت من أجل هذا، تعرف أن هناك مقابر لليهود، مدفون فيها أجدادنا الذين أسسوا عزبة جون، ومدفون فيها الذين استشهدوا في الحريق.

- أعرف كل هذا.

- وتعرف أيضا أن هذه المقبرة قد هجم عليها الناس، وبنوا بيوتهم حولها، وكادوا يصلون لحافة المقابر هناك.

- وماذا أملك حيال ذلك؟

صاحت غاضبة: «إنها مقابر مقدسة، ولا بد من حمايتها».

- الذي لا تعلمينه أن هذه المقبرة انتفت عنها صفة المقابر وحقوقها؛ لأن آخر يهود دفنوا فيها الذين قتلوا في انفجارات عام 1942، كما أن الطابية ليس بها يهودي واحد الآن.

ثم استدرك الأمر، فأكمل في هدوء: «سواكِ طبعا».

- لا بد أن تتدخل لإنقاذ هذه المقابر.

- آسف، ليس من حقي التدخل في مثل هذه الأمور.

أخرجت سيجارة من علبتها، ودخنتها صامتة، وهي ترشف القهوة التي قدمها إليها. ثم قالت في هدوء

شديد: «اسمح لي سيادتك أن أنتقد طريقتك في حل الأمور».

- تحت أمرك.

- كأنك لا تعرف ما فعله الرئيس السادات في إسرائيل، أو لا تعرف معناه.

- ما هو معناه؟

- معناه أن اليهود الذين يعيشون في مصر لهم حقوق، وقوة لم تكن لهم منذ أن خلق الرب الأرض ومَن عليها.

- لو عشت يا بنتي ما عشته في مصر من سنوات لأدركت أن ما تظنينه خطأ، وما فعله السادات لن يغير شيئا في العلاقة بين اليهود وباقي أبناء مصر، لأن هذه العلاقة لا تصنع بقرارات حكومية.

حملت جوهرة حقيبتها وصاحت في عصبية: «سأدافع عن هذه المقبرة مهما كانت الظروف».

لم يجبها الرجل، وخرجت غاضبة، والسيجارة ما زالت في يدها.

تابعها الرجل المسن مندهشا، فهو لم يقصد مضايقتها، تابع تحركاتها في الطرقة الطويلة المؤدية إلى شارع النبي دانيال، كانت تدق البلاط في عصبية، وتزفر دخان السيجارة في ضيق.

تابعت جوهرة المحلات الكثيرة في الشارع، وصلت إلى شارع سعد زغلول، إنها في أشد الحاجة إلى زكي

مورجان، هو الوحيد الذي يمكن أن يحقق لها ما تتمنى، سترسل إليه لكي يأتي لمقابلتها، ستقابله في أي مكان يرغب فيه، لا بد أن تتحرك حتى تستولي على مقابر اليهود وتحولها إلى مزار سياحي، لكنها - بذلك - ستنفق النقود التي أتتها بالصدفة، ولو ضاعت، ستعود إلى ما كانت عليه، فتاة مقهورة، تركها كمال الذي أحبته بجنون، وفضل عليها فتاة أخرى أكثر منها جمالا، هذه حقيقة، فعايدة جميلة جدا، ولو خير أي شاب بينها وبين جوهرة للزواج، سيختار عايدة لا شك؛ لذا لا بد أن تحافظ على النقود وتنميها، لن تنفق منها على مشروعها الكبير. لقد اختارت كمال بنفسها، هي التي جرت خلفه في أول لقاء بينهما، عندما كانا يلعبان مع باقي الأطفال في الساحة الكبيرة، أمام ضريح جون، وطلبت منه أن يسمح لها بأن تمشي بجواره، وأن يوصلها إلى بيتها. لكن عايدة جاءت لتأخذه منها، كان يذهب - من دون جوهرة - ليلعب معها في قصر أبيها الكبير، من وقتها وهي تنوي اختطافه منها.

كانوا أربعة، عايدة الجميلة.. ابنة حسن بدوي، صديق الملك فؤاد الأول، وأغنى وأهم شخصية في منطقة الطابية، وجوهرة.. اليهودية التي بلا أب أو أم أو أسرة، وكمال.. المسلم الوسيم، الطويل، وزكي مورجان.. الذي لا يملك شيئا يفخر به، أبوه حارس ضريح جون، البخيل، الذي يضحي بشرفه وكل ما يملك من أجل

المال، وأمه ترتزق من بيع جسدها، كما أن وجه زكي غاية في الدمامة.

لكن كمال فرض جوهرة على عايدة، فلعبوا ثلاثتهم معا في قصر الباشا الكبير، وكلما جاء زكي – ليشاركهم اللعب - يطردونه، كلهم اتفقوا على النفور منه.

أطفال اليهود كانوا كثيرين، لكن زكي هو الوحيد الذي اهتم بجوهرة، كلما طردته، عاد إليها، كانت تلمحه وهو يتابعها من بعيد، وفي حرص لكيلا تراه.

لقد أخطأت عندما تحدثت مع المسئول عن أملاك الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية بهذه الطريقة الفجة، فالرجل لم يخطئ معها، إنه يتعامل بحذر مع مجريات الأمور في مصر. عاش عمره الطويل، في خوف من الحكومة، ومن الناس، كدأب الأقليات في كل مكان في العالم، فليس من السهل عليه أن يتغير فجأة. كما أن جوهرة في حاجة إليه، ستتصل به عندما تصل إلى بيتها، لتعتذر إليه وتصالحه.

قاعود ينتظرها أمام المستشفى، هو لا عمل له سوى انتظارها، والسير خلفها، تضحك أحيانا عندما يرد هذا الخاطر ببالها، تتابعه حينذاك، وهو جالس في مكانه يستحلب سيجارته، ويحملق في جسدها، تراه أحيانا مجرد كلب قوي كبير تربيه لكي يريح جسدها، كما تفعل بعض النسوة اللواتي بلا زوج، ولكي يحميها بقوته.

حكت لها ممرضة؛ كانت زميلة لها في المستشفى الأميري، أن ممثلة معروفة، مشهورة بجمالها وعلاقاتها الكثيرة مع الرجال؛ اختارت أحد العاملين في الوسط السينمائي، كان يمتاز بطول لسانه، وكان اللسان يخرج دون داع عندما يتحدث في التلفزيون عن الأفلام والممثلين، ولسانه أبيض من دون ألوان باقي الألسنة، اختارت هذه الممثلة لسان ذلك الرجل لمهمة معينة، فتستدعيه بالتليفون، فيهرع إلى شقتها، ويقوم بدور الكلب الذي يلعق، ومرة قام مستثارا راغبا في مشاركتها السرير، فضربته بالشبشب القريب منها، والموضوع بجوار السرير، وقالت له: «لن أسمح لك بأكثر من ذلك».

لكن جوهرة سمحت لقاعود بأكثر من ذلك بكثير، إنها تؤويه عندها، وتطعمه، تعطيه أموالا كثيرة، وتشتري له ملابس من وقت لآخر، وتنتقي له الأطعمة التي تزيد من فحولته، بل وتدفع لزوجته وأولاده، لدرجة أن زوجته سعدت بما فعلته جوهرة بزوجها، فهي تحصل على أموال لم تكن تحصل عليها أيام كان يعيش معها في البيت، وعندما قابلتها في الطريق، أسرعت إليها، وقبلت يدها قائلة: «ربنا ما يحرمنا منك يا ست هانم».

سألت جوهرة زميلتها الممرضة، التي حكت لها هذه الحكاية: «من أين علمتِ بهذه الأخبار الخاصة».

قالت: «خالي كان عشيقا لهذه الممثلة، وكانت تأتي إليه من القاهرة خصيصا».

قام قاعود عندما رآها تخرج من سيارتها، أسرع وحمل الأشياء التي اشترتها، وسار خلفها، سألته عن مجريات الأمور في المستشفى وكان يرد عليها وهو يلهث خلفها، فقد كانت تسرع في خطواتها.

جلست فوق مقعدها بجوار التليفون، ومدت ساقها، وأشارت إلى قاعود، لم يفهم أول الأمر ما تريد، ضحكت عندما تذكرت حكاية زميلتها القديمة عن الفنانة التي تخصصت في دور الزوجة الخائنة، والتي تأتي برجل السينما لكي يقوم بدور الكلب، أمسكت سماعة التليفون،ومدت ساقها ثانية، وأشارت إلى قاعود ثانية، قال: «لا أفهم».

قالت وهي تتظاهر بالتعب: «اخلع الحذاء عن قدمي، فأنا متعبة من كثرة المشي».

تردد قليلا، ثم أمسك الحذاء وخلعه، فرفعت الساق الأخرى، ثم عاد إلى مكانه. أهل المنطقة يعلمون أنه يعيش معها بدون زواج، تذمر البعض، وقالوا أشياء كثيرة، لكنها لم تهتم، تمنت لو واجهها أحدهم، لكي تريهم مدى قوتها.

أدارت قرص التليفون، طلبت المسئول عن أملاك الطائفة الإسرائيلية في الإسكندرية، الرجل يحدثها في اعتذار كأنه هو المخطئ:

- لا أدري للآن ما الذي أغضبك.

- بل أنا التي أغضبتك، لا تؤاخذني، فأنا متحمسة جدا لحقوق اليهود.

- كل الأمور تسير بالعدل يا بنتي.

- أنا كنت فظة الطبع معك، فلا تؤاخذني، لكنني أريد منك خدمة.

- تفضلي.

- أريد من سيادتك أن تأتي لزيارة هذه المقابر، وتصطحب معك وفدا من كبار اليهود في الإسكندرية.

- إنه طلب معقول، ولن يسبب مشاكل لأحد.

جاءت سيارات السياحة تحمل عددا كبيرا من يهود الإسكندرية، ومعهم المشرف على أملاك الطائفة، وجوهرة تقف بقميصها الملون، وطاقيتها الواسعة، وتلبس في أذنيها قرطا عبارة عن دائرتين كبيرتين، لقد ازدادت وزنا بشكل ملحوظ، فقد قلت حركتها منذ أن تركت العمل في المستشفى الأميري. عملها في مستشفاها لا يتطلب جهدا كبيرا، الذين يساعدونها يحملون عنها كل العبء.

فوجئ سكان المنطقة بهذه الأعداد الكبيرة من اليهود، يدورون حول المكان، ويلتقطون الصور بكاميراتهم الكثيرة، صوروا البيوت العشوائية التي تقترب من القبور، والأطفال الحفاة، الذين يرتدون الأسمال، فأخرجت جوهرة الحلوى من حقيبة يدها وقدمتها إليهم، ثم ذهبوا إلى ضريح جون، أخذت تتحدث وهم يقفون حول الضريح في خشوع، قالت: «تعلمون مدى أهمية جون بالنسبة ليهود مصر».

قال رجل من بعيد: «وبالنسبة ليهود العالم».

- لذا، لا بد أن نعيد الضريح إلى ما كان عليه من قبل، وهذا يتطلب نقودا كثيرة.

التقطوا صورا للخراب الذي حل بالضريح، وأقاموا الصلاة وهم ملتفون حوله، وساروا، متأثرين مما رأوه من دمار للمبنى وللضريح نفسه، فصاروا صامتين.

وصلوا إلى المقابر، اجتازوا البيوت الكثيرة القريبة منها، ابتسمت جوهرة، وداعبت من تقابله. بحثت بين القبور، حتى وصلت إلى قبر والدها منير ووالدتها ووصال وجدتها نظيرة. صلت عليهم في خشوع، حدثت الموجودين عن ذكرياتها معهم، وكيف مات والدها وهو يصنع قنابل يقاوم بها المحتل، بكت وهي تتحدث عن هذه اللحظات التي ما زالت تذكرها، ذكرت لهم أن الرئيس السادات جاء بنفسه ليتفق مع والدها على صناعة هذه القنابل، وأن والدها كان متفهما لقضية الوطن، فصنع القنابل، دون أن يعي مدى قدرة ورشته على صناعة هذه القنابل. ضحى بورشته من أجل مصر.

عندما وصلت إلى هذا الحد في حديثها، كان قاعود قد جاء، عندما رأته توقفت عن الحديث، وشردت بعيدا، قد يفسد هذا الحمار قدسية هذا اللقاء وأهميته بتصرفاته الرعناء.

جاء قاعود بعد أن أبلغوه بأن الهانم في منطقة المقابر مع وفد من السياح، فأسرع إليها. كان مندهشا كيف تأتي بهؤلاء دون أن تخبره بذلك؛ ليكون سندا لها، يحمي ضيوفها ويقوم على خدمتهم. اقترب منها، كانت تتحدث، وتشير بإصبعها إلى القبور البعيدة، ظل واقفا في مكانه بعيدا، ينتظر الأوامر منها.

وعدها بعض الحاضرين بمساعدتها في إعمار ضريح جون، أما عن حماية منطقة المقابر، فهو أمر كبير يتطلب مساعي مع كبار المسئولين، قالوا إن لهم

اتصالات خارجية في أمريكا وأوربا ستفيدها في هذا الموضوع كثيرا.

بعد ذلك ساروا وهي في المقدمة، خرج أهالي الطابية يشاهدون اليهود وهم يمرون في الشوارع والطرقات، ويلتقطون الصور الكثيرة، طوال تحركهم، صوروا جاموسة تجرها امرأة، وحمارا يحمل «السباخ» فوق ظهره؛ بينما يقوده ولد صغير بعصا صغيرة في يده، وصوروا امرأة تجلس في الطريق تبيع الفجل والجرجير، ظنهم - أهل المنطقة - سياحا جاءوا من بلادهم، بدعوة من جوهرة التي صارت «واصلة» الآن، والتي يُستجاب لأي طلب تطلبه من الحكومة.

وقف المدعوون أمام المستشفى، أشارت جوهرة بإصبعها ذات الظفر الطويل الأحمر، التقطوا صورا للمستشفى الكبير من كل جانب، ودخلوا وسط صفين من العاملين الذين وقفوا في احترام شديد.

في المساء، صفت الموائد في أرض كبيرة خالية بجوار المستشفى، ضمن الأرض الكبيرة التي امتلكتها جوهرة بعد زيارة السيد الرئيس، والأشجار الصناعية بينها مزدانة بالأنوار، وعمال جوهرة، يدورون بالأطباق، والمشروبات، قالت جوهرة: «أريدكم أن تزوروا هذا المكان كثيرا، فهو مكانكم، وألا تنسوا هذه المقابر المقدسة».

يعرف قاعود أن جوهرة ستغيب عن مصر، ستسافر في مهمة عاجلة، لزيارة أمريكا ودول أوربا، من أجل

مقابر اليهود، سألها: «ستزورين إيطاليا؟»

دهشت لسؤاله، ما الذي يعنيه، إن زارت إيطاليا، أم لا؟!

قال: «بكر أخي يبكي من أجل غياب ابنه أحمد عنه».

دهشت من أن قريب هذا البغل بدولة أوربية.

- سافر أحمد بكر مع مجموعة إلى إيطاليا ليعمل هناك، حدث هذا منذ سنوات طويلة، وانقطعت أخباره، وأبوه سيجن لفقده.

- وماذا يريد بكر مني؟

- البحث عنه إذا سافرت إيطاليا.

تمنت لو صفعته على قفاه العريض، ولم تجبه بشيء، كيف ستبحث عن شخص دخل إيطاليا بطريقة غير شرعية.

لكنها فوجئت ببكر نفسه، رجل مسن، أكبر من قاعود بكثير، بدأ بالبكاء وبتقبيل يدها: «أنا وقعت من السماء، وأنت التقفتيني، أمه تبكي حتى كادت تموت، اسألي عنه هناك، اسألي المصريين الذين يعملون هناك، وسيدلونك عنه».

شدت يدها في تأفف، وقالت: «سأفعل».

تذهب جوهرة إلى أمريكا؛ تقابل بعض العائلات اليهودية التي لديها مدافن في الطابية، وتأخذ توكيلات منهم بالمطالبة بالحقوق، وتذهب إلى دول أوربية باحثة عن أهالي المدفونين في مقابر الطابية، تجد أبناء

وأحفاد المدفونين هناك؛ فتحصل على ملايين الدولارات من الجمعيات اليهودية لعمل أسوار حول الجبانة ولإعادة المنطقة إلى الطائفة الإسرائيلية للإشراف عليها.

تذكرت زكي مورجان، كانت تتابعه في إذاعة إسرائيل، تسمع الاسكتشات التي كان يؤلفها ويؤديها، مزيج من أعمال علي الكسار في أفلامه القديمة نور الدين والبحارة الثلاثة، وألف ليلة وليلة وسلفني 3 جنيه، وأفلام نجيب الريحاني، ثم اختفى تماما، لم يعد يذكر في الإذاعة.

سألت عنه اليهود في كل دولة أوربية تزورها، أخبرها أحدهم بأنه يعرفه وقد رآه في جزيرة لامبتوزا بإيطاليا.

عندما سافرت إلى إيطاليا بحثت عنه، والوصول لليهود أمر سهل، فليس عليك إلا أن تسأل اليهود هناك، فيدلونك على عمله وسكنه، وهذا في حالة الاطمئنان إليك. دلها أحدهم على مكانه. انتقلت إلى الجزيرة.

دقت باب بيته في عنف، سمعت صوته سابا بالإيطالية، ثم فتح الباب في عصبية، كان ما زال يسب ويلعن، المفاجأة كانت غريبة، وليس من السهل تصديقها، حتما الخمر التي عبّ منها ليلة أمس هيأت له ما يراه الآن، ما الذي سيأتي بجوهرة إلى بيته هذا المنعزل؟!

- أسأظل واقفة في الهواء البارد هكذا؟!

- جوهرة، أنتِ حقيقة، أم حلم؟!

- بل، كابوس.

وضع يده فوق معطفها، وشدها إليه، قبلها، وضمها لصدره:

«فرحت بوجودي حقا؟»

دخلا البيت الصغير، المطل على البحر المتوسط. جلست على أول مقعد قابلها:

- تعبت حتى وجدتك.

- هل أحببتني لهذه الدرجة؟!

- ما الذي جاء بك إلى هذه الجزيرة الـ...

لم تكمل، فأكمل هو: «أخطأت عندما سافرت إلى إسرائيل، كان لا بد أن أتركها، ولو إلى الجحيم».

- إلى هذه الدرجة؟!

- قدمت أعمالًا كوميدية كثيرة، لم يسمعها سوى بعض العرب هناك. وفشلت في تكوين فرقة مسرحية.

جلست على طرف السرير، خلعت حذاءها، واقتربت من المدفأة المشتعلة، كان الجو غاية في البرودة.

قال: «من الممكن أن ينتقل طبيب عاش في بلد عربي إلى إسرائيل وينجح، وكذلك المهندس، لكن مؤلف أو ممثل أو مطرب، لا يصلح هناك. فاللغة ستكون حائلا، حاولت إسرائيل أن تستقطب ليلى مراد، لكنها كانت

حصيفة، وامتنعت عن الذهاب، فلو ذهبت لتاهت هناك، وفقدت كل ما حققته من شهرة في مصر».

لمست يده بكفها حانية:

- أنت محق فيما تقول، فقد سافرت راقية إبراهيم إلى إسرائيل وهي أشهر ممثلة في مصر، ففشلت في أن تكون شيئا هناك، فإنجليزيتها لم تمكنها من التمثيل هناك، فلجأت إلى السياسة.

- مثلث وألفت هناك ولم ينتبه إليّ أحد.

- كان من الممكن أن تعيش في أي مكان سوى هذه الجزيرة المشبوهة.

قام مبتسما.

- سأعد لك شرابا، وسوف نتناول طعامنا في أفخر مطعم في الجزيرة.

- واضح أنك أصبحت غنيا هنا.

- عمليات خاطفة، أكسب فيها مبالغ كبيرة، لكن أيام كثيرة لا أحقق أي رزق.

- تعمل مع العصابات هنا؟

- أحيانا، المهم أن أجد النقود لأعيش.

أمسك كوب الشراب وقدمه إليها، أمسكته واقتربت منه، ثم وضعت ذراعها على ظهره:

- عندي مشروع سيغنيك.

- هنا في إيطاليا؟

- لا، في مصر.

أحس بالإحباط، مصر مرة أخرى؟! لقد فشل في العمل بفرقة الريحاني، وفشل كممثل سينما، فما الذي سيفعله في مصر، وهي لا تحب اليهود. صاح فيها:

- كل يهود مصر تركوها.

- لكنك ستنجح هناك.

- ما هو مشروعك؟

- ستدعي أنك حفيد جون، وأن فدادينه ملك لك.

- ومن سيصدقني؟

- هارون ابن جون، غضب من أمه وهاجر، عاش في دول أوربية كثيرة، وأنت حفيده الوحيد المستحق لعزبته.

دعاها على الغداء في مطعم فاخر، سألها: «من أين جاءتك هذه الثروة».

حكت له حكايتها مع الرئيس السادات، الأموال الطائلة التي أرسلها إليها لكي توزعها على يهود عزبة جون، لكنها أخذتها كلها. كانت تحكي له وهي تضحك، قال: «واضح أن قدرك مرتبط بالرئيس السادات، يأتي إلى بيتكم، ويعيش فيه بعض الوقت، ويهديك ساعته الفضية».

أمسكت الشوكة، وأخذت تأكل صامتة، فأكمل: «سأعود معك إلى مصر، ولو أنني غير مقتنع بمشروعك هذا».

- عزبة جون لا تهمني في شيء، المهم عندي مقابر اليهود هناك.

- أبي مورجان مات في الحريق، رغم هذا المقابر لا تهمني في شيء.

- الأمر يختلف معي.

سارا قريبا من البحر، سمحت له لكي يضمها إليه طوال السير، قالت: «السير في شوارع هذه الجزيرة صعب، قد تفاجئك العصابات في أي وقت».

- اطمئني ما دمت معي، فهم يعدونني صديقا لهم.

فتح باب بيته المنفرد والقريب جدا من البحر، ناما متجاورين على السرير، أحست بارتعاشة، قالت: «لماذا لا تدفئ بيتك هذا؟»

- كلما شرعت في تركيب جهاز تكييف، تنتهي نقودي دون أن أفعل.

هبت فزعة من ملمس يده الباردة على بطنها العاري. ثم قالت: «أبحث عن شاب مصري اسمه أحمد بكر، دخل إيطاليا بطريقة غير شرعية».

- أيهمك كثيرا؟

مطت شفتيها في لا مبالاة: «عمه يعمل عندي في المستشفى».

قال في لامبالاة: «معظمهم يعيشون في هذه الجزر المشبوهة، ليهربوا من مطاردة الشرطة لهم».

- هل يمكن أن أسأل عنه؟

- في الغد سنذهب إلى مكان فيه الكثير من المصريين.

استيقظت في الصباح مبكرة، رأته نائما فاتحا فمه، كان فكه يتحرك وهو نائم، لم تصدق أن هذا هو الولد الدميم، الذي كانت تنفر من مرافقته، وكانت هي وعايدة وكمال، يدفعونه بعيدا عنهم.

بحثت في المنزل الصغير عن طعام فلم تجد شيئا، لا شيء سوى الشراب، كل أنواع الشراب موجودة، حتى الفودكا.

استيقظ بعد دقائق، صاحت فيه: «بيتك ليس فيه أي نوع من أنواع الطعام».

رفع نصف جسده وهو يتثاءب، قال: «ليست لدي أواني للطهو، أتناول طعامي في المطاعم، أو أشتري أطعمة سريعة، أتناولها هنا أحيانا».

- لكنني جائعة، تعودت على الإفطار فور استيقاظي من النوم.

- لن أتأخر، دقائق وسأكون جاهزا للخروج.

دخل الحمام الضيق، قالت من مكانها: «ستكون نفقاتك على حسابي، لا تنسَ أنني أصبحت غنية».

أجاب من مكانه: «من نقود السادات، صديقك».

ضحكت بصوت مرتفع. خرج إليها قائلا: «لا تظني أنني مفلس، فلدي المتبقي من آخر عملية قمت بها».

- مرافقتك خطرة، سأظل قلقة إلى أن أعود إلى مصر.

ضحك ولم يرد، وانشغل بارتداء ملابسه.

قالت وهو يغلق باب بيته الصغير:

- أريد أغلى مطعم في الجزيرة.

- مصرة أن تكون المصاريف على حسابك؟

- هذا شرطي للخروج.

تعمدت أن تضع ذراعها في ذراعه، وأن تلتصق به، تركها كمال وتزوج عايدة، وتعاملت مع ثور مثل قاعود، فلا بأس من أن تتعامل مع أي رجل مهما كان شانه وشكله.

جلسا في المطعم الذي اختاره. تحدث مع عامل المطعم، كان يردد كلمات لا تعرف معناها.

عندما ابتعد عامل المطعم، قال بصوت خافت: «إنه مصري».

ظلت تراقب العامل من بعيد، لدرجة أنها لم تسمع ما قاله زكي مورجان لها.

عاد العامل بالأطعمة، وضعها على المائدة مبتسما، بعد أن انتهى عمله، واستدار ليعود؛ أمسكت يده: «أنت مصري؟»

- نعم.

- من أين؟

- من قرية من قرى البحيرة.

تمنت لو كان من الإسكندرية، لتسأله عن أحمد بكر، ثم أمسكت يده ثانية وسألته: «أتعرف مصريًا يعمل في جزيرة من هذه الجزر اسمه أحمد بكر».

قال مبتسما: «لا، لكن سأسأل زملائي المصريين، فقد يعرفه أحدهم».

قال زكي مورجان: «تناولي أفطارك قبل أن يبرد، وسأبحث لك عن بكر هذا».

انهمكت في تناول الطعام، أكلت بنهم، وشردت طويلا، ذلك الجو الساحر أنساها مستشفاها وقاعود، وجيرانها في الطابية، لكنها لم تنسَ كمال وعايدة، أحيانا يخيل إليها أنهما سيدخلان من باب المطعم، كمال يضع يده على ظهر عايدة، وهي تنظر إليه مبتسمة. زكي مورجان ما زال يتحدث، وفكه يتحرك حركات سريعة مع مضغ الطعام. ليته يكتفي بمضغ الطعام ويكف عن الحديث لكيلا يتعب فكه المتعب أصلا.

جاء عامل آخر حاملا الشراب، اقترب من جوهرة قائلا: «بلغني أن سيادتك تسألين عن مصري اسمه أحمد بكر».

أمسكت يده قائلة: «أتعرفه؟»

- عملت معه في بارات كثيرة. وأعرف سكنه.

قال زكي مورجان: «سأكتب لك عنوان بيتي، ليزورني فيه بعد التاسعة مساء».

أخذ عامل المطعم العنوان، ولوح لهما مبتسما.

* * *

اشترت جوهرة أطعمة كثيرة وضعتها في بيت زكي مورجان، قالت: «سنتناول غداءنا في المطعم، وفي المساء لن نخرج، سننتظر أحمد بكر هذا».

قال زكي: «أراك تعطين لهذا الشاب اهتماما كبيرا».

- إنني لم أره في حياتي، لكنني تأثرت عندما وجدت أبوه يبكي لفراقه.

ضحك طويلا وقال: «أنت لا تعطين لهذه المشاعر أهمية، حتما سيفيدك في مشروعك الجديد».

- لديَّ إحساس بهذا، ولا أعرف نوع هذه الفائدة.

ضاق زكي بالجلسة فوق السرير مع جوهرة، كانا يضعان الغطاء فوق جسديهما، والساعة تجاوزت التاسعة ولم يأتِ أحمد بكر هذا، يقوم زكي من وقت لآخر لإعداد كوبين للتدفئة، ثم دق الباب دقات ضعيفة مرتبكة، فقفز وأسرع لفتحه. وجد شابا طويلا يميل للامتلاء أمامه:

- السيدة جوهرة من فضلك.

- أنت أحمد بكر؟

- نعم.

فصاح من مكانه مبشرا: «جاء يا جوهرة».

قفزت من فوق السرير، تمنت لو حملت الغطاء على كتفيها من شدة البرد.

تابعت الشاب القادم إليها، مد يده:

- أنا أحمد بكر.

جلسا متقابلين، وابتعد زكي لإعداد أكواب الشراب، قالت: «لماذا لم تتصل بوالدك ليطمئن؟»

تنهد في أسى: «لم يكن لي مكان ثابت، عملت أعمالا عديدة، والشرطة تطاردنا، وتحجزنا لديها لعدة أيام».

- والآن؟

- استقرت الأمور.

قدم زكي أكواب الشراب، أسرعت هي بإمساك الكوب، وتردد أحمد بكر بعض الوقت، ثم أمسكه.

جلس زكي بجواره، سأله: «ما الذي جاء بك إلى هذه الجزيرة؟»

- عملت ساقيا في بارات عديدة في روما، لم أستقر في مكان محدد. إلى أن جاءني رجل وقال لي: يمكن أن أدلك على مكان أكثر استقرارا، ووصف لي هذه الجزيرة، ثم قال لي محذرا، المشكلة أن العمل فيها خطر. ظننته يقصد مطاردة الشرطة، لكنه قال: الخطر لن يأتي هناك من الشرطة، ولكن من العصابات المتناحرة. شعرت بالخوف، لكن الحاجة إلى المال دفعتني للمغامرة، فوافقته، وجاء بي إلى هنا.

- حدث هذا منذ متى؟

- أقل من أربعة أشهر.

- ومرتاح الآن؟

- تعودت.

أخرجت جوهرة مبلغا كبيرا من المال وقدمته إليه: «خذ، إلى أن تستقر في عملك».

أزاح النقود بعيدا وقال: «لا يمكن أن آخذ منك شيئا».

صاحت غاضبة: «لا تناقشني، اعتبرها سلفة، ستسددها عندما تغتني وتعود لمصر».

أمسك النقود في خجل وهو يسأل:

- متى ستعودين لمصر؟

- خلال أيام قليلة.

- عندما أمتلك مالا كثيرا، سأزور مصر.

أمسكت يده قائلة: «سيكون هذا في القريب».

قام أحمد معتذرا:

- مضطر أن أعود لعملي، فقد استأذنت لساعة فقط. والمكان بعيد.

أغلق زكي الباب خلفه وعاد وهو يضحك بصوت مرتفع:

- رأيت جوهرة أخرى وأنت تحدثينه.

أشعلت سيجارتها، وظلت تتابع دخانها شاردة، ولم تجبه.

يسكن أحمد بكر في بيت قريب الشبه من بيت زكي مورجان، بيت يذكرك بشاليهات البحر في شواطئ مصر.

يشارك أحمد في السكن اثنان من زملائه.

دس النقود في ملابسه في حرص، سيخفيها عن زميليه، لن يحكي لهما عما حدث. من الممكن أن يطمعا في النقود ويسرقاه، أو يقتلاه من أجلها.

تمنى لو انفرد بنفسه ليعد النقود، يتلذذ بملامستها، يعتقد أن المبلغ كبير، لم يحصل على مثله من قبل. تقول جوهرة هذه إن قاعود - عمه - يعمل في مستشفاها، قد تكون طبيبة كبيرة في الإسكندرية.

عاد إلى البار الذي يعمل به، صاحبه يقف على الباب غاضبا، البار مزدحم بالزبائن، وهو ماهر في هذه المهنة، كما أن جسده الطويل والعريض يساعده في منع السكارى من إفساد المكان. يعتمد عليه صاحب البار كثيرا.

دخل مكانه، وابتسم للزبائن الجالسين أمام البنك. ثم ربط الفوطة حول وسطه، وصب الخمر في الأكواب.

منذ عدة أيام جاءه رجل مسن، يعرفه أحمد، يأتيه كل يوم تقريبا، يطلب أكثر من كوب، ويدفع بقشيشا لا يدفعه أحد في البار. الرجل إيطالي، يعرف القليل من العربية، ينطقها بصعوبة، وبطريقة تثير الضحك. كما أن أحمد استطاع أن يعرف بعض الكلمات الإيطالية، خاصة التي يحتاجها في عمله.

يحمل الرجل حقيبة كبيرة. دائما يأتي حاملا حقائب، يضعها بجواره، ثم يشرب أكوابه التي لا تزيد على الثلاثة، ويدفع ثمنها والبقشيش، ويحمل حقيبته ويخرج من البار.

في هذا اليوم، شرب الكوب الأول، ولمس الكوب الثاني، ثم نظر خلفه في ريبة، دخل بعض الرجال ثم

انصرفوا. فرفع حقيبته وأعطاها لأحمد بكر، قائلا: «بكر».

وفهم أحمد الباقي، يريده أن يخفي الحقيبة عنده لبعض الوقت، فترك عمله، وابتعد، أخفاها بين البراميل الخشبية الكثيرة خلف البار. وفجأة دخل رجال كثيرين، لم ينتبه الرجل لوجودهم، كان منشغلا بالكوب الثالث. اقتربوا منه، ضربوه في عنف، سبوه بلغتهم الإيطالية التي لا يعرفها أحمد جيدا، لكنه فهم أنهم يسألونه عن الحقيبة، ثم قتلوه برصاصهم وهربوا.

ابتعد أحمد، ثم توارى خلف البراميل القديمة والفارغة هناك. انتظروا رجوعه، سألوه، قالوا كلمات فهم منها أنهم يسألونه عن الحقيبة. فمط شفتيه. فخرجوا. ربما خافوا من الشرطة التي ستأتي لتحقق، أو خافوا من أتباع الرجل الذين سيأتون للانتقام.

يظل أحمد بكر في البار لصباح اليوم التالي، يعود إلى بيته في الصباح، يذهب إلى البيت فلا يجد زميليه، فعملهما يبدأ منذ الصباح الباكر. قلما يلتقي بهما.

حمل الحقيبة وأسرع إلى البيت، أخفاها في الدولاب الخاص به. هو لا يعرف ما بها، لكن حتما بها مخدرات وأموال، فالعصابات في هذا المكان لا يتعاملون إلا في المخدرات.

عندما اختلى بنفسه، أمسك بها وفكر في فتحها، لكنه خاف أن يكتشف أصحابها ذلك، فيقتلوه. وقتل الأغراب

الذين يدخلون البلاد بطريقة غير شرعية، بلا ثمن، سيقتلون، ولن تحقق الشرطة في مقتلهم.

أسرع بإعادة الحقيبة إلى مكانها. ونام فوق سريره.

بعد أن عاد من مقابلة جوهرة، جاءه رجلان، جلسا فوق المقعدين المرتفعين، وشربا الخمر. ثم قال أحدهما في صوت خافت، كأنه يسأل عن الحساب: «أين الحقيبة؟»

- أية حقيبة؟

- التي قُتل زميلنا من أجلها أمامك.

كانا يتحدثان العربية بطلاقة، لقد أحسنت العصابة اختيارهما للمهمة. وانتهى الأمر بأن ذهبا إلى بيته في غياب زميليه، وأخذا الحقيبة، فحصاها، وتأكدا من أنه لم يفتحها أو يحاول فتحها.

أخرج أحدهما مبلغا من المال وقدمه إليه قائلا: «هذا نظير أمانتك».

لكنه رد المبلغ قائلا: «لا أريد نقودا، أريد شيئا آخر».

ضحك الآخر، قائلا: «أتريد مخدرات؟»

- لست مدمنا، وإنما أريد صفقة مخدرات.

- لكنك لا تملك ثمنها.

- لا أريدها هنا، أريدها في بلدي مصر، وهناك سأدفع ما تريدون.

- ومتى ستعود لمصر؟

- لو متأكد أنكما سترسلان البضاعة لي في القريب، سأعود فورا.

دفعه أحدهما في صدره غاضبا: «كلمتنا واحدة، وإذا قلناها لا بد من تنفيذها فورا».

أخذا عنوان بيته في الإسكندرية وخرجا فرحين بالحقيبة.

بعد أن خرج الرجلان، ظل أحمد وحده في البيت، أخرج النقود التي أعطتها له جوهرة، عدها فوجدها كثيرة، مبلغ لم يتوقع أن تهديه إليه. ماذا لو عاد مع جوهرة التي ستسافر مع صديقها زكي مورجان، هكذا أخبرته في جلسته معهما.

في الغد سيذهب إلى بيت زكي مورجان ليخبر جوهرة بأنه سيعود معهما. يستقبل المخدرات، ولو اضطر أن يعود لإيطاليا، سيعود في القريب، وحتما سيكسب كثيرا من صفقة المخدرات، وسيجد ثمن تذكرة السفر، لن يعود لإيطاليا كما ذهب إليها أول مرة، لن يعرض نفسه للخطر والموت مرة أخرى.

بحث في بيته الصغير عن خمر، وجد جرعة صغيرة تركها أحد زميليه، فشربها من الزجاجة، وتذكر ثمن المخدرات، من أين سيأتي به، إنه لا يستطيع أن يخدعهم، ولو فعل لن يتركوه دون عقاب، إنهم يستطيعون قتله، حتى وإن لم يبرح بلده مصر، بل

يستطيعون قتله في بيته، وبجوار أبيه بكر وأمه التي تبكي لفراقه.

في الصباح أسرع إلى بيت زكي مورجان، دق الباب وظل منتظرا لمدة طويلة، حتى ظن أنهما سافرا وتركا البيت لصاحبه. كاد يتحرك ويعود إلى بيته الصغير، وفي هذه الحالة لن يستطيع العودة لمصر، ما معه من نقود غير كافٍ للسفر بالطائرة أو البحر. تحرك ببطء شديد، فقد كان يفكر في الفرصة التي ستضيع منه، وقد لا يعوضها ثانية. لكن الباب فتح فجأة، وطل زكي مورجان غاضبا: «من؟!»

ثم عاد إلى الدفء، قال لجوهرة في سخرية: «الولد الذي جئت للبحث عنه».

دخل أحمد، سمع ما قاله زكي، لكنه لم يهتم. قالت جوهرة: «أهلا بك».

جلس في صمت. قالت: «مالك؟ أراك مشغولا».

- مضطر أن أعود إلى مصر معكما.

قال زكي مورجان: «لماذا تسرعت هكذا، يمكن أن تثرى في عملك هنا».

- لا، العودة لمصر أربح لي.

كانت جوهرة مستيقظة توا من نومها، فقامت وأسرعت إلى الحمام، أخفت شعرها الأكرت بالغطاء وقالت: «هل معك ثمن العودة؟»

غابت بعض الوقت في الحمام. «وظل زكي مورجان منتظرا إجابته، لكنه لم يرد، انتظر إلى أن عادت وقال: «جئت إليكِ من أجل هذا».

وقام إليها، أمسك يدها في توسل: «صدقيني، سأرد إليكِ كل ما دفعتِه لي».

ضحك زكي مورجان ساخرا، وقالت هي: «لا تهتم، استعد للسفر، سنسافر في الغد».

* * *

كان قاعود مقيما في شقة جوهرة، يقضي فيها معظم أيامه، وقليلا ما يعود إلى شقته، تصيح فيه صبحية زوجته: «جوهرة عشيقتك لن تعود لمصر ثانية، وستئول شقتها ومستشفاها إليك».

كان ينظر إليها صامتا في بلاهة ولا يجيبها، فجوهرة لن تتخلى عن مقابرها، وستعود إليها، فقد سافرت من أجلها.

وقتما عادت جوهرة إلى الطابية، كان قاعود في شقته، ينام فوق سريره بجانب صبحية. فسمع مَن

يناديه، كان أحد خفراء المستشفى، أرسلته جوهرة للسؤال عنه في بيته.

ارتدى ملابسه مسرعا، كان سعيدا بعودتها، ومشفقا على نفسه من لقائها، فسوف تغضب عليه لأنه نام بعيدا عن شقتها ومستشفاها.

أسرع الخُطى، وجدها تقف في الشارع غاضبة، وبجوارها خواجة يضع قبعة على رأسه، وأحمد بكر يقف قريبا منهما:

- أهلا بالهانم.

دفعته في صدره غاضبة:

- لماذا تركت الشقة ونمت عند صبحية؟!

عندما عادت جوهرة لم تجد مفتاحا للشقة، ظنت أن قاعود سيلتزم بأوامرها وسينام في شقتها حتى تعود.

وقفت مع زكي مورجان، بينما أسرع أحمد بكر إلى عمه قاعود، ضمه لصدره وأخذ يقبله، كان قاعود مرتبكا، يخشى أن تعامله جوهرة باستخفاف أمام أحمد ابن أخيه، وعندما أطال الشاب في احتضانه، أبعده عنه، خشية أن تصيح فيه غاضبة.

هرول قاعود نحو بيتها، وهو يرفع المفتاح لأعلى، وتبعته هي وزكي مورجان. وقفا على سلم البيت لحين فتح الشقة وإشعال النور فيها.

- أهلا بكما، تفضلا.

يخلع الخواجة قبعته العريضة، فيظهر وجهه الطويل، وأنفه الكبير، وفكه الممتد والذي يتحرك دون شيء. قالت لقاعود: «زكي بك، حفيد جون».

صافحه وهو شارد، فهل لجون أحفاد سافروا إلى الخارج؟!

قال قاعود: «سأنزل لشراء عشاء جاهز لكما».

قالت في لغة آمرة: «أجلس، فهناك أشياء أهم من العشاء».

جلس أمامهما:

- في الغد، ستطوف معنا بيوت عزبة جون، مقدما زكي بك لهم على أنه حفيد جون، جده هارون الذي هاجر من مصر ليلة الاحتفال بمولد سيدي جون واختفى، أسمعت عنه؟

أومأ برأسه وأسرع بشراء الطعام لهما.

تناولت الطعام مع زكي، وقام قاعود بخدمتهما، وبعد أن أنتهيا من تناوله، حمل قاعود الأطباق، وهو يرحب بالضيف من وقت لآخر، وقال لهما: «دقائق وسيكون الشاي جاهزًا لكما».

فقالت جوهرة: «اذهب أنت الآن، ونم في المستشفى».

شرد قليلا وقال: «المستشفى؟!»

فصرخت فيه قائلة: «لا تذهب لبيت صبحية، نم في المستشفى».

خرج حزينا، إنها تسيء معاملته أمام هذا الخواجة القبيح، وكيف تطرده من شقتها؟! ظنها ستفرح لوجوده، وستتمسك بمشاركته سريرها.

انفرادها بهذا الضيف معناه أنه سيقوم بالدور الذي كان قاعود يقوم به.

* * *

في الصباح خرجت جوهرة وزكي مورجان، ذهبا إلى عزبة جون، قريبا من منطقة مدافن اليهود، التفت النسوة حولهما، قدمت زكي إليهن قائلة: «إنه حفيد جون».

لم يتبق أحد ليدافع عن جون، ماتت نظيرة وابنها منير في الحريق، ومورجان حارس الضريح مات أيضا، مَن سيرد عليها. هي اليهودية الوحيدة الآن هنا. حتى مظلوم هاجر إلى القاهرة وقنع بالعيش هناك.

جاء أحمد بكر ومعه بعض أقاربه ووالده الذي كان حارسا لمحطة تقوية الكهرباء، قبل أن يحال للمعاش. فرحت جوهرة بوجودهم، فسوف ينضمون إليها ويشاركون في حمايتها. لقد دفعت لأحمد كثيرا، وتنتظر الثمن.

تداعب جوهرة النساء هناك، وتخرج الحلويات من حقيبتها وتوزعها على الأطفال الذين يلتفون حولها،

وتلتقط الصور لهم.

قاعود يؤكد قولها:

- هذا الخواجة هو حفيد جون، هو من نسل هارون الذي اختفى في احتفال مولد جون.

كثير من سكان عزبة جون يقيمون في البيوت، أقاموها دون أن يدفعوا ثمن الأرض. أتريد هذه اليهودية أن تأخذ ثمنها منهم، أو تريد أن تسترد الأرض منهم؟!

يسير الثلاثة إلى منطقة المدافن. بيوت كثيرة مقامة حولها، وتزداد قربا منها.

قالت لقاعود: «أريد مقاولًا، يبني سورا حول المدافن ليحميها من هذه الهجمة».

تردد قاعود حتى صرخت فيه: «أسرع بالبحث عن مقاول».

فأسرع وابتعد عنهما.

***

جاء رجل غريب، يتحدث بعربية مكسرة، جلس على مقهى رجب عسكر.سأل عن أحمد بكر، فجاءه مسرعا، جلسا معا، ظنه الناس قد جاء في عمل يخص شركة الورق، أو شركة من الشركات الصغيرة والكثيرة التي تقام في المنطقة.

قال الرجل بصوت خافت: «جئت لأجلك من إيطاليا».

رحب به، وأراد أن يدعوه لبيته، لكن الرجل رفض بشدة، أعطاه ورقة مكتوبا فيها عنوان الفندق الذي يقيم

فيه، قال: «موعدنا في التاسعة صباح الغد في هذا العنوان».

لم يمر يومان، وها هي العصابة قد أوفت بوعدها، ظن أنهم لن يسألوا عنه، وأن ما قالوه كان من تأثير امتنانهم لما فعله معهم، واحتفاظه بحقيبتهم سليمة وكاملة. لكنهم أرسلوا مندوبهم حتى المنطقة التي يسكنها.

يعرف أحمد بكر الفندق الذي سيتسلم فيه الحقيبة، فندق صغير في شارع النصر.

ذهب إلى هناك، قابل الرجل في حجرته، فسلمه الحقيبة، وقال له: «المبلغ المطلوب مذكور داخل الحقيبة، ولا بد أن تأتي به إلى هنا خلال أسبوع لأتسلمه وأعود لبلدي».

حمل بكر الحقيبة وسار مبتسما، أكمل الرجل: «لقد تعبنا حتى وصلنا إليك، فلا تجعلنا نندم لأننا وثقنا بك».

قال مبتسما: «اطمئن».

المبلغ كبير ولا يمكن لأحمد أو أسرته جمعه ولو عاشوا ألف عام، ماذا سيفعلون؟

قال والده: «ما دامت جوهرة اليهودية عاملتك بهذا العطف، فاحكِ لها عما حدث، وستقرضك المبلغ».

- لا، لقد أعطتني الكثير، ولن أجرؤ على أن أطلب منها شيئا آخر.

قالت الأم: «الولد الدعباس، ورث عن أبيه البخيل ثلاث صفائح مليئة بورق البنكنوت، أذهب إليه واجعله شريكا في البضاعة».

كان والد الدعباس طويلا وعريضا، وكرشه يمتد لبعيد، جاء هاربا من الصعيد بثمن بلاص عسل، أخذه من التاجر على أن يسدد ثمنه بعد الانتهاء من بيعه، لكنه سرق النقود وسافر إلى الإسكندرية، جاء إلى منطقة الطابية، حيث يعيش أهل بلده، اشترك مع آخر، واستأجرا دكانا مصنوعا من الطوب النيء، وقدما عرضا للأراجوز، ثم باع عنبًا فرطًا وبطيخًا مضروبًا على قمة الطابية، لم يشترِ طعاما قط. يدور على البيوت المجاورة: «أأجد لديكم خبزًا بائتا؟»، فيعطونه الخبز المكسر والبائت، والملطخ أحيانا بالطبيخ. ثم يسأل بيوتا أخرى: «أأجد لديكم فلفلًا أو ليمونًا مخللًا»، فيعطونه الطعام، أي طعام. واغتنى والد الدعباس. حرم أسرته من كل شيء، كان يقيس الدجاج الكثير الذي يرتع في الحارة الضيقة التي يسكنها، وينتظر بيض الدجاج، ويتشاجر مع زوجته لو أخذت إحداها. كل همه أن يصير غنيا.

اشترى عربة كارو وحمارًا وعمل في وكالة الخضار والفاكهة، يشتري العنب الفرط والبطيخ الصغير ويضعه في عربته، ثم يحمل للتجار القريبين من بيته نظير أجر قليل. حتى اغتنى، لكنه مات فجأة، لم يشعر بألم أو تعب، في الصباح، أرادت زوجته أن توقظه فلم يرد

ومات. كان الرجل يضع الصفائح في مخزن لا يدخله غيره.

أخذ الدعباس – الابن الأكبر – كل الأموال.

عندما رأت الأم – التي عاشت محرومة طوال الوقت – النقود جنت، كانت تزغرد، وتصرخ وتبكي لأن الرجل تركهم طوال هذه السنوات يتسولون طعامهم، وما زالت مجنونة للآن.

ووظف الدعباس النقود بأن أقرض المحتاجين بالفايظ (بالربا) وتاجر في اللحوم، وشراء البيوت القديمة وإعادة بنائها.

ذهب أحمد بكر إلى الدعباس، قابله على المقهى، وعرض عليه أن يقرضه المبلغ، فصاح: «مَن أدراك أنني أقرضت أحدا من قبل؟!»

- أقرضني المبلغ وخذ الفائدة، كما تفعل مع باقي الناس.

ضحك قائلا: «لم أقرض أحدا أكثر من ألفي جنيه».

قال أحمد بكر: «سأدفع لك المبلغ وفائدته بعد أقل من ثلاثة أشهر، بعد تصريف البضاعة».

- المبلغ كبير عليّ، أستطيع أن أدفع نصفه.

- والنصف الآخر؟

- تصرف.

عاد خائبا، لا بد أن يجد ثمن البضاعة قبل أن يمر الأسبوع، كما أن أحمد بكر لا يعرف كيف يصرف

البضاعة إذا تم شراؤها، الدعباس له خبرة في هذه المسائل، فسبق أن عمل مع تجار المخدرات، وسجن لذلك.

قال بكر لابنه: «أنت مضطر الآن، أن تعرض المشكلة على الهانم».

- لكنها أعطتني الكثير.

- اجعلها شريكة لك، أنت الثلث والدعباس الثلث وهي الثلث.

- وهل تقبل؟

- هي تريد أن تنمي نقودها التي جاءتها فجأة.

سار أحمد في طريقه إليها، فناداه أبوه: «لا تحدثها أمام عمك قاعود».

أومأ أحمد ولم يعلق بشيء.

ذهب أحمد بكر إليها في المستشفى، دخل قاعود معه، وقف في انتظار أن يسمع ما سيقوله قريبه، لكن الشاب ظل صامتا، ففهمت جوهرة مقصده، وصاحت في قاعود: «اذهب الآن، لتراقب بوابة المستشفى».

فتوقف للحظات قصار، ثم أسرع خارج حجرتها. قالت: «لقد أبعدته لتأخذ راحتك في الحديث».

حكى لها كل ما حدث بالتفصيل، منذ أن تم قتل الرجل أمامه، إلى أن جاء الرجل بصفقة المخدرات، قالت: «وتريدني شريكة لك؟»

خاف أن تغضب وتسبه لأنه يريد أن يقحمها في موضوع شائك كهذا، قال في توسل: «سأدفع لك ما أخذته منك كاملا، زائد مكسبك».

ضحكت بصوت مرتفع، وقالت: «اتبعني».

تابعها قاعود مندهشا، فهي تأخذ الولد أحمد إلى شقتها عيني عينك وفي وضح النهار، هل أعجبت بالولد، وتعاملت معه في الغربة؟!

أعطت أحمد المبلغ المطلوب قائلة: «إنني شريكة لك في أي صفقة أخرى».

حمل حقيبة النقود وخرج سعيدا.

ذهب الدعباس مع أحمد بكر إلى شارع النصر، دفعوا المبلغ، حمل الدعباس الحقيبة، وأصر على أن يذهب للتاجر وحده، لو جاء غريب عنهم، سيرفضون التعامل أمامه، هذه هي طريقتهم في التعامل.

وقبل أسبوع جاء الدعباس بما يخص أحمد بكر وجوهرة. ذهب أحمد إليها في شقتها، دفع لها كل حسابها، القديم والجديد، فقد كسب كثيرا من صفقة المخدرات.

* * *

يتابع الدكتور عباس ما يحدث في الطابية في دهشة، لقد تغيرت كل الأشياء، يحكي له كمال ما يحدث وكأنه مسلسل تلفزيوني، أيام ويحال عباس إلى المعاش. لم يعد يتحدث عن زملائه الذين عايشهم في

المعتقل، ولم يعد ينتظر أن تخرج جحافل العمال لنيل حقوقها.

سيعود الرجل إلى مدينته كفر الزيات، لن يبرحها، سيمسك صيدلية والده التي ورثها مع أخيه، لن يتحدث فيها عن العدالة الاجتماعية، ولا أفكار كارل ماركس.

يفكر كمال في المدير الجديد الذي سيدير المعمل، وفي عايدة زوجته التي لا تطيق الآن حديثه عن حقوق العمال وعن السياسة بوجه عام، صاحت فيه غاضبة:

- اجمع الكتب التي أعطاها الدكتور عباس لك، وردها إليه، لكي يأخذها معه إلى كفر الزيات التي اختار أن يرتاح فيها.

لم يجبها كمال بشيء، لكنه لم يعد يقرأ هذه الكتب، فجوهرة صارت هي الأقوى، بمال السادات الذي وهبه إياها، وزاد هذا المال بعد تبرع يهود العالم للمحافظة على مقابر اليهود.

قالت عايدة لكمال: «لا تذكرني باشتراكيتكم التي كانت سببا في موت أبي».

كان كمال يناقشها، ويدافع عن هذه القرارات، في هذه المرة لم يجد رغبة في المناقشة ولا الحديث.

يجلسون في المعمل حول الدكتور عباس، أبو الدرداء أكثرهم حزنا وتأثرا لفقده، كل الموجودين في المعمل درجاتهم لا تسمح لهم بتولي إدارة المعمل، يقولون إن رئيس الشركة سينقل الحاج هشام من الإدارة الهندسة لإدارة المعمل. أبو الدرداء غير سعيد بذلك، فهشام هذا كان يردد كثيرا: «إن الدكتور عباس أفسد العاملين معه، وجعلهم مثله شيوعيين كفرة».

كمال لم يعد يهتم، فلا شيء يهم الآن، الدكتور عباس بآرائه اليسارية يتساوى مع تزمت الحاج هشام.

* * *

يسير كمال وعايدة صباحا في طريقهما لشركة الورق، يفاجئهما المشهد الغريب، سيارات نقل كثيرة جدا، محملة بالعمال وآلات البناء. يقول كمال مبتسما: «جوهرة ستبدأ مشروعها للاستيلاء على منطقة المقابر».

- ومَن سيسمح لها؟!

- لا تنسي أن رئيس البلاد معها، وسيؤازرها.

في ذلك اليوم تأخر كمال وزوجته في العودة إلى البيت، فقد ذهبا إلى سوق الطابية، الذي يقام كل يوم أربعاء في قطعة أرض كبيرة خالية، واشتريا لوازم الأسبوع. عندما وصلا إلى بيتهما، وجدا محمد أبو الدرداء وزوجته آمنة، وشيخ الخفراء وبعض أهالي المنطقة يقفون في أول الشارع. قال شيخ الخفراء في

غضب: «أسننتظر حتى يغلقوا فتحات بيوتنا بهذا السور؟!»

قال كمال: «ما الذي حدث؟»

- يبدأ العمال في رمي الأساسات لإقامة سور حول الجبانة طوله 536 مترا، وارتفاعه متر ونصف المتر.

قالت آمنة مكملة حديث زوجها: «هذا ما أخبرنا به المهندس المشرف على العمل».

قال شيخ الخفراء: «لم يكن يعلم أننا متضررون من إقامة هذا السور».

تقترب عايدة من آمنة، تقف بجوارها، تمد يدها وتشبكها في أصابعها:

- لا بد من وقفة ضد جوهرة هذه.

صاحت آمنة بصوتها الضعيف الخافت:

- لن نسمح لهم بإغلاق فتحات بيوتنا.

فأسرع الجميع نحوهما، وساروا نحو العمال الذين يقيمون السور. دفعوا عمال المقاول، أبعدوهم عن المنطقة، وهدموا جزءا من الجدار الذي بنوه.

ابتعد العمال، فهم لم يظنوا أن الأمر فيه مشكلة.

تقدم قاعود محاولا الدفاع عنهم، فضربه محمد أبو الدرداء واشترك معه كمال وعايدة وآمنة، وخرجت زوجة شيخ الخفراء وكل أولادها انضموا للغاضبين، شاركوا في ضرب قاعود، الذي أسرع هاربا نحو

المستشفى ليخبر جوهرة بما حدث. جاءت ومعها زكي مورجان وبعض العاملين في المستشفى. اقتربت جوهرة بزيها الذي تظهر به كثيرا هذه الأيام، بنطلون الجينز الضيق، وقبعتها العريضة. شردت طويلا عندما رأت عايدة تقف بجوار كمال، وتدفع الجزء المتبقي من الجدار الذي لم يجف ويتماسك، فوقع على الأرض.

تابعها زكي مورجان مندهشا عندما رآها تتابع هذا في صمت وشرود. فاندفع إليهم محاولا منعهم من هدم السور. لكن ولد من أولاد شيخ الخفراء دفعه في صدره، ورمى قبعته بعيدا، وجاء أحمد بكر ووالده للدفاع عن قاعود، وعندما حاولا الهجوم على الغاضبين، صاحت وهي ما زالت تتابع عايدة وكمال في شرود: «لا أريد مشاكل الآن. هيا بنا إلى نقطة الطابية، فالحق معنا».

حررت مذكرة في نقطة شرطة الطابية، اتهمت شيخ الخفراء وكمال وعايدة وأبو الدرداء بتحريض الأهالي ضدها، وأنهم ضربوا قاعود وزكي. وهدموا السور وحرموها من ممارسة حقوقها في المحافظة على مقابر أجدادها.

تأتي عربات الشرطة الكبيرة، يدفعون كمال وأبو الدرداء وعايدة وآمنة، وشيخ الخفراء وبعض من اشترك في الهجوم على السور؛ داخلها. ضربوهم- داخل عربات الشرطة الكبيرة - بعصيانهم في عنف.

يقول الأهالي هناك إن جوهرة اتصلت بالرئيس السادات، فغضب من أجلها واتصل بوزير الداخلية وأمره بسرعة التدخل وتأديب هؤلاء الأولاد الذين يعتدون على مقابر اليهود المقدسة.

الحقيقة أن جوهرة لم تجرؤ على الاتصال بالسادات، ولا تعرف كيف تتصل به، لكنها ذهبت لمقابلة مأمور قسم المنتزه، قدمت نفسها على أنها صديقة الرئيس السادات، الذي زار بيتها في حضور المحافظ وكبار المسئولين في الإسكندرية، «حتى اسألهم». الرجل يعرف ما حدث، وهل هناك مسئول في الإسكندرية لا يعرف بزيارة الرئيس لعزبة جون، وتعاطفه معهم؟!

تتحرك سيارات الشرطة بمَن قبضت عليهم، يرمونهم في قسم شرطة المنتزه.

وجوهرة تقف سعيدة بجوار زكي مورجان ، فتشير إليه صارخة: «إنهم يبنون على أرض جده جون».

وتهدد باللجوء إلى رؤساء أمريكا والدول الأوربية، وسيأتون بأساطيلهم وسفنهم لبناء السور بالقوة.

وعندما يعرضون كمال وعايدة وأبو الدرداء وآمنة وباقي المتهمين، على النيابة في صباح الغد، تفرج عنهم فورا. فيخرجون من قسم الشرطة منهارين، ووجوههم متورمة. والألم في كل جزء من أجسادهم.

* * *

يذهب قاعود وبكر وابنه أحمد إليها في شقتها، تقابلهم هي وزكي مورجان. نفس الشقة التي كان يسكنها محسن والد كمال. تحرص هي على معاملة قاعود بهدوء واحترام أمام أقاربه، فهي في أشد الحاجة إليه الآن.

يقول زكي: «تدخل الشرطة لن ينهي المشكلة. لا بد من وجود قوة دائمة خاصة بنا، تحمي المدافن وما حولها من أرض».

تقول هي في أسى: «أريد فتوة ومعه رجاله».

يشرد قاعود بعض الوقت، ثم يصيح: «ليس هناك سوى الدعباس. فرجاله أقوياء ولا يخافون البوليس، لكن مهره غالي حبتين».

- من جهة المال لا تهتم.

يردد أحمد بكر في ثقة مدافعا عن شريكه، فقد نجحا في أول صفقة مخدرات تأتيهما من إيطاليا، واشتركا معا في شراء الأراضي وبناء عمارات شاهقة الارتفاع لم تتعودها منطقة الطابية، وأرسلا في طلب صفقات أخرى، ستغرق مصر كلها بالمخدرات.

الدعباس لا يهمه سوى المال، أبوه حرم نفسه، وحرمهم معه، فلا يجب أن يفرط في هذا المال، سيزيده بأي ثمن، وبأي طريقة.

يأتي الدعباس برجاله، ومعه شريكه أحمد بكر وأسرته. يزورون جوهرة في شقتها أمام زكي وقاعود،

تدفع لهم مبلغا كبيرا، فيهجمون على المنطقة، يضربون الأهالي، ويكملون بناء السور بالقوة.

يسد السور دكان شحتة الحلاق، وبيت عبد العزيز الساعي في مدرسة الطابية الابتدائية، ما يضطره لأن يأتي بسلم متحرك ويضعه على السور ليصعد فوقه، هو وزوجته وأولاده، لكن الدعباس ورجاله يضربونهم، ويرمون السلم المتنقل بعيدا، وتصيح جوهرة:

- إنها أرض أجدادي.

يهجم الدعباس ورجاله على البيوت – خلف السور – ويضربون السكان، إلا إذا دفعوا له . يتقدم كمال وأبو الدرداء ببلاغ ضد جوهرة والدعباس وزكي مورجان، على أساس أن الجبانة التي تتخذها جوهرة ذريعة للسيطرة على المنطقة كلها قد انتفت عنها صفة المقابر؛ لأنه لم يدفن فيها يهودي واحد منذ أكثر من ثلاثين عاما، وقانون الجبانات في مصر يؤكد انتفاء صفة المقبرة عنها؛ بعد توقف الدفن فيها خلال عشر سنوات فقط.

* * *

يعيش زكي في شقة جوهرة، يحكي لها عن شبابه في القاهرة واشتراكه في نادي المكابي بشارع القلعة، والصراع أيام انتخابات مجلس إدارة النادي، بين مؤيدي الهجرة إلى إسرائيل والمعارضين لها من اليهود، والتي تصل إلى التشابك بالأيدي.

تقول جوهرة: «كنت تؤيد مَن وقتها؟»

قال في أسى: «كنت مؤيدا للهجرة إلى إسرائيل، لم أظن أنني سأتركها لو ذهبت إليها».

نامت بجواره قائلة: «لم أفكر يوما في الهجرة إلى إسرائيل. لا أتوقع أن أجيد الحياة في مكان آخر غيرهذا المكان».

- لكنه موحش، لقد مللته ولن أحتمل البقاء فيه أكثر من ذلك.

أمسكت فكه المتحرك ضاحكة:

- سرعان ما تمل الأشياء. لكن منطقة الطابية هي مستقبلنا، صدقني، لن تحس فيها بالغربة التي أحسستها في إسرائيل.

- والسكان الذين يهاجموننا دفاعا عن بيوتهم؟

- هذا لن يستمر، فالحكومة تؤيدنا.

- لن يستمر هذا طويلا صدقيني.

وضعت كوب الشراب على الكومدينو القريب:

- كل ما أريده منك أن تستمر معي حتى نتمكن من استرداد منطقة المقابر هذه، وتتحول إلى مزار سياحي مقدس لكل يهود العالم.

قام من فوق السرير باحثا عن زجاجة خمر أخرى. وتابعها في صمت.

* * *

يذهب كمال وعايدة وأبو الدرداء وآمنة ومعهما الكثير من سكان منطقة مقابر اليهود لمقابلة محافظ الإسكندرية الذي يصدر قرارا بإزالة السور وإزالة المباني حوله لأنها جميعا من أملاك الدولة، والجبانة تابعة لإدارة الجبانات في المحافظة.

تتصدى جوهرة للقوة التي تأتي من المحافظة بهدم السور، طبقا لحكم المحكمة، وتقدم أوراقا تفيد بأنها مديرة العلاقات العامة للطائفة الإسرائيلية في مصر كلها، وإنها وكيلة جمعية المحافظة على التراث اليهودي والتي تشرف على جبانات اليهود في جميع أنحاء العالم، وأنها ستتصل بالرئيس السادات شخصيا.

ينتقل المتضررون من هدم البيوت حول مدافن اليهود، للسكن في مساكن شعبية مؤقتة مخصصة للذين هدمت بيوتهم فجأة.

وتأتي جوهرة بالسياح اليهود من كل مكان في العالم - خاصة إسرائيل - لزيارة المنطقة، وتستطيع استخراج قرار باعتبار الجبانة من المزارات السياحية في الإسكندرية التي يحرص اليهود على زيارتها.

تعود جوهرة وزكي إلى بيتها الواسع الكبير، هي لا تسمح الآن لقاعود بالدخول فيه إلا بأذن منها، قالت لزكي مورجان: «الموضوع تخطى الحدود، ولا بد من التفكير في المستقبل».

- رأيي أنك في حاجة لأموال كثيرة، ومنحة السادات ستنتهي دون تحقيق ما تريدين، لا بد من البحث عن مصادر للمال.

- أفكر في ذلك منذ أكثر من أسبوع، ووجدت الحل أن نتزوج أنا وأنت.

قام، ضمها لصدره فرحا: «حقا؟!»

ضحكت، ودفعته بعيدا، قالت: «ما لك، فنحن نمارس ما يمارسه الأزواج منذ أن عدت لمصر، المهم الآتي».

- وما هو الآتي؟

- أن نتخلص من شركائي في جلب المخدرات، وتحل أنت محلهم.

صمت قليلا، فأكملت:

- تستطيع أن تجد لي موردين جددًا، يأتون لي بالبضاعة حتى بيتي.

- ذلك سهل للغاية، فقد عملت معهم لشهور عديدة.

* * *

تقف جوهرة برداء الزفاف وبجانبها زكي مورجان في معبد إلياهو حنابي بشارع النبي دانيال، يحضر زفافهما قاعود وزوجته وأولاده، وبكر، وابنه أحمد، وجاء الدعباس برجاله الكثيرين، والعاملون في المستشفى من أطباء وممرضات وعمال.

عادوا بعد الزفاف محملين بالحلويات الكثيرة التي كان قاعود وزوجته يوزعانها عليهم بسخاء.

* * *

يأتي رجل إيطالي آخر، يقيم في فندق بشارع النصر، ويرسل رسولا إلى أحمد بكر بأن الصفقة الجديدة، قد جاءت.

الأمور ممهدة، يدفع أحمد الآن نصيبه، بعد أن اغتنى من صفقات عديدة، ويدفع الدعباس، وتدفع جوهرة، التي فكرت كثيرا في أن تضم زكي مورجان إلى التنظيم، ويدفع كل منهم ربع القيمة، لكنها على ثقة بأن أحمد والدعباس سيرفضان، زكي تبخرت أمواله ويعيش الآن على حسابها. هي لا تفكر في التخلص منه، فوجوده مهم للغاية لاستكمال مشروعها.

في هذه المرة قال الدعباس: « إنني لن أذهب للتجار في جبل ناعسة أو سوق عقداية، فهم يدفعون ثمنا أقل، فقد وجدت تجارا أغنى وأكبر في حارة البقطرية، حدثتهم ورحبوا بالصفقة، وسيدفعون مبلغا أكبر».

حمل الحقيبة وذهب إلى بيته.

في المساء جاء إليهم رابطا ذراعه، وواضعا قطعة «بلاستر» على جبهته، وصاح غاضبا: «ضربوني ولاد الـ... وسرقوا البضاعة دون أن يدفعوا شيئا».

قال هذا أمام جوهرة وزكي مورجان وأحمد بكر الذي صمت حزينا. كان زكي يبتسم في سخرية، فهو لا

يصدق ما يحدث، وجوهرة لم تعلق بشيء. قال أحمد في أسى: «والعمل الآن؟!»

قالت جوهرة وهي تقدم الشراب إليهم: «لا تهتموا، هذه أشياء متوقعة، الصفقات الآتية ستعوض هذه الخسارة».

سعد الدعباس برأيها، بعد أن ابتعد عن البيت، رمى رباط ذراعه والبلاستر من وجهه منتشيا، وخرج أحمد بكر بعده حزينا.

قال زكي: «هل صدقت هذه التمثيلية؟»

ضحكت:

- إنني سعيدة بما حدث، فقد كنت أفكر في طريقة للتخلص منهما.

- لكن أحمد بكر هذا ليس شريكه في المؤامرة.

- أعلم، لكن دوره انتهى، ولا بد أن ينتهي هو الآخر. لقد مهدا الطريق لي ولك لكي نمارس هذه التجارة وحدنا.

اشتركت جوهرة في الصفقة التالية، دفعت ما يخصها، أخذه أحمد بكر، وذهب كالعادة مع الدعباس لاستلام الحقيبة من الفندق بشارع النصر، لكنهما لم يعودا ثانية، فقد تم القبض عليهما. الدعباس وأحمد بكر والإيطالي الذي جاء بالبضاعة.

وبلغ جوهرة أن أحمد بكر كان يبكي حزينا، بينما الدعباس صاح في شارع النصر وهم يدفعونه لعربة

السجن: «فعلتها اليهودية، لكنني لا بد أن أنتقم».

ضحكت جوهرة قائلة: «هذا إذا عاد من السجن ثانية».

بكت عايدة وهي تودع الأستاذ عباس، ووقف كمال حاملا كتبه الكثيرة التي مده بها، أراد أن يقول لكمال: «أبقها معك» لكنه لم يستطع أن يقولها، حملها الرجل مضطرا، فهو الآخر لم يعد يريد الاحتفاظ بها، لولا الملامة لرماها في المصرف. قرأها أكثر من مرة، حتى كاد يحفظها، وشرحها للكثير من أتباعه.

- لا تنس أن تزورنا يا دكتور عباس.

أومأ الرجل برأسه، وهو يعلم أن مَن يترك الشركة لا يأتي إليها ثانية، فهي بعيدة، كما أن المكان في طريقه للتغير. ستسود جوهرة وزكي مورجان، ولن يجد أمثال كمال وعايدة وأبو الدرداء وآمنة مكانا لهم.

احتضن عباس أبو الدرداء الذي أجهش في البكاء حزينا، وصافح آمنة زوجته، قائلا: «أرجو أن تنعمي بالخلفة في القريب».

فبكت وتعلقت في رقبته، قبلته.

انطلقت سيارة الشركة بعباس، كان يضع كتبه الكثيرة في مؤخرة السيارة، لوح لهم والسيارة تبتعد.